

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



مجلد صالح الدفر
٢٢٩٧٧
تلوون

أدبَاءُ الْعَرَبِ

فِي

الْأَنْدَلُسِ وَعَصْرِ الْأَنْبِيَاءِ

مَبَانِيهِمْ - آمَنَاهُمْ - فَقْدَ آمَنَاهُمْ

تَأَلَّفَ

بَطْرَسُ الْبُسْتَانِي

الطبعة الثالثة

مكتبة صادر

بيروت

مقدمة

نقدم الى القراء الكتاب الثالث من « ادباء العرب » يضم بين دفتيه أدب الاندلس، وعصر الانبعاث، مع المامة بعصر الانحطاط صلة لسلسلة الابحاث . وقصرنا البحث في الادب الاندلسي على فنون الشعر والنثر وما كان لهم من خصائص مشتركة او منفردة ، ولم نعرض لحياة الشعراء والكتاب ودرس آثارهم تفادياً من ان يضخم هذا المؤلف الذي وضعناه خصوصاً للتدريس . وكذلك رأينا ان نجتزئ بنفر من أدباء عصر الانبعاث لان الخطوة التي اخذنا بها انفسنا ، ان نوسع العصور والادباء درساً وتحليلاً ، تضطرنا الى الاكتفاء بقدر محدود من الشعراء والكتاب ، راعيناً في اختيارهم نظام البكالوريا تسهيلاً على الطلاب .

ولم نتناول بالدرس والتحليل اديباً في الاحياء ، لان الحكم على الحي لا يخلو في ظننا من تسرع وشطط . غير اننا ذكرنا طائفة منهم في اثناء كلامنا على ميزات الشعر والنثر، واستشهدنا باقوال بعضهم ، وما ذكرنا الا من اولئك الذين نشأ ادبهم قبل الحرب العامة . واما الادباء الاحداث فأثرنا ان نقصر الكلام على تبيان نواحي أدبهم اجمالاً . والمستقبل كفيل بذكر من كتب له البقاء ، سواء كان من شيوخ الادب او من قتيانه .

وكتابتنا هذا آخر اجزاء « ادباء العرب » نختتم به تلك السلسلة المتصلة الاسباب من الجاهلية الى عصر الانبعاث، والحمد لله أولاً وآخراً .

بطرس البستاني

بيروت في ١٤ كانون الثاني سنة ١٩٣٧

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

العرب في الاندلس

(٧١٠ — ١٤٩١ م . و ٩٢ — ٨٩٧ هـ)

« تبتدى دولتهم بدخول طارق وهزيمة »

« لذريق . وتنتهي بسقوط غرناطة »

« وخروج ابي عبدالله منها »

فصول البحث واغراضه

لمحة تاريخية

الفتح . عهد الولاة . الدولة الاموية . ملوك الطوائف . دولة المرابطين .
دولة الموحدين . دولة بني الاحمر . ميزة العصر .

الشعراء الاندلسيون

ميزة الشعر . المدح . الرثاء . الشكوى والاستعطاف . الهجاء . الخماسة
والفخر . الحكم . الزهد . التصوف . الوصف : « وصف المعارك . الغزل .
الخمريات . الصيد . الطبيعة والعمران » .

الموشحات الاندلسية

التعريف بالموشحات . اختراعها . اغراضها ومما فيها . لغتها . تأثيرها .
متمثلة الشاعر الاندلسي .

الكتاب الاندلسيون

ميزة النثر . الترسل . التصنيف والمصنفون . علوم اللغة . العلوم الدخيلة .
الفلسفة والمنطق . السياسة والاجتماع . التاريخ والجغرافية . الفنون والصنائع .
الادب والادباء .

ملحة تاريخية

الفتح

اسم الاندلس . حالة اسبانية قبل الفتح . لذريق وابناء
غيطشه . يليان . كتابه الى موسى بن نصير . طريف .
طارق . اولاد غيطشه يساعدون الفاتحين . حالة جيش
المسلمين . حالة جيش الاسبانيين . انتصار المسلمين .
احراق السفن . متابعة الفتح . مجيء موسى . الخليفة
يطلبه وينفيه . مقتل عبد العزيز .

اطلق العرب اسم الاندلس على جميع البلدان الاسبانية التي فتحوها، وكان لا
يعرف به غير اقطاعة الفندال التي ابحر منها جماعات الفنداليين في هجرتهم الى
افريقية، فسميت باسمهم، وقيل لها فندُلس . وهي اول ارض وطئها العرب من
اسبانية، وعرفوا اسمها، فحرفوه وقالوا اندلس .

وكانت اسبانية قبل الفتح العربي على اسوأ حالة في السياسة والاجتماع، فان
الضرائب الباهظة اشتقت ثروة الطبقة الوسطى، وجماعة المؤسرين على قلتهم استبدوا
باراضيهم الخصبة على العبيد الفلاحين، يستغلونها لترفهم وملذاتهم . والنصرانية
مع انتشارها في اسبانية لم تبدل كثيراً من الشرائع الرومانية القديمة، فظلت
السيادة لاصحاب الاقطاعات، والعبودية للفلاحين والضعفاء، فقد دخل القوط هذه
البلاد في القرن الخامس للميلاد واقاموا فيها مطمئنين، وازالوا سلطان الرومان،
وبنوا سلطنتهم، واثبتوا النصرانية ديناً، ولكنهم صاروا بها الى اضطهاد
اليهود، فافسعوهم شراً، والى احتقار الرومانيين لانهم مغلوبون .

فطبيعي ان تفضي هذه الحالة الى اختلال في بناء الدولة، واكثر الشعب يمتنها ويتمنى زوالها، لعل بتغير الاحكام تتغير الاحكام.

وكان على اسبانية ملك يقال له لُذْرِيْق (Roderic) اغتصب العرش القوطي بعد وفاة الملك غَيْطِشَه (Witiza) ولم يكن من سلالة الملوك، وانما هو رجل نبيل ناصره الرومانيون ورجال الدين لانه وقف لغيطشه يعارضه في ازراء الرومانيين، وعبثه باوامر الكنيسة . فلما صار اليه الملك، فزع اولاد غيطشه أَلْمَد ورُمْلَه وأَرْطَبَاش (Olemundo, Romulo et Ardabast) واخوه أَبَاس (Oppas) الى يُليان (Julien) صاحب سَبْتَه (Ceuta) وكان عاملاً لقيصر الروم، ولكن بعده من القسطنطينية وقربه من البربر جعله يتودد الى غيطشه ملك القوط لانه مسيحي مثله، وييدي له خضوعه، فصادقه غيطشه وصاهره . فلما استنجد ابنائه واخوه رحب بهم، ووعدهم خيراً . ورؤي ان يليان اشتد كرهه للذريق، ونقمته عليه بعد ان انتهك عرض ابنته، وذلك انه جرت عادة الاشراف في اسبانية ان يبعثوا اولادهم الى بلاط الملك الاكبر بطليطلة (Tolède) ليصيروا في خدمته، ويتأدبوا بادبه، وينالوا من كرامته، حتى اذا بلغوا ازوج بعضهم بعضاً استنكفوا لآبائهم . وكان يُليان ابنة بارعة الجمال اسمها فلورندا، فبعثها الى بلاط للذريق، فوقعت من قلبه موقعاً حسناً، ولم يرع لها حرمة، فاعلمت والدها فاسترجعها ساخطاً . فغير عجيب ان يسعى لاسقاط للذريق وثل عرشه .

وكانت سبته همزة الوصل بين المغرب والاندلس، فكتب يليان الى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يزين له غزو الاندلس، ويصف خصب ارضها، وفرة اموالها، وسهولة التغلب عليها لتخاذل اهلها، وانقسام بعضهم على بعض، ووعد بالمساعدة . فاستأذن موسى الخليفة بغزو الاندلس فاذن له على ان يخوضها اول الامر بالسرايا، ولا يغزر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال، فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طريف بن مالك التَّحْمِي، في اربع مائة راجل، ومائة فارس فحملتهم اربع سفن ليليان الى جزيرة الفندال التي اشتق منها اسم الاندلس، فسميت جزيرة طريف (Tarifa) لئزوله بها . واقاموا فيها اياماً ثم كروا الى

المغرب وقد أصابوا مالا جسيماً ، وسيئاً لم ير موسى واصحابه مثله حسناً .
وعاد يليان يُحرض موسى على اقتحام الاندلس حتى اغراه، فدعا ببربري من
مواليه اسمه طارق بن زياد، فعقد له، وبعثه في سبعة آلاف من البربر، ليس فيهم
الا ثلثائة من العرب، فاقتلهم سفن يليان التجارية لحس خلون من رجب سنة ٥٩٢ هـ .
فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة الى جزيرة الفندال، ويسمىها العرب الجزيرة
الخضراء . وكان نزولهم عند جبل كلبه (Calpé) فقبل له جبل الفتح او جبل
طارق، وسمي بحر الزقاق مضيق جبل طارق .

وكان اول من قاوم العرب ثُدُمير (Theudimer) صاحب الجزيرة الخضراء
ولكنه لم يصبر طويلاً بل انهزم الى إشبيلية (Seville) وبعث الى عاهله لذريق
يُخبره بغارة العرب، وخيانة يليان . فحشد لذريق الجيوش، وكتب الى اولاد
غيطشه، يدعواهم الى الاجتماع معه على حرب العرب، ويجذرهم من القعود عنه،
فلم يجدوا بداً من اجابته، فحشدوا، وقدموا عليه، ومضوا معه وهم مرصدون
لمكروهه . وكانوا يظنون ان العرب لا حاجة بهم الى استيطان بلدهم، وانما
مرادهم ان يلاؤا ايديهم من الغنائم، ثم يخرجوا عنهم، فاجمعوا على الانهزام
امامهم لكي يكتنهم من لذريق فيتخلصوا منه .

وكان لذريق ولّى ميمنته احد اولاد غيطشه، وميسرته الآخر، فلما تقابل
الجيشان ارسل ابناء غيطشه الى طارق يعلمونه ان لذريق كان تابعاً وخادماً لاييهم،
فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه، وانهم غير تاركين حقهم لديه، ويسألونه الامان،
على ان يميلوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم، وان يسلم اليهم اذا ظفر، ضياع والدهم
بالاندلس . فاجابهم الى ذلك، وعاقدهم عليه، فالتقى الفريقان في الغد على وادي
بَكَّة (Wadi Bekka) ' وكان جيش طارق قد جاءه امداد من المغرب فبلغ اثني
عشر الفا، سلاحهم حسن، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم . فتقدم فيهم
ومعهم يليان في حشده، يدهم على العورات، ويتجسس لهم الاخبار . وتقدم لذريق

١ هكذا ضبطها كليمان هيوار في كتابه تاريخ العرب، وهي في نفح الطيب لكنة
ولعلها محرفة بالنسخ، وتعرف بالاسبانية : (Rio Salado)

في جيشه وهو على رواية ابن خلدون اربعون الفا، وعلى رواية المقرئ مائة الف . ويقول كليمان هيوار : « ان جيش الاسبانين كاد يكون خلواً من الفرسان، وان اغلب سلاحه العصي والمقاليع . » ١٥٠ . زد على ذلك حالته المعنوية فمن قواد كاوولاد غيطشه، يريدون الغدر بلذريق، الى قلوب في الجند غير متحدة لما بين القوط واليهود والرومان من النفور والانقسام .

وغير عجيب ان يعتمد لذريق على اولاد غيطشه اذ لم يخطر له في بال ان ملوكاً مثلهم يملئون العرب على امتلاك ارضهم، وجعلهم على رأس الجيش لما لهم من الميزة في نفوس القوط .

على ان اولاد غيطشه وصاحب سبته لم يظاهروا العرب في غارتهم على الاندلس، الا لاعتقادهم انهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة ان يعودوا الى بلادهم، فشدوا ازرهم للتخلص من لذريق . والعرب انفسهم لم يكن وكدهم البقاء في اسبانية عندما اقتحموها، يدل على ذلك حديث رواه المقرئ لميمون العابد، وكان في عداد الشاميين الذين دخلوا الاندلس، فقد قال لارطباش بن غيطشه : « انا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب ان مقامنا فيه لا يطول، فلم نستعد للمقام ولا اكثرتنا من العدة . »

واستمرت المعارك بين المسلمين والاسبانين مدة ثمانية ايام فرجحت كفة طارق، وشالت كفة لذريق، فانهمزم من المعركة وحاول ان يعبر النهر بعدته وجواده فلم بين له اثر . وتم النصر للمسلمين في رمضان سنة ٩٢ هـ . وكانت خسارتهم نحو ثلاثة آلاف رجل، واما الاسبانيون فكانت خسارتهم اضعاف ذلك .

ورافق خبر الفتح اسطورة مفادها ان طارقاً لما وطئ ارض الاندلس امر بالسفن فاحرقت، وخطب في جيشه خطبته الشهيرة التي يقول فيها : « ايها الناس ! اين المفر ؟ والبحر من ورائكم، والعدو امامكم، وليس لكم والله الا الصدق والصبر . » فان صحت هذه الخطبة لطارق، فليس فيها ما يشير الى احراق السفن . ثم ان السفن كانت للكثرت يلبان، تسير بامرته، فاني لطارق ان يتصرف فيها ويأمر بحرقها . هذا وان اخبار الفتح تنبئ بان السفن كانت تختلف بين افريقية والاندلس حاملة الامداد والذخائر للفاحين وفي ذلك ما ينبي رواية احراقها . وليس في نفح الطيب ما يثبت

هذه الرواية مع عناية صاحبه بتدوين اخبار الفتح على علاتها . وغير معقول ان يغمر طارق بجيشه في ارض غربية، ويقطع الصلة بينه وبين بلاده، فما هكذا تكون حكمة القواد وخبرتهم في الحروب .

وبلغ موسى بن نصير فتح الاندلس، فحسد طارقاً، وتقدم اليه بان يتوقف عن الايغال في البلاد حتى يأتي اليه . فلم يطعه طارق بل تابع الفتح، وقسم جيشه اربعة اقسام، وارسل بعضاً الى قرطبة (Cordoue)، وجعل مقدمه مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك . وارسل بعضاً ثانياً الى مالقة (Malaga) وبعضاً ثالثاً الى غرناطة (Grenade) مدينة البيرة (Elvira) وسار هو في معظم الناس الى كورة جيان (Jaën) يريد طليطلة .

فسار مغيث الى قرطبة، وكان لها سور عال، فلما اجنّهم الليل اقبلوا نحوها، وقد جادت السماء برذاذ اخفى دققة حوافر الخيل، فعبروا نهر قرطبة، وتسلق بعضهم وهجموا على الاحراس وهم غافلون، وفتكوا بهم، وكسروا اقفال الباب وبيتوا المدينة، فهرب ملكها واربع مائة من اصحابه الى كنيسة، وتحصنوا فيها، فدعاهم مغيث الى الجزية او الاسلام فأبوا، فاوقد النار عليهم حتى احرقهم، فسميت كنيسة الحرق ونجا ملكهم فاخذ اسيراً .

وجمع مغيث يهود قرطبة، فعهد اليهم في حراسة المدينة استنامة لهم دون النصارى وجعل معهم طائفة من المسلمين، ثم سار بجيشه قاصداً طليطلة لينضم الى طارق بن زياد .

واما البعث الذي زحف الى مالقة فقد وفق لافتتاحها، ولجأ اهلها الى جبال هنالك وامتنعوا فيها . ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه الى البيرة فحاصروا غرناطة، وفتحوها عنوة، وضمو يهودها للحفاظة عليها مع جماعة من المسلمين . ثم مضى الجيش الى أريولة (Orihuela) من اعمال مرسية (Murcie) وكان تدمير قد اجأ اليها بعد موت عاهله، فنودي به ملكاً على القوط، واقام بمرسية ويسمىها العرب تدمير باسمه . وكان داهية شديد البأس، فقاتل المسلمين حتى فني اكثر جيشه، ولم يبق الا اقله، فامر النساء بنشر الشعور، وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال .

وتصدر قدامهم في بقية اصحابه يغالط المسلمين في قوته ، فكره المسلمون مراسه لكثرة ما عاينوه على السور، وعرضوا عليه الصلح فرضي، ونكّر زيه، ونزل اليهم بامان على انه رسول، فصالحهم على اهل بلده، ثم على نفسه، وتوثق منهم، ثم اظهر لهم نفسه، واعتذر اليهم . وسلمت كورة تدمير من اذية المسلمين بتدبيره، وصارت كلها صلحاً ليس فيها عنوة . وترك المسلمون فيها رجالاً ومضى معظمهم الى طارق لفتح طليطلة .

وانتهى طارق الى طليطلة دار مملكة القوط فالقاه خالية قد فر اهلها عنها الى الجبال، فضم يهودها اليها، وخلف بها رجالاً من اصحابه، وراح يطارد الفارين . وعرف موسى بن نصير ما فعل طارق، وما تسنى له من الفتوح، فحشد ثمانية عشر الفا من البربر والعرب، وعبر بهم بحر الزقاق، فدخل الاندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ . (٧١١ م) فسار به اصحاب يليان فافتتح اشبيلية وسار الى ماردة (Mérida) في غربي اسبانية، وكان اهلها ذوي بأس ونجدة فدافعوا عنها، ونالوا من المسلمين دفعات وآذوهم، ولم تسقط الا بعد ان توالى النجيدات الى موسى بن نصير، وكان فتحها صلحاً لا عنوة .

وذهب موسى الى طليطلة، فاستقبله طارق، ونزل اليه إعظاماً، فقنع به موسى بالسوط، ووجهه على عصيانه له ومخالفته لأمره، وطالبه بال الفتي . وذخائر الملوك، فقدمها له وفي جملتها المائدة التي غنمها من كنيسة طليطلة، وكان يوضع عليها الانجيل . ويقول المؤرخون انها مصنوعة من الذهب الخالص، مرصعة بفاخر الدر والياقوت، وكان طارق قد خلع رجلاً من ارجلها وخبأها عنده، فسأله موسى عنها فقال : « لا علم لي بها، وهكذا اصبتهما . » فامر موسى فجعلت لها رجل من ذهب جاءت بعيدة الشبه عن سائر ارجلها، فأخل بها .

ثم ان موسى اصطاح مع طارق، واطهر الرضا عنه، واقره على مقدمته وتابع وياه الفتح متوغلين في بلاد الفرنجة . وفيما هما يسيران من بلد الى بلد اذا بامر من الوليد بن عبد الملك يدعو موسى اليه، وقد بلغه ما اصاب من الاموال والغنائم . فولى موسى ابنه عبد العزيز على الاندلس، وجعل مقره في اشبيلية ثم ركب في البحر ومعه

طارق ومغيث . وكان مع مغيث في الاسر صاحب قرطبة يريد تقديمه للخليفة، فسأله موسى ان يسلمه اليه فامتنع، وكان يدل بولائه من الوليد، فانترعه موسى قسراً . فقبل له : « ان سرت به حياً معك ادعاه مغيث، والعلي لا ينكر قوله، ولكن اضرب عنقه . » ففعل، فحقدوا عليه مغيث . وسار موسى فورد الشام وقد مات الوليد واستخلف سليمان اخوه، وكان منحرفاً عليه . فسبق اليه طارق ومغيث بالشككية منه، ورمياه بالخيانة، واختبراه خبر صاحب قرطبة والمائدة . فلما مثل في حضرته، ونجحه واغلق له، وسأله عن المائدة فاحضرها، فقال : « زعم طارق انه الذي اصابها دونك . » قال : « لا، وما رآها قط الا عندي . » فقال طارق : « فليسأله امير المؤمنين عن الرجل التي تنقصها . » فسأله، فقال : « هكذا اصبته، وعوضتها رجلاً صنعتها لها . » فاخرج طارق الرجل المخلوعة من قبائه، فعلم سليمان كذب موسى فعزله واقصاه، واغرمه غرمًا عظيمًا، حتى اضطر الى ان يسأل الناس معونته .

وقيل بل ورد موسى الشام والوليد مريض، فكتب سليمان اليه يأمره بالترخص رجاء ان يموت الوليد، فيقدم عليه موسى بتلك الغنائم في اول خلافته، فيعظم بذلك مقامه عند الناس . فابى موسى وجداً في السير حتى دخل دمشق، والوليد حي، فقدم له الغنائم والتحف ثم مات الوليد واستخلف سليمان فانتقم من موسى، واغرمه ونفاه الى وادي القرى، ودس الى الاندلس بقتل ابنه عبد العزيز .

وكان عبد العزيز قد تولى الامر بعد ابيه، فاحسن سياسة البلاد، وعقد معاهدة صلح مع تدمير ملك القوط اعترف فيها تدمير بانه من عمال الخليفة، ورضي بدفع الجزية، واعترف له عبد العزيز بملكه على بلنسية وأريولة وسواهما، وعاهده على ان لا يعتدي المسلمون على رعيته، ولا يسبوا نساءهم، ولا يعارضوهم في دينهم . واخذ عبد العزيز يحيي الضرائب، ويوصلها الى دمشق، ولكن سليمان كان كارهاً له، ناقماً على ابيه، فدس عليه من اثار به الجند فقتلوه سنة ٩٨ هـ . (٧١٦ م) وهو في جامع اشبيلية، واتهموه بانه جعل باب مجلسه صغيراً لينجني له الناس ساجدين اذا دخلوا عليه، وقد فعل هذا ارضاء لزوجته الاسبانية ارملة لذريق، فانها طلبت منه ان يسجد له الناس، كما كانوا يسجدون لبعلهما الاول فلم يطق رد طلبها لشدة شغفه بها .

عهد الولاة (٧١٠ — ٧٥٥ م و ٩٢ — ١٣٨ هـ)

الولاة تعيينهم افريقية او الخليفة . افتتاح بلاد جديدة .
معركة إبواتيه . العدنانية واليانية . الفتنة . ثورة
البرابرة . الولاة اليانيون يتعصبون . اقتسام الامارة .
استبداد المغاربة بالحكم .

بدأ عهد الولاة في الاندلس بطارق، ثم بموسى، ثم بعبد العزيز . فلما قتل هذا بقيت
الاندلس نحو ستة اشهر وبنو امية لا يرسلون والياً اليها . فاجتمع زعماء البربر واختاروا
ايوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن اخت موسى بن نصير . فجعل سريره في قرطبة .
ولم يطل عهده لان محمد بن يزيد عامل افريقية من قبل سليمان بن عبد الملك عزله،
وولى مكانه الحر بن عبد الرحمن الثقفي .

وتعاقب الولاة على الاندلس، فمنهم من كان يعينهم الخليفة، ومنهم من كان
يعينهم عامل افريقية . واقتطعت بلاد جديدة كبرشلونة (Barcelone) وقشتالة
(Castille) واغار العرب على شواطئ الرون فبلغوا ليون . وما زالوا يتقدمون في
قلب فرنسة حتى بلغوا تور وكادوا يعبرون اللوار لو لم يلقهم شرل مرّتل بجموع
الفرنجية في سهول إبواتيه، ويردهم على اعقابهم . وقتل في تلك الواقعة قائدهم عبد
الرحمن الغافقي والي الاندلس وذلك سنة ١١٤ هـ . (٧٣٢ م) .

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى في اوربة بل حدث
شقاق عظيم في المسلمين انفسهم، وقامت الفتنة، واعصوب الشر بين الاحزاب،
ذلك انه لما تسامع العرب بفتح الاندلس، وذكر لهم ما فيها من خصب وغنى اقبلوا
اليها، وفي طليعتهم الشاميون، واستوطنوها وكان فيهم العدنانية من مضر وربيعه
كابناء قريش من فهر وامية وهاشم ومخزوم، وكابناء غطفان وقيم وكنانة وقيس
عيلان وتغلب وبكر واسد . وفيهم اليانية من كهلان والأزد ومذحج وسواهم

وكانوا اكثر عدداً من العدنانيين، فانتقلت معهم العصبية القبلية، والمنازعات الحزبية بين القحطانية والعدنانية او القيسية واليانية .

وكان البربر يعتمدون بانفسهم، لان الفاتح منهم، والفتح تم على يدهم، ويرون انهم اولى من غيرهم بالاحكام . فحدث ان ثار البرابرة في المغرب على الشاميين والمصريين، واخذوا فيهم، فتحرك برابرة الاندلس، وثاروا بواليها عبد الملك بن قطن، فاستنجد بلنج بن بشر القشيري، وكان في سبتة، ومعه عشرون الف محارب فجاء واخذ الثورة . الا ان عبد الملك لم يحسن جزاءه، فاغتاظ بلنج وقتله، وولي الامر مكانه . فسخط العرب على بلنج لقتله بعامل الخليفة، وثاروا عليه، فقتلوه .

وولي بعده ثعلبة بن سلامة الجذامي فتجهجه الفهريون ومالوا عنه لتعصبه لليانية، فهبت الفتنة بين العدنانية والقحطانية، وتفاقم الامر . وكان على افريقية حنظلة بن صفوان فعزل ثعلبة، وارسل ابا الخطار حسام بن ضرار الكلبي . وكان ايضا يائياً فافرط في العصبية على العدنانية واسخط القيسية باساءته الى كبيرها الضميل بن حاتم فهاجت الحرب، وخلع ابو الخطار .

وكان الامويون في الشرق قد تضععت احوالهم بنشاط الدعوة العباسية، فعجزوا عن ضبط الولايات القاصية، فباتت الاندلس فوضى، لاراع لها، يتصرف فيها الجند بحسب اهوائهم . فاتفقوا على اقتسام الامارة بين المضرية واليانية، يتداولونها سنة فسنة . فقدم المضرية عليهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) واستتم سنة ولايته بقرطبة . ثم جاءته اليانية لميعاد دولتهم، فبيّتهم يوسف في سقندة من قرى قرطبة، وبالغ في تقييلهم وعاونهم الضميل وسائر المضرية، فغلبوا على امرهم واستكانوا ليوسف الفهري على مضض . ثم اصاب الاندلس قحط عظيم، واشتد عليها الجوع مدة ثلاث سنوات، فرجع اكثر البربر الى افريقية، وظل الحكم بيد يوسف الى ان جاء عبد الرحمن الداخل، وانشأ الدولة الاموية الجديدة .

الدولة الاموية (٧٥٥ — ١٠٣٠ م و ١٣٨ — ٤٢٢ هـ)

هرب عبد الرحمن الى الاندلس . قطع الخطبة عن بني العباس .
عبد الرحمن الثالث والخلافة . الحكم . هشام . الحاجب
المنصور . انقراض الامويين .

ما انهار البيت الاموي في الشرق الا لترفع له الدعائم في الغرب ، فكان الاقدار
ابت الا ان يظل برواقه حضارة المسلمين ، وعز الاسلام في الخافقين . فقد اذيل
لبنو العباس بعد مهلك مروان بن محمد ، فاعملوا السيف في رقاب الامويين ، فقتلوا
منهم خلقاً كثيراً ، ونجا من تراخت منيته . وكان في جملة الناجين عبد الرحمن بن
معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فانه فر مستخفياً حتى خلاص الى المغرب .
وكانت امه بربرية فنزل على اخواله بني نفزة بالقرب من سبتة ، فاحسنوا ضيافته
ثم لحق به مولاه بدر ، فبعثه بكتاب الى موالي المروانية في الاندلس ، وهم يوم ذاك
ما بين اربع مائة وخمس مائة ، ولهم جمة . فسهلوا له دخول البلاد ، ووطأوا له
عرش قرطبة .

وقد تواطأت عدة اسباب لنجاح ابن معاوية ، منها حماية البربر له لانهم اخواله ،
ومنها اجتماع موالي المروانية اليه لانه مرواني ، ومنها ضعف الدعوة العباسية في
الاندلس ، لان المضرة كانت في كثرتها شامية اموية ، فانثالت اليه من كل جانب
وعجز الصميل والقيسية عن ردها . اما اليانية فانها كانت تتمنى زوال سلطان الصميل
ويوسف الفهري ، فتساليحت الى عبد الرحمن تشد ازره ، وقديماً كانت اليانية انصار امية
على قيس عيلان .

وما زال الاموي يحتل بلداً بعد بلد حتى دخل قرطبة ، فجعل فيها سريره .
وانتصر على الصميل ويوسف الفهري واهلكهما ، ودانت له الاندلس كلها ، فاصبح
اميرها ، ولقب بالداخل ، لدخوله اياها ولقبه ابو جعفر المنصور بصقر قریش . وكانت
الخطبة تقام لبني العباس فقطعها عنهم ، ودعي له على المنابر ، وبني المسجد الجامع في

قرطبة، واختط مدينة الرصافة في شماليها على مثال رصافة الشام جده هشام، وجعل بلاطه كبلاط لدريق في عظمته وبهائه . وكانت مدة ملكه اربعاً وثلاثين سنة من سنة ١٣٨ - ١٧٢ هـ . (٧٥٥ - ٧٨٨ م) .

وتداول الملك بعده ابناؤه وحفداؤه حتى وليه عبد الرحمن الثالث ، فقام باعبائه خمسين حولاً من سنة ٣٠٠ الى سنة ٣٥٠ هـ . (٩١٢ - ٩٦١ م) وبه بلغت دولة بني مروان اوج مجدها . وكانت له الغزوات المظفرة في الشمال والجنوب ، فخضعت له بلاد كثيرة من اسبانية والمغرب ، وجاءته الهدايا من ملوكها . وجعل الاندلس امة واحدة تحت سلطانه واستكثر من الصقالبة^١ ، واعتمد عليهم في الجيش وخطط الدولة ، فازال بهم زعامة الارستقراطية العربية .

وكان امراء بني امية يطمعون في استرجاع الخلافة ، ويتحينون لها الفرص ولم يتلقبوا اول امرهم بالقبائح مخافة ان يجد المسلمون في عملهم بدعة لان الخلافة العباسية كانت في ابان عظمتها ، فلا مسوغ لقيام خلافة اخرى .

فلما صار امرها الى الضعف وباتت شؤونها في يد الاتراك والخدم يؤلون الخلفاء ويخلعونهم او يقتلونهم ، سنحت الفرصة لملوك الاندلس ، فاعتنمها عبد الرحمن الثالث وهو الرجل المقدامة الحزيم ، وسمي امير المؤمنين الناصر لدين الله سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) .

ومات عبد الرحمن وله من العمر سبعون سنة ، وفي ايامه نهضت الاداب والعلوم نهضة ميمونة ، وازدهرت العمارة ، وكثر عدد السكان في قرطبة وبنيت بها القصور المنيفة ، واستكثر من الجوامع والحمامات فبلغت ثلاثة آلاف جامع وثلاثمائة حمام . فاصبحت قرطبة تنافس بغداد في حضارتها ، فاذا هي منارة الغرب الوضاعة ، كما كانت تلك منارة الشرق . وبني الناصر على مقربة منها مدينة اسماها الزهراء باسم جارية له ، واجرى فيها المياه ، وانشأ القصور والبساتين مما يجلب عن الوصف . وبلغت

١ الصقالبة : كان يراد بهم اولاً احدث السلاف الذين يسبون ويبيعون في اسواق الاندلس ، ثم اريد بهم صبيان الفرنجة على الاطلاق . وهؤلاء الاحداث اسلموا وتعلموا العربية ، فوهم اشبه بالموالي في الشرق ، وكان عددهم يراوح بين اربعة آلاف الى ثلاثة عشر ألفاً

جباية الضرائب في أيامه ٦٦٢٤٥٠٠٠ دينار . وكان له اسطول عظيم يزاحم به اسطول الفاطميين .

وانتقلت الخلافة من بعده الى ولده الحكم المستنصر بالله، فكان كأبيه حازماً حسن التدبير، فاخضع الثائرين من النافاريين والقشتاليين، واستخذى له ملك الجلالقة^١ وملك خمس عشرة سنة^٢ كلها بين واقبال، وبلغت قرطبة غاية عظمتها حتى حق لها ان تسمى دار العلوم . وامتاز عهده بإنشاء المدارس والمكاتب فقد ابنتى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة، وجعلها مجاناً للطلاب، واتم بناء الجامع الكبير، اعظم مسجد في العالم، وفيه كانت تدرس الاداب والعلوم العالية . قال في وصفه كليمان هيوار : « هو غابة من المرمر يشتمل على ستين سارية وثماني مائة ، واثر عجيب للفن الاسلامي . » اهـ . وارسل البعثات العلمية الى الشرق فكانت تنسخ له الكتب وتأتي بها اليه حتى جمع في خزائنه اربع مائة الف كتاب . ويقول دوزي في كتابه تاريخ مسلمي اسبانية : « ان اسبانية المسألة كادت كلها تقرأ وتكتب ، على حين ان الطبقة الرفيعة في اوربة المسيحية لم تكن كذلك ، اذا استثنينا رجال الدين » .

وكانت خلافة الحكم نهاية عهد القوة في دولة الامويين ، فان هشاماً كان حدثاً لما ولي الامر بعد ابيه، فاستبد بشؤون الدولة وزيره محمد بن ابي عامر، وعضدته صبح ام الخليفة الصغير، لانها كانت تهواه . فحجر على هشام، ومحا رسم الخلافة وكتب اسمه في السكة والطرز^٣ وتلقب بالحاجب^٤ المنصور، ودعي له على المنابر، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة . وكان شديد البطش، كثير الغزوات موفقها، اغار على الفرنجة مرات عديدة، واثخن فيهم، وهدم مدنهم امثال لاون (Léon) وبرشلونة . ومات سنة ٣٩٣ هـ . (١٠٠٢ م) .

وكان محباً للفلسفة فرمي بالزندقة ، فاراد تبرئة نفسه ، فامر بكتب المنطق

١ الجلالقة جمع جَلَيْقِيّ : نسبة الى جَلَيْقِيَّة (Galice) وهي ولاية من اسبانية .

٢ مدة خلافته من سنة ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ . (٩٦١ - ٩٧٦ م) . ٣ الطراز : ثوب ينسج للسلطان . (٤) الحاجب : برتبة الوزير الاول في الاندلس والمغرب .

والنجوم فاخرجت من خزائن الحكم واحرقت ، ولكنه قرب العلماء والشعراء ،
واحسن صلاتهم فنطقوا بمجده ، واشادوا بذكركه .

وتولى الامر بعده ابنه عبد الملك وتلقب بالملك المظفر ، ومات بعد ان حكم
سبع سنوات ، فخلفه اخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله ، وجرى على سنن ابيه
واخيه في الحجز على الخليفة هشام ، والاستقلال بالملك دونه . ثم طمعت نفسه في
الخلافة ، فطلب من هشام ان يولييه عهده ففعل . فنقم الامويون والقرشيون وخلعوا
هشاماً ، وبايعوا محمد بن هشام من حفدة عبد الرحمن الثالث وتلقب بالمهدي . وكان
الناصر غائباً في غزوة ، فلما بلغه الخبر قفل الى قرطبة ، فارسل اليه المهدي من قبض
عليه واحتز رأسه ، وذهبت بموته الدولة العامرية .

غير ان محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لانه جاني البرابرة لميلهم الى
العامريين ، فأتمروا به وبايعوا سليمان بن الحكم ، وتسمى بالمستعين فقامت الفتنة بين
الاميرين مرة كان ينتصر المهدي ويهزم المستعين . ومرة كان ينتصر المستعين فيستجيش
المهدي ملك الاسبانيين ، فيمده ويعيده الى عرشه . وانتهت العاصمة مراراً وخرب
اجمل قصورها في المعارك المتتالية ، واصيبت مثلها المدن والقرى في جوارها ، ثم تم
الامر للمستعين ، فتغلب البربر على الاحكام ، وارتفع شأنهم .

وكان علي بن حمود الإدريسي قد جاء الاندلس من المغرب فدعا البربر الى
مبايعته ، فاجابوه لما للادارسة من الكرامة عندهم ، فقتل المستعين وتلقب بالناصر .
ثم رجع الملك الى امية لان اهل قرطبة ثاروا بقاسم بن حمود ، وردوا الملك على
الامويين . ثم عاد الملك الى بني حمود ، ثم الى بني امية ، وكان آخر خليفة منهم
المعتضد بالله هشام بن محمد فملك مدة يسيرة ثم خلعه الجند فهرب وانقطعت به الدولة
الاموية ، وصار الامر في قرطبة الى الطبقة الارستقراطية . واما الولايات فان رؤساء
الطوائف فيها من بربر وعرب وموال اقتسموا خططها ، واستبدوا بامرها ، فعرفوا
بملوك الطوائف .

ملوك الطوائف (١٠١٢ - ١١٤١ م و ٤٠٣ - ٥٣٦ هـ)

الزيرية . الحمودية . الهودية . العامرية . العبادية .
بنو الافطس . الجهورية . النونية . تحارجم . استنجام
ملوك الفرنجة . حالة الاداب والعلوم .

بدأ استقلال ملوك الطوائف في عهد الامويين بعد ان ضعف سلطانهم ، واستبد
العامريون عليهم . فان الدولة الزيرية استقلت في غرناطة سنة ٤٠٣ هـ . في خلافة
المرتضي ، وهي دولة بربرية تنسب الى رأسها زاوي بن زيري ، وظل ملكها الى
سنة ٤٨٣ هـ . (١٠٩٠ م) .

وكذلك الدولة الحمودية استقلت في عهد المستعين الاموي سنة ٤٠٧ هـ .
(١٠١٦ م) . وتلقبت بالقب الخلافة ، وهي شيعية من المغرب تنسب الى ادريس
من سلالة الحسن بن علي . وكان سريها يتنقل من قرطبة الى مالقة الى الجزيرة
الخضراء . وانقرض ملكهم سنة ٤٥٠ هـ . (١٠٥٨ م) .

واشتهر من ممالك الطوائف الدولة الهودية في سَرْقُسطة (Saragosse) من ٤١٠ -
٥٣٦ هـ . (١٠١٩ - ١١٤١ م) وهي دولة عربية اشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه
المؤتمن . وكان المؤتمن بارعاً في العلوم الرياضية وله فيها تأليف حسان .

والدولة العامرية في بَلَنَسِيَّة (Valence) من ٤١٢ - ٤٧٨ هـ . (١٠٢١ - ١٠٨٥ م)
وهم من موالي بني عامر .

والدولة العبادية في إشبيلية من ٤١٤ - ٤٨٤ هـ . (١٠٢٣ - ١٠٩١ م) وهي عربية
من بني لَحْم من ولد النعمان بن المنذر .

ودولة بني الافطس في بَطْلَيْوس^١ (Badajoz) من سنة ٤٢١ - ٤٨٧ هـ . (١٠٣٠ -

١ هكذا ضبطها ياقوت ، وضبطها ابن خلكان بفتح الياء قبل الواو (الساكنة) .

١٠٩٤ م) وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون ، مع انها بربرية من مكناسة ، ولكنها نشأت في الاندلس وتخلقت باخلاق اهلها .

والدولة الجهورية في قرطبة من سنة ٤٢٢-٤٦١ هـ (١٠٣٠-١٠٦٨ م) قامت بعد ان زالت خلافة المعتضد وسقطت الدولة الاموية ، وصار الامر بقرطبة الى الجماعة الارستقراطيين وكان عميد هذه الجماعة ابو الحزم جهور ، فاستولى على الاحكام ، واستقل بالملك ، فتوارثه ابناءؤه من بعده .

ودولة ذي النون في طليطلة من ٤٢٧-٤٧٨ هـ (١٠٣٥-١٠٨٥ م) وهي بربرية من قبائل هواراة .

وكان ملوك الطوائف يحارب بعضهم بعضاً ، ويتغلب قويمهم على الضعيف فيزيل ملكه كما ازال العباديون ملك الجهورية ، والنونيون ملك العامرية . وربما استنجد بعضهم على بعض ملوك الفرنجة ، فيعتم هؤلاء الفرصة ، ويهاجمون الاندلس ، ويستولون على عواصمها ، ويخضعون ملوكها ، ويضربون عليهم الجزية ، ويجعلونهم عمالاً لهم ، فعل فردينان الاول بالمظفر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ، وفعل ألفنس السادس بملك سرقسطة .

وظلت الاندلس في اضطراب دائم لا تستقر على حال حتى افتتحها يوسف بن تاشفين ومحا ملوك الطوائف ، الا دولة سرقسطة فان صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً ، ولم ينل منها المرابطون الا في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) واستعادها ألفنس الاول ملك أرغون (Aragon) سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) .

ومع سوء الحالة السياسية في عهد ملوك الطوائف فان الاداب والعلوم نهضت نهوضاً عظيماً لتنافس الامراء في تعزيزها ، وتقريب اصحابها ، وظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجة ، واشتهر من هؤلاء الملوك جماعة من الادباء والشعراء ، كالمظفر وابنه المتوكل ملكي بطليوس ، والمعتمد بن عبأد ملك اشيلية .

دولة المرابطين (١٠٥٦ - ١١٤٦ م و ٤٤٨ - ٥٤١ هـ)

الملثمون . لماذا سموا المرابطين . قيام دولتهم في المغرب .
يوسف بن تاشفين . استنجد الاندلس به . استيلائه على
الاندلس . عهد علي بن يوسف على الاندلس .

ترجع هذه الدولة باصلها الى قبيلة لمتونة من برابرة صنهاجة في المغرب . وكان
من سنتهم ان يضربوا للثاماً على وجوههم فلقبوا بالملثمين . وفي اصل هذا اللثام اقوال
كثيرة اشهرها ان قوماً من اعداء الملثمين كانوا يرتقبون غفلتهم حتي اذا غابوا عن
بيوتهم طرقتهم الحلي وانتهبوا النساء والاموال . فاشار بعض اشياخهم ان تبعث
النساء في زي الرجال الى ناحية ، ويقعد الرجال في البيوت ملثمين في زي النساء . فلما
اتاهم العدو ظنهم نساء فاراد سبيهم ، فثاروا عليه واشتفوا منه ، ثم لزموا اللثام
تيمناً به .

وسموا المرابطين لان احدهم يحيى بن ابراهيم اسلم فجاء بفقهاء اسمه عبدالله
ابن يس ليعلم قبيلته القرآن واحكام الدين . ثم مات يحيى فتفرق الناس عن الفقيه ،
فلم يفت في عضده بل جمع فئة منهم واعتزل بهم في جزيرة من السنغال ، وابتنى لهم
رباطاً فسموا المرابطين . فلما كثر عددهم ، وبلغوا الالف ، خطب عبدالله فيهم ،
وحضهم على الجهاد في سبيل الحق ، وامرهم بارشاد عشائريهم . وابت عشائريهم ان
تهتدي بهديهم ، فشنوا الغارة عليها ، وقتلوا منها خلقاً كثيراً ، حتي اسلمت . ثم تابعوا
الغزوات في بلاد المغرب يدعون الناس الى دينهم وطاعتهم فاوقعوا الرعب في النفوس ،
ونشروا الهول في تلك الانحاء .

وجعل عبدالله قيادة الجيش ليحيى بن عمر وكانت له زعامة في قبيلته لمتونة ،
فابتدأت به دولة المرابطين سنة ٤٤٨ هـ . فلما مات خلفه اخوه ابو بكر ، ثم تنازل

١ الرباط والرابطة : مكان يفرد به المسلمون للعبادة ، ويتأهبون فيه للجهاد ؛

هو بيت دين وحرب .

ابو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ . (١٠٦١ م) فدوخ يوسف المغرب وفتح فاس وطنجة وسبتة ، وبني مدينة مراكش^١ وجعلها داراً له فعظمت هيئته وضاع ذكره .

وكانت الاندلس في تلك الاثناء تعاني اشد الضيم فان الفنس السادس صاحب قشتالة غزاها غير مرة، واتحن في المسلمين، واخضع ملوك الطوائف ، حتى بلغ جزيرة طريف، وادخل قوائم فرسه في البحر وقال : « هذا آخر بلاد الاندلس قد وطئته . » فلما بلغ الضعف بالمسلمين حدة اجمعوا رأيهم على استنقاذ يوسف بن تاشفين، فكتب اليه المعتمد بن عباد صاحب اشيلية يعلمه بحال الاندلس، وتغلب الفرنجة على اكثر ثغورها، ويسأله النصر والاعانة . وكتب اليه اهل الاندلس كافة يستنجذونه على العدو المغير . فجمع جيشاً كثيفاً، واجازه الزقاق الى الاندلس، واتخذ الجزيرة الخضراء مقراً له، فاقبل عليه ملوك الطوائف بامدادهم .

وكان الفنس يحاصر سر قسطة فلما علم بقدمه ارتد عنها للقائه ، فنشبت بينهما معركة حامية الوطيس ، فدارت الدائرة على الفنس ، فانهمز جريماً ، وتبدد جيشه في ١٢ رجب ٤٧٩ هـ . (٢٣ تشرين الاول ١٠٨٦ م) فازداد يوسف بن تاشفين عظمة بهذا الانتصار وتلقب منذ اليوم بامير المسلمين، واثابه بتقليد الخليفة العباسي المقتدي بامر الله، ولقبه ناصر الدولة . ثم رجع يوسف الى المغرب ظافراً منصوراً .

وما لبث المسيحيون بعد عودته ان استأنفوا نشاطهم، واعاد الفنس الكرة على الاندلس، واستولى على مدائنها، ورأى في بلنسية من صاحبها السيد رذريق (Rodrigue)^٢ معيناً . ففرع المعتمد بن عباد الى مراكش مستصرخاً امير المسلمين، وكتب اليه علماء

١ مراكش : لفظة بربرية معناها امش سرعاً ، سمي بها الموضع الذي بنيت فيه لانه كان مأوى للصوص، فاذا مر به المسافرون قال بعضهم لبعض : امش سرعاً، تخلصاً منه .
٢ هو صاحب الاسطورة التي بنى عليها كورنه قصة السيد . وكان هذا الرجل قائد جيش من المرتقة ، يقاتل به بين يدي من يعطيه مائلاً فتارة يخدم به اليهوديين ، وتارة يخدم به الفنس حتى تمكن من الاستيلاء على بلنسية، واسر عاملها القاضي ابن جحاف، واحرقه حياً . وانشأ فيها اماره له . غير انه لم يهنأ بانتصاره بل مات قهراً بعد ان خذله المرابطون سنة ٤٩٣ هـ . (٢٠٩٩ م) .

الاندلس يستنجدونه لانقاذها . فطمع في الاستيلاء عليها لما تحقق من ضعف اهلها ،
فاغزاها قائده سير بن ابي بكر ، فاستولى على قرطبة ، واشيلية ومرتسية ودانية
(Dénia) سنة ٤٨٤ هـ . (١٠٩١ م) ودافع المعتمد بن عباد عن مملكته دفاعاً
شريفاً ، ثم اسر واقتيد الى أغمت قرب مراکش ، ومات فيها .

واقتمح سير بطليوس سنة ٤٨٧ هـ . (١٠٩٤ م) وازال ملك بني الافطس . ثم
بلنسية سنة ٤٩٥ هـ . (١١٠١ م) بعد ان دافعت عنها شيان ارملة رُذْرِيْق نحوستين .
ومات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ . (١١٠٦ م) بعد ان دانت له الاندلس ،
واصبحت ولاية للمرابطين . وانطلقت اماراة المسلمين بعده الى ولده علي ، فجعل مقره
بمراكش ، وترك في الاندلس اخاه تيمماً نائباً عنه .

ولم تنعم الاندلس في دولة علي فان تعصبه الشديد للدين ، واستمساكه بمذهب
مالك وكره غيره من المذاهب جعله آلة بيد الفقهاء ، فساد التعصب والارهاب ،
وكثرت الوشايات ، وخنقت حرية التفكير . وفي ايامه ظهر المهدي محمد بن تومرت
في جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالأعلى دولة المرابطين ، وسبباً لقيام
دولة الموحدين .

دولة الموحدين (١١٢٩ - ١٢٦٨ م و ٥٢٤ - ٦٦٧ هـ)

محمد بن تومرت . طريقة التوحيد . المهدي . الدعوة الى
جهاد المرابطين . موت المهدي . خليفته . دخوله
الاندلس . عهد الازدهار في دولة الموحدين . انقراضها .

نشأ محمد بن تومرت في جبل السوس من المغرب الأقصى، وقومه بنو هرغة وهم
بطن من بني مصمودة، وهي قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد. وبدأت عليه دلائل
التقوى منذ حدثته، فكان يزور قبور الاولياء، ويتبرك بها. وطلب العلم في بلده
فوجد ان المدارس في الغرب لا غناء فيها، فرحل الى الشرق، وجاء بغداد، وتلمذ لابي
حامد الغزالي في المدرسة النظامية، فاخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم واصول الدين .

فلما رجع الى المغرب شرع يدعو الناس الى التمسك باهداب الشرع، واقامة
احكام السنة، ويبين لهم فساد الملوك والامراء وظلمهم ويدعوهم الى عصيانهم .
واطلق على طريقته اسم التوحيد، فتبعه خلق من بني هرغة، فعرفوا بالموحدين . ثم
اوقع في خلدتهم ان النبي بشر بالمهدي الذي يملأ الارض عدلاً، وقال انه يخرج من
المغرب الأقصى . فقام اليه عشرة رجال، وقالوا له : « انت المهدي . » وبايعوه وساروا
في ركابه يبشرون له الدعوة في بلاد المصامدة حتى كثر اتباعه ، ورسخت تعاليمه ،
فدعاهم الى جهاد المرابطين ، وابعاح لهم دماءهم ، فبايعوه على الموت ، فجند منهم
عشرة آلاف وقدم عليهم ابا محمد البشير احد صحابته العشرة ، ودعا لهم ، فراحوا
يغزون في بلاد المغرب ، ويوقعون بالمرابطين حتى بلغوا مراكش فحاصروها ولكنها
امتنعت عليهم ، ومات المهدي سنة ٥٢٤ هـ . قبل ان يقتتحوها . وكان قد اوصى بعده
لعبد المؤمن بن علي احب صحابته اليه فبايعوه بالخلافة، وتلقب بامير المؤمنين . وتابع
عبد المؤمن جهاده حتى ازال دولة المرابطين واقام بها دولة الموحدين .

وجاءته الوفود من الاندلس تدعوه، فاجاز اليها جيشاً من الموحدين وامتلكها، وجعلها من ولاياته .

وبلغت دولة الموحدين اوج عزها في عهد ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن^١ الخليفة الثاني بعد المهدي ، ثم في عهد ولده ابي يوسف يعقوب^٢ الخليفة المنصور . ومع تمسك الموحدين باصول الدين، كانوا في الاندلس اعلق بالحضارة من المرابطين، فان ابا يعقوب استقدم الفلاسفة الى بلاطه كابن طُفَيْل وابن رُشْد، وعني بالعمارة، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير في اشبيلية .

وظل الحكم للموحدين حتى اقتسم المغرب دول ثلاث، وهي المرينية وعاصمتها فاس، والزَّيَّانية وعاصمتها تَلِمْسان، والحفصية وعاصمتها تونس .

١ خلافة ابي يعقوب من سنة ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ . (١١٦٢ - ١١٨٤ م) . ٢ خلافته من

سنة ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ . (١١٨٤ - ١١٩٨ م) .

دولة بني الأحمر (١٢٣١ - ١٤٩١ م و ٦٢٩ - ٨٩٧ هـ)

حالة الاندلس بعد الموحدين . محمد بن نصر . اتفاق مع
الاسبانيين . سقوط قرطبة . لم يبق للمسلمين غير غرناطة .
سبب بقائها طويلاً . ابو عبدالله . الفتن الداخلية . غزوات
الاسبانيين . سقوط غرناطة . الاداب في عصرهم .

زايل الموحدون الاندلس بعد انقطاع دولتهم ، فبسط محمد بن هود صاحب
بطليوس سلطانه عليها فشمّل به بطليوس و مُرسية و قرطبة و اشيلية . ولكنه كان
اضعف من ان يذود الاعداء عن مملكته ، ويجرس استقلالها ، ويرد المكاييد عنها .
فقد كان في أرجونة (Arjona) من حصون قرطبة ، قبيلة عربية من بني الاحمر ينتهي
نسبها الى الخرج ، وعميدها محمد بن يوسف بن نصر . فاتفق هذا مع الاسبانيين ان
يمدوه بجيش لقتال ابن هود على ان يتزل لهم عن بسائط الاندلس اذا استتب امره
فيها . فاعتصم الفرنج الفرصة وزحفوا بجمعهم يستولون على المدائن والحصون حتى
بلغوا قرطبة فحاصروها ستة اشهر ، ثم سقطت في ايديهم سنة ٦٣٣ هـ . (١٢٣٥ م)
بعد ان لبثت نحو عشرين سنة وخمس مائة عاصمة اسبانية المسلمة . وقتل ابن هود
في ألمرية (Almería) ولم يبق للمسلمين غير اقطاعة الاندلس وعاصمتها غرناطة ،
يتولاها ابن الاحمر امير المسلمين من قبل فردينان الثالث ، وعاشت هذه الدولة
الصغيرة ما ينيف على خمسين سنة ومائتين . ويعود ذلك على ان الملوك الاسبانيين
كانوا يُشغّلون عنها بمحاربة بعضهم لبعض ، وانها كانت تستجد سلاطين المغرب في
ضنكها فيجيزون اليها جيوشهم لدفع المسيحيين عن ارباضها .

فلما تأذن القدر بزوالها تولى امرها السلطان ابو الحسن علي بن الاحمر سنة ٨٨٨ هـ .
(١٤٨٣ م) فنازعه الملك اخوه ابو عبدالله محمد الملقب بالزغل ، وبويع له بالقامة ، فقامت
الفتنة بين الاخوين حتى خضع الزغل لاخيه .

وكان لابي الحسن زوجتان احدهما ابنة عمه عائشة ، والثانية اسبانية مسيحية

اسمها ايزابَلة، فلما اسلمت سميت الثريا . وكان يؤثرها على عائشة، ويخصها بالاكرام والمودة، حتى انه قدم احد اولادها لولاية العهد . فاحتمدت الغيرة في صدر عائشة، وفرت من القصر ومعها اولادها ولجأت الى وادي آش (Guadix) فعصدها الشعب وبائع ولدها ابا عبدالله . واعصوب الشربين حزب ابي عبدالله وحزب والده ابي الحسن، ولاسيا الثغريون^١ وبنو السراج، فقد انتصر الاولون لابي الحسن، والآخرين لابي عبدالله، فكانوا يقتتلون في الشوارع والطرق حتى جعلوا الفوضى منتشرة في البلاد . وترغم الرواية العربية ان ابا عبدالله نكب بني السراج^٢ وافناهم، وينكر ذلك المستشرقان اوغست مولر وكليمان هيوار، ويضيفان هذه النكبة، ان صحت، الى ابي الحسن .

واستمرت الحروب بين الابن وابيه حتى رجحت كفة الولد، فاقام سريره في غرناطة، ثم خرج غازياً الاسبانيين فاسروه . فاجمع اهل غرناطة على ارجاع والده، وكان لاجئاً الى مالقة، وقد ذهب بصره . فابى الملك وهو على هذه الحال، وقدم اخاه ابا عبدالله الزغل وكان شجاعاً، فحارب الاسبانيين، واثخن فيهم، فأروا ان يرموه باين اخيه ابي عبدالله، فاطلقوا سراجه، وامدوه بالعساكر، فثار يطلب الملك من عمه، فطالت بينهما الفتنة حتى استولى ابن الاخ على غرناطة، وكان العم غائباً عنها، فلما بلغه الخبر فت في عضده، وعطف الى وادي آش وتحصن بها .

واستفاد الاسبانيون من هذه الفتنة الداخلية، فوالوا غزواتهم على المسلمين، ثم ازدادوا قوة بعد ان تزوج فردينان الخامس ملك أرغون ايزابَلة الكاثوليكية ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩ م (٨٧٤ هـ) . فاتحدت مملكتان قويتان على دولة بني الاحمر، واصلوا حرباً عواناً يقود جيوشهم فيها فردينان، وتتولى ايزابَلة خدمة الجرحى بنفسها . وحوصرت غرناطة سنة ٨٩٦ هـ (١٤٩٠ م)، وسلمها ابو عبدالله في غرة ربيع الاول سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩١ م) بمعاهدة اباحت للمسلمين واليهود حرية الدين .

١ الثغريون : نسبة الى الثغر اي سكانه . ٢ على اسطورة نكبة بني السراج بنى شاتوبريان قصة آخر بني سراج .

واعطى ابو عبدالله ضيعة يقيم فيها ، فخرج واهله من قصر الحمراء^١ حزينا منخلع القلب ، ومشى مطرقاً الى منفاه ، حتى اذا انعطفت به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، ارسل اليها النظرة الاخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع . فقالت له امه عائشة : « ابك مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال . » ولا يزال هذا الموضوع يسمى الى اليوم زفرة المغربي .

واقام ابو عبدالله في ضيعته الجديدة الى سنة ٨٩٨ هـ . (١٤٩٢ م) ثم عبر البحر الى المغرب ، ونزل بفاس واتخذها مقراً حتى مات .

ولم يف ملوك اسبانية بعهد فردينان لابن الاحمر يوم فتح غرناطة ، بل طفقوا يضطهدون المسلمين ويهقونهم حتى ازعجهم عن سائر الاندلس ، وكان آخر عهدهم بها .

وامتاز عصر بني الاحمر بتعزيز الاداب ، فنبغ في دولتهم جملة من الشعراء والكتاب ، وعرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر كابني عبدالله محمد بن محمد المخلوع ثالث ملوكهم .

١ قصر الحمراء من عجائب العمارة العربية . شرع في بنائه ابو يعقوب يوسف الاول خليفة الموحدين ، واتمه من جاء بعده من الامراء والملوك ، ويعزى بناء الحصن فيه الى محمد بن يوسف اول ملوك بني الاحمر .

ميزة العصر

التعصب . الاستبداد . الحرية . التساهل .

يكاد العصر الاندلسي، على اختلاف احواله ووجوهه، يحتوي ميزة واحدة في السياسة والاجتماع، يتلون بها من اربع نواحٍ متناقضة : الا وهي التعصب والاستبداد، والتساهل والحرية . فقد كان لوجود المسلمين في بقعة تتاخمها البلاد النصرانية ويناصبهم اهلها العدا، دافع قوي لاذكاء الشعور الديني في نفوسهم، يزيد في تأريث عصبية حماة الفقهاء، وما لهم من نفاذ وسلطان . فلم يكن لسوى المسلمين ان يتولوا الخطط العالية في الاندلس، والا عرّضوا انفسهم لنقمة الفقهاء والعامّة، واصابهم ما اصاب اليهود في غرناطة لما استوزر صاحبهم يوسف بن نغزلة .

وحرس الفقهاء على سلطانهم الديني، جعلهم يثيرون العامة، ويستعدّون الخلفاء والملوك على ذوي التفكير اذا تعاطوا الفلسفة، ونظروا في القرآن، ومحصوا احكام الدين، وخرجوا بها عن الشرع والسنة . فاصبح الشعب باادي السخط على الفلاسفة يرميهم بالزندقة، ويזורّ لهم متنكراً، ويتمنى اهلاكهم . واصبح ولاة الامر اذا ارادوا التودد الى الفقهاء والعامّة، تقدموا باحراق الكتب المتهمة، وباضطهاد كل مفكر غمزت عقيدته . فراجت سوق الدسائس والوشايات، وتفاقت السعايات والمكاييد، فساد الاستبداد ولقيت حرية التفكير شراً وعتناً، فنكب من اجلها ابن رشد واصحابه، وابتعد ابن هاني عن الاندلس، ووئدت البدع فلم يكن لها حظ في الغرب كما كان لها في الشرق، وامتدت ايدي الوشاة الى رجال الدولة، فنالهم من نقمة الملوك ما نال سواهم، فنكبت طائفة من الوزراء والقضاة كابن زيدون وابن الخطيب وابن زمرّك، وسواهم .

على ان هذا لا يني مرور فترات قصيرة او طويلة يقوم فيها بالامر ملوك حزمة

عادلون ، يؤيدون حرية الفكر دون ان يغضبوا الفقهاء والعامّة فتخف الوشايات
والدسائس ، وتنتعش الفلسفة شأنها في زمن الموحدين .

وكانت الاندلس دار خصب وغنى ، وموطن حضارة ولهو وجمال . فانصرف
اهلها الى متع الحياة يتذوقونها ، فاسرفوا في طلب الميزات ، وانغمسوا في حمأ الدعارة ،
وتهمك شاعرهم وكاتبهم ، فنطقت شفاته بافحش الاقوال ، وتماذى في ذكر مجالس
اللهو والخمر والتعهر ، غير متحوب ولا وجل . ولم يجد من الملوك والفقهاء وازعاً يزع
لانهم لم يروا في عبث الناس ومجونهم ما يحشى منه على الدين ما دامت له الحرمة في
النفوس ، ولهم السلطان العزيز ، فارخوا عنان التساهل ، وباحوا حرية القول والعمل ،
فساءت الاخلاق ، وبرزت الخلاعة معصميتها ، فكان ضرر هذا التسامح ابلغ من ضرر
التعصب والاستبداد .

الشعراء الاندلسيون

ميزة الشعر

شعر الجهاد . شعر العصبية الحزبية . تقليد الاندلسيين
للمشاركة . تجديدهم . رقة شعرهم . صورهم . معانيهم
غير دقيقة .

هاجر الشعر الى الاندلس مع العرب المهاجرين ، فكان الشعراء يحضون به
الفرسان على الجهاد، ويثيرون الحماسة في صدورهم عند مواقف الاحوال ، ويعذون
به عصبية الاحزاب بين المضرية واليانية، ويجرضون الناس على الفتنة والشغب . بيد
انه ليس لدينا من هذا الشعر ما يسهل البحث فيه، والكلام عليه، الا اننا نعلم انه
لا يخرج باسلوبه ولغته ومعانيه عن الشعر الاموي في المشرق، ولا غرو فاصحابه
اسلاميون مشاركة .

وظل الاندلسيون يولون وجوههم شطر المشرق في اكثر شؤونهم ، لانه مطلع
انوارهم ، ومهد حضارتهم ، ولانهم يرون في اهل المثل الاعلى الذي ينبغي ان يقتدى
به . فراحوا يقتفون آثارهم ، وينسجون على منوالهم ، واطلقوا على بعض مدنتهم
اسماء مدن كانوا يسكنونها في الشام فسموا غرناطة دمشق ، واشيلية حمص ،
وشريش فلسطين ، وجيان قسرين .

ولم يلبث هذا التقليد ان صار منافسة ، فكاثروهم في انشاء القصور والحدائق ،
والمدارس والمكاتب ، والجوامع والمدائن ، وفي تقريب الشعراء والعلماء ، والقيان
والمغنين ، حتى انهم كانوا يسهون في استقدامهم من المشرق ليباهوا بهم دولة بني
العباس . واطلقوا على نوابغ شعرائهم القاب شعراء المشرق وكناهم ، فكان غالب

الاندلسي يكنى ابا تلام، وابن زيدون يلقب بالبحثري، وابن هاني بالمتني . ولما مات ابن هاني قال المعز الفاطمي : « كنا نريد ان نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك . » وتلقب خلفاؤهم ، وماو كههم بالقب بني العباس فكان عندهم المنصور ، والمهدي ، والمأمون ، والمعتمد ، والمعتمد وما اشبه ذلك .

وسرى حب الحديد في نفوس الاندلسيين كما سرى في نفوس اهل الشرق ، لان الجيل الذي نشأ في اوربة لم يكن عربياً خالصاً فيستمسك بالقديم استمسك العرب الصحراء الذين اقتحموا الجزيرة في عهد الفتح ، وانما كان مزيجاً من عناصر مختلفة اختلطت بالتزاوج والسكنى ، فيها العربي والبربري ، وفيها القوطي والروماني ، وفيها اليهودي واللاتيني . فكان له عقلية غير عقلية الجيل البدوي ، وتفكير غير تفكيره ، وحضارة غير حضارته . فسلك شعراء الاندلس مسلك شعراء بني العباس لتشابه الحياة بالترف والنعمة ، ولتشابه البلاد بالخصب والعمران . فوصفوا بيئتهم واحوالهم ، وتهتكوا وبالغوا في التهتك ، وابعادوا لانفسهم من المحرمات ما اباح شعراء الشرق ورغبوا مثلهم في الاغراض الجديدة ، والمعاني الحضرية عن الاغراض والمعاني القديمة ، وابدلوا من الاسلوب البدوي اسلوباً حضرياً صرفاً . ونفروا من الالفاظ الغريبة الوحشية الى الالفاظ المأنوسة الرقيقة ، ولولا الدين واللغة وبقية من دم العرب في عروقهم ، لانكروا قديمهم ايا انكار .

والعرب ابعد الناس عن نسيان قديمهم لتمكن غريزة التقليد في نفوسهم ، ثم لما يتعلق بهذا القديم من وشائج دينية وقومية ، فقد كان الشعر الجاهلي والاسلامي ديوان المفاخر القبلية ، والحجة التي لا تقزع في تفسير معاني القرآن ومعرفته غريبه . والاندلسيون فيهم عرق من العروبة ، ولهم لغة العرب ودينهم ، فلم يجدوا بداً من الحفاظ على القديم واجلال مكانته ولاسيا الطبقة الارستقراطية من الملوك والامراء والاشراف والفقهاء . فجز على شعرائهم ان يتحذروا كل التحذر بعد ان اتفر لهم الحديد في حضارتهم ، فاصابهم ما اصاب شعراء بغداد في بني العباس . فكانوا يصطنعون الحديد في الغزل والمجون والخمر ووصف الطبيعة والعمران ، وغير ذلك مما لا يتناول الملوك والامراء بمدح او رثاء ، بل ربما تركوا القديم في مدائحهم ومرثيتهم ،

فلم يحفلوا باساليب الاعراب ، ومعانيهم واصافهم ، لتبسطهم في الحضارة ، وبعد ما بينهم وبين البادية ؛ ولما كان لبيئتهم من الاثر البليغ في استدرار قرائحهم ، فمن شعوب غريبة اتخذوا عاداتها وازيائها ، الى عمارة زاهرة ملهمة ، الى طبيعة ساحرة شاعرة .

والشعر الاندلسي فيه رقة وجمال ، وفيه خيال لطيف وصور براقعة ملونة ، ولكن ليس فيه من المعاني الدقيقة ما في الشعر العباسي ، لان اصحابه عنوا بتزيين الفاظه وتوشية اوصافه ، والتنويع في قوالبه ، اكثر من عنايتهم بطلب المعاني فكأنهم ارادوا ان يتغنوا ، فنظموه صالحاً للغناء . وشيء آخر جعل الشعر الاندلسي دون الشعر العباسي في دقة المعنى وهو ان الاندلسيين لم تتسع صدورهم لاقبال الفلسفة والمنطق كما اتسعت صدور المشارقة ، فلم ينتقف بهما شعراؤهم تنتقف شعراء بني العباس . وغير خفي ما للفلسفة والمنطق من اثر في توليد المعاني ، وتوجيه الخيال .

وليس لغة الاندلسيين محكمة البناء كالغة المشارقة ، وذلك لبعد صقهم عن البادية ، ووجودهم في بيئة خالصة العجمة من الشمال الى الجنوب . ثم ان الجيل الذي نشأ هناك لم يكن عربياً صافياً وقد كان فيه جماعة استعربوا ونظموا الشعر وهم فرنجة خلص .

ولم يترك اهل الاندلس باباً من ابواب الشعر المعروفة الا قرعوه ونوعوا اغراضه وفنونه ، فنه ما ترسموا به اهل المشرق ، فواطأوهم في معانيهم ، وشاركوهم في اساليبهم ، وعارضوهم في مشهورات قصائدهم ، ولكنهم لم يبلغوا شأوهم ولا شقوا غبارهم . ومنه ما طبعوه بطابعهم الخاص ، وبدوا به المشارقة ، كوصف الطبيعة والعمران ، وثناء الممالك البائدة ، مما سنبسطه في كلامنا على فنون الشعر الاندلسي وانواعه .

المدح

اتباعهم خطة المشاركة . التصدير بالغزل ووصف الطبيعة .
طريقة الاسلوب القديم . غريبهم . المغالاة . التحلق .
شعراء المدح .

اتباع شعراء الاندلس في مدائحهم الخطة التي جرى عليها المشاركة ، فحافظوا
مثلهم على الاسلوب القديم ، وعنوا بالاستهلال وحسن التخلص ، واحكام البناء
وشد اسره ، والتزموا الغزل في محاريب مدائحهم ، وربما جعلوا صدورها وصفاً للخمرة ،
او للطبيعة او للبلد الذي نشأ فيه الشاعر .

واذا شذ بعضهم عن هذا السبيل ، فاستهل بالمدح من غير توطئة ، عابوا عليه
ذلك ، وعنفوه . فقد مدح هلال البلياني شاعر غرناطة ابن حمدين قاضي قرطبة
بقصيدة اولها :

عَرَجَ عَلَى ذَاكَ الْجَنَابِ الْعَالِي ، وَأَحْكُمَ عَلَى الْأَمْوَالِ بِالْأَمَالِ
فِيهِ ابْنُ حَمْدِينَ الَّذِي لِتَوَالِهِ ، مِنْ كُلِّ أَرْضٍ شَدَّ كُلُّ رَحَالٍ ١

فقال له القاضي : « ما هذا الوثوب على المدح من اول وهلة ! الاتدري انهم عابوا
ذلك كما عابوا الطول ايضاً ، وان الاولى التوسط » .

ووصفوا الفلاة والناقة والجواد جرياً مع الاسلوب القديم ، وحثوا على بادية
الاعراب وداراتها ، ولكنهم لم يستفيضوا في وصفهم هذا بل اقتصدوا كل الاقتصاد .
ولم يفرطوا في استعمال الغريب افراط المشاركة ، ولا اغرقوا في المغالاة اغراقهم
الا ما كان من ابن هاني فانه تعمد الغريب تعمداً ، وخرج في غلوه الى الاحالة ، محتذياً
على مثال ابي الطيب المشنبي . وكان هذا الشاعر مغموز العقيدة ، فرمي بالزندقة واخرج

١ الجناب : فناء الدار ، وما قرب من محلة القوم . قوله بالأمال : اي بآمالك .

٢ نواله : عطائه .

من الاندلس، فجا. المغرب، واتصل بالمعز لدين الله الفاطمي. والفاطيون من الشيعة الغالية التي تعتقد الحلول في الأئمة، ومنهم المهدي جد المعز. فكان ابن هاني يجاري عقيدة الفاطميين في الحلولية، ويضع المعز في مقام الانبياء والرسل، ويجعل له قوة وتأيداً من روح الله فيقول:

مَا شِئْتُ لَا مَاشَاءَ الْأَقْدَارُ، فَأَحْكُمُ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
وَكَاثِمًا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، وَكَانَنَا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ

او يقول، وكان المعز في رقادة من ارض المغرب:

حَلَّ رَقَادَةَ الْمَسِيحِ، حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْعَالِي، وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وربما خلطوا الفاظ النسيب بالفاظ المدح، فعل القزاز عندما امتدح المعتصم بن حماد^١ بقوله:

نَفَى الْحُبُّ عَن مُقَلَّتِي الْكَرَى، كَمَا قَدْ نَفَى عَن يَدَيَّ الْعَدَمُ^٢
فَقَدْ قَرَّ حُبُّكَ فِي خَاطِرِي، كَمَا قَرَّ فِي رَاحَتِكَ الْكَرَمُ

ويحتمون قصائدهم على الغالب باهدائها الى الممدوح، مشبهينها ببكر حسناء، او روضة غناء. قال ابن عمار في كلمة مدح بها المعتضد بن عباد:

وَالْيَكْهَا كَالرَّوْضِ زَارَتُهُ الْأَصْبَا، وَحَنَى عَلَيْهِ الْبُلُّ حَتَّى نَوَّرَا^٣

ولم يخل مدحهم من تملق وخنوع، واستعطاف.

واشتهر في المدح من شعراء بني امية ابن عبد ربه^٤ واحمد بن شهيد^٥ وابن

١ المعتصم بن حماد: احد ملوك الطوائف. كانت مملكته صغيرة تشتمل على المراتية وبجاية والصنادحية، ولكنه كان كريماً مقرباً للشعراء، فقصده ومدحوه. توفي سنة ٤٨٦هـ. (١٠٩١م). ٢ الحب: اي حب المعتصم. العدم: الفقر. ٣ البُلُّ: المطر الضعيف، والندى. نور: اخرج نوره، والنور: الزهر. ٤ احمد بن عبد ربه (القرطبي) ولد سنة ٢٦٦هـ. وتوفي سنة ٣٢٨هـ. (٨٦٠-٩٣٩م) وجده من موالي هشام بن عبد الرحمن الداخل. اشهر اثاره العقد الفريد، وله ديوان شعر جيد. ٥ احمد بن عبد الملك بن شهيد الاشجعي القرطبي، وزير الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر واول من تسمى بذي الوزارين في الاندلس.

هاني^١ . ومن شعراء الدولة العامرية في قرطبة ابن درّاج القسطلي^٢ وابو عامر بن شهيد^٣ . ومن شعراء ملوك الطوائف ابن زيدون^٤ ، وابن عمار^٥ ، وابن اللبانة^٦

- ١ هو ابو القاسم محمد بن هاني الازدي الاندلسي الملقب بمتنبي الغرب، ولد باشبيلية سنة ٣٢٦ هـ . وتوفي في برقة من المغرب سنة ٣٦٢ هـ . (٩٣٧-٩٧٢ م) . اتصل بصاحب اشبيلية في ايام الحكم المستنصر ثم رمي بالزندقة لاختذه بذهاب الفلاسفة ، فخرج من الاندلس ، فاجتاز البحر الى عدوة المغرب ، واتصل بالمعز لدين الله الفاطمي . من اثاره ديوان شعر مشهور . (٢) هو ابو عمر احمد بن دراج الاندلسي القسطلي . كان كاتب المنصور بن ابي عامر وشاعره ، وهو معدود من الفحول . ولد سنة ٣٤٧ هـ . وتوفي سنة ٤٢١ هـ . (٩٥٨-١٠٣٠ م) .
- (٣) هو ابو عامر بن ابي مروان بن شهيد حفيد احمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر . ولد سنة ٣٨٢ هـ . وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ . (٩٩٢-١٠٣٤ م) . اتصل بالموثق عبد العزيز بن عبد الرحمن بن ابي عامر وكتب له . وكان بارعا في الشعر والنثر متقنا في التصانيف واشهرها التوابع والزوابع . هو ابو الوليد احمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي الاندلسي القرطبي . كان ابوه من وجوه الفقهاء بقرطبة . وبرع ابن زيدون في الشعر والترسل ، وتقلد الوزارة في عهد الدولة الجهورية بعد انحلال ملك بني امية . ثم دس عليه حساده فسيجنه ابن جهور فهرب من سجنه ، وترك قرطبة الى اشبيلية ، واتصل بالمعتضد بن عباد ، ثم صار وزيرا لابنه المعتمد . ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ . وتوفي باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ . (١٠٠٣-١٠٧٠ م) .
- ٥ هو ذو الوزارتين ابو بكر محمد بن عمار ، استوزره المعتمد بن عباد ، وكان المعتمد واليا على شلب من قبل ابيه . وساءت سمعة ابن عمار والمعتد فنفى المعتضد ابن عمار في اقاصي بلاد الاندلس ، ولما توفي المعتضد وصار الملك الى المعتمد ، دعا اليه ابن عمار ، وولاه شلب ثم استوزره ، وقاد جيوشه . ثم خطر له ان يملك بلنسية بعد ان فتحها ، ويخلع طاعة المعتمد . فقبض عليه المعتمد وسجنه ، فاخذ يستعطفه بقصائد شهيرة ، فلان المعتمد وعفا عنه ثم رجع عن عفوه وقتله بيده سنة ٤٧٧ هـ . (١٠٨٤ م) وكانت ولادته سنة ٤٢٢ هـ . (١٠٣٠ م) .
- ٦ هو ابو بكر بن اللبانة من دانية في الاندلس ، اتصل بالمعتضد بن عباد ، وكان المعتمد يميزه ويستعذب شعره . ولما نكب المعتمد وحبس في المغرب وفي له ابن اللبانة ، ورحل اليه يؤنس شعره ويؤاسيه ، ويشكر له ما ناله من صلته في دولته . واتصل بغير المعتمد من ملوك الطوائف .

وابن حمديس^١ ، وابن الحداد^٢ ، وابن عبدون^٣ . ومن شعراء بني الاحمر ابن الخطيب^٤ وابن زمرك^٥ .

ونورد هنا مثالين على المدح، تبدو فيهما ميزة هذا الفن عندهم، وهي لا تكاد تختلف عن ميزة المدح عند المشاركة . قال ابن دراج يمدح الخاجب المنصور بن ابي عامر، معارضاً رأيته ابي نواس في الخصب^٦ :

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ التَّوَاءَ هُوَ التَّوَى ، وَأَنَّ بُيُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ^٧ ؟
تُحَوِّفُنِي طَوْلَ السِّقَّارِ وَإِنَّهُ لَتَقْصِيلُ كَفِّ الْعَامِرِيِّ سَفِيرُ
ومنها يصف وداعه لزوجته ، ويصور طفله في المهد اربع تصوير ، ثم يعطف الى وصف سفره في القفر والحر^٨ :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّهُ زَفِيرُ^٩

١ هو ابو محمد عبد الجبار بن حمديس الازدي . ولد في جزيرة صقلية سنة ٤٤٧ هـ . (١٠٥٥ م) وجاء الاندلس سنة ٤٧١ هـ . (١٠٧٨ م) واتصل بالمعتصم بن عباد في اشبيلية ، ونال منه سني الجوائز . وتوفي سنة ٥٢٧ هـ . بجزيرة ميورقة (١١٣٢ م) . ٢ هو ابو عبدالله محمد بن الحداد من شعراء المعتصم بن صامح وابنه معن ولم يكن مبتدلاً في مدحه ولا متغالياً . توفي سنة ٤٨٠ هـ . (١٠٨٧ م) . ٣ هو ابو محمد عبد المجيد بن عبدون القهري وزير بني الافطس في بطليوس وشاعرهم توفي سنة ٥٢٠ هـ . (١١٢٦ م) . ٤ هو ذو الوزارتين لسان الدين محمد بن عبدالله المعروف بابن الخطيب ، شاعر محمد بن ابي الحجاج احد ملوك بني الاحمر ، ووزيره . وشي به حساده ومنهم تلميذه ابن زمرك . فنكبه السلطان فهرب الى المغرب ، ثم سجن بفاس وخنق في سجنه سنة ٧٧٦ هـ . (١٣٧٤ م) وكانت ولادته بغرناطة سنة ٧١٣ هـ . (١٣١٣ م) . ٥ هو ابو عبدالله محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك ولد في غرناطة سنة ٧٣٣ هـ . (١٣٣٢ م) . واتصل بالوزير لسان الدين بن الخطيب ، وافاد منه ادباً وعلماً وشهرة . وعهد اليه محمد بن ابي الحجاج في كتابة سره . وهو الذي وشى بابن الخطيب ولي نعمته . ثم قم عليه السلطان فقتله شر قتله سنة ٧٩٦ هـ . (١٣٩٣ م) . ٦ هي القصيدة التي يقول ابو نواس فيها :

ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ ، إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصْبُ أَمِيرُ
إِذَا لَمْ تَرُزْ أَرْضَ الْخَصْبِ رَكَابُنَا ، فَأَيُّ فِتْنٍ بَعْدَ الْخَصْبِ تَرُورُ ؟
٧ التَّوَى : هلاك المال والعُدَم . ٨ هفا بصبري : ذهب به .

تَنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى ،
 عَيْي بِمَرْجُوعِ الْخَطَابِ ، وَلَحْظُهُ
 تَبَوَّأَ مَمْنَعِ الْقُلُوبِ ، وَمَهَّدَتْ
 فَكُلُّ مُقَدَّاتِ التَّرَائِبِ مُرْضِعٌ ،
 عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ ، وَقَادَنِي
 وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ بِي ، وَهَفَّتْ بِهَا
 لَيْنٌ وَدَعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي ،
 وَلَوْ شَهِدْتَنِي ، وَالْهَوَا جُرْتُ تَلْطِي
 أُسْلِطْ حَرَّ الْهَاجِرَاتِ ، إِذَا سَطَا ،
 وَأَسْتَشْقِ النُّكْبَاءَ ، وَهِيَ لَوَافِحُ ،
 وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الْجَبَانِ تَلَوْنُ ،

وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ الْبَدَاءِ صَغِيرٌ^١
 بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ الْنُفُوسِ خَيْرٌ^٢
 لَهُ أَذْرَعُ مَحْفُوفَةٌ ، وَنُحُورٌ^٣
 وَكُلُّ مُجَيَّاتِ الْمَخَاسِنِ ظَيْرٌ^٤
 رَوَّاحٌ لِتَدَابِ السُّرَى ، وَبُكُورٌ
 جَوَانِحُ مِنْ دُغْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ^٥
 عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا ، أَعْيُورٌ^٦
 عَلَيَّ ، وَرَقْرَاقُ السَّرَابِ يَمُورُ^٧
 عَلَى حُرِّ وَجْهِي ، وَالْأَصِيلُ هَجِيرٌ^٨
 وَأَسْتَوْطِي الرَّمْضَاءَ ، وَهِيَ تَقُورُ^٩
 وَلِلدُّعْرِ فِي سَمْعِ الْجُرِيِّ صَفِيرٌ^{١٠}

١ مَبْغُومٌ : لا يفصح في حديثه عن معنى . ٢ بِمَرْجُوعِ الْخَطَابِ : اي بجوابه . ٣ مَمْنُوعُ
 الْقُلُوبِ : اي القلب الحصين العزيز الجانب . اذرع محفوفة : قد تكون من باب المجاز
 العقلي أُسْنَدَ فِيهِ إِلَى الْفَاعِلِ مَا بَنِيَ لِلْمَفْعُولِ ، وَالْمُرَادُ أَذْرَعُ حَافَّةً ، كَمَا تَقُولُ حِجَابُ
 مُسْتَوْرٍ أَيْ سَاتِرٌ . أَوْ قَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى مَقْشُورَةٍ ، لَا شَعْرَ فِيهَا ، مِنْ حَفَّتِ الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا مِنْ
 الشَّعْرِ : قَشَرَتْهُ ، وَالْمُرَادُ أَذْرَعُ نَاعِمَةٌ نَقِيَّةُ اللَّوْنِ . أَوْ أَمَّا مَحْفُوفَةٌ بِالْقَافِ الْمَثْنَاءُ : أَيْ أَذْرَعُ
 مَثْنِيَّةٌ مَحْنِيَّةٌ لِلْحَمْلِ الرُّضِيعِ . وَلَكِنْ خَفَّفَ لَمْ يَرِدْ مُتَعَدِّيًا فِي كِتَابِ اللَّفْظِ . ٤ ظَيْرٌ : مُخَفَّفٌ
 ظَائِرٌ : الْعَاطِفَةُ عَلَى وَلَدٍ غَيْرِهَا الْمَرْضُوعَةُ لَهُ . ٥ هَفَّتْ : خَفَّتْ . الْجَوَانِحُ : ضُلُوعُ الصَّدْرِ
 تَحْتَ التَّرَائِبِ وَاحِدَتُهَا جَانِحَةٌ . ٦ يَقُولُ : أَنْ حَزَنَهَا عَلَيْهِ وَهُوَ رَاحِلٌ بِمَقَرِّ مَضَاءِ عَزَمَةٍ ،
 فَهُوَ يَفَارُ عَلَى عَزَمَتِهِ فَمَا يَرِيدُ أَنْ تَحْقِرَ بِحَزَنِهَا ، كَمَا أَنَّهُ يَفَارُ عَلَيْهَا هِيَ ، فَلَا يَرِيدُ أَنْ تَكُونَ
 لِفَيْدَةٍ . ٧ الرُّقْرَاقُ : كُلُّ شَيْءٍ لَهُ بَصِيصٌ وَتَلَاوُؤٌ . يَمُورُ : يَتَحَرَّكُ مُتَرَدِّدًا . وَالسَّرَابُ يَظْهَرُ
 إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ . ٨ يَقُولُ : أَنَّهُ يَسْتَقْبِلُ حَرَّ الْهَوَا جُرْتُ بِوَجْهِهِ الْحَرِّ ، أَيْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ الْخَالِصِ ،
 وَقَدْ سَطَا الْحَرُّ وَبَلَغَ مِنْ شِدَّتِهِ أَنْ صَارَ الْأَصِيلُ هَجِيرًا . ٩ النُّكْبَاءُ : رِيحٌ بَيْنَ رِيحَيْنِ .
 لَوَافِحُ : مَحْرُوقَةٌ فِي هَبْوِهَا . وَقَوْلُهُ لَوَافِحُ بِالْجَمْعِ لِأَنَّ النُّكْبَاءَ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثِ رِيَاحٍ .
 اسْتَوْطِي الرَّمْضَاءَ : أَجْدَاهَا وَطِيئَةً أَيْ سَهْلَةً لَيِّنَةً . الرَّمْضَاءُ : الْأَرْضُ الْخَالِدَةُ الْخَامِيسَةُ مِنْ شِدَّةِ
 الْحَرِّ . تَقُورُ : تَعْلِي . ١٠ يَقُولُ : أَنَّ الْجَبَانَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ مِنَ الشَّدَةِ يَتَصَوَّرُ لَهُ
 الْمَوْتُ الْوَأَنَّا شَقِيٌّ ، حَتَّى أَنْ الشَّجَاعَ عَلَى جَرَأَتِهِ لَا يَسْلَمُ مِنَ الْخَوْفِ . يَرِيدُ أَظْهَارَ شَجَاعَتِهِ
 وَصَبْرِهِ فِي الْأَهْوَالِ .

لَبَّانَ لَهَا أَيَّيَّ مِنَ الْبَيْنِ جَارِعٌ ، وَأَيَّ عَلَى مَضِّ الْخُطُوبِ صَبُورٌ ١

ومنها في المدح :

وَلَمَّا تَرَامُوا لِلِسَّلَامِ وَرَفَعَتْ ، عَنْ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ الشَّرُوقِ سُتُورٌ ٢
وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ دُونُهُ ، صُفُوفٌ ، وَمِنْ بَيْضِ السُّيُوفِ سَطُورٌ ٣
رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ اعْتَرَاذُهَا ، وَكَيْفَ اسْتَوَى بِالْبَدْرِ وَالْبَحْرِ مَجْلِسٌ ٤
يَقُولُونَ ، وَالْأَوْجَالُ تُخْرِسُ السُّنَا ، وَقَامَ بَعْبُ الرَّاسِيَّاتِ سَرِيذٌ ٥
لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامُ الْهَدَى بِكَ حَاطٌ ، وَحَارَتْ عُيُونٌ مِنْهُمْ وَصُدُورٌ ٦
وَقَدَّرَ فِيكَ الْمَكْرُمَاتِ قَدِيرٌ ٧

وقال ابن عمار يمدح المعتضد بن عباد :

أَدِرِ الرُّجَا جَعَةً ، فَالْتَسِيمُ قَدْ أَنْبَرَى ، وَالتَّجَمُّ قَدْ صَرَفَ الْعِنَانَ عَنِ السَّرَى ٨
وَالصُّنْبُجُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَافُورَهُ ، لَمَّا اسْتَدَدَّ اللَّيْلُ مِنَّا الْعَبْرَا ٩
وَالرُّوْضُ كَالْحَسَنَاءِ كَسَاهُ زَرْهُرُهُ ، وَشَيْءٌ ، وَقَلَدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرَا ١٠

- ١ يقول : لعرفت اني صبور على الم الخطوب ، وان كنت فاقد الصبر عند فراقتها .
- ٢ يريد ان ممدوحه ظهر للناس الذين اقبلوا للتسليم عليه كالشمس ، وشبه مجلسه بافق الشروق .
- ٣ يقول : ان الحراس حوله بالرماح والسيوف ، يريد اظهار هيبة مجلسه .
- ٤ يقول : رأى الناس كيف اعتراز من يطيع الله ، وكيف تضيء علامات صنائع الله في عباده الطائعين ويريد بهذه العلامات نعم الله على ممدوحه .
- ٥ يقول : ورأوا كيف استقر المجلس بالبدر والبحر معاً ، وهما مستعاران للممدوح بجامع الشهرة والجود . وكيف حمل العرش جبلاً راسيات . وهي مستعارة بجامع الرزانة والثبات .
- ٦ الاوجال : جمع الوجل وهو الخوف .
- ٧ اعلام : جمع علم وهو شيء في الطريق يهتدى به . وقوله : حاط يريد به الله تعالى . وقدر فيك المكرمات : اي وحكم لك بها .
- ٨ انبرى : والمراد هب . السرى : السير ليلاً ، والمراد انه طلع الصباح ، وغاب النجم بعد ان كان مطلقاً عنانه للسير في الظلام .
- ٩ الكافور : شيء يشبه الصمغ ابيض صلب يستخرج من اشجار في الهند والصين . وقد تعود الشعراء ان يستعبروا لونه لنور الصباح ، كما اعتادوا ان يستعبروا العنبر لظلام الليل .
- ١٠ شبه قطرات الندى عند الصباح باللاتي .

رَوْضٌ كَانَ النَّهْرُ فِيهِ مِعْصَمٌ
وَتَهَزُّهُ رِيحُ الصَّبَا ، فَتَحَالُهُ
مَلِكٌ إِذَا أَزْدَحَمَ الْمُلُوكُ بِمَوْرِدٍ ،
أَنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ الْأَنْدَى ،
يَخْتَارُ ، إِذْ يَهْبُ الْخُرَيْدَةُ ، كَاعِبًا ،
قَدَّاحٌ زَنْدُ الْمَجْدِ لَا يَنْفَكُ عَنْ
لَا خَلْقَ أَفْرَى مِنْ شِفَارِ حَسَامِهِ ،
أَيَقُنْتُ أَنِّي مِنْ ذَرَاهُ بِجَنَّةٍ ،
وَعَلِمْتُ حَقًّا أَنَّ رَبِّي مُخَصَّبٌ ،
مَنْ لَا تُوَارِثُهُ الْجِبَالُ إِذَا أَحْتَبَى ،

صَافٍ أَطْلَّ عَلَى رِدَاءٍ أَخْضَرَ ١
سَيْفَ ابْنِ عَبَّادٍ يُبِيدُ عَسْكَرًا ٢
وَنَحَاهُ ، لَا يَرِدُونَ حَتَّى يَصُدُّوا ٣
وَالَّذِي فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَّةِ الْكَرَى ٤
وَالْطَّرْفِ ، أَجْرَدٌ ، وَالْحَسَامُ ، مُجَوَّهَرًا ٥
نَارِ الْوَعَى ، إِلَّا إِلَى نَارِ الْقَرَى ٦
إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَ الْمَوَاكِبَ أَسْطَرًا ٧
لَمَّا سَقَانِي مِنْ نَدَاهُ الْكَوْثَرَا ٨
لَمَّا سَأَلْتُ بِهِ النِّعَمَ الْمُنْطَرَا ٩
مَنْ لَا تُسَابِقُهُ الرِّيحُ إِذَا جَرَى ١٠

١ شبه النهر المحتد في الروض بمعصم اليد . وشبه الروض حوله برداء أخضر . ٢ يقول :
تهز الريح هذا النهر فتتموج مياهه طرداً وعكساً فكأن النهر سيف المدوح ، وكأن هذه
الأمواج في اضطرابها ونلشها عسكر يبدده المدوح بسيفه . ٣ نحوه : قصده . يصدر :
يرجع عن الماء ضد يرد . يبين شرف مدوحه فيقول : إذا ازدحم الملوك بمورد ، وقصد
ابن عباده هذا المورد ، توقف الملوك هيبة له فلا يشربون إلا بعد رجوعه عن الماء ، وهذا
معنى بدوي قديم . ٤ اندى : أكثر خيراً ولطافة وبرودة . السنة : ابتداء النعاس في
الرأس . يقول : هذا الملك أطيب للأكباد الحارة من قطر الندى ، والذي في العيون من النعاس .
٥ الخريدة : البكر . كاعباً : ناهداً ، وهي مفعول يختار . الطرف : الكرم
العتيق من الخيل . ٦ القرى : الضيافة . ٧ أفرى : اقطع . وقوله : إن كنت شبيحت
المواكب أسطراً ، أي إن كانت الحيوش تشبه السطور في اصطافها ، فإنه إذا ضربها بسيفه
يقطعها سطرًا سطرًا ، وفي ذلك غلو قبيح . ٨ ذراه : كنفه . الكوثر : نهر في الجنة
عند المسلمين . روي : « أنه أحلى من العسل ، وأبيض من اللبن ، وأبرد من الثلج ، والين من
الزبد ، حافتاه من الزبرجد ، وأوانيه من فضة ، لا يظأ من شرب منه » . وكفى بالكوثر هنا
عن الشراب اللذيذ الذي يسقيه إياه مدوحه ، أو عن العطايا السنية ، حتى ظن نفسه في الجنة .
٩ جرد من مدوحه غمماً مطراً يخصب ربه . ١٠ احتبى : جلس عاقداً حبوته . والاحتباء
أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه إذا جلس ليصير كالاستند . ويكون الاحتباء باليدين أو
بعمامة أو بثوب أو بسيف ونحوه . يقول : إن مدوحه إذا جلس للشورى والحديث ، كان
عقله أذن من الجبال . وإذا جرى للحروب والغارات كان أسرع من الرياح .

تَنْبُو ، وَأَيْدِي الْحَيْلِ تَعُزُّ فِي الْبَرَى ^١
 كَالرَّوْضِ يَحْسُنُ مَنظَرًا أَوْ مَخْبَرًا
 وَجَنَّتْ بِهِ رَوْضَ الشُّرُورِ مُتَوَرًّا ^٢
 إِلَّا الْيَهُودَ ، وَإِنْ تَسَمَّتْ بَرًّا ^٣
 لَمَّا رَأَيْتَ الْغَضْنَ يُعْشَقُ مُشِيرًا
 لَمَّا عَلِمْتَ الْحُسْنَ يَلْبَسُ أَحْمَرًا
 وَفَتَقَتْهَا مِنْكَ بِحَمْدِكَ أَذْفَرًا ^٤
 وَحَنَّا عَلَيْهِ الْأَطْلُ حَتَّى نَوْرًا ^٥

مَاضٍ ، وَصَدْرُ الرُّمَحِ يَكْهَمُ ، وَالظُّبَى
 مَلِكٌ يَرُوقُكَ خَلْقُهُ أَوْ خُلُقُهُ ،
 هَصَرَتْ يَدِي غَضَنِ النَّدَى مِنْ كَفِّهِ ،
 شَقِيتَ بِسَيْفِكَ أُمَّةً لَمْ تَعْتَقِدْ
 أَثْمَرَتْ رُمَحَكَ مِنْ رُؤُوسِ كَمَا تِهِمُ ،
 وَصَبَغَتْ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءٍ مُلُوكِهِمُ ،
 نَمَقَتْهَا شَيْئًا بِذِكْرِكَ مُذْهَبًا ،
 وَإِلَيْكَهَا كَالرَّوْضِ زَارَتْهُ الصَّبَا ،

١ ماضٍ : اي ماضٍ في الحروب . يكهم : يكل . البرى : التراب . ٢ متورا :
 مزهرا . ٣ يطعن على البربر ، لانهم خرجوا على الممدوح ويرميهم باليهودية . ٤ فتقتها :
 اي القصيدة . فتقتها : خلطتها . أذفر : شديد الرائحة . ٥ الطل : الندى ، او المطر
 الضعيف . نور : ازهر .

الرثاء

طريقة المشاركة . حكمهم في الاستهلال . تفوقهم برثاء
الممالك الزائلة . شعراء الرثاء .

لا يختلف الاندلسيون عن المشاركة في رثاء الميت ، والتفجع عليه ، والمغالة في وصفه ، ووصف الرزء به فالاسلوب والتفكير واحد ، والمعاني والتعابير متواظفة . وربما عرض شعراء الاندلس الى الاحداث التي نزلت بالامم الخالية فابادتها ، او قوضت عروش ملوكها ، وصرعت قرومها وابطالها . وهم انما يقصدون التأسية ، بتعداد فواجع الدهر ، ومصارع الرجال ، وهذا قديم في الادب العربي .

ويستهلون مرثيهم بالحكم كالمشاركة ؛ وحكمهم في الغالب ساذجة مبتذلة ، تعود في اكثرها على شكوى الدهر ، وعدم الركون الى الايام . بيد انهم فاقوا المشاركة برثاء الممالك البائدة لما في نفوسهم من محبة صادقة لوطنهم ، وشغف عظيم بجمال طبيعته وعمرانه . فكان يشجيههم ان يروا ديارهم تسقط بلداً اثر بلد في ايدي الغرباء من غزاة ومكتسحين ؛ فيبكون عليها ويتفجعون كما بكى ابن اللبانة على دولة العباديين ، وابن عبدون على دولة بني الافطس ، عندما ازالها يوسف بن تاشفين ؛ وكما بكى ابو البقاء الرندي على مدن الاندلس بعد ان استردها النصارى ، وازعجوا عنها المسلمين .

وفي هذه القصائد الثلاث لوعة صادقة ، وتفجع اليم ، ولاسيا نونية الرندي ، فان العاطفة الدينية ، زادت روعة والثناء . وفي هذه القصائد الثلاث تكاد تجتمع خصائص الرثاء في الشعر الاندلسي . فمن حكم ساذجة وضرب امثال الى ذكر الشعوب السالفة التي اهانها الدهر ، الى امعان في تعظيم الخطب حتى الاغراق . واليك منتخبات منها تطلعك على ميزة الرثاء عندهم ، ولاسيا رثاء الممالك .

قال ابن اللبانة يرثي دولة بني عبّاد ، ويذكر خروج المعتمد من اشبيلية ، وحمله الى المغرب اسيراً ، والناس قد حشروا بضفتي الوادي ، فيكون على الملك المنكوب :

تَبْكِي السَّمَاءَ بِمُزْنٍ رَائِحِ عَادٍ ،
 عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هَدَّتْ قَوَاعِدَهَا ،
 يَا ضَيْفُ ، أَقْفَرُ بَيْتُ الْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ
 وَيَا مُوَمِّلَ وَاذِيهِمْ لَيْسَكُنْهُ ،
 وَأَنْتَ يَا فَارِسَ الْحَيْلِ الَّتِي جَعَلْتَ
 أَلْقَى السِّلَاحَ ، وَخَلَّ الْمَشْرِفِيُّ فَقَدْ
 إِنْ يُخْلَعُوا فَبْنُو الْعَبَّاسِ قَدْ خُلِعُوا ،
 حَمَوْا حَرِيمَهُمْ حَتَّى إِذَا غَلَبُوا ،
 نَسِيتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنُهُمْ
 وَالنَّاسُ قَدْ مَلَأُوا الْعَبْرَيْنِ ، وَاعْتَبَرُوا
 حُطَّ الْقِتَاعُ ، فَلَمْ تُسْتَرْ مُحَدَّرَةٌ ،
 حَانَ الْوَدَاعُ ، فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ ،
 سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ ، وَالنُّوحُ يَضْحَكُهَا ،
 كَمْ سَالَ فِي الْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ ، وَكَمْ حَمَلَتْ

عَلَى الْبَهَائِلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَادٍ^١
 وَكَانَتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادٍ^٢
 فِي ضَمِّ رَحْلِكَ ، وَاجْتَمَعَ فَضْلَةُ الزَّادِ
 خَفَّ الْقَطِينُ وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي
 تَخْتَالُ فِي عُدَدٍ مِنْهَا وَأَعْدَادٍ^٣
 أَصْبَحْتَ فِي لَهَوَاتِ الضَّيْغَمِ الْعَادِي^٤
 وَقَدْ خَلْتَ قَبْلَ حِمَصٍ أَرْضُ بَغْدَادٍ^٥
 سَيِّقُوا عَلَى نَسَقٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادٍ^٦
 فِي الْمُنْشَآتِ كَأَمْوَاتٍ بِالْأَحَادِ^٧
 مِنْ لَوْلُو طَافِيَاتٍ فَوْقَ أَزْبَادٍ^٨
 وَمَزَقَتْ أَوْجُهُ تَمْزِيقَ أَبْرَادٍ^٩
 وَصَارِخَ ، مِنْ مَفْدَاةٍ ، وَمِنْ فَادٍ
 كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَخْدُو بِهَا الْعَادِي
 تِلْكَ الْقَطَائِعُ مِنْ قَطَعَاتِ أَكْبَادٍ^{١٠}

١ المزن : السحاب ذو المطر . البهاليل : السادات الجامعين لكل خير ، مفردھا مجهول .
 ٢ اوتاد الارض : جبالها ، ومن البلاد رؤساؤها . ٣ يقول : تختال فيما هي عليه من سلاح وعدد كثير . ٤ اللهوات . جمع لهاة : اللحمة المشرفة من اعلى النعم ، واريدها هنا القم على الاطلاق ، وجمعت لان الضيغم هنا بمعنى العدو المغير ، يعبر به عن الواحد والجمع .
 ٥ حمص : هي إشبيلية . ٦ المعنى : انهم اسروا وسيقوا منظوماً بعضهم الى بعض بالجبال .
 ٧ المنشآت : السفن . يقول : نسيت كل شيء الا يوم النهر حين رأيتهم في السفن كالموات في القبور ، وهو اليوم الذي غلبوا فيه وحملوا الى سفائن النهر الكبير لتقلعهم اسرى .
 ٨ العبرين : ضفتي النهر . اعتبروا : تعجبوا . اللؤلؤ : اراد به نساء المعتد شبههن باللؤلؤ لجالهن ورويقهن وبياضهن . ازباد : جمع زبد : رغوة البحر ، ويراد بها هنا البحر على الاطلاق . ٩ ابراد : جمع برد وهو الثوب . يقول : ان نساء المعتد لشدة حزنهن ، وفجيعةهن ، كانت سافرة غير مقنعة تمزق وجوهها باظافرها كما تمزق الاثواب . ١٠ (قطائع : جمع القطيعة وهي الحجران ، واراد بها هنا السفن التي تقطع بين الاهل والخلان .

وقال ابن عبدون يرثي دولة بني الافطس :

أَلَدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ ، فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ ؟^١
 فَلَا يُغْنِيكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمَتُهَا ، فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنَيْهَا سِوَى السَّهَرِ
 مَا لِلْيَالِي ؟ أَقَالَ اللَّهُ عَثَرَتَنَا ، مِنْ اللَّيَالِي ، وَخَانَتْهَا يَدُ الْغَيْرِ^٢
 كَمْ دَوْلَةٌ وَلَيْتَ يَأْتِضِرْ خِدْمَتُهَا ، لَمْ تُبْقِ مِنْهَا ، وَسَلْ ذِكْرَاكَ عَنْ خَيْرِ^٣
 هَوَتْ بَدَارًا ، وَفَلَتْ غَرْبَ قَاتِلِهِ ، وَكَانَ عَضْبًا عَلَى الْأَمْلَاقِ ذَا أَثَرِ^٤
 وَأَسْتَرْجَعْتَ مِنْ بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبْتَ ، وَلَمْ تَدْعَ لِبَنِي يُونَانَ مِنْ أَثَرِ^٥

ومنها يتلطف على ابناء المظفر، وهم ملوك بني الافطس :

بَنِي الْمَظْفَرِ ، وَالْأَيَّامُ مَا بَرِحَتْ مَرَّاحِلًا ، وَالْوَرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرِ
 سُحْقًا لِيَوْمِكُمْ يَوْمًا وَلَا حَمَلَتْ بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي غَايِرِ الْعُمُرِ^٦

١ العين : ذات الشيء ونفسه، ومن امثالهم لا تطلب اثرًا بعد عين يضرب لمن ترك شيئًا يراه ثم تبع اثره بعد فوت عينه . وقوله : فَمَا الْبُكَاءُ اي فَمَا يَجْدِي الْبُكَاءُ . ٢ الْغَيْرِ : احداث الدهر . ٣ الضمير في وليت يعود على الليالي ، وفي خدمتها يعود على الدولة . يقول : كم خدمت الليالي دولة فنصرتها ثم قلبت لها ظهر المجن فاذا التها . ٤ دارا : اسم لعدة ملوك من الفرس . ولعله يريد دارا (الثالث الذي مات مقتولاً سنة ٣٣٠ ق . م . غدر به بسوس امير بختران وهي ولاية من مملكته . وكان قد لجأ اليها في فراره من الاسكندر ذي القرنين بعد انكساره في واقعة اربل . اما الرواية العربية ، فتعزو قتله الى الاسكندر، ذكر ذلك المسعودي في مروج الذهب . فالشاعر هنا يريد بقاتله اسكندر المقدوني لا بسوس . الغرب : الحد . عضبًا : سيفًا قاطعًا . الاملاك : جمع ملك . الاثر : هنا الخبر . ولعله اراد الاثر وحركه للشعر . والاثر : جوهر السيف ورونقه . شبه الاسكندر بسيف قاطع ذي رونق يهوي على رؤوس الملوك، او له خبر عظيم مع الملوك . ٥ ساسان : قيل انه ملك من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ، ونهب كل ما كان له واستولى على ملكه فصار رجلاً من العامة فقيراً يتردد في الاحياء ويستعطي فضرب به المثل ، ونسب اليه كل من تكدى وباشر امرًا حقيرًا ؛ فيقال فلان من بني ساسان وان لم يكن من اولاده . ٦ سُحْقًا : بعدًا . ليومكم : اي اليوم الذي زلتم فيه، وانقرض ملككم . الغابر : الباقي والملاضي . والمعتيان يصحان للبيت ، والاول اولى .

مَنْ لِلْأَسْرَةِ ، أَوْ مِنْ لِلْأَعْتَةِ ، أَوْ
مَنْ لِلرَّيَاعَةِ ، أَوْ مِنْ لِلْبِرَاعَةِ ، أَوْ
أَوْ دَفَعَ كَارِثَتَهُ ، أَوْ رَدَّعَ آزِفَتَهُ ،
وَنَجَّ السَّمَّاحَ ، وَوَجَّ الْبَاسَ ، لَوْ سَلِمَا ،
سَقَتْ تَرَى الْفَضْلَ وَالْعَبَّاسَ هَامِيَةً ،
مَنْ لِلْأَسْنَةِ يُهْدِيهَا إِلَى الشَّرِّ ؟
مَنْ لِلْسَّمَاحَةِ ، أَوْ لِلنَّفْعِ وَالضَّرَرِ ؟
أَوْ قَمَعَ حَادِثَةً تُغْيِي عَلَى الْقَدْرِ ؟
وَاحْصِرَةَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا عَلَى عُمْرٍ ؟
تُعْزَى إِلَيْهِمْ سَمَاحًا ، لَا إِلَى الْمَطْرِ ؟

وقال ابو البقاء الرندي يرثي الاندلس :

لِكُلِّ شَيْءٍ ، إِذَا مَا تَمَّ ، نُقْصَانٌ ،
هِيَ الْأُمُورُ ، كَمَا شَهِدَتْهَا ، ذُلٌّ ،
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ ،
أَيُّ الْمُلُوكِ ذُووُ التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ ،
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ،
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مُلْكٍ ،
دَارَ الزَّمَانُ عَلَى دَارًا وَقَاتِلِهِ ،
فَلَا يُغَرِّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ، سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَأْنٌ
وَأَيُّ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتَيْجَانُ ؟
حَتَّى قَضَوْا ، فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا
كَمَا حَكَى عَنْ خِيَالِ الطِّيفِ وَسَنَانُ
وَأَمَّ كِسْرَى ، فَمَا آوَاهُ إِيوَانُ ؟

ومنها :

دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا غَرَاءَ لَهُ ،
فَلَسَّالَ بَلْسِيَّةَ مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةِ ،
هَوَى لَهُ أَحَدٌ ، وَأَنْهَدَ تَهْلَانُ ؟
وَأَيُّ شَاطِبَةٍ أَمْ أَيْنَ جِيَانُ ؟

١ الاسرة : جمع سرير والمراد سرير الملك . الشَّنَرُ وحرك للشعر : كل فرجة على حدود
البلاد يخشى منها هجوم . ٢ البراعة : القلم . ٣ آزفة : مصيبة دانية الساعة . تعبي على
القدر : تعجزه . ٤ عمر : هو ابن المظفر محمد بن عبدالله آخر ملوك بني الافطس ، قتله يوسف
ابن تاشفين سنة ٥٤٨٧ هـ . (١٠٩٦ م) . ٥ الفضل والعباس : من امرء بني الافطس . هامية :
اي سحابة هامية . تُعْزَى : تُنسَبُ . يقول : ان هذه السحابة تنسب اليهم من اجل سماحها
وجودها لانهم اهل السماح والجود ، والضمير في اليهم يعود على الامراء الثلاثة عمر والفضل
والعباس . ٦ وسنان : من اخذه ثقل النوم . والمعنى : صار كأنه حلم من الاحلام
٧ مرَّ الكلام على دارا وقاله في رائية ابن عبدون . ٨ أحد : جبل بالمدينة . تهلان :
جبل بنجد . ومعنى البيت ان باذية العرب مهد الاسلام اضطربت لمصاب الاندلس . ٩ هذه
اسماء مدن من قواعد الاندلس . ام : هنا بمعنى بل .

مِنْ عَالَمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنُ !
 وَنَهَرَهَا الْعَذْبُ فَيَاضٌ وَمَلَانُ !
 عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ !
 كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِنْفِ هَيْمَانُ !
 قَدْ أَقْفَرْتَ ، وَلَهَا بِالْكَفْرِ عُمَرَانُ
 فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسُ وَصُلْبَانُ
 حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْتِي ، وَهِيَ عَيْدَانُ
 أَحَالَ حَالَهُمْ جَوْرٌ وَطُغْيَانُ
 وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ
 عَلَيْهِمْ مِنْ ثِيَابِ الدَّلِّ أَلْوَانُ
 لَهَا لَكَ الْأَمْرُ ، وَلَسْتَ هَوَتْكَ أَحْزَانُ
 كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحُ وَأَبْدَانُ
 كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ
 وَالْعَيْنُ بَاكِئَةٌ ، وَالْقَلْبُ حَيْرَانُ
 إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ

وَأَيْنَ قُرْطَبَةُ دَارِ الْعُلُومِ ؟ فَكَمْ
 وَأَيْنَ حِمَصُ وَمَا تَخْوِيهِ مِنْ تُرْمِ ؟
 قَوَاعِدُ كُنَّ أَرْكَانَ الْبِلَادِ فَمَا
 تَبَكَّى الْخَنِيفَةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْفِ
 عَلَى دِيَارٍ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَةٍ ،
 حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا
 حَتَّى الْمَحَارِيبُ تَبْكِي ، وَهِيَ جَامِدَةٌ ،
 يَا مَنْ لِدَلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ ،
 بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ ،
 فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ ،
 وَلَوْ رَأَيْتُ بُكَاءَهُمْ عِنْدَ بَيْعِهِمْ ،
 يَا رَبِّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حَيْلَ بَيْنَهُمَا ،
 وَطِفْلَةٍ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ ،
 يَتَوَدَّهَا الْعَلِجُ عِنْدَ السَّبِيِّ مُكْرَهَةً ،
 لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ ،

١ حمص : إشبيلية . ٢ الخنيفة : ملة الاسلام . البيضاء : كناية عن النقاوة . الهيمان :
 من اصابه كالجنون من العشق . ٣ المحاريب ، جمع محراب : وهو مقام الامام من المسجد .
 ٤ طفلة : رخصة ناعمة ، أو هي طفلة بكسر الطاء . ٥ العلج : الكافر .

الشكوى والاستعطاف

آلام الملوك والوزراء . شكواهم . استعطافهم . اصحاب
هذا الفن .

هذا نوع يكاد يتصل بالثناء لما فيه من بقاء على الماضي، وتألم من الحاضر .
ويكاد يختص بطبقة الملوك والامراء والوزراء، لما نالهم من الذكبات والحن، فهبطوا
من بعد رفعة، وذلوا من بعد معزة، فمن ذلك قول ابن اللبانة في فخر الدولة بن المعتمد
ابن عباد، وقد رآه بعد سقوط دولتهم في سوق الصياغة ينفخ الفحم بقصبة الصانع :
شَكَاتْنَا فِيكَ يَا فَخْرَ الْعُلَى عَظُمْتَ ، وَالرُّزْءُ يَعْظُمُ فَيَمْنُ قَدْرُهُ عَظُمَا
طَوَّقْتَ مِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ مَخْنَقَةً ، ضَاقَتْ عَلَيْكَ ، وَكَمْ طَوَّقْتَنَا نِعْمًا
وَعَادَ طَوَّقَكَ فِي دُكَّانٍ قَارِعَةٍ ، مِنْ بَعْدِمَا كُنْتَ فِي قَصْرِ حَكِي إِرْمَا
صَرَفْتَ فِي آلَةِ الصُّوَاعِ أَنْمَلَةً ، لَمْ تَذِرْ إِلَّا أَلْتَدَى وَالسَّيْفَ وَالْقَلَمَ
يَدُ عَهْدُكَ لِلتَّقْيِيلِ تَنْسِطُهَا ، قَسَسْتِ قُلُ الثَّرِيَّا أَنْ تَكُونَ فَمَا
لِلنَّفْخِ فِي الصُّورِ هَوْلٌ مَا حَكَاهُ سِوَى هَوْلِ رَأَيْتِكَ فِيهِ تَنْفُخُ أَلْفَحَا
وَدِدْتُ إِذْ نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَيْكَ بِهِ ، لَوْ أَنَّ عَيْنِي تَشْكُو قَبْلَ ذَاكَ عَمَى

وقول المعتمد بن عباد في بناته وهو اسير في اغمت، وقد دخلن عليه يوم الفطر
يهنئنه، وعليهن اطهار بالية، واقدامهن حافية، غارقة في الوحل، وهن يغزلن للناس
بالاجرة :

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا ، فَسَاءَكَ الْعِيدُ فِي أَعْمَاتٍ مَأْسُورًا °

١ مخنقة : قلادة . ٢ طوقك : اي البلية التي طوقتها . قارعة : اي قارعة الطريق،
وهي معظمه وموضع قرع المارة . إرم : اي إرم ذات العناد، وهي اما دمشق او الاسكندرية
او موضع بفارس . ٣ الصور : البوق، ويوم ينفخ بالصور : يوم القيامة . (الفحس والفجـ)
واحد . ٤ به : الضمير عائد على هول . ٥ اغمت : بلد قرب مراکش .

تَرَى بَنَاتِكَ فِي الْأَطْهَارِ جَائِعَةً ،
 بَرَزْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً
 يَطَّانُ فِي الْأُطِينِ ، وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ ،
 أَفْطَرْتَ فِي الْعِيدِ ، لَا عَادَتِ إِسَاءَتُهُ !
 قَدْ كَانَ دَهْرُكَ ، إِنْ تَأْمُرُهُ ، مُثْمِلًا ،
 مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُسْرِيه ،
 يَغْرُلْنَ لِلنَّاسِ لَا يَمْلِكْنَ قَطْمِيرًا^١
 أَبْصَارُهُنَّ ، حَسِيرَاتٍ ، مَكَاسِيرًا^٢
 كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُورًا^٣
 فَكَانَ فِطْرُكَ إِلَّا كِبَادَ تَفْطِيرًا^٤
 فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مِنْهَا وَمَأْمُورًا
 فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا

ومن ذلك استعطف الوزير ابن عباد للمعتمد بن عباد ، وهو في سجن إشبيلية :
 سَجَايَاكَ ، إِنْ عَافَيْتَ ، أَذْنَى وَأَسْمَحُ ،
 وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْخُطَّائِينَ مَرْيِئَةٌ ،
 أَقْلَنِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ رِضَى ،
 وَعَفِّ عَلَى آثَارِ جُرْهِمْ جَنْثِيهِ ،
 وَلَا تَلْتَفِتْ رَأْيَ الْوُشَاةِ وَقَوْلَهُمْ ،
 وَقَالُوا : « سَيَجْزِيهِ فَلَانٌ بِفِعْلِهِ . »
 أَلَا إِنَّ بَطْشًا لِلْمُؤَيَّدِ يُتَّقَى ،
 وَبَيْنَ ضُلُوعِي مِنْ هَوَاهُ تَمِيمَةٌ ،
 وَعُذْرُكَ ، إِنْ عَاقَبْتَ ، أَجْلَى وَأَوْضَحُ^٥
 فَأَنْتَ إِلَى الْأَذْنَى مِنَ اللَّهِ أَجْنَحُ^٦
 لَهُ نَحْوُ رُوحِ اللَّهِ بَابٌ مُفْتَحُ
 بِهَبَّةِ رُحْمَى مِنْكَ تَمْخُو وَتَصْفَحُ
 فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرْسَحُ^٧
 فَقُلْتُ : وَقَدْ يَعْمُو فُلَانٌ وَيَصْفَحُ
 وَلَكِنْ حِلْمًا لِلْمُؤَيَّدِ أَرْجَحُ
 سَتَشْفَعُ لَوْ أَنَّ الْحِمَامَ مُجْلَحُ^٨

وشعر الشكوى ، اذا جاء عن الملوك ، فيه اباء وعزة ، وفيه رصانة الشاكي ،
 وكبر النفس المتظامة .

١ القطمير : شق النواة او القشرة التي عليها . ٢ حسيرات : متلفعات معيات .
 ٣ كاهها : الضمير يعود على الاقدام . الكافور : طيب من شجر بجبال الهند والصين ،
 وهو انواع ومنافعه كثيرة . ٤ تفتيراً تشقيقاً . ٥ عافيت : وهبت (العافية) ، ودفعت
 المكروه . وقوله ادنى : اي ادنى الى دفع المكروه . ٦ اجنح : أميل . ٧ قوله
 لا تلتفت رأي الوشاة : منصوب على ترجع الخافض والصواب لا تلتفت الى رأي الوشاة .
 ٨ التميمية : خرزة رقطاء تعلق في عنق الطفل دفعاً للعين المالحية . مجلح : مقدم هاجم .

الهرباء

ضعف الشعر السيامي . هجو البرابرة . هجاء التكسب .
العبث . الفحش بالهجو . شعراؤه .

لم تقم في الغرب سوق راجعة للهجاء السياسي يناضل بها الشعراء عن احزابهم ، فعل شعراء الشرق ، الا ما كان بين المصرية واليمينية ، في عهد الامراء . غير ان المؤرخين لم يحفظوا لنا شيئاً منه يستحق الذكر ، الا ما كان من هجوههم للفرنجية في ذكر حروبهم معهم ، او هجوههم للبربر بعد ان اعتد هؤلاء بنفوسهم وارادوا مفاخرة العرب ومكاثرتهم . فمن ذلك قول خلف بن فرج السُّميسر ، وكان في زمن ملوك الطوائف :
رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي ، فَقُلْتُ لَهُ : «أَبَا الْبَرْيَةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا ؛»
«أَنَّ الْبَرَابِرَ نَسْلُ مِنْكَ .» قَالَ : «إِذَا حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ صَحَّ مَا زَعَمُوا ۝»

ولم يكن للشعوبية شأن في الاندلس فينبغ منهم شعراء يهاجون العرب كما في المشرق . فاقصر معظم الهجاء على التكسب والعبث والمجون ، ولكنه حفل بالفحش والاقذاع . ومن مشهوري الهجائيين ابو بكر المخزومي الاعمي^١ شاعر غرناطة ، وبينه وبين تزهون بنت القلاعي الشاعرة معابثات فاحشة غير حرية بالاثبات . وكذلك ولادة بنت المستكفي ولها هجاء فاضح في صاحبها ابن زيدون . واكثر الشعراء الذين ظهروا في الاندلس اصطنعوا الهجاء ولكنهم لم يبلغوا فيه مبلغ المشاركة . فكان هذا الفن ضعيفاً عندهم .

١ ابو بكر المخزومي كان حياً بعد الاربعين وخمس مائة للهجرة (١١٢٥ م) .

الحماسة والفخر

ضعف الشعر الحماسي . شعراء مداحون يصفون الحروب .

لم يشهر في الاندلس شعراء فرسان يخوضون معامع القتال ، ويدكرون بلاءهم في مواقف الاهوال ، وانما شهر شعراء مداحون وصفوا شجاعة ومدحيههم ، ومعاركهم ، وحضوهم على الجهاد فكانوا اشبه بالمصورين يرسمون مشاهد الحروب ، ولا يصطلون بنارها . لذلك لم يرتفع شأن الشعر الحماسي عندهم لان هذا الفن لا يقوم قائمه الا في مواطن الشعراء المغاوير . ولم يعرف من شعراء الحماسة الا نفر لا يعتقد بهم امثال ابن وهبون^١ لانهم كانوا ينظمون الحماسة بدافع التقليد والتكلف لا بدافع العاطفة والخطر المطبوع . ودونك شيئاً من حماسيات ابن وهبون ومفاخره :

أَتَخْنِي عَلَى الْأَيَّامِ غُرْمًا قَبِي ، وَقَدْ بَدَّ شَاوِي شَاوُ كُلِّ نِقَابٍ ؟
وَيَرْكُبْنِي رَسْمُ الْخُمُولِ ، وَقَدْ غَبَتْ خِصَالُ الْعُلَى وَالْمَجْدِ طَوْعَ رِكَابِي ؟
سَأَرْمِي بِهِمَا قِصَارَى مَرَاتِي ، وَإِنْ كَانَ أَدْنَاهَا يُطِيلُ طَلَابِي ؟
لَتَعْلَمَ أَطْرَافُ الْأَيْسَةِ أَنَّنِي كَفِيلُ بِهَا عِنْدَ الصَّدَى بِشَرَابٍ ؟
وَتَشْهَدُ أَطْرَافُ الْيَرَاغَاتِ أَنَّنِي بِهِنَّ مُصِيبُ فَضْلٍ كُلِّ خَطَابٍ ؟
وَلَيْسَ نَدِيمِي غَيْرَ أَيْضَ صَارِمٍ ، وَلَيْسَ سَمِيرِي غَيْرَ شَخْصٍ كِتَابٍ ؟

واصدق الفخر عندهم ما اضطلع بالعاطفة الدينية ، لان الشاعر الاندلسي كثير المباهاة باسلامه لما بينه وبين جيرانه النصارى من العداء المستحكم والتنافس الشديد .

١ هو عبد الجليل بن وهبون كان من شعراء المعتمد بن عباد ، وعرف بالمجون والانصراف الى الوان اللهو والعبث . والراجح انه توفي في اوائل الربع الثاني من القرن السادس للهجرة . ٢ نقاب ، مصدر ناقب : اي فاخر وغالب . ٣ قصارى مراتي : اي غايتها واقصاها . يقول : انه يريد ان يبلغ جهاته ابعد المراتب مع ان ادنى هذه المراتب يطيل تعب طالبه لغزتها ، وما يحول من المضاعب دون البلوغ اليها . ٤ الصدى : العطش . يقول : سأرمي جهاتي الى هذه المراتب الرفيعة حتى تعلم الرماح انني كفيل بان ارويها دماً عندما تعطش .

ضعفها . حالة الفلسفة . حكمهم مبتدلة . شعراء الحكم .

الحكم في الشعر الاندلسي ضعيفة الانتاج، ساذجة التفكير، بديهية التصور، لا تدل على ثقافة ناضجة وعلم واسع . لان الفلسفة والمنطق لم ينتشرا في تلك الربوع ، إبان دخولهما اليها كما انتشرا في البلاد الشرقية ، ليستقي منهما الشعراء ، وانما كان يعنى بهما افراد متخصصون . ولم ينبغ فلاسفة الغرب المشهورون الا في القرن السادس للهجرة بعد ان امتح عالم الفلسفة في المشرق . وسبب ذلك ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الاندلس فانهم قهروا حرية التفكير ، وكفروا كل متفلسف ومتمنطق ، واقتوا برجمه ونفيه واحراق كتبه . وكان الدهماء على جهلهم يجارون اهواء العلماء ، ويشورون على الفلاسفة ويبطشون بهم ، فيضطر السلطان الى استرضائهم باتلاف كتب الفلسفة كما فعل الخاجب المنصور، وبمعاينة المتهمين بها كما فعل صاحب إشبيلية بـابن هاني اذ امر بابعاده لانه كان يأخذ بمذاهب الفلاسفة .

وابن هاني اكثر الشعراء الاندلسيين احتفالا بالحكمة وضرب المثل ؛ يتحدى بذلك المتنبي ، ولكنه يقصر عنه اشواطاً ، اذ انه لم تكن له عبقريته ، ولم يكن لديه ذلك المعين الفلسفي الذي اغترف منه ابو الطيب ، فجاءت حكمته غير ناضجة في كثرتها ، كحكمته غيره من شعراء بلاده . وهي في الغالب قائمة على شكوى الدهر ، وذكر الموت ، والتحذير من الدنيا الغرور ، وامثال هذه الاشياء التي ابتذلتها افواه العامة . فمن قوله في رثاء ولد :

وَهَبَ الدَّهْرُ نَفْسِي فَأَسْتَرَدْتُ ، رَبِّمَا جَادَ بِخَيْلٍ فَحَسَدْتُ
إِنَّمَا أَعْطَى فَوَاقِي نَاقَةً ، يَسِدُ شَيْئًا تَلَقَّاهُ يَبِيدُ

الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت لان الناقة تحلب ثم تترك سوية يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب . وفي الحديث : « العيادة قدر فواق ناقة . » اي زيارة المريض يلبث فيها (الزائر) زماناً يسيراً كزمان فواق الناقة . وهنا قوله : اعطى فواقى ناقة على تنبيه (الفواق والمراد اعطى وقتاً قصيراً .

خَابَ مَنْ يَرْجُو زَمَانًا دَائِمًا تُعْرِفُ الْبَاسَاءُ مِنْهُ وَالنَّكَدُ
فَإِذَا مَا كَدَّرَ الْعَيْشَ ، نَمًا ، وَإِذَا مَا طَيَّبَ الزَّادَ ، نَفْدًا^١

وكذلك ابن زيدون نظم في الحكمة فلم يزد على ابن هاني، قال من قصيدة:
الدَّهْرُ إِنْ أَسْأَلَ ، فَصِيحٌ أَعْجَمُ ، يُعْطِي أَعْتِبَارِي مَا جَهِلْتُ ، فَأَعْلَمُ^٢
وَإِذَا أَلْقَى قَدَرَ الْخَوَادِثِ قَدَرَهَا ، سَاوَى لَدَيْهِ الشَّهَدَ مِنْهَا أَلْعَلَّمُ^٣
وَإِذَا نَظَرْتُ ، فَلَا أَعْتَارُ يَقْضِي كُنْهَ الْمَصِيرِ ، وَلَا تَوْقَ يَعْصِمُ^٤

واراد ابن وهبون ان يتفلسف فجاءت فلسفته غامضة معقدة تفقر الى صقل وتهذيب . وربما كان اعق تفكيراً من سواه لانه ادرك القرن السادس للهجرة حيث اخذت الفلسفة الاندلسية بالنضج والازدهار . فمن قوله :

نَفْسِي وَجِسْمِي إِنْ وَضَعْتَهُمَا مَعًا ، أَلْ يَذُوبُ ، وَصَخْرَةٌ خَلْقًا^٥
لَوْ تَعْلَمُ الْأَجْبَالُ كَيْفَ مَالَهَا عَلِمِي ، لَمَا أُمْتَسَكَتْ لَهَا أَرْجَاءَ^٦
إِنَّا لَنَعْلَمُ مَا يُرَادُ بِنَا فَلِمَ تُغَيِّي الْقُلُوبُ ، وَتَغْلِبُ الْأَهْوَاءُ؟^٧
طَيْفُ الْمَنَايَا فِي أَسَالِبِ أَلْمَنَى ، وَعَلَى طَرِيقِ الصِّحَّةِ الْأَدْوَاءُ^٨
تَتَعَاقَبُ الْأَضْدَادُ مِمَّا قَدْ تَرَى جَلَبَتْ عَلَيْكَ الْحِكْمَةُ الشَّنْعَاءُ^٩

١ نَمًا : زاد . نَفْدًا : فني . ٢ اعتباري : اختياري الاشياء ونظري اليها حاكماً عليها بحكمي . ما : مفعول ثانٍ ليعطي . ٣ العلقم : كل شيء فيه مرارة شديدة . ٤ يقول : اذا نظرت الى الحياة الدنيا نظرة حكيم ، علمت انه ليس الاغترار بتعيمها هو الذي يستوجب حقيقة المصير اي الموت . وكذلك ليس اتقاؤها بعاصم صاحبه من الموت . ٥ الآل : السراب . خلقاء : ملساء مُصْصَمَةٌ . شبه النفس في اتصالها بالجسم بالسراب الذي يخدعك مرآه ، فتظنه ماء فاذا تبقته متبيناً حقيقته ذاب امامك ، فالنفس اذا خداعة زائلة كالسراب والجسم يبقى بعدها كانه الصخرة الملساء . ٦ الاجبال : جمع جبل . مآلها : مصيرها . الارجاء : النواحي ، مفردھا رَجَا . يقول : لو علمت الجبال ان مصيرها الفناء لدكت من الخوف والهلع . ٧ لمَ : سكنت للشعر والاصل لمَ . القلوب : العقول . يقول : نحن نعلم مصيرنا فلماذا نتمب العقول في البحث عنه ، ونغلب عليها اهواء النفس فتقودها الى التفلسف فيما هو معلوم . ٨ ادواء : جمع داء . ٩ يقول : ان الصور المتضادة في ابحاث الحياة والموت هي نتيجة الفلسفة الشنعاء .

الزهد

اسباب ظهوره . الحروب . سلطة الفقهاء . التوبة بعد
الكبائر . مترهده الغرب . شعراء الزهد .

غير عجيب ان يظهر فن الزهد في الشعر الاندلسي ، وقد علمنا ما للفقهاء من سلطان على الخاصة والعامة ، فلا بد لهذا السلطان ان يقود الى التعصب للدين والاستمسك باحكامه ، ثم الى التظاهر بالعبادة والتقوى ، والاقتداء بالاولياء الصالحين ، والنفور من الدنيا وزينتها والابتعاد عن زخرفها وغرورها ، فيكثر الشعراء المترهدون حتى يصبح الزهد صناعة مطلوبة ، وزياً مرغوباً فيه . فمنهم من ينظمه بعامل التقوى والصلاح . ومنهم من ينظمه اقتداء بغيره وارضاء للفن . ومنهم من ينظر الى الدنيا نظرة خائف فيذم غرورها ، ويذكر ذنوبه ، وجنونه بملذات الحياة ، فيندم ويعتذر الى الله ، ثم يعود الى عبثه ومعاصيه . وهذه اختلاجات نفسية تحدث لصاحب الكبائر حيناً بعد حين .

ولا ريب ان كثرة الحروب ، وتوالي الفتن والمحن طبعت في نفوس الشعراء الحساسة آلاماً عميقة . فنظروا الى تقلب الاحوال نظرة تشاؤم فقادتهم الى الطعن على الدهر وصروفه ، وذم الدنيا وتلونها مما هو طبيعي في النفوس التي تتقلب عليها احوال مختلفة بين شدة ورخاء ، وخوف وأمن ، وقلق وارتياح .

فمثل هذه الاحداث والغير على اختلاف صورها والوانها تدفع الانسان الدقيق الشعور الى التفكير في مصيره بعد هذه الحياة التي لا تبتم الا لتكشر عن الانياب . فيهوله سوء المصير ، فيفرع الى ربه تائباً مستغفراً ، ولطالما قربت الشدائد الى الله من ابتعدوا عنه . واليك شيئاً من زهدياتهم . قال ابن عبد ربه في توبته :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةٌ أَيْكَةٌ ، إِذَا أَخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ

الغضارة : الطراوة في النبات . الايكة : واحدة الايك وهو ملتف الشجر الكثير .

هِيَ الدَّارُ، مَا الْأَمَالُ إِلَّا فَجَائِعُ
فَكَمْ سَخَنَتْ بِالْأَمْسِ عَيْنًا قَرِيرَةً ،
عَلَيْهَا ، وَلَا اللَّذَاتُ إِلَّا مَصَائِبُ
وَقَرَّتْ عَيُونًا ، دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبٌ^١
عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا ، فَإِنَّكَ ذَاهِبٌ^٢

وقال ابن حمديس :

يَا ذُنُوبِي ثَقُلْتَ وَاللَّهِ ظَهْرِي ،
كَلَّمَا ثُبْتُ سَاعَةً عُدْتُ أُخْرَى
بَانَ عُذْرِي فَكَيْفَ يُقْبَلُ عُذْرِي^٣
لِضُرُوبٍ مِنْ سَوْءٍ فِعْلِي وَهَجْرِي^٤
يَا رَفِيقًا يَبْعِدُهُ ، وَمُحِيطًا
عَلِمُهُ بِاخْتِلَافِ سِرِّي وَجَهْرِي^٥
مِلْ بِقَلْبِي إِلَى صَلَاحٍ فَسَادِي
مِنْهُ ، وَاجْبُرْ بِرَأْفَةٍ مِنْكَ كُسْرِي^٦
وَأَجْرَنِي بِمَا جَنَاهُ لِسَانِي ،
وَتَنَاجَتْ بِهِ وَسَاوِسُ فِكْرِي^٧

١ سَخَنَتْ عَيْنًا : ابكتها دموعاً سُخْمَةً اي حارة والدموع الحارة كناية عن دموع الحزن .
قرت عيوناً : اي صبت فيها ماءً بارداً ، وبرودة العين كناية عن سرورها ، ودمع الفرح عندهم
بارد . ٢ عبرة : دمعة قبل فيضها . ٣ بان : غاب . والمراد ليس له عذر . ٤ لضرروب :
لانواع . وهجري : افحاشي في المنطق . ٥ باختلاف سري وجهري : يريد انه مؤمن
صحيح الايمان في باطنه ، ولكن اعماله الظاهرة سيئة . ٦ منه : اي من قلبي . ٧ بما :
الباء هنا سببية اي من اجل ما جناه لساني .

التصوف

نتيجة الزهد . متصوفو الشرق . شعراء التصوف .

التصوف هو الغاية التي ينتهي اليها الزهد في الاسلام ، وانتشار الزهد في الاندلس افضى الى التصوف . وكان لرحلات المشاركة الى الغرب ، ورحلات المغاربة الى الشرق يد في اتصال متزهدى الاندلس بالمتصوفة المشرقيين . فاحذوا عنهم طرائقهم واصطلاحاتهم ، وآراءهم ، ونظموا الشعر الصوفي مثلهم . والمع شعرائهم ابن عربي الشهير شيخ المتصوفين ، فان له قصائد وموشحات صوفية سائرة ، منها التي اولها سرائر الاعيان . وفيها يقول :

سَرَائِرُ الْأَعْيَانِ ،	لَا حَتَّ عَلَى الْأَكْوَانِ ،	لِلنَّاطِرِينَ ،
وَالْعَاشِقُ الْغَيْرَانَ ،	مِنْ ذَاكَ فِي حَرَّانِ ،	يُبْدِي الْأَيْنِ ٢

١ هو يحيى الدين بن عربي الحاتمي الطائى الاندلسي . ولد بمرسية ، وانتقل الى اشبيلية ثم سافر الى الشرق ، ومات في دمشق ، وقبره في محلة الصالحية . ولد سنة ٥٦٠ هـ . وتوفي سنة ٦٣٨ هـ . (١١٦٤ - ١٢٤٠ م) اثاره كثيرة اشهرها الفتوحات المكية في التصوف .
٢ السرائر : الحقايا مفردا سريرة . الاعيان : حقائق الاشياء المدركة بالعيان .
العاشق الغيران : الصوفي المريد المعرفة برغبة وتوجد . حرَّان : رملة بالبادية كنى بها عن شدة الظمأ والحرَّان ايضاً الشديد العطش .

الوصف

تفنتهم . تعدد موصوفاتهم . براعتهم في بعضها .

تفنت الاندلسيون في شتى الاوصاف حتى فاقوا المشاركة في بعضها كوصف الطبيعة الناعمة ، والمدن العامرة . فكل شاعر منهم متصل بالطبيعة ، مشغوف بعمارة بلاده ، وليس في الشرق مثلهم الا اذا معدودون . وكان لهم يد في وصف الفلوات الخالية ، والوحوش الضارية ، والخييل والابل . وبرعوا في وصف مجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته . ووصفوا الصيد وادواته ، والنساء والغلمان واحوالهم ، وطيف الخيال . ووصفوا الحروب والسلاح والسفن . ووصفوا الدنيا والموت وانقراض الممالك وغير ذلك مما يتناول الحضارة والعمارة ، والحياة الاجتماعية في حالي السلم والترف ، والحرب والغناء .

وصف المعارك

كثرة الحروب في الاندلس . وصف الجيوش . الحراقات .
الشعراء .

لا بدع ان يكون لوصف المعارك نصيب وافر في الشعر الاندلسي، فان المسلمين لم يلبثوا ليلة في اسبانية الا على حرب وشيكة، او حرب يصطلون بلظاها . ولقد احصيت الوقائع التي نشبت بينهم وبين الفرنجة منذ دخولهم الاندلس الى يوم خروجهم منها، فاذا هي سبع مائة واقعة وثلاثة آلاف، ما عدا الفتن الداخلية التي اثارها المسلمون بعضهم على بعض . فحققت مدائح الملوك والامراء بذكر المعارك والجيوش والعدد والحراقات . حتى ان ابن عبد ربه نظم ارجوزة في نحو خمسين بيتاً واربع مائة وصف فيها مغازي عبد الرحمن الناصر وفتوحه من سنة ٣٠١ الى ٣٢٢ هـ . (٩١٣ - ٩٣٣ م) .

وهذه الارجوزة مع طولها لا تعد في طبقة الملاحم، لضعف الخيال الشعري فيها، فانها مجرد اخبار وسرد حوادث، تمت الى التاريخ اكثر مما تمت الى الشعر . واليك شيئاً من احاسنها :

فَأَشْرَعَتْ بَيْنَهُمُ الرِّمَاحُ ،	وَقَدْ عَلَا التَّكْبِيرُ وَالصَّيْحُ
وَفَارَقَتْ أَعْمَادُهَا السُّيُوفُ ،	وَفُغِرَتْ أَفْوَاهُهَا الْحُشُوفُ
وَأَلْتَقَتْ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ ،	وَأَنْعَمَسُوا فِي غَمَرَةِ الْقِتَالِ
فِي مَوْقِفٍ زَاغَتْ بِهِ الْأَبْصَارُ ،	وَقُصِرَتْ فِي طُولِهِ الْأَعْمَارُ
وَهَبَّ أَهْلُ الصَّبْرِ وَالْبَصَائِرِ ،	فَأَزَعَقُوا عَلَى الْعَدُوِّ الْكَافِرِ
فَأَنْقَضَتْ الْعُقْبَانُ وَالسَّلَالِقَةُ ،	رَهَقًا عَلَى مُقَدَّمِ الْجَلَالِقَةِ

١ غمرة القتال : شدته . ٢ ازعقوا : اي ازعقوا السير : عجلوا به . ٣ السلاقة : اراد بها جمع سلوقي : الكلب المنسوب الى سلوق وهو احسن كلاب الصيد واخفها .

عِثْبَانُ مَوْتٍ تَخْطَفُ الْأَرْوَاحَ ، وَتَشْبَعُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ
فَانْهَزَمَ الْخِزْيَرُ عِنْدَ ذَاكَ ، وَأُنْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ هُنَاكَ ١

ولسان الدين بن الخطيب قصيدة كتبت على حيطان الحمراء، ذكر فيها انتصار
الغني بالله محمد بن أبي الحجاج، واستعادته الملك بعد أن كان خلع عنه واضطر إلى
مهاجرة الاندلس والاحتماء بالمغرب. وتشتمل هذه القصيدة على وصف السفن والجياد،
والسيف والرمح، وموقف السلطان في الحرب، وموقف جيشه. قال منها :

لِلَّهِ مَوْقِفُكَ الَّذِي وَتَّبَاتُهُ ، وَتَّبَاتُهُ مَثَلٌ بِهِ يُتِمَّلُ ٢
وَالْخَيْلُ خَطٌّ ، وَالْمَجَالُ صَحِيفَةٌ ، وَالسُّمُرُ تَنْقُطُ ، وَالصَّوَارِمُ تَشْكُلُ ٣
وَالْيَمِينُ قَدْ كَسَرَتْ حُرُوفَ جُفُونِهَا ، وَعَوَامِلُ الْأَسَلِ الْمُثَقَّفِ تَعْمَلُ ٤
لِلَّهِ قَوْمُكَ عِنْدَ مُشْتَجِرِ الْقَتَا ، إِذْ ثَوَّبَ الدَّاعِي الْمُهَيْبُ ، فَأَقْبَلُوا ٥
قَوْمٌ إِذَا لَفَّحَ الْهَجِيرُ وَجُوهَهُمْ ، حَجَبُوا بِرَايَاتِ الْجِهَادِ وَظَلَّلُوا ٦

وكذلك ابن هاني الاندلسي وصف حراقات المعز لدين الله الفاطمي، فاجاد

واحسن. قال من قصيدة :

أَمَّا وَالْجَوَارِي الْمُنْشَاتِ الَّتِي سَرَتْ ، لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُدَّةٌ وَعَدِيدُ ٧

اراد بالعقبان الفرسان، وبالسلافة خيولهم. رهقاً: أي رهقاً سكنت للشعر. والرهق :
العجل، واللاحاق مع الدنو من الملاحق. الجلالة: الاسبانين، مفردهما جليقي منسوب
إلى جليقية في اسبانية، وهي غاليس.

١ الخنزير: العدو أو مقدم الجلالة. العورة: كل خال يحدث في الجيش أبان الحرب،
فيؤدي إلى انكساره. ٢ وتباته الأولى من وثب. والثانية من ثبت. ٣ جعل الرماح في
قطعها كأنها نضع النقاط على الصحيفة، والسيوف في قطعها كأنها نضع الحركات. ٤ جفونها:
انغادها. العوامل: صدور الرماح. الأسل: الرماح. المثقف: المقوم. وقوله: كسرت
حروف جفونها: أي فارقت انغادها لا تريد الرجوع اليها، وكسر الحروف والعوامل العاملة
من التلميحيات النحوية. ٥ مشتجر القنا: مثبتك الرماح. ثوب: استنجد واستغاث.
الداعي المهيب: المدوح. ٦ لفتح: اصاب بالاحراق. الهجير: الحر الشديد.
٧ الجواري: الواو للقسم. الجواري: السفن. ظاهرهما: علوتها.

قَبَابٌ كَمَا تُرْجَى الْقَبَابُ عَلَى الْمَهَا ، وَلَكِنَّ مَنْ صَمَّتْ عَلَيْهِ أُسُودٌ ،
وَمَا رَاعَ مَلِكَ الرُّومِ إِلَّا أَطْلَاعُهَا ، تَنْشُرُ أَعْلَامُهَا وَبُنُودُ
عَلَيْهَا غَمَامٌ مُكْفَهَرٌ صَبِيرُهُ ، لَهُ بَارِقَاتٌ جَمَّةٌ ، وَرَعُودٌ^٢
مَوَاحِرُ فِي طَائِمِي الْعَبَابِ كَأَنَّهَا ، لِعِزْمِكَ بَأْسٌ ، أَوْ لِكِفِّكَ جُودٌ^٣
مِنَ الرَّاسِيَّاتِ الشَّمِّ لَوْلَا أَنْتَقَالُهَا ، فَمِنْهَا قِنَانٌ شَمَخٌ وَرَيْدٌ^٤
مِنَ الطَّيْرِ إِلَّا أَنَّهُنَّ جَوَارِحُ ، فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النُّفُوسُ مَصِيدٌ^٥
مِنَ الْقَادِحَاتِ النَّارُ تُضْرَمُ لِلصَّلَى ، فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَ الْقَلَاءِ خُمُودٌ^٦
إِذَا زَفَرَتْ غِيظًا ثَرَامَتْ بِمَارِجٍ ، كَمَا شَبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَقُودٌ^٧
فَأَفْوَاهُهُنَّ أَحْلَامِيَّاتُ صَوَاعِقُ ، وَأَنْفَاسُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدٌ
لَهَا شُعْلٌ فَوْقَ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا ، دِمَاءٌ تَلَقَّتْهَا مَلَاخِفُ سُودٌ^٨
تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ ، سَلِيطٌ لَهَا ، فِيهِ الذُّبَالُ عَتِيدٌ^٩

١ ترجى : تساق . المها : البقر الوحشي ، وهو مستعار هنا ، مفردة مهابة . يقول :
هذه السفن هي أشبه بالهوامج التي تساق وعليها النساء الحسن العيون ، ولكن ليس عليها نساء
بل رجال كلاسود . ٢ مكفهز : متراكب . الصبير : السحاب الأبيض الذي يصير بعضه
فوق بعض . يشير الى ما تقذفه الحراقات من النار والنفط ، وما يتبع ذلك من اصوات
ودخان . ٣ يقول : ان هذه السفن صورة لشدة بأس المدوح في قهرها الاعداء ، وصورة
لكرمه في ما ينال اصحابها من الغنائم . ٤ قنن جمع قننة وهي اعلى الجبل . ريود : جمع
ريد : الحرف الثاني في عرض الجبل . يقول : هي معدودة من الجبال الراسية (عالية) لولا
حركاتها وانتقالها ، وفيها من الجبال رؤوس عالية ، ونوائق . ٥ جوارح الطير : ما صاد
منها . يقول : هذه السفن معدودة من الطير في سرعتها وامتداد اشروعها واصطفافها ، ثم
استدرك فقال انها من الطير الجوارح . ٦ الصلى : مقاساة حرارة النار . اللقاء : الحرب
حيث يلتقي الجيشان . ٧ زفرت غيظاً : اي غيظاً من العدو ، جعل لها احساساً وشعوراً .
المارج : الشعلة ذات اللمهب الشديد . الوقود : ما توقد به النار . ٨ الغبار جمع غمير ،
وهو الماء الكثير ومعظم البحر . شبه مياه البحار التي تلتقف هذه الشعل بالملاحف السود .
٩ السليط : الزيت . الذبال جمع ذبالة وهي فتميلة المصباح . عتيد : معد مهياً . يقول :
تعانق هذه الشعل المتساقطة موج البحر ، فكأنه زيت لها اعدت فيه القتائل للاشتعال .

الغزل

دواعي الغزل في الاندلس . الاسلوب البدوي . الاسلوب
الحضري . الاوصاف المادية . الاوصاف الروحانية .
التذلل للحبيب . غزل الموءنث . غزل المذكر . الشعر
الاشقر . العيون الزرق . الغزل النصراني . تشبيه الحبيب
بالرياحين . تفتنهم في استخراج التشابه المألوفة . شعراء
الغزل .

كان كل ما في الاندلس يدعو الى الغزل والنسيب . فن طبيعة فتانة ، الى
حضارة وعمران ، الى حدائق ورياض ، الى مجالس للهو والحمر والغناء ، الى سبي متواصل
واسواق للنخاسة رائجة ، يباع فيها الجواري والغلمان باثمان بخسة اكثرتهم . فكان
من ذلك ان امعن اهل الاندلس في حياة النعمة والترف ، واخلدوا الى الحب والغزل .
وكان للشعراء قسط وافر من هذه الحياة الرخية ، فتغزلوا وافرطوا في التشبيب .
فمنهم من كان يحن الى الاسلوب البدوي ، فيذكر اماكن العرب في البادية ، وعرائس
الشعر عندهم ، او يجذو جذو امرى القيس وابن ابي ربيعة في القصص الغرامي واجتياز
الاهوال الى من يجب كما قال ابو عامر بن شهيد معارضاً رائية عمر :

وَأُخْرَى اعْتَلَقْنَا دُونَهُنَّ وَدُونَهَا قُصُورٌ ، وَحُجَابٌ ، وَوَالٍ ، وَمَعَشَرٌ^١
يُزَيِّنُهَا مَاءَ النَّعِيمِ ، وَحَفَّهَا مِنْ أَلْعِشِ فَيَنَانُ الْأَرَاكَةِ أَخْضَرُ^٢
إِذَا رَامَهَا ذُو حَاجَةٍ صَدَّ وَجْهَهُ ظُبَى الْبَابِرَاتِ ، وَالْوَشِيحُ الْمُكْسَرُ^٣

١ اعتلقنا : احببنا . دونهن : اي دون النساء . ودونها : اي دون الوصول اليها .

٢ فينان : ذو الافنان ، اي الاغصان . الاراكه : شجرة تتخذ منها المساويك ، والمراد
عيش ناعم غض . ٣ ظبي : جمع ظبة وهي حد السيف . الباترات : السيوف القواطع .
الوشيح : الرماح وشجرها . وقوله المكسر ، كناية عن كثرة حروب اهلها .

وَمِنْ قُبَّةٍ لَا يُدْرِكُ الْطَّرْفُ رَأْسَهَا
إِذَا زَاخَمَتْ فِيهَا الْمَخَارِمُ صَوَّبَتْ
تَكَلَّفَتْهَا، وَاللَّيْلُ قَدْ جَاشَ بِحَرِّهِ ،
وَمَنْ تَحْتَ حَضَنِي أَيْضُ دُوشَقَاتِي ،
إِلَى بَيْتٍ لَيْلِي ، وَهُوَ قَدْ بَدَى الْعَصَا ،
تَرُلُ بِهَا رِيحُ الصَّبَا ، فَتَحْدَرُ^١
هُبُوبًا عَلَى بُعْدِ الْمَدَى وَهِيَ تَجَارُ^٢
وَقَدْ جَفَلَتْ أُمُوجُهُ تَتَكَسَّرُ^٣
وَفِي الْكَفِّ مِنْ عَسَالَةِ الْخَطِّ أَسْمَرُ^٤
يُضِيءُ كَعَيْنِ الْمُسْتَهَامِ ، وَيَزْهَرُ^٥

وهذا الغزل بين التقليد والتكلف ولذلك لم يكن له حظ كبير عندهم ،
تتمكن الحضارة الجديدة من نفوسهم ، وانفصلهم عن اهل البادية ، فخرجوا على
الاسلوب القديم في كثرتهم ، وانصرفوا الى وصف حياتهم ، وما فيها من عبث وهو
ومجون ، فتهتكوا في غزلهم ، واسرفوا في التهمتك ولا سيما شعراء ملوك الطوائف ومن
جاء بعدهم ، اذ بلغ الغزل عندهم الى حالة مزرية في معانيه والفاظه .

واعتمد الاندلسيون على الاوصاف المادية في ذكر احبتهم ، كما اعتمد عليها
المشركيون ، فوصفوا الشعر والعين ، والحد والشعر والقامة وسواها ، وحلوا بالتشابه
الطبيعية المألوفة ، وغاصوا في لحج ارواحهم ، فوصفوا لوعة النفس العاشقة ، واشتياقها
لقرب الحبيب ، والاستمتاع بجباله ، ومواقف اللقاء والوداع وغير ذلك مما هو داخل
في اغراض النسيب . وأنسوا بعادة التذلل للحبيب ، والتعبد له ، ومناداته بالسيد
والمولى كقول الرَّمَادِي^٦ :

١ ترل بها : تمر سريعاً . الصبا : ريح تهب من الشرق ، وصف علو قبتها فقال ان الطرف لا
يدرك اعلاها . ثم قال ان الريح تمر بها فتحدّر عنها ولا ترعز عنها ، لعلوها وشباها . ٢ المخارم :
جمع مخرم وهو انف الجبل والمراد هنا اعالي القبة . صوبت : ضد صعّدت . تجار :
تصوت . يقول : اذا زاحمت هذه الريح اعالي القبة انحدرت عنها لبعدها وهي تصوت .
٣ تكلفتها : اي تجشمت (القصد اليها) . جاش بحره : اشتد ظلامه . امواجه تتكسر :
اي يرخى فيه سدل فوق سدل . ٤ ايض : سيف . شقائق : بروق . العسالة : الرماح
السدنة . الخط : مرفأ في البحرين تباع فيه الرماح . اسمر : رمح . ٥ الى بيت ليلي :
يعود الى تكلفتها . الغضا : شجر عظيم يحسن فحمة لصلابته ، وارض لبني كلاب ، وواد بنجد .
واراد بعين المستهام نورها الفاض من حرارة الشوق ، او من تلاؤل الدموع . ٦ هو ابو عمر
يوسف بن هارون المعروف بالرمادي ، شاعر قرطبي مجيد سريع القول ، عاصر المتنبي ، توفي

أَوْ مَا لِتَقْيِيلِ الْبَسَاطِ خُنُوعًا ، فَوَضَعْتُ خُدَيَّ فِي التَّرَابِ خُضُوعًا^١
مَا كَانَ مَذْهَبُهُ الْخُنُوعَ لِعَبْدِهِ ، إِلَّا زِيَادَةً قَلْبِهِ تَقْطِيعًا

وشبوا بالجواري والغلاليات والغلمان، وذكروا مجالسهم، ووصفوا حركاتهم
وسكناتهم، وقصوا أخبارهم معهم. قال ابو عامر بن شهيد:

طَيِّبَةُ دُونَ الطَّبَا قَدْ قُصِّصَتْ ، فَأَتَتْ غَيْدَاءَ فِي شَكْلِ صَبِي^٢
فُتِحَ الْوَرْدُ عَلَى صَفْحَتِهَا ، وَحَمَاهُ صُدْعُهَا بِالْعُقْرَبِ^٣

وقال الرقاء^٤ يصف محبوبه وقد رآه يبيل عينيه بريقه ويظهر انه يبكي وليس
ببكا:

يَبِيلُ مَا قِي زَهْرَتَيْهِ بِرَيْقِهِ ، وَيَحْكِي الْبُكَاءَ عَمْدًا كَمَا ابْتَسَمَ الزَّهْرُ^٥
وَيُؤْهِمُ أَنَّ الدَّمْعَ بَلَّ جُفُونَهُ ، وَهَلْ عَصِرَتْ يَوْمًا مِنَ التَّرْجَسِ الْخَمْرُ^٦

وشاع عندهم التشبيب بالشعر الاشقر والعيون الزرق لما كانوا يصيرون من سي
فرجة الشمال وهم زرق شقر في الغالب، ولم يشع ذلك عند المشاركة لغلبة السواد على
الشعور والعيون، ولا يثارهم اياه على الزرقة والشقرة. قال الشنتريني^٧:

وَمُهْفَهْفٍ أَبْصَرْتُ فِي أَطْوَاغِهِ قَعْرًا بِأَفَاقِ الْمَخَاسِنِ يُشْرِقُ^٨
تَقْضِي عَلَى الْمُهْجَاتِ مِنْهُ صَعْدَةٌ ، مُتَأَلِّقٌ فِيهَا سِنَانٌ أَزْرَقُ^٩

وكان من جواء اختلاطهم بالنصارى، ان شاع عندهم الغزل النصراني، وذكر
الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل ابن الحداد في نُورَةِ النصرانية، وكان

١ البساط: الارض المنبسطة المستوية، او هو البساط بالكسر. خنوعاً: ذلاً. ٢ دون
الطبا: غير الطبا. غيداء: لينة الاعطاف مائلة العنق. ٣ صفحتها: خدها. العقرب: مستعار
للشعر المتدلي على الصدغ. ٤ هو ابو عبدالله محمد بن غالب المعروف بالرقاء، ينتسب
الى رُصَافَةِ الاندلس وهي بلدية عند بلنسية. توفي بمالقة سنة ٥٧٢ هـ. (١١٧٦ م).
٥ اي كما ابتسم الزهر للندى. ٦ اراد بالترجس عيونه، وبالخمر ريقه. ٧ هو ابو محمد
عبدالله بن محمد البكري منسوب الى شَنْتَرِينَ بلدة في الاندلس. توفي بالمرية سنة ٥١٧ هـ.
(١١٢٣ م). وكان قليل الحظ وعاش محروماً. ٨ الاطواق، جمع طوق: ما استدار وحلي
به العنق. ٩ الصعدة: القناة المستوية والمراد قامته. والمراد بسنانها الازرق عينه الزرقاء.

يهواها ، فلم ترضَ به بعلاً لاختلاف دينها عن دينه ، فهم بها واكثر من التشبيب .
وفيهما يقول :

فَإِنَّ الْخُسْنَ قَدْ وَلَا لَكَ إِحْيَائِي وَإِهْلَاكِي
وَأَوْلَعْنِي بِصُلْبَانِ ، وَرَهْبَانِ وَنَسَاكِ
وَلَمْ آتِ الْكَتَائِسَ عَنْ هَوَى فَيَهِنَ لَوْلَاكِ
وَهَا أَنَا مِنْكَ فِي بَلْوَى ، وَلَا فَرجُ لِبَلْوَاكِ
وَلَا أَتَسْطِيعُ سِلْوَانَا ، فَقَدْ أَوْتَقْتُ أَشْرَاكِي
وَكَمْ أَتَبْكِي عَلَيْكَ دَمًا ، وَلَا تَرْتِينَ لِلْبَاكِي
فَهَلْ تَذَرِينَ مَا تَقْضِي عَلَى عَيْنِي عَيْنَاكِ ؟
وَمَا يُذَكِّيهِ مِنْ نَارٍ ، بِقَلْبِي نُورُكَ الْذَاكِي^١
نُورُؤُهُ إِنْ قَلَيْتِ فَإِنِّي أَهْوَاكِ أَهْوَاكِ^٢ !
وَعَيْنَاكِ الشَّهِيدَانِ بِأَيِّ بَعْضٍ قَتْلَاكِ

واكثروا من تشبيه الحبيب بانواع الرياحين لكثرة الرياض والبساتين عندهم ،
ثم لشففهم بالطبيعة الناضرة الناعمة . وربما امعنوا في ذلك حتى يجردوا من محبوبهم
روضة مختلفة الازهار والالوان . ومن ذلك قول ابن خفاجة^٣ في طيف الحبيب :

تَنَدَى بَيْنِيهِ أَقْحَوَانَةٌ أَجْرَعُ ، قَدْ غَازَلَتْهَا الشَّمْسُ غِبَّ سَمَاءٍ^٤
وَتَمَيْسُ فِي أَثْوَابِهِ رَيْحَانَةٌ ، كَرَعَتْ عَلَى ظَمَأٍ بِجَدُولِ مَاءٍ^٥

١ الذاكى : المتقدم . ٢ قلت : ابغضت وهجرت . ٣ هو ابو اسحق ابراهيم
ابن عبد الله بن خفاجة . كان مقياً بشرق الاندلس ، ولم يتعرض لاستباحة ملوك طوائفها
مع رغبتهم في تقريب اهل الادب ، وله ديوان شعر احسن فيه كل الاحسان ، ولا سيما وصف
الطبيعة . ولد بجزيرة سُقُر من اعمال بلنسية في سنة ٤٥٠ هـ . (١٠٥٨ م) وتوفي بها سنة
٥٣٣ هـ . (١١٣٨ م) . ٤ تندى : يتل . الاقحوانة : زهرة صفراء في وسطها
وحواليها ورق ابيض ، تشبه بها الاسنان . الاجرع : الرمل الطيب اللبث . غب : بسد .
سماء : مطر ، يريد ان اسنانه كاقحوانة ضاحكتها الشمس بعد ان سقاها المطر . ٥ ريحانة :
المراد قامته . يجدول : الباء بمعنى من . والمراد قامته رياً بقاء الشباب .

نَفَاحَةُ الْأَنْفَاسِ إِلَّا أَنَّهَا حَذَرَ النَّوَى حَقَاقَةُ الْأَفْيَاءِ ١

وهذه التشابيه على ابتدائها ، توهم الجدة لما فيها من التلطف في اخراج صورها
البيانية ، ومثلها قول بعض الاندلسيين :

غَصَبُوا الصَّبَاحَ فَقَسَمُوهُ خُدُودًا ، وَاسْتَوْعَبُوا قُضْبَ الْأَرَاكِ قُدُودًا ٢
وَرَأَوْا حَصَى الْمَاقُوتِ دُونَ نُحُورِهِمْ ، فَتَقَلَّبُوا شُهْبَ النُّجُومِ عُقُودًا
لَمْ يَكْفِهِمْ حَدُّ الْأَسِنَّةِ وَالظُّبَى ، حَتَّى اسْتَعَارُوا أَعْيُنًا وَخُدُودًا

ومن قصائد الغزل الشهيرة قصيدة ابن زيدون في صاحبتة ولادة بنت المستكفي ،
فقد تناقلتها كتب الادب ، ورواها الخاصة وتغنى بها العامة لا لدقة معانيها وجدتها ،
وانما لسهولة لها وانسجامها ، ورقتها ووقع انعامها . وهي طويلة نجتزئ بشيء منها قال :

أَضْحَى التَّنَائِي بِدِيلًا مِنْ تَدَانِيْنَا ، وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُثْيَانَا تَجَافِينَا ٣
بِنْتُمْ وَبِنَا ، فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ ؛ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا ٤
يَكَادُ حِينَ تَتَجَاجِكُمْ ضَامِرُنَا ، يَفْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
حَالَاتٍ لِبُعْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ سُودًا ، وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا
إِذْ جَانِبَ الْعَيْشِ طَلَقْتُ مِنْ تَأْلِفِنَا ، وَمُورِدُ اللَّهِو صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإِذْ هَصَرْنَا غُصُونَ الْأُنْسِ دَانِيَةً قُطُوفُهَا ، فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شَيْنَا ٥
لَيْسَقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
مَنْ مُبْلَغُ الْمَلْسِينَا بِأَنْتَرَاجِهِمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَنْبَى ، وَيُئِيلِينَا :
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَا بِقُرْبِكُمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
مَا حَقَّقْنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ ، بِنَا ، وَلَا أَنْ تَسْرُوا كَاشِحًا فِينَا ٦

١ الافياء : جمع فيء وهو ما ينسخ الشمس ويكون من الزوال الى الغروب . كما ان
الظل ما ينسخه الشمس وهو من الطلوع الى الزوال . والمراد ان قامته ترتعش حذر النوى
إرتعاش افياء الريحانة . ٢ استوعبوا : اخذوا الشيء باجمعه . ٣ جوانحنا : الضلوع
تحت الترائب مما يلي الصدر . وقوله : ما ابتلت جوانحنا ، يريد ما يجده العاشق من حرارة
الشوق في قلبه . ٤ هصر الغصن : اماله وكسره . ٥ قُطُوفُهَا : جمع قُطْف ، اسم لما يُقطف
من الثمار . شَيْنَا : سهل شئنا . ٦ كاشحاً : مبغضاً معادياً .

بِأَن نَّعْصَ ، فَقَالَ الدَّهْرُ : آمِينَا
وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَالْيَوْمَ نَحْنُ ، وَمَا يُوجِي تَلَاقِينَا
رَأْيَا ، وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
أَنْ ظَلَمَّا غَيْرَ النَّأْيِ الْمُحِيطِنَا
مِنْكُمْ ، وَلَا أَنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا
وَلَا اتَّخَذْنَا بَدِيلًا مِنْكَ يُسْلِينَا
مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدِّ يَسْقِينَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيَا ، كَانَ يُحْيِينَا

غِيْظَ الْعِدَى مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوَا
فَأَنْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا ،
بِالْأَمْسِ كُنَّا وَمَا يُحْشَى تَفَرُّقُنَا ،
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ
لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
وَاللَّهُ مَا طَلَبْتَ أَهْوَاؤُنَا بَدَلَا
وَلَا اسْتَفَدْنَا خَلِيلًا عَنْكَ يَشْفَعُنَا ،
يَا سَارِي الْبَرْقِ ، غَادِ الْقَصْرَ فَاسْقِ بِهِ
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا

الخمریات

اللهو . مجالس الطرب . حب الخمر . الفحش والمجون .
الاستخفاف بالدين . شعراء الخمر .

عني الاندلسيون بوصف الخمر اشغفهم بها ، واقبالهم على شربها . لان طبيعة بلادهم ، وما فيها من منازة ورياض وانهار يحمل النفس على طلب اللهو والشراب ، فاجادوا نعتها ، ووصفوا معها آنيتها والساقى والنديم ، ومجالسهم وما يجري فيها من غناء ، وعبث . وكانوا يتوكؤون في كثير من معانيهم على ابي نواس ، واولعوا بقوله :
تَسْقِيكَ مِنْ طَرَفِهَا خَمْرًا ، وَمِنْ يَدِهَا خَمْرًا ، فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بَدِّ
فتناوله جملة من شعرائهم ، وتفننوا في الانسحاب عليه . واحسن ابن عبد ربه اذ يقول :

بِأَيِّ مَنْ زَهَا عَلَيَّ يَوْجِهِ ، كَادَ يَدْمِي لَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ^١
نَاوِلَ الْكَأْسَ وَأَسْتَمَالَ بِالْحُظِّ ، فَسَقَتْنِي عَيْنَاهُ قَبْلَ يَدَيْهِ^٢

وهم كالشارقة يشوبون خمرياتهم بالفحش والمجون والاستخفاف بالدين . والطفها ما جاء ممتزجاً بالفاظ الطبيعة الناضرة ، فان فيه من العذوبة والخيال الشعري شيئاً غير يسير . قال ابن خفاجة :

وَأَغِيدَ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ لِحُسْنِهِ
يَرِفُ بِرَوْضِ أَحْسَنٍ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ
حُلِيِّ ، وَفِي صَدْرِ الْقَصِيدِ نَسِيبُ^٣
وَقَامَتِهِ ، نُورَاتُهُ ، وَقَضِيبُ^٤

١ زها : اشرق . ٢ استمال : مال . ٣ الاغيد : اللين الاعطاف المائل العنق .
الحلي : ما يتخذ من الحجارة الكريمة للزينة . النسيب : وصف المحاسن ، والتعريض بذكر
المحبوب . يقول : هذا الاغيد له في صدر الكلام المنشور نعوت كالحلي ترين حسنه ، وله في
صدر المنظوم وصف وتعريض بهواه ؛ والمراد ان ذكره يتردد في بدء كل منشور ومنظوم .
٤ النواراة : زهرة الشجر .

جَلَاها ، وَقَدْ غَنَى الْحَمَامُ عَشِيَّةً ،
 وَجَاءَ بِهَا حَمْرَاءُ أَمَّا زُجَاجُهَا
 وَغَاظَلْنَا جَفْنُ هُنَاكَ كَنْزِجِسٍ ،
 فَلِلَّهِ ذَيْلٌ لِلتَّصَايِي سَحْبَتُهُ ،
 عَجُوزًا ، عَلِيهَا لِلْحَبَابِ مَشِيْبُ^١
 فَنُورٌ ، وَأَمَّا مُوْجُهَا فَكَثِيْبُ^٢
 وَمُبْتَسِمٌ كَالْأَقْحُوَانِ شَنِيبُ^٣
 وَغَمِيْشٌ بِأَطْرَافِ الشَّبَابِ رَطِيْبُ^٤

ومن تفنن ابن خفاجة في خمرياته قوله يصف ساقياً احبب اسود :

رُبَّ ابْنٍ لَيْلٍ سَقَانَا ، وَالشَّمْسُ تُطْلِعُ غُرَّةً^٥
 فَظَلَّ يَسُودُ لَوْنًا ، وَالْكَأْسُ تَسْطَعُ حُمْرَةً
 كَأَنَّهُ كَيْسُ فَحْمٍ ، قَدْ أَوْقَدَتْ فِيهِ جُمْرَةً

١ جلاها : عرضها كما تعرض العروس . ومن معاني الخمر عند العرب ان يخطبوا الخمرة
 ويتزوجوها ، ويدفعوا مهرها . عَجُوزًا : خمرة معتقة . الحباب ما يعلو الخمرة من الفقاقيع .
 ٢ اراد بموجها ما يطفو على وجهها من الحبيب ، شبهه بالكثيب . ٣ مُبْتَسِمٌ : اي تفر
 مُبْتَسِمٌ ، او هو مُبْتَسِمٌ اسم لمكان الابتسام . شَنِيبٌ : صافي الاسنان . ٤ التصايي : الميل
 الى جهلة الفتوة ، وحب الصبوة . ٥ الغُرَّة : كل ما بدا من ضوء او صبح .

الصيد

قصائد واداجيز . طريقة الجاهليين . طريقة المولدين .
شعراء الصيد .

وكان الصيد من ملاهيهم ، وملاهي ملوكهم . فوصفه الشعراء في قصائدهم واداجيزهم ، وخلطوا فيه طريقة الجاهليين بطريقة المولدين . فكانوا يصفون جيادهم ، وانطلاقهم بها في اثر الطرائد ، وكلايهم وشدتها فعل الشاعر الجاهلي . ثم يعنون في وصف الجوارح ، وادوات الصيد ، وما يصاد من الوحوش والطيور فعل الشاعر المولد . وربما مدحوا الامير بدكر صيده ، كما قال ابن زمرّك في مدح سلطانه ابن الاحمر :

وَلَرُبَّ مُتَمَدِّدٍ اَلْأَبْطَحِ مُوحِشٌ ، عَالِي الرُّبَى مُتَبَاعِدِ اَلْأَقْطَارِ^١
هَمَلِ الْمَسَارِحِ لَا يُرَاعُ قَنِيصُهُ ، إِلَّا لِنِبَاقَةِ فَارِسٍ مِغْوَارِ^٢
عَرَضَتْ بِهِ اَلْمُسْتَنْفِرَاتُ كَأَنَّهَا خَيْلُ عَرَابٍ جُلْنَ فِي اَلْمِضَارِ^٣
اَتَّبَعَهَا غُرَرُ اَلْجِيَادِ كَوَاكِبًا ، تَنْقُضُ رُجْمًا فِي سَمَاءِ عُبَارِ^٤
وَالْهَادِيَاتُ يَوْمُهَا عَيْلُ الشَّوَى ، مُتَدَفِّقٌ كَتَدَفَّقِ اَلتِّيَّارِ^٥
أَزْجِيَتْهَا شُقَرَاءُ ، رَائِقَةُ اَلْحَلَى ، فَرَمَيْتُهُ مِنْهَا بِشُعْلَةٍ نَارِ^٦

١ الاباطح ، جمع ابطح : مسبل متسع عريض فيه دقاق الخصى . ٢ الحَمَلِ المتروك سدى . المسارح : المراعي . القنيص : الصيد المقنوص . النبأة : الصوت . يقول : هذا المكان تخوف منه الصيادون لتوحشه ، فتركوا مراعيه سدى ، واصبح لا يجبطه الا كل فارس مغوار . ٣ عرضت : مرت في عدوها عارضة على جنب واحد . المستنفرات : الطرائد التي نُقِرَتْ فنفرت . عراب : عريية خالصة . ٤ الرُّجْمُ : ما يظهر في السماء كانه نجوم تنساقط ، وسكنت الجيم هنا لضرورة الشعر ، مفردا رَجَمَ . ٥ الهاديات : اوائل الطرائد النافرة . يومها : يتقدمها . عيل : ضخم . الشَّوَى : الاطراف والقوَّام ، والمراد طريقه ضخم القوَّام قوي . ٦ ازجيتها : سقتها . شُقَرَاءُ : صفة للمهرة . الحلَى : زيتها من المصوغات .

أَثَبَتْ فِيهِ الرُّمَحَ ثُمَّ تَرَكَتْهُ
حَامَتْ عَلَيْهِ الذَّابِلَاتُ كَأَنَّهَا
خَضِبَ الْجَوَانِحَ بِالدَّمِ الْمَوَارِ^١
طَيْرُ أَوْتٍ مِنْهُ إِلَى أَوْكَارِ^٢

ومنها في وصف الطرائد :

وَأَرَيْتَنَا الْكَسْبَ الَّذِي أَعْدَادُهُ
بَيْضٌ وَصُفْرٌ حَلَّتْ مَطْرَحَ سَرَحِهَا
مِنْ كُلِّ مَوْشِيٍّ الْأَدِيمِ مُقَوِّفٌ ،
خُلِطَ الْبَيَاضُ بِصُفْرَةٍ فِي لَوْنِهِ ،
مَلَأَتْ جَمَالًا أَعْيَزَ النُّظَارِ
رَوْضًا تَقَشَّحَ عَنْ شَقِيقِ بَهَارِ^٣
رَقَمَتْ بِدَائِعِهِ يَدُ الْأَقْدَارِ^٤
فَتَرَى اللَّجِينَ يَشُوبُ ذَوْبَ نُضَارِ

١ الجوانح : ما يلي الصدر من الاضلاع . الموَار : الجاري . ٢ الذابلات :
الرماح . ٣ سرحها : رعيها . الشقيق : ما انشق نصفين من نبت وغيره . البهار :
نبت طيب الرائحة ربيعي ، اصفر الورق ، احمر الوسط . ٤ موشي : منقش . الاديم : الجلد .
مقوِّف : فيه خطوط بيض على الطول ، على تشبيهه بالفؤف وهو ضرب من البرود اليمانية .

الطبيعة والعمران

جمال التصوير . دقة الوصف . خصب الخيال . الابداع .
 الطبيعة اناعمة . السماء والارض . حب الاندلسي للطبيعة .
 حبه لوطنه . تعصبه له . جمال الاندلس . الطبيعة
 في الاشياء المغنوية . في الاشياء المادية . في المدح
 والتخلص اليه . في الغزل . تشخيص الطبيعة . احساسهم
 نحوها . درس نفسياتها . رقتهم . جمال تشابيههم .

اذا شئت ان تلتمس ابداع شعراء الاندلس واقتنائهم ، ودقة وصفهم ، وجمال
 تصويرهم ، وحلاوة معانيهم ، وخصب خيالهم ، فاسمعهم يذكرون الطبيعة الناعمة
 الناضرة ، وينعتون زيتها وحلاها ، واصباغها والوانها ، ويصورون حضارتها وعمرانها .
 فتري شعرهم حافلاً بذكر الرياض والازهار ، والطيور والاشجار ، والجداول
 والانهار ، والنجوم والاقمار ، والغيوم والامطار ، والقصور وحدائقها ، والبرك ودوافقها ،
 والصور والتماثيل ، والنقوش والتهاويل ، وما الى ذلك من مفاتيح في الطبيعة والعمران .
 والاندلسي اشغف الناس بالطبيعة ، والصقهم بها ، لا يفتأ يتغنّى بحاسنها سواء كان
 جاداً او لاهياً ، ضاحكاً او باكياً .

واذا شئت ان تلتمس حب الوطن في الشعر العربي ، فاطلبه عند شعراء الاندلس ،
 فانه ممتزج بكل علقه من دمائهم ، مصور في كل جارية من جوارحهم . والاندلس
 قبلة شاعرها كيف اتجه ، واتى اغترب ، لا ينقطع عن ذكرها ، ولا يرى بلداً في
 الدنيا يضاهيها . فجلالها فوق كل جمال ، وعمرانها دون كل عمران ، وهي جنة الخلد
 بجورها وولدانها ، ورحيقها وكوثرها .

وليس بينه وبين الشاعر العباسي شبه من هذه الناحية ، لان العاطفة الوطنية ضعيفة
 في شعر المشاركة ، لا تكاد تلمح لها خيالاً الا في الندرى . والظاهر ان وجود المسلمين
 في بقعة تحيط بها دول نصرانية ، لا تأتلي تجاهدكم لتخرجهم منها ذوداً عن الدين

والوطن ، مكن هذه العاطفة فيهم وجعلهم يقابلون اعداءهم بالمثل حتى اصبح حب الوطن مالمكاً على نفوسهم .

وحق لاهل الاندلس ان يتعبدوا لوطنهم ، فان هذا الصقع الجميل الخصاب جدير بان يمتلك القلوب ويستهوياها ، ولا سيما قلوب الشعراء ، فانها اسرع من غيرها الى تعشق الجمال واخضوع اسلطانها ، واستشفاف سحره ، والفناء في مادته وروحانيته . وقد استحثت الاندلس قرائح الشعراء بوحي طبيعتها وغذتها افضل غذاء ، وحبها بخيال جميل لم يظفر بمثله من شعراء الشرق الا الاقلون . فان قرطبة واسبيلية وغرناطة كانت ابلغ اثرأ في خيالات الشعراء من الشام والعراق ومصر . فاذا هم والطبيعة إلفان لا يفترقان ، وروحان متصلان . واذا الطبيعة لديهم نفس هيولانية تقبل جميع الصور وتتمصص جميع الاجسام ، لا يخلو عنها غرض من اغراضهم ، ولا يتخلى منها خاطر من خواطرهم . فان مدحوا خصوصها بنصيب من مدحتهم ، فجعلوا صورها بالاشياء المعنوية :

هَصَرَتْ يَدَيَّ غُصْنُ النَّدَى مِنْ كَفِّهِ ، وَجَعَتْ بِهِ رَوْضَ الشَّرُورِ مُنَوَّرًا
او بالاشياء المادية :

أَثَرَتْ رُمَحُكَ مِنْ رُؤُوسِ كُمَاتِهِمْ ، لَمَّا رَأَيْتَ الْغُصْنَ يُعَشِّقُ مُشِيرًا
ويهدي شاعرهم قصيدته الى ممدوحه فما يرى غير الروض شبيها لها :

وَإِلَيْكُمَا كَأَلِ الرَّوْضِ زَارَتُهُ الصَّبَا ، وَحَنَّا عَلَيْهِ الْأَطْلُ حَتَّى تَوَرَّا
وربما اراد التخلص الى المدح فيستخدم الطبيعة سبيلاً الى ممدوحه كما فعل ابو عامر ابن شهيد في مدح المؤتمن بن عامر فانه استهل مدحته بذكر الحمر والساقى ، وانتهى الى وصف سحاب ماطر :

وَعَنَامٍ بَاكَرْتَنَا غَيْمُهُ ، نَتَرَعُ الْأَفْقَ بِدَمْعٍ صَيَّبٍ
مِثْلَ بَحْرِ جَاءَنَا مِنْ فَوْقِنَا ، جَرْمُهُ مِنْ لَوْلُوٍّ لَمْ يُثَقِّبْ !

١ جرمة : جسمه . من لؤلؤ لم يثقب : اراد به البرد .

ثم شرع يتحدث الى المزن كمن يتحدث الى انسان عاقل حتى اعد سبب الانتقال الى المدح :

فَسَأَلْنَاهُ ، وَقَدْ أَعْجَبَنَا حَشْوُهُ الْعَيْنَ بِمَرَأَى مُعْجِبٍ :^١
 « أَنْتَ مَاذَا ؟ » قَالَ : « مَزْنٌ عَلِمْتُ كَفَّهُ النَّفْحَةَ كَفًّا دَرْبٍ »^٢
 « رَامَنِي بِالشَّرْقِ أَنْ أَسْقِيَكُمْ ، رَحْمَةً مِنْهُ ، بِأَقْصَى الْمَغْرِبِ »^٣
 فَسَأَلْنَاهُ : « أَيْنَ ذَاكَ لَنَا ، » قَالَ : « هَلْ يُخْفَى ضِيَاءُ الْكَوْكَبِ ؟ »
 « مَلِكٌ نَاصِبٌ مَنْ خَالَفَكُمْ ، عَامِرِي الْمُنْتَمَى وَالْمُنْصَبِ »^٤

وان تغزلوا متشوقين الى احبتهم عنت لهم ايام اللقاء بالاندلس ، فينقطعون عن الغزل منصرفين الى وصف موضع اللقاء كأن لذة الاتصال بالطبيعة كافية ان تؤدي شرح احوالهم الى احبائهم الهاجرين . قال ابن زيدون يذكرو ولادة وهو بالزهراء ، وهي في قرطبة :

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَقَا ، وَالْأَفْقُ طَلَقٌ ، وَوَجْهَ الْأَرْضِ قَدْرَا
 وَلِلَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ ، كَأَنَّمَا رَقٌّ لِي ، فَأَعْتَلَّ إِشْفَا
 وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ الْفِضْيِ مُبْتَسِمٌ ، كَمَا حَلَلَتْ عَنِ اللَّبَاتِ أَطْوَا
 يَوْمٌ كَأَيَّامٍ لَدَاتٍ لَنَا أَنْصَرَمَتْ ، بِثَنَّا لَهَا ، حِينَ نَامَ الدَّهْرُ ، سُرَاقَا
 نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ ، جَالَ النَّدَى فِيهِ ، حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا
 كَانَ أَعْيَنَهُ ، إِذْ عَايَنْتُ أَرْقِي ، بَكَتْ لِمَا لِي ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَقَا
 وَرَدُّ تَأَلَّقَ فِي ضَا حِي مَنَابِتِهِ ، فَأَزْدَادَ مِنْهُ الضَّحَى فِي الْعَيْنِ إِشْرَاقَا^٥

١ حشوه : فاعل اعجبنا . ٢ مزن : سحاب فيه مطر . النفحة : العطية . درب : متمرن معتاد ، والمراد كفاً الممدوح . ٣ المراد ان الممدوح جاء به من الشرق ليسقيهم في الغرب . ٤ ناصب : عادي وحارب . المنصب : الحسب والاصل . ٥ اللبات ، جمع لبنة : موضع القلادة من الصدر . والمراد يتألق الماء الفضي في الروض تألق نحر الحسناء اذا كشفت عنه الاطواق . ٦ اعناقاً : تميز ، والمراد مالت اعناقهم . ٧ جعل الزهر يشعر بارقه فيسكي اشفاقاً عليه ، وجعل الندى في اوراق الزهر دمعاً يترقق . ٨ (الضاحي : الظاهر ، والبارز للشمس .

سَرَى يُنَافِحُهُ نِيْلُوفَرٌ عَمِيقٌ ، وَنَسْنَانُ نَبَّهَ مِنْهُ الصَّبْحُ أَحْدَاقًا^١
 كُلُّ يَهِيحٍ لَنَا ذِكْرَى تَشْوِقُنَا ، إِلَيْكَ لَمْ يَعُدْ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا^٢

ويصف عاشقهم حبيبته فيجعل له جنة مختلفة الازهار ، وقد اوردنا في باب الغزل شواهد على ذلك . وربما تعفف فيما يرى غير الطبيعة صورة لعفته كقول ابي عمر بن فرج :

وَطَائِعَةُ الْوَصَالِ عَفَّتْ عَنْهَا ، وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
 وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا ، إِلَى فَتَنِ الْقُلُوبِ بِهَا ، دَوَاعِ
 كَذَلِكَ الرَّوْضُ مَا فِيهِ لِمِثْلِي ، سِوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
 وَلَسْتُ مِنَ السَّوَاغِمِ مُهْمَلَاتٍ ، فَأَتَّخِذُ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاعِي^٣

ويطول بنا الامر ان تتبعنا صور الطبيعة في مختلف انواع الشعر الاندلسي ، فحسبنا القول انها حديثهم في جميع اغراضهم . والرجوع الى اشعارهم يؤيد صحة ما نقول .

وكان من امعانهم في ابراز صور الطبيعة وتشخيصها ان شغلوا عن وصف احساسهم بجمالها ، وتذوقهم اسرارها ، والتذاذهم الاتحاد بها ، فخلا شعرهم او كاد يخلو من تصوير اختلاجات نفوسهم نحوها ، وانجذاب عواطفهم اليها . مثال ذلك قول ابن خفاجة وهو اشعر من وصف الطبيعة عندهم ، وشغف بحاسنها ، واتصل بها . قال يصف نهراً :

مُتَعَطِّفٌ مِثْلُ السَّوَارِ كَأَنَّهُ ، وَالزَّهْرُ يَكْنِفُهُ ، مَجْرٌ سَمَاءُ^٤
 قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصًا مُفْرَغًا ، مِنْ فِضَّةٍ ، فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءُ^٥

١ ينافحه : يدافعه . النِيلُوفَرُ : ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة ، وله اصل كالجزر ، وساق املس ، يطول بحسب عمق الماء فاذا ساوى سطحه اوراق وازهر ، واذا بلغ يسقط عن رأسه ثم داخله بزر اسود . الوسنان : من غلب عليه النعاس . ٢ لم يعد : لم يلبث . ٣ السواغم : الماشية ترعى حيث تشاء ، مفردها سائمة . مهملات : متروكات ترعى بدون راع . ٤ يكنفه : يحوطه . المجر : المجرة ، ودرب التبان عند العامة . يقول : ان هذا النهر متعطف مثل السوار وكأنه والزهر يحوطه ، المجرة يحوطها النجوم . ٥ شبه النهر المتعطف كالسوار بقرص من فضة ، وشبه ما يحيط به من النبات بالبردة الخضراء .

وَعَدَتْ تَخْفُ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا هُدْبٌ يَخْفُ بِمِقْلَةٍ زَرْقَاءُ^١
وَأَمَّا أَسْرَعَ جَرِيَهُ مُتَحَدِّراً ، مُتَلَوِّياً كَالْحَيَةِ الرَّقْطَاءُ^٢
وَالرَّيْحُ تَعَبْتُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ^٣

ولكنهم ابدعوا في بث الحياة بها، ودرس نفسانيتها على ما يوحي اليهم خيالهم
الخصب، فعل ابن زيدون في قافيته التي ارسلها الى ولادة، وفعل ابن شهيد في وصف
السحاب الماطر . وكثير من معاني الاندلسيين في الطبيعة مطروق، سبقهم اليه المشاركة،
ولكنهم تلافوا في اخراجه، وتفننوا في تصويره فظهرت عليه الجدة والطرافة كقول
ابن الزقاق :

وَرِيَاضٍ مِنَ الشَّقَائِ أَضَعَتْ يَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الرِّيَاحِ
زُرْتُهَا ، وَالْغَنَامُ يَجِلْدُ مِنْهَا زَهْرَاتٍ تَفُوقُ لَوْنَ الرَّاحِ
قُلْتُ : « مَا ذُنْبُهَا ؟ » فَقَالَ مُجِيباً : « سَرَقَتْ حُمْرَةَ الْخُدُودِ الْمِلَاحِ^٤ »

وشغف الاندلسيين بالطبيعة، منحهم خيالاً جميلاً، وتشابيه حلوة، فكانت الرقة
والنعومة ميزة اشعارهم، والفضل في ذلك للاندلس وما لربوعها من تأثير في نفوسهم،
حتى كان حبهم لها عبادة . قال ابن خفاجة :

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ لِلَّهِ دَرْكُكُمْ ، مَاءٌ ، وَظِلٌّ ، وَأَشْجَارٌ ، وَأَنْهَارٌ !
مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ ، وَلَوْ تَحَيَّرْتُ ، هَذَا كُنْتُ أَخْتَارُ^٥

وكان للاندلس وطبيعتها القسط الاوفر في موسماتهم الشهيرة .

١ الهدب : شعر اشجار العيون ، شبه الغصون في تهدها على (النهر باسفار العين، وشبه
النهر المستدير بالعين الزرقاء . ٢ الرقطاء : ما شاب بياضها سواد او عكس ذلك . شبه
الماء واختلاف لونه في الظلال حين تلويه، بالحية الرقطاء . ٣ الاصيل : بعد العصر الى
الغروب . اللجج : الفضة . ٤ هذا : اي هذا المكان، يفضل الاندلس على جنة الخلد .

الموشحات الاندلسية

التعريف بالموشحات

الاقفال . الابيات . الاجزاء . الخرجة . اوزانها .

الموشحات فن جديد في شعر المتقدمين استنبطه اهل الاندلس وسموه موشحاً لما فيه من الصنعة والتزين ، فكأنهم نظروا الى وشاح^١ المرأة وما فيه من ترصيع وتكريس^٢ ، وتفصيل فشبهوه به في اسمائه وابياته واقفاله .

ولابن سناء الملك تعريف ضاف بالموشحات في كتابه دار الطراز يستخلص منه ان الموشح يتألف في الاكثر من ستة اقفال وخمسة ابيات ، ويقال له التام . وربما تألف من خمسة اقفال وخمسة ابيات وقيل له الاقارع . والتام ما ابتدئ فيه بالاقفال ، والاقارع ما ابتدئ فيه بالابيات .

والاقفال اجزاء مؤلفة يلزم ان يكون كل قفل منها متفقاً مع سائرهما في وزنه وقوافيه وعدد اجزائه كقول ابن الخطيب :

جَادَكَ الْغَيْثُ ، إِذَا الْغَيْثُ هَمَى ، يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ !
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُمًا فِي الْكَرَى ، أَوْ خُلْسَةً الْمُخْتَلِسِ
فهذا القفل يتردد ما يشابهه وزناً وقافية وعدد اجزاء ، ست مرات في الموشحة لانها تامة .

١ الوشاح : شبه قلادة من اديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها او هو كبرسان من لؤلؤ وجواهر منظومان يخالف بينهما ، معطوف احدهما على الآخر .
٢ التكريس : ان ينظم اللؤلؤ والخرز في خيط ثم يضا مفضولين بخرز كبار . ومنه قلاد ذات كرس او ذات كرسين .

والايات اجزاء مؤلفة يلزم ان يكون كل بيت منها متفقاً مع سائر ايات
الموشح في الوزن وعدد الاجزاء لا في القافية ، كقول ابن الخطيب بعد القفل الذي
اوردناه :

إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمُنَى ، تَنْقُلُ الْخَطْوَ عَلَى مَا نَرَسُمُ^١ ،
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَا ، مِثْلًا يَدْعُو الْحَجِيجَ الْمَوْسِمُ^٢ ،
وَالْحَيَا قَدْ جَلَلَ الرُّوضَ سَنَا ، فَتَعُورُ الزَّهْرَ فِيهِ تَبَسُّمُ^٣ ،

فهذا البيت يتكرر في سائر الموشحة خمس مرات بوزنه وعدد اجزائه، ويختلف في
قافيته، مثال ذلك السمت الثاني منها حيث يقول في قفله :

وَرَوَى النُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ ، كَيْفَ يَرَوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسٍ^٤ ،
فَكَسَاهُ الْحُسْنُ ثَوْبًا مُعَلَّمًا ، يَزِدُّهُي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلَبَسٍ^٥ ،

ويقول في بيته :

فِي لَيَالٍ كَتَمَتْ سِرَّ الْهَوَى ، بِالْدُجَى لَوْلَا سُشُوسُ الْغُرَى^٦ ،
مَالَ نَجْمُ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى ، مُسْتَقِيمَ السَّيْرِ، سَعْدَ الْأَثَرِ^٧ ،

١ اشتات : جمع شت وهو المتفرق . نرسم : نأمر . يقول : ان الدهر كان
طائعاً لنا يقود الينا المنى وهي تسير على ما نرسمه لها . ٢ زمراً : جماعات ، مفردها
زمرة ، نصبت على الحال من ضمير تنقل . فرادى : واحداً واحداً . ثنا : اثنين اثنين .
الحجيج : من يحجون الى الاماكن المقدسة . الموسم : يجتمع الحج في مكانه . ٣ الحيا :
المطر . جلل : غطى . ٤ النعمان : ملك الخيرة ابن المنذر اللخمي ، والمراد هنا شقائق النعمان .
ماء السماء : ام المنذر اللخمي وجدة النعمان ، والمراد هنا المطر . مالك : امام المدينة واحد
الاثثة الاربعة ، وأنس والده . يقول : ان زهر الشقائق روى لنا عن والده المطر كيف كان
يروى مالك عن والده انس رواية صدق . وصدق رواية الشقيق عن المطر باد في ازهاره
وحسن منظره ، وفي الصراع الاول توريتان ظاهرتان . ٥ معلماً : مطرزا مرقوماً .
٦ الغرر : جمع غرة ، اي طلعة وجوه الحسان . ٧ شبه كأس الخمر وهي تدور عليهم ،
وهم في لحو وهناء ، بنجم مظهره سعد يسير في اصحابه سيرا مستقيماً ، ويترك لهم اثاراً طيبة .

وَطَرٌ مَا فِيهِ مِنْ عَيْنٍ سَوَى أَنَّهُ مَرَّ كَلَمَحِ الْبَصْرِ
ويتركب الفقل من فقرة واحدة وجزئين فصاعداً الى اربع فقر وثمانية اجزاء او
عشرة . فمثال الفقرة الواحدة والجزئين :

يَا لِلَّهِ يَا سَفَاكَ ، أَتَعِدُّ طَبَاكَ !

ومثال الفقرتين والجزئين :

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي ، قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ

ومثال الفقرة الواحدة والاجزاء الثلاثة :

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ ، وَكَأْسَ الْفَقَارِ ، دُونَ نَسْتَبَارِ ، عَلِمْتُمَا نِي كَيْفَ خَلَعْتُ الْعِدَارَ

ومثال الفقر الاربع والاجزاء الستة :

مَا لِلْمَوْلَةِ ، مِنْ سُكْرِهِ لَا يُفِيقُ ، يَا لَهُ سَكْرَانِ
مِنْ غَيْرِ خَمَرٍ ، مَا لِلْكَيْبِ الْمَشُوقِ ، يَنْدُبُ الْأَوْطَانَ

والبيت يكون مفرداً، واجزاؤه ثلاثة او اكثر، فمثال الثلاثة :

إِنَّ الْمَسَاوِيكَ ، مَحْسُودَةٌ فِيكَ ، عَلَى لَمَى فِيكَ

وقفله :

يَا لَيْتَنِي مَسْأُولٌ ، عُودِ الْأَرَاكَ !

ويكون مركباً، واكثره ما جاء على فقرتين وثلاثة اجزاء كما في موشحة ابن
الخطيب ، وربما زاد على ذلك او نقص . وقد يجيء فيه نصف جزء كقول بعضهم
وهو فقرتان وثلاثة اجزاء ونصف جزء :

مَنْ أَوْدَعَ الْأَجْفَانَ ، صَوَارِمَ الْهِنْدِ
وَأَنْبَتَ الرِّيْحَانَ ، فِي صَفْحَةِ الْحَدِّ
قَضَى عَلَى الْهَيْمَانَ ، بِالْدَمْعِ وَالشَّهْدِ
أَتَى وَلِلْكَيْهَانِ

وقفله :

لِلْهَائِمِ الْمُغْرَمِ ، بِدَمْعٍ نَمَ ، إِذْ يُسْجَمُ ، بِمَا يُكْتَمُ^١
مِنْ أَسِيرٍ ، فِي عَاطِلِ حَالٍ ، عَزِيزٍ سَاطٍ ، عَلَيَّ بِالْدُعْجِ^٢

والقفل الاخير في الموشحة يقال له الخرجة ، وشرطها ان تكون عامية غير
معربة الا في المدح ، فمثال العامية :

أَنَا قَوْلٌ : قُوقُو ، لَيْسَ بِاللَّهِ تَذُوقُو

واكثر ما تجعل على السن الجوارى والغلمان والسكاري ، وربما جاءت على السن
الحيوان والطير والاشياء المعنوية كالحب والحرب وما اشبه . ولا بد ان يرد في البيت
قبلها قال او قلت او يقول ، او ما يغني عنه كغني وشدا ، فان الخرجة التي اوردنا قد
مهد لها في البيت قبلها بقوله :

لَمَّا أَنْ تَسْرِبُ ، ثَوْبَ الْحُسْنِ زِيًّا ، أَرَدْتُ أَقْبِلَ لَمَاهُ الشَّهِيَّا
فَقَالَ تَمَثَّلْ ، بِالْشَّعْرِ أَيْيَا ، وَمَالَ تَدَلُّ ، بِأَجَلِي مَقَالَ :
أَنَا قَوْلٌ : قُوقُو ، لَيْسَ بِاللَّهِ تَذُوقُو

والموشحات منها ما جاء على اوزان العرب ؛ ومنها ما خالفها . فاما الموزون فيعده
اصحاب الصنعة مردو لا الا اذا اختلفت قوافي قفله كما في موشحة ابن الخطيب
« جادك الغيث » او اخرج من الوزن بكلمة او حركة تتخلل ابياته ، مثال الكلمة :

صَبَرْتُ ، وَالصَّبْرُ شَيْمَةُ الْعَالِي ، وَلَمْ أَقْلَ لِلْمُطِيلِ هِجْرَانِي :
مُعَذِّي كَفَانِي !

فهذا من المنسرح ، واخرجه منه معذني كفاني . ومثال الحركة :

يَا وَيْحَ صَبَرَ إِلَى الْبَرْقِ لَهُ نَظَرٌ ، وَفِي الْبُسْكَاءِ مَعَ الْوَرَقِ لَهُ وَطَرٌ
فحركة الخفض في البرق والورق والتزامهما كالقافية خرجا بالبسيط عن وزنه .

١ الباء في قوله بما يكتم متعلق بنم . ٢ العاطل : ضد الحالي ، والحالي المتزين بالحلي .
ساط : اسم فاعل من سطا . الدعج : العيون الشديدة السواد مع سمة ، مفردها دعجاء .

وقد تكون اقوال الموشح موافقة لآلياته في الوزن وقد تكون مخالفة لها .
واما ما خالف اوزان العرب فنه ما له وزن خاص يدركه السمع ويعرفه الذوق
من غير احتياج الى ميزان العروض ، وهذا كثير في الموشحات . ومنه مفكك النظم
لا يحسن له وزن ولا وقع ، وهذا يحسن في غنائهم ؛ ولا يحسن في الانشاد .

أختر أعرا

مقدم بن معافر . ابن المعتز . دخولها الشرق . الخروج
على نظام الشعر في الشرق . الاندلس والجديد فيها . تأثير
اختلاط العرب بالفرنجية . استعراب الاسبانيين . تأثير
الاختلاط في الازياء ، ولغة التخاطب ، والفناء ، والادب
والموشحات ، وانشيد التروبادور .

قال ابن خلدون في مقدمته : « واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم
وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموه
بالموشح . » اهـ .

وقال ايضاً : « وكان المخترع له بجزيرة الاندلس مقدّم بن معافر القريري من
شعراء الامير عبد الله بن محمد المرواني ، واخذ ذلك عنه ابو عبد الله احمد بن عبد ربه
صاحب كتاب العقد ؛ ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما .
فكان اول من برع في هذا عبادة القرّاز شاعر المعتصم بن ضماح صاحب الحمريّة . » اهـ
واورد ابن خلدون بعض توشيح لعبادة يقول فيه :

بَدْرُ تَمْ ، شَمْسُ ضَحَى ، غُضْنُ نَقَا ، مِسْكُ سَمِ
مَا أْتَم ، مَا أَوْضَحَا ، مَا أَوْرَقَا ، مَا أُنَمِ

فيقبين من كلام صاحب المقدمة ان الموشحات ظهرت بالاندلس في القرن
الثالث للهجرة ، لان خلافة الامير عبد الله بن محمد كانت من سنة ٢٧٥ الى ٣٠٠ هـ .
(٨٨٨ - ٩١٢ م) . على انه لم يصل اليها شيء من موشحات مقدم بن معافر أول
ناظم في هذا الفن عرف اسمه ، ولا من موشحات ابن عبد ربه ، لان موشحاتهما
كسدت واهملت ولم يروها الناس . واقدم ما وصل اليها ما جاءنا عن عبادة القرّاز
المتوفى سنة ٤٢٢ هـ . (١٠٣٠ م) .

وفي ديوان ابن المعتز العباسي موشحة لطيفة ، لو صحت نسبتها اليه ، لما بقي فضل

اختراع هذا الفن لاهل الاندلس، لان ابن المعتز كان معاصراً لمقدم بن معافر، ومقدم كسدت موشحاته لغنائتها، وابن المعتز خلدت موشحته لجودتها^١. غير اننا نشك في نسبتها اليه، لاسباب: منها ان مؤرخي ابن المعتز لم يذكروه في عداد الوشاحين، ولا ذكروا موشحته هذه. ومنها ان هذه الموشحة رويت لشاعر آخر يقال له الحفيد ابن زهير، ولعله اندلسي^٢. ومنها ان ديوان ابن المعتز لا يحتوي غير هذه الموشحة، فلو عرف صاحبه فن التوشيح لاكثر منه لانه يتلائم مع اغراضه التي اختص بها: كوصف الطبيعة ومجالس اللهو والشراب. ومنها انه لم ترو موشحة لشاعر مشرقى غير ابن المعتز في العصر العباسي الثاني، ولا رويت موشحة لشاعر في العصر الثالث. ومنها ان المؤرخين اتفقوا على نسبة الموشحات الى اهل الاندلس لانها من مستنبطاتهم، ولم يذكروا مشرقياً في الوشاحين قبل ابن سناء الملك المصري، من شعراء العصر العباسي الرابع. فهذه الاسباب تعزز شكنا في موشحة ابن المعتز، وتعزز اعتقادنا ان الشرق لم يعرف هذا الفن الا في اواخر الاعصر العباسية، بعد ان شاع وازدهر في الاندلس، وظهر بها امثال عبادة القراز وابي بكر بن زهر^٣، وابن بقي^٤،

١ اول هذه الموشحة :

أجما الساقى اليك المُشْتَكى ، قد دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ .

وَنَدِمَ رَحْمَتُ فِي غُرَّتِهِ وَبُشْرِبِ الرَّاحِ مِنْ رَاحَتِهِ
كُلَّمَا اسْتَيْقَظَ مِنْ سَكْرَتِهِ

جَذَبَ الزَّقَّ إِلَيْهِ وَاسْكَا ، وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ .

٢ رويت للحفيد بن زهير كما رويت لابن المعتز في كتاب «الغذاري المائسات في الازجال والموشحات» لجامعه فيليب قعدان الخازن . ولعله الحفيد بن زهر لان ابنه زهر اشتهر وا في الاندلس بعلومهم وادابهم ، ولاسيا ابو بكر بن زهر الذي شرقت موشحاته وغربت كما يقول ابن خلدون . وقد ورد اسمه محرفاً من زهر الى زهير في مقدمة ابن خلدون وفي الغذاري المائسات ، فلا يبعد ان يكون وقع هذا التحريف على الحفيد ايضاً . ٣ ابو بكر محمد بن زهر الاشيلي من ائبغ عائلـة زهر المشهورة بالاندلس . كان طبيباً واديباً ، اتصل بدولة المرابطين، والموحدين من بعدهم ، ومات مسموماً في آخر سنة ٥٩٥ هـ . (١١٩٨ م) وكانت ولادته سنة ٥٥٧ هـ . (١١١٣ م) . ٤ هو ابو بكر يحيى بن بقي القرطبي له موشحات بديعة توفي سنة ٥٤٠ هـ . (١١٤٥ م) .

والاعمى التُّطيلي^١، وابن باجَّة^٢، وسواهم من الوشاحين المشهورين .

ولم يحدث هذا الفن الجديد دون ان يلقي مقاومة وانكاراً، فان جماعة المحافظين على القديم تجهّموه وعدوه خروجاً على الاصول وضعفاً، وعابوا اصحابه ، ولكن سيله طام وطغى واجترف مقاوميه .

ولا بد من القول ان الخروج على نظام الشعر ظهر عند المشاركة في صدر الدولة العباسية . فان بعض الشعراء اخذوا ينظمون الفنون العلمية والقصص الطويلة مزدوجات ، اذ لا يستطيع نظمها على قافية واحدة ، كما فعل أبان بن عبد الحميد في كليلة ودمنة . ونظموا ايضاً المسمطات والخمسات كما فعل قُطْرُب في مثلثاته . غير ان فحول الشعراء تحاموا هذه الانواع ورأوا فيها عجزاً وضيقاً ، وآثروا التزام القافية الواحدة، الا بشاراً وابن المعتز . فقد ذكر ابن رشيق ان الاول كان يصنع الخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانة بالشعر . واما الثاني فصنع مزدوجة في ذم الصبوح ، واخرى في سيرة المعتضد .

وسرى فن المسمطات والمزدوجات من الشرق الى الغرب كما سرى غيره من الفنون والعلوم . فنظم فيه شعراء الاندلس ، فعل ابن عبد ربه في مزدوجته التي ذكر بها غزوات الخليفة الناصر . والاندلسيون اسرع الى الخروج على القديم من المشاركة ، لان الشرق مهد العربية ، وطلل البادية ، لا ينفك البدو يختلفون الى امصاره ، وابناء الامصار يختلفون الى باديته . فروح العروبة فيهم ارسخ واقوى ، مهما غلوا في تجديدهم ، وافراطوا في انكار قديمهم . واما الاندلس فلم تكن قرارة العرب قدماً ، وهي من شامها محاطة بدول نصرانية اعجمية ، ومن جنوبها بقبائل بربرية مغربية . ولولا اعراق

١ هو ابو جعفر احمد بن عبدالله التُّطيلي، منسوب الى تَطِيلَة مدينة بالاندلس، نسبة اليها صاحب نفح الطيب ، واما صاحب قلائد العقيان فقد نسبته الى تَطِيلَة . عاش بين القرن الرابع والخامس للهجرة (القرن العاشر والحادي عشر) واشتهر بالشعر والنثر والتوشيح . ٢ هو ابو بكر محمد بن باجَّة التَّجِيبي السَّرْقُسْطي، الفيلسوف والطبيب المعروف بابن الصائغ . كان شاعراً اديباً وشاعراً، ووزيراً للامير ابي بكر الصجر اوي صاحب سَرْقُسْطة من قبل المرابطين . توفي مسموماً في مدينة فاس بالمغرب سنة ٥٣٣ هـ . (١١٣٨ م) .

بعض الاسر الاندلسية في العروبة ، ومناصرة الملوك للادب والادباء ، وشغفهم برواية الشعر الجاهلي ، وترددهم في الشرق ، وتردد المشاركة في بلادهم ، لما رسخت ملكة الفصاحة هناك . وخصوصاً ان العرب الذين ترحوا الى الاندلس اكثروا من الزواج بالنساء الاسبانيات ، وسواهن من الاوربيات ، فولد لهم اولاداً يعتلج في عروقهم الدم الشرقي والغربي ، فكانت لهم عادات وطباع وازياء وفنون يختلفون بها عن عرب المشرق جد الاختلاف ، ويقتربون بها من النصارى الاسبانيين كل الاقتراب . وقد ظهر اثر هذا الاختلاط في استعراب النصارى واليهود من اهل الاندلس ، واتقانهم لغة الضاد وآدابها . وفي طراز بنائهم المستعرب (mozarabe) ، وفي انتشار العلوم الدخيلة بالممالك الاسبانية ، وفي استعمال الحروف العربية ببعض ولاياتها ، ويسمون ذلك عندهم بالادب العجمي (Litteratura aljamiada) . ثم في اتخاذ المسلمين ازياء النصارى ، فقد ذكر صاحب نفح الطيب ان الاندلسيين العرب غلب عليهم ترك العمام ، فكان عزيز بن خطّاب اكبر عالم في مُرسية يخطب في حضرة السلطان وهو حاسر الرأس . وكان ابن هُود وابن الاحمر بدون عمامة ايضاً . وكثيراً ما كان سلاح السلاطين والجنود كسلاح النصارى ، واقبيتهم كاقبيتهم . واثرت العجمة في لغة التخاطب عندهم ، فانحرفوا بها عما تقتضيه الاوضاع العربية ، حتى اذا تكلم احدهم بالاعراب ، وجرى على قواوين النحو ، استثقلوه واستبدوه .

وكذلك الغناء ، أثر فيه اختلاط العرب بالاسبانيين تأثيراً بليغاً ، وأثرياً في الشعر الذي يتغنى به . وكانت مجالس الطرب في الاندلس على انتشار عظيم ، وانعقاد مستمر . فان جمال الاندلس وخصبها ، وغنى اهلها ، من دواعي اللهو والعبث ولا شيء ادعى الى اللهو من الغناء والطرب ، فلا غرو ان يشيع هذا الفن ، ويكون له المقام الرفيع ، وتكثر مجالسه ويعظم قدر المغنين . ومحسبك ان تعلم كيف احتفى عبد الرحمن الثاني بزرياب ، لتبئين منزلة الغناء والمغنين .

ولا ريب ان لزرياب يدأ طولى في رفع شأن الغناء بالاندلس لما ادخل عليه من التحسين . قال فيه ابن خلدون : « فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر » .

ولم يكن للاسبانيين موسيقى راقية قبل الفتح الاسلامي . فلما افتتحت الاندلس وانتشر الغناء العربي ، تهنّدت موسيقاهم ، واصطبغت بالوان عربية بيّنة . منها انهم اتخذوا الشبّابة من آلات الغناء وهي عربية الاصل . ولهم اناشيد يسمونها بالزجل (Segrel) وهي مأخوذة عن الزجل العربي . وعندهم طرب بمعنى ألف الاغانى ، وطروب بمعنى مؤلف الاغانى . وعندهم ربع صوت ، وثلاث صوت . واجزاء الاصوات عربية لا يستعملها في اوربة غير الاسبانيين . وتقطيعهم الصوتية تجري على نغم واحد كالتقطيع العربية . ومن الفاظهم ما يراجع في الغناء غير مرة ، كما يراجع لفظ ياليل في الغناء العربي .

وكان الادب الاسباني قبل دخول العرب رومانياً يتعهده الرهبان في اديارهم منذ القرن الخامس للمسيح . ولكنه لم يشمل طبقات الشعب كلها ، لان العامة لم تتأثر بالعلوم اللاتينية الراقية ، وانما كان منها شعراء ومغنون لهم ادب شعبي خاص لا يختلف ، فيما نرى ، عن ادب عامة الغالين لما بين الامتين من الاتصال ، ولما كان لجماعات الجُنكَلَر من يد في نشر هذا الادب .

وجماعات الجُنكَلَر ' عُرِفوا في غالبية بين القرن السابع والثامن ، وكانوا يطوفون البلاد رجالاً ونساءً ، يتغنون باناشيدهم . وانشيدهم منها حماسية ، ومنها غرامية ، ومنها قصص نثرية . وليست هذه الاغاني شعراً صحيح الاوزان مطّرد القوافي ، وانما هي مقاطع لا ضابط لها ، وربما تحدث في اواخرها المخارج الصوتية اتحاداً غير ملّزم .

فاما ، وقد علمنا ما كان بين العرب والاسبانيين من الامتزاج القوي في السكنى والزواج والبناء واللغة والعلوم والازياء والغناء ، فغير عجيب ان يشمل هذا الامتزاج الادب ، فيسمع العرب اناشيد الجُنكَلَر ، فتنبههم الى استنباط اناشيد للغناء طليقة القوافي والاوزان تولد منها فن الموشحات . وكان لهم من مزدوجاتهم ونحساتهم سابقة في الخروج على القافية الموحدة ، غير انهم لم يتخلوا منها اصلاً لتعودهم

اياها، ثم لانها عنوان رقي شعرهم، فجاءت موشحاتهم مختلفة الاوزان والقوافي، شاذة عن النظام الشعري المألوف .

ودليلنا على ان العرب استنبطوا الموشحات من اجل الغناء، هو انهم كانوا يراعون فيها التلحين مطلقاً وان افضى الى افساد التعبير . قال ابن سناء الملك : « والموشحات تنقسم من جهة اخرى الى قسمين : قسم يستقل التلحين به ولا يقتصر الى ما يعينه عليه، وهذا اكثرها . وقسم لا يحتمل التلحين ، ولا يثني الا بان يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغني كقول ابن بقي :

مَنْ طَالِبٌ ثَارَ قَتْلِي ظِيَّاتِ الْخُدُوجِ فِتْنَاتِ الْحَجِيجِ^١

فان التلحين لا يستقيم الا بان يقول : لا لا بين الحيمين من هذا القفل « اه . وكذلك لا تجد لذة في رنة بعض الموشحات التي تخالف الاوزان الشعرية اذا انشدتها كما تنشد الشعر لان الموسيقى اللفظية لم تتفر لها وهي انما خلقت للتلحين والغناء لا للانشاد .

اما اغاني الجنكلا فليس بين ايدينا شيء منها فنقابله بالموشحات . وانما نعلم على اناشيد التروبادور التي ظهرت بجنوب فرنسا في القرن العاشر . وكان اصحابها، يقصدون القصور، ودور الملوك، ومواسم الاعياد، يتغنون بها او يغني لهم فيها جماعة الجنكلا . وهي تتناول اغراضاً شتى كالغزل ووصف الطبيعة ، والمدح ، والهجاء والقصص . واغراض الموشحات يقوم معظمها على الغزل والطبيعة والمدح . وانشيد التروبادور غنائية منسجمة الالفاظ ، حسنة التوقيع ، غير انها ضعيفة الميزة الادبية في معانيها الهزيلة، واغراضها المكرورة . ولها اسماء واجزاء لا تتوافق اوزانها احياناً، ولا تلتزم فيها القافية كما تلتزم في الشعر ، وانما تلتزم في كل ثلاثة اجزاء او ستة ، وفي نهاية كل سطر ، ويراعى في التزامها الوزن الذي وردت فيه او لا . فهي من هذا القبيل اشبه شيء بالموشحات .

ونهضت اناشيد التروبادور في القرن الحادي عشر وهو الزمن الذي نهضت فيه

^١ الخدوج : مراكب النساء ، مفردها حُدُج . وقوله : فِتْنَاتِ الْحَجِيجِ اي يفتن الحجيج عن حجهم .

الموشحات، ولكن لم يصل إلينا منها إلا منذ منتصف القرن الثاني عشر، في حين أنه وصلت إلينا موشحات منذ القرن الحادي عشر .

فاتفاق منظومات التروبادور والموشحات في أكثر النواحي يجعلنا على الاعتقاد أن العرب تأثروا بالأدب الأسباني الفرنسي^١، كما تأثر الأسبانيون والفرنسيون بالأدب العربي . فآخذ العرب فكرة التحرر من نظام الأوزان في أغانيهم، وآخذ أولئك القافية والصور الخيالية الجميلة .

فالموشحات إذن ليست بعربية بحتة، إنما هي مستعربة (mozarabes) كأهل الأندلس، وما في الأندلس من فنون وعادات وأزياء . وكانوا في بدء نشأتها يخلطونها بالألفاظ الأعجمية كما ذكر ابن بسام في الذخيرة .

١ غلبت الصيغة الفرنسية على الأدب الأسباني الشعبي لتسرب عنصره في الأندلس مع التجار اليهود خاصة ثم مع المرسلين الكاثوليكين الذين جازوا البيرنه، وأنشأوا الديورة الكبار تضم أولاد الفقراء، ويعلمهم فيها أساتذة فرنسيون . وقد درس المؤرخ غستون باري صلة الأدب الفرنسي بالأدب الأسباني، ودل بحجج راهنة على تأثير الأول في الثاني حتى قال : « أن الأدب الأسباني في أول عهده هو فصل من تاريخ الأدب الفرنسي في القرون المتوسطة . » اهـ

اغراضها ومعانيها

الغزل . الطبيعة . الخمر . المدح . تأثير الطبيعة .
استعداد المعاني منها . المعاني لطيفة غير عميقة . قلة الابتكار .

فاما وقد علمنا ان الموشحات اخترعت من اجل الغناء ، فلا غرو ان تكون اغراضها في اول الامر مناسبة لهذا الفن ، فما ينظم فيها غير الغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة . واتبعوا بها المدح لان ابهى مجالس الغناء كانت تعقد في قصور الملوك والامراء . والتغني بمنابهم عدة التمسك للشاعر والمغني معاً . ثم توسعوا فيها الى سائر اغراض الشعر كالمجى والرثاء ، والزهد والتصوف .

واكثر ما نظمت فيه الموشحات ما اجتمع به الغزل والطبيعة والخمر والمدح . وربما استهواوا بالغزل وانتقلوا الى المدح ، ثم رجعوا الى الغزل ، فجعلوه ختاماً للموشح . على انه مهما تعددت اغراض الموشحات فللطبيعة النصيب الاوفر . فاهل الاندلس وقد علمت شغفهم بطبيعة بلادهم ، لا يفترون عن ذكرها في توشيحاتهم ، كما لا يفترون عن ذكرها في اشعارهم . وهي في الموشحات ، اظهر واشمل . فما تقرأ موشحة لهم الا رأيت الطبيعة ماثلة بالوانها واصباغها ، وازهارها ورياضها ، ومدنها وعمرانها ، يتغنى بها الوشاح اكثر مما يتغنى بحبوبة . فهي الحبيب المالك عليه شغاف قلبه ، المستولي على جميع احساسه ، يروقه منظر الزهر البليل عند الصباح ، وتشوقه بهجات الوانه ، ويملاً فؤاده عبيده ، ويخلبه الماء المنساب في الجداول والانهر ، وتطربه الاطيوار تغرد على غصون الشجر . وكل صورة من صور الطبيعة عنده شاعرة حساسة ، يغوص على طبائعها ، ويستشف دخائلها ، ويتبين سرورها والمها . فاذا بابن الخطيب يقول :

(أَيُّ شَيْءٍ لِمَرِيٍّ قَدْ حَلَصَا ، فَيَكُونُ الرُّوضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ ؟)

ا خلاص : صفاء الظاهر من معناه انه لو صفا شيء لمخلوق لتمكن الروض من الحصول على هذا الصفاء لانه احق به من سواه . وقوله : مكن فيه اي مكن منه ، ومن معاني في ان تكون مرادفة لمن .

تَنْهَبُ الْأَزْهَارُ مِنْهُ الْفُرْصَا ، أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَنْتَقِي^١
 فَإِذَا الْمَاءُ تَنَاجَى وَأَلْحَصَى ، وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
 تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرْمَا ، يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي^٢
 وَتَرَى الْآسَ لَيْلِيًا فَهَمَا ، يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأَذْنِي فَرَسٍ^٣

ويقول ابن زمرك في ربيع الصبا :

بَلِيلَةُ الْأَرْدَانِ ، قَدْ ضَمَحَتْ بِالْعَنْبَرِ^٤
 يُشِيرُ غُصْنُ الْبَانِ مِنْهَا بِفَضْلِ الْمُرَرِّ^٥

ففي هذا القفل ماء وهواء وغصن وحياة وحركة وطيب . وما اللطف قوله في

الصباح :

غَرَدَ الطَّيْرُ فَنَبَّهَ مَنْ نَعَسَ ، يَا مُدِيرَ الرَّاحِ
 وَتَعَرَّى الْفَجْرُ عَنْ ثَوْبِ الْغَلَسِ ، وَأَنْجَلَى الْإِصْبَاحِ

وقوله وفيه من تأثير الأشعة واللون شيء كثير :

فَالشُّهُبُ مِنْ غَارَةِ الصَّبَاحِ ، تُرْعِدُ خَوْفًا وَتَخْفُقُ
 وَأَدْهَمُ اللَّيْلِ فِي جِإَاحِ ، أَعْنَةَ الْبَرْقِ يُطْلِقُ
 وَالْأَفْقُ فِي مُلْتَقَى الرِّيَاحِ ، بِأَدْمَعِ الْغَيْثِ يَشْرُقُ^٦

* * *

١ يقول : لو صفا شيء لمخلوق لحصل الروض على هذا الصفاء ، وكانت ازهاره تنهب الفرص من هذا الشيء الصافي ، لانها امنت ما كانت تحذر من مكره . ٢ يقول : كما انه لا يصفو شيء لمخلوق ، فكذلك لا يصفو للروض فان الكدر يشمل الازهار فينبغي ان يكون الماء والحصى متناجين يبدو الورد غيوراً متضجراً ، يكتسي حمرة من غيظه وغيرته ، اذ ليس له خليل يخلو به . ٣ الآس : شجر ورقه عطر ويعرف عند العامة بالريحان ، وقره بالخبثلاس وهو تحريف لحب الآس . شبه الآس بالرجل الحذر العاقل الذي لا يفغل عن استراق الامور وفهمها ، او شبهه بالرقيب المتنبه ليستمع الاخبار . ٤ الاردان : مقدم الاكام . ٥ الفصل : بقية الشيء وزيادته . ٦ يشرق : يغص .

وَالسَّحْبُ بِالْجَوْهَرِ اسْتَقَلَّتْ ، فَالْبَرْقُ سَيْفٌ مُجَوَّهَرٌ ،
صَفَاحُهُ الْمَذْهَبَاتُ سُلَّتْ ، فِي رَاحَةِ الْجَوِّ نُشْهَرُ^١

كَمْ بِالصَّبِيِّ ثُمَّ مِنْ مَقِيلٍ ، بِطَيْهِهِ الزَّهْرُ يَشْهَدُ^٢
وَالنَّهْرُ كَالصَّارِمِ الصَّقِيلِ ، فِي حِلْيَةِ النَّوْرِ يُغْمَدُ
وَرُبَّ قَالٍ بِهِ وَقِيلَ ، لِلطَّيْرِ فِي حَيْنٍ تُنْشَدُ^٣

وقوله متشوقاً الى غرناطة وكان بعيداً عنها :

نَسِيمُ غَرْنَاطَةِ عَلِيلٌ ، لَكِنَّهُ يُرَى الْعَلِيلُ
وَرَوْضُهَا زَهْرُهُ بَلِيلٌ ، وَرَشْفُهُ يَنْقَعُ الْعَلِيلُ^٤

سَقَى بِنَجْدٍ رَبِّي الْمُصَلَّى ، مُبَاكِراً رَوْضَهُ ، أَلْغَامٌ^٥
فَجَفَنَهُ كُلَّمَا اسْتَهَلَّا ، يَنْتَسِمُ الزَّهْرُ فِي الْكِمَامِ^٦
وَالرَّوْضُ بِالْحُسْنِ قَدْ تَجَلَّى ، وَجَرَدَ النَّهْرُ عَنْ حُسَامٍ

وَدَّوْحَهَا ظِلُّهُ ظَلِيلٌ ، يَخْسُنُ فِي رُبْعِهِ الْمَقِيلُ
وَالْبَرْقُ ، وَالْجَوُّ مُسْتَطِيلٌ ، يَلْعَبُ بِالصَّارِمِ الصَّقِيلِ

عَقِيلَةٌ تَأْجَهَا السَّيْكَةُ ، تُطْلُ بِالْمَرْقَبِ الْمُئِنِفِ^٧

١ (الصِفَاحُ) جمع صفيحة : وجه السيف العريض . ٢ بالصبي : اي في عهد الصبي . المقييل موضع القيلولة وهي نومة نصف النهار . ٣ قال وقيل : اي تجاوب الطيور ومساجلاتها . ٤ ينقع : يُسَكِّن . الغليل : شدة العطش . ٥ الغمام : فاعل سقى . نجد : ما ارتفع واشرف من الارض . ٦ استهل : العين دمعت ، والمطر انصب . الكمام : جمع كِمٍّ وهو الغلاف الذي يحيط بالزهر وينشق عنه . ٧ العقيلة : من كل شيء اكرمه ، ويريد بها غرناطة . السيكة والمرقب : موضعان في غرناطة .

كَانَهَا فَوْقَهُ مَلِيكَةً ، كَرْسِيَهَا جَنَّةُ الْعَرِيفِ^١
تَطْبَعُ مِنْ عَسْجِدٍ سَبِيكَةٍ ؛ شَمْسُهَا كُلُّهَا تُطَيِّفُ^٢

واليك المدح كيف تظهر فيه الطبيعة كل الظهور، قال ابن زمرك يهني السلطان
ابن الاحمر بشفائه :

قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ بِالشِّفَاءِ ، وَأَسْتُكِمْتَ رَاحَةَ الْإِمَامِ
فَلْتَنْطِقِ الطَّيْرُ بِالْهَنَاءِ ، وَلِيَضْحَكِ الزَّهْرُ فِي الْكِمَامِ

وَجُودُهُ بَهْجَةُ الْوُجُودِ ، وَبُرُؤُهُ رَاحَةُ النَّفْسِ
قَدْ لَاحَ فِي مَرْقَبِ السُّعُودِ ، وَأَسْتَبَشَرْتُ أَوْجُهُ الشُّمُوسِ^٣
فَالْدُّوْحُ يُؤْمِي إِلَى السُّجُودِ ، أَكْمَامُهُ حَطَّتِ الرُّؤُوسُ^٤

وَالزَّهْرُ فِي رَوْضَةِ السَّمَاءِ ، كَالزَّهْرِ قَدْ رَاقَ بِابْتِسَامِ^٥
وَالصُّبْحُ مُسْتَشْرِفُ اللَّوَاءِ ، وَالْبَدْرُ يَسْتَقِيلُ التَّمَامِ^٦

ومعاني الموشحات لطيفة سائغة كاغراضها، ناعمة الخيال، مشرقة الصور، لامتراجمها
بصور الطبيعة الناعمة والوانها . الا انها مكرورة معادة، طافية غير بعيدة الغور، وقلما
وقعت على معنى يستوقفك بداعته وعمق صورته . وانما انت تؤخذ على الاكثر، بركة
الالفاظ وحسن موسيقاها، ولطف ما فيها من الاساليب البيانية المختلفة الوجوه . فيلهيك
هذا الجمال الخارجي عما في داخلها من معاني تافهة، او مبتذلة . وربما رأيت فيها غموضاً مع

١ جنة العريف : موضع في غرناطة كان مصيفاً لامراء العرب ، ولا تزال اثاره قائمة .

٢ العسجد : الذهب . المراد ان جنة العريف تبدو محاسنها وخضرتها ، واشعة الشمس عليها
كسبيكة من ذهب، مشرقة شمسها . طوافه متقلبة . ٣ المرقب : المكان المشرف المطل .
فاعل لاح ضمير يعود على برؤه . ٤ يريد : ان الطبيعة فرحت بشفاء ممدوحه وشكرت الله،
فالشموس فرحت ، والامثار سجدت وظهر سجودها بان اكمام زهرها انزلت رؤوسها .
٥ الزَّهْرُ : الاقار . ٦ مستشرف : منتصب .

خفتها ، وقرب متناولها ، لغلبة الصناعة اللفظية عليها ، كما في موشحة لسان الدين بن الخطيب حين يقول : « وروى النعمان عن ماء السما . . . » او لحب الاغراب ، وسقم التعبير ، وضيق الالفاظ عن ايضاح المعنى ، كقول ابن الخطيب ايضا :

أَيُّ شَيْءٍ لِأَمْرِي قَدْ خَلَصَا ، فَيَكُونُ الرَّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهِ

وقد تقرأ الموشحة فما تجد ارتباطاً في معانيها ، ولا تختلف في نظرك عن تلك الاغاني الشعبية التي تسمعها في زماننا ، فتطربك بالخانها ، دون ان تأبه لما فيها من سخف المعنى ، وتفكك والخلال . فهذه موشحة ابي بكر بن زهر من اشهر الموشحات ، تقرأها فتلد لك صورها والوانها ، وما فيها من الفاظ الحب والخمر والطبيعة ، فاذا تدبرت معانيها ، لم تقع على شيء عظيم وانما هي قطعة صالحة للغناء :

مَا لِلْمَوَلَةِ ، مِنْ سُكْرِهِ لَا يُفِيقُ ، يَا لَهُ سَكْرَانُ
مِنْ غَيْرِ خَمَرٍ ، مَا لِلْكَيْبِ الْمَشُوقِ ، يَنْدُبُ الْأَوْطَانَ

. . .

هَلْ تُسْتَعَادُ ، أَيَّامَنَا بِالْخَلِيجِ ، وَيَلَالِينَا ؟
أَوْ يُسْتَفَادُ ، مِنَ النَّسِيمِ الْأَرِيحِ ، مِنْكَ دَارِينَا^١
أَوْ هَلْ يَكَادُ ، حُسْنُ الْمَكَانِ الْبَهِيحِ ، أَنْ يُخَيِّنَا

. . .

رَوْضُ أَظْلَمَ ، دَوْحٌ عَلَيْهِ أُنِيقُ ، مُورِقُ الْأَفْنَانِ ،
وَالْعَاءُ يَجْرِي ، وَعَائِمٌ وَغَرِيقُ ، مِنْ جَنَى الرِّيْحَانِ

وكذلك موشحة ابي بكر بن الابيض^٢ ، ليس فيها معنى يرضي الذهن ، على لطف الفاظ الغزل فيها :

١ الاريج : العطر ، فاعيل بمعنى الفاعل . دارين : فرضة بالبحرين يجلب اليها المسك من الهند ويبيع بها ، فصار ينسب اليها ، يقال مسك دارين ؛ ومراد الشاعر ان هذا النسيم الاريج يشبه مسك دارين براحته . ٢ ابو بكر بن الابيض توفي سنة ٥٤٤ هـ . (١١٤٩ م) .

بَرْدٌ غَلِيلٌ ، صَبْرٌ عَلِيلٌ ، لَا يَسْتَحِيلُ ، فِيهِ عَنِ الْعَهْدِ
وَلَا يَزَالُ ، فِي كُلِّ حَالٍ ، يَرْجُو الْوَصَالَ ، وَهُوَ فِي الصَّدِّ

وموشحة ابن الخطيب، وهي اسير الموشحات واخلدتها ذكراً، اذا حبست نفسك
عن الاستسلام الى موسيقاها، والافتتان بصورها البيانية والوانها، وغصت على معانيها
تتقصاها في مواطنها، رأيت انك امام اوصاف عادية متداولة، ومعانٍ متعارفة مبتذلة .
فكان الوشاح الاندلسي جعل همه في اخراج موشح لطيف سائغ يصلح للغناء ،
لا يعنيه ان يكون فيه معنى مبتكر ، او معنى دقيق . فالموشحات لم تخلق لارضاء
التفكير وتغذية الذهن ، وانما خلقت لاثارة الخيال والعاطفة ، وابهاج النفس ،
والعين والاذن . فاذا آتاها الفن لتقوم بهذه المهمة التي وجدت من اجلها ، كما آتى
موشحة ابي بكر بن زهر وامثالها ، بلغت غايتها من التوفيق والجمال .

لغتها

ضعفها . المجاز والمحسنات اللفظية . الموسيقى .

كانت لغة الشعر التقليدي في الاندلس ضعيفة بالاضافة الى لغة الشعر العباسي ، فجاءت لغة الموشحات الين والضعف ، وهي فن استعرب ولم يكن عربياً ، وابتدع ولم يكن تقليدياً . ووجد من اجل الغناء ، والغناء يتطلب الالفاظ السهلة السمجة ، والتعابير اللطيفة اللينة . وهذه تقود غالباً الى الضعف والركاكة لطواعيتها واثلافلها بمبتذلات العامة . وزادها فساداً ما اشترط في خرجاتها ان تكون عامية التعبير ، فاجترأ الوشاحون على التساهل اللغوي في غير الخرجة ، كقول بعضهم :

يَا ظَالِمِي حَقًّا ، يَكْفِيكَ مَا أَلْقَى
أَفْتَتَنِي عُشْقًا
بِمُرْهَفِي عَيْنَاكَ ، أَمَا كَفَاكَ ا

وافرطوا في استعمال المجاز على انواعه ، فحفلت موشحاتهم بشتي الكنايات والتشابه والاستعارات ، وأفتنوا في اوجه البديع ، والتزموه التزاماً ، لا لتحسين المعنى ، وانما لتحسين اللفظ ، وتوشيته . فابن الخطيب كان له مندوحة عن قوله :

وَرَوَى النُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ ، كَيْفَ يَرَوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسٍ

ولكن التورية قادته الى هذا التلاعب بمعاني الالفاظ . ولم يكن لاقحام مالك ابن انس من داع لولا قوله : « وروى » ، فالرواية تعني الحديث ، ومالك محدث عظيم . وهذه الاشياء وامثالها كثيرة في الموشحات ، وهي التي اورثت بعضها غموضاً على سهولة الفاظها ورقتها .

والموشحات الفاظ وتعابير خاصة لا تكاد تختلف في ذكر الطبيعة والخر والحبيب ، فيها كثير من السماء وشموسها وغمامها ، وفيها كثير من الارض ورياضها وانهارها ، ولها وقع جميل في النفس ، اذا حسن اثلافلها .

تأثيرها

انتشارها . الفناء فيها . دخولها المغرب والمشرق . اثرها
السيئ في الادب . الازجال . الانحدار الى العامية .
الموشحات في عصر الانبعاث .

كان لظهور الموشحات اثر بليغ في الشعر والشعراء ، لان اعتمادها على الغناء جعلها
تطير على افواه المغنين ، ويتلقفها الناس من كل صوب ، ويحفظونها ويتناقلونها ، حتى
غلبت على الشعر واحتلت مكانه ، واصبح الملوك يأمنون بها في مدائحهم ، ويطربون
الى سماعها ، ويجيزون عليها كما يجيزون على القصائد . وبلغ من شغف الشعراء بها ، انه
ما اشتهرت موشحة ، وتداولتها الالسن ، الا انبرى جماعة منهم الى معارضتها . فقد
نظم ابن سهل^١ موشحته التي اولها :

هَلْ دَرَى ظَنِّي أَلْحَمَى أَنْ قَدْ حَمَى ، قَلْبَ صَبٍّ ، حَلَّه عَنْ مَكْنَسٍ^٢
فَهُوَ فِي حَرٍّ ، وَخَفِقَ مِثْلَمَا ، لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ^٣

فغنى فيها المغنون ، وتحدث بها الناس . فانبرى لسان الدين بن الخطيب يعارضها
بموشحته : « جاداك الغيث . » فسارت كل مسير ، وحجبت موشحة ابن سهل ، ورويت
لها عدة معارضات ، قصرت عنها في المضمار .

ولم تنحصر الموشحات في الاندلس ، بل جاوزت بحر الزقاق الى المغرب والمشرق ،
فنظم فيها المغاربة والمشاركة ، ولكنهم لم يبلغوا شأوا الاندلسيين ، الا ابن سناء الملك
المصري ، فان له موشحة شرقت وغربت ، وهي التي يقول في اولها :

١ هو ابراهيم بن سهل الاسرائيلي الاشبيلي الشاعر المشهور ، من الاسبانين المستعربين
الذين تأدبوا بآداب العرب ، وشعره رقيق عاطفي حسن (الغزل) ، توفي سنة ٥٦٩ هـ . (١٢٥١ م)
وهو في الاربعين ، قيل مات غريقاً . ٢ حمى الحمى : منعه ودفع عنه ، والمراد هنا استقل
وحده بقلبه . مكنس : الكناس وهو مأوى الظي في الشجر . وقوله حله عن مكنس : اي
عوضاً عن مكنس . ٣ القبس : شعلة من النار تؤخذ في طرف عود .

كَلْبِي، يَا سَحْبُ تَيْجَانِ الرَّثِي بِالْحَلِيِّ، وَأَجْعَلِي، سِوَارَهَا مُنْعَطَفَ الْجَدُولِ^١

...

يَا سَمَا، فِيكَ وَفِي الْأَرْضِ نُجُومٌ، وَمَا، كَلِمًا، أَغْرَبْتَ نَجْمًا، أَشْرَقَتْ أَنْجُمًا^٢
وَهِيَ مَا، تَهْتَظِلُ إِلَّا بِالطَّلَا وَالْدُمَى^٣

على ان هذا الفن، مع جماله ورشاقته، كان له اثر سيئ في الادب، اذ قاده الى الانحطاط . قال ابن خلدون : « ولما شاع فن التوشيح في اهل الاندلس ، واخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه ، وترصيع اجزائه، نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلقنهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيه اعراباً ، واستحدثوه فنّاً سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على منحاهم الى هذا العهد . » اهـ .
فاقبال العامة على هذا الفن لسهولة وحسن مؤاتاته ، انحدر بالشعر الى العامية ، فصار الى ساقط القول . غير ان الشعراء المحدثين من اهل زماننا، عادوا به الى الفصحى ، ورفعوا منزلته ، واعتمدوا عليه في منظوماتهم الطويلة . كما فعل سليمان البستاني في الياذة هوميروس ، واحمد شوقي في موشحاته وقصصه التمثيلية .

والموشح ، اذا روعيت فيه الفصاحة ، والموسيقى الشعرية ، شائق فنان للطفه وحسن مساعه ، فهو شعر الحب والطبيعة والجمال والفن ، وشعر القصائد الطويلة التي لا يضيق عليها الخناق وزن واحد وقافية واحدة . وهو فتح مبين في الادب العربي ، يعود الفضل فيه الى الاندلس ، واهل الاندلس .

١ تيجان الربى : اعاليها . الحلي : اي انواع الزهر . سوارها : خصرها او جدولها ؛ وقوله : منعطف الجدول : أي تساب مياهه منعطفة . ٢ المراد بنجوم الارض انواع الازهار . وما : مسهل ماء . ٣ وهي : اي النجوم . الطلا : اي الطلاء وهي الخمر . الدمى : جمع ذمية وهي الصورة المنقشة المزينة ، والمراد بالدمى وشي الطبيعة وازهارها ، المسببة عن المطر وهو مجاز مرسل . وقوله : تهطل بالطلا مجاز مرسل ، والمراد ما يتسبب عن المطر ، فانه يروي الكروم فتعتلى اعناقها ، ثم تعصر هذه الاعناب خمرًا .

منزلة الشاعر الاندلسي

إقبال اهل الاندلس على الشعر . الشاعر نديم الملك ووزيره ،
حياة نعمة يحددها الخطر .

شغف اهل الاندلس بالشعر كما شغف به المشاركة ، فنقشوه على جدران قصورهم
ومنازلهم ، وجعلوه سلوى خلواتهم ومحافلهم . واقبل على نظمه الرجال والنساء ،
فكادت الشوارع تضاهي في العدد الشعراء . وفيهن طبقة من المحسنات البارعات
كولادة بنت المستكفي ، وتلميذتها مهجة القرطبية ، وحمدة بنت زياد خنساء المغرب ،
وحفصة بنت الحاج الركونية ، وعائشة بنت احمد القرطبية ، وتزهون القلاعية
الغرناطية . وجميعهن مشهورات بالجمال والظرف ، الا عائشة فقد استغنت بالفهم والادب
والفصاحة . ونبغ شعراء من الملوك والوزراء والاطباء والفلاسفة والفقهاء ، فشاع الشعر
في صقع الاندلس شيوعاً عظيماً ، ولا كتبه الافواه من كل جانب ، واصبح الملوك لا
يستوزرون غير الشعراء . فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدير مملكته . فاعتر
الشعراء ، وارتفعت منزلتهم ، وحفلت بهم دور الامراء ، ودرت عليهم اخلاف الرزق .
فتنعموا ورفهوا ، وأترفوا ومرحوا ، ولهوا وعبثوا .

غير انهم كانوا مهددين ابدأ بزوال النعمة . فان الشعراء الوزراء لم ينجوا من
حساد يكيدونهم ، ووشاة يدسون لهم بغية اسقاطهم ، كما وقع لابن زيدون عند بني
جهور ، ولابن الخطيب عند بني الاحمر . وقد تطمع نفس الوزير في الاستقلال بالملك ،
فيخفق مسعاه ، ويتنقم منه سلطانه ، فعل المعتمد بن عباد بوزيره الشاعر ابن عمار .
وسلطة الفقهاء بالاندلس جعلت الشعراء دريئة للويلات ، ولطالما نكب الشاعر
لاخلاقه او لآرائه ، كما جرى لابن هاني فقد نفاه امير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامه ،
لانهم اتهموه بذهب الفلاسفة ، وفسقه لخلاعه .

ومع ذلك فالشاعر الاندلسي كان رفيع المزية ، لمكانة الوزير الشاعر في دولته .
ثم لولع الاندلسيين بالشعر ، وإقبال طبقاتهم عليه .

الكتاب الاندلسيون

ميزة النثر

تأثر الاندلسيين بالمشاركة . مجاراتهم ايام في سائر الفنون .

تأثر اهل الاندلس المشرقين في النثر، كما تأثروهم في الشعر، فترسموا خططهم في اساليب الانشاء، والوان التعبير، وجاروهم في نظام الدواوين، واستيزار الكتاب والشعراء، وتعددت اغراضهم وفنونهم، تعددها عند اولئك . فمنها الترسل على ضروبه . ومنها انشاء الكتب المصنفة في العلم والادب . ومنها الانشاء الخطابي، وهو اضعف الفنون لضعف الفصاحة الفطرية عندهم .

الترسل

اصحابه وزراء ومقربون من رجال الحكم . تطوره من المطبوع الى المصنوع . غلبة الصناعة عليه . جفاء معانيه . اغراض الترسل .

ارتفع شأن الترسل في الاندلس ، كما ارتفع في الشرق ، لان الذين تعهدوه كانوا اما وزراء ، واما مقربين الى ولاية الامور . فعززوا هذا الفن ، ونشروا لواءه ، وصاروا به الى التتميق والتزين . وكان تطوره عندهم يجري على سنن تطوره في الشرق ، فهو في عصوره الأول ، مرسل مطبوع ، لا يلتزم فيه سجع ، ولا يتكلف فيه توشية ، وانما هي البلاغة تقضي بعض الاحيان بان يسجعوا ويوشوا دون انتقاص في الطبع ، ولا ازراء بالمعنى ، ولنا في رسائل ابن زيدون ، وابن شهيد ، صور واضحة للنثر الترسلي في إبان ازدهاره . فهو اشبه شيء بنثر ابن المقفع والجاحظ وامثالهما من بلغاء الكتاب المطبوعين . ثم صار الترسل الى تكلف السجع والتزين ، وتقليب الجمل على المعنى الواحد ، والاكتثار من الأدعية والامثال ، والشواهد الشعرية ، ولكن على غير افساد في الذوق ، او اهمال للمعنى ، كما في رسائل ابن بُرد الاصغر^١ وابن عبدون ، وابن خفاجة ، وابن الحداد . وهو اشبه بترسل العباسيين في العصر الثالث والرابع .

وما آذن القرن السادس للهجرة بالافول حتى غلبت الصناعة على الفن ، واتسعت دائرة التكلف ، فاذا الانشاء في القرن السابع والثامن عبارات مرصوفة ، والفاظ مترادفة مملّة ، وتلميحات تاريخية وبيانية لا حد لها ، ومعانٍ جافية تافهة ، وصور شتى من المسجوع والمورتي والمتجانس ، مما تجد له امثلة في رسائل ابن الخطيب واشباه ابن الخطيب .

^١ هو ابو حفص الاصغر احمد بن برد ، شاعر ، كاتب ، حسن الديباجة ، عاش زمن الدولة العامرية في قرطبة .

وتناولوا في ترسلهم الاخوانيات على انواعها، والمقامات بعد ظهورها في المشرق، ومقدمات الكتب، وشتى الاوصاف والنعوت، ولكنها لم تخل من مجون وتعهر . واحسنها ما جاء في ذكر الطبيعة، والكلام على مناظرة الازهار والبلدان، فإنهم ابدعوا في هذا الفن، وانفردوا به دون سواهم .

واليك امثلة من نثرهم على اختلاف العصور، ففيها بيان لانواع الترسل، وتطوره بين عهد وآخر . فمتها رسالة ابن زيدون الجديّة، ورسالته الهزلية . والاولى كتبها وهو مسجون الى ابن جهور، صاحب قرطبة، يستعطفه . والثانية كتبها على لسان ولادة الى الوزير ابن عبدوس منافسه في حبها، يهجوّه ويتهكم به . قال من رسالته الجديّة :
هَذَا الْعَتَبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ ١ غَمْرَةٌ ٢ ثُمَّ تَنْجَلِي . وَهَذِهِ
النَّكْبَةُ : « سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ . » وَلَنْ يُرِيْبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ
سَيِّئُهُ ٣ أَوْ تَأَخَّرَ ، غَيْرَ ضَنِينٍ ، غَنَاؤُهُ ٤ . فَأَبْطَأُ لِلدَّلَاءِ فَيَضًا أَمْلَوْهَا ٥ ، وَأَثْقَلُ
السَّحَابِ مَشِيًا أَحْفَلَهَا ٦ . وَأَنْفَعُ الْحَيَا مَا صَادَفَ جَذْبًا ٧ ، وَأَلَذُّ الشَّرَابِ مَا
أَصَابَ غَلِيلاً ٨ . وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ٩ ، لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ ١٠ ،
وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ .

فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ ، وَاحِدًا ، فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ ، أُلُوفُ .
وقال من رسالته الهزلية، وقد التزم السجع في اكثرها، ولكنه سجع لا يفسد
الطبع :

أَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا الْمَصَابُ بِعَقْلِهِ ، الْمُرَوِّطُ بِجَهْلِهِ ١ ، الْبَيِّنُ سَقَطُهُ ، الْقَافِحُ

١ النبوة : الجفاء . ٢ الغمرة : الشدة . ٣ سيبه : عطاؤه . ٤ غناؤه :
نفعه . ٥ لان الدلو اذا تدفق عليها الماء بقوة وملاًها سريعاً فاضت بقوة ونقصت ، واما
اذا فاضت بطيئة كانت أحفل ، لانها تمتلئ على مهل . او لان الدلو اذا انزلت الى البئر، وكان
فيضاها عند اصعادهما بطيئاً تلقاها المحتاح املاً مما لو تذبذبت بين جدران البئر وتدفقت .
٦ احفلها : املؤها . ٧ الحيا : المطر . الجذب : القحط والمحل . ٨ القليل : لحر الظاء .
٩ اهتباله : اغتنامه ، اي اغتنام اجله . ١٠ المورط : الموقع في الورطة وهي الامر الشاق
يعسر التخلص منه .

غَلَطُهُ، الْعَارِثُ فِي ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ . الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ . السَّاقِطُ سُقُوطَ الذُّبَابِ عَلَى الشَّرَابِ ، اَلْمُتَهَابَةُ تَهَاوَتْ الْقَرَّاشَ عَلَى الشَّهَابِ . فَإِنَّ الْعُجْبَ أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصَوْبُ . وَإِنَّكَ رَأْسَتَنِي مُسْتَهْدِيًا^١ مِنْ صِلَتِي^٢ مَا صَفَرْتَ مِنْهُ أَيْدِي أَمْثَالِكَ . مُتَصَدِّيًا^٣ مِنْ خُلَّتِي^٤ لِمَا قَرَعْتُ دُونَهُ أَنْوْفَ أَشْكَالِكَ .

ومنها رسالة ابي عامر بن شهيد في صفة بعوضة ، وله الباع الطويل في الوصف والتصوير :

أَلْبَعُوضَةُ مَالِكَةٌ ، لَا حِسَّ لَهَا سِوَاهَا^٥ ، تَحْقِرُهَا عَيْنُ مَنْ يَرَاهَا ، تَمْشِي إِلَى أَلَمِّكَ بِنَدْبِهَا^٦ ، وَتَضْرِبُ فِي بُجُوحَةٍ^٧ دَارِهِ بِطَبَلِهَا ، تُؤْذِيهِ بِإِقْبَالِهَا ، وَتَعْرِفُهُ بِإِرَاقَةِ دِمِهِ مَا لَهَا . فَتُعْجِزُ كَمَّةً ، وَتَرْغَمُ أَنْفَهُ ، وَتُضْرِّجُ خَدَّهُ ، وَتَقْرِي لَحْمَهُ وَجِلْدَهُ . زَمَجَرْتَهَا تَسْلِيمُهَا ، وَرَمَحُهَا خُرْطُومُهَا ، تُذَلِّلُ صَعْبَكَ إِنْ كُنْتَ ذَا قُوَّةٍ وَعَظْمٍ ، وَتَسْفِكُ دَمَكَ وَإِنْ كُنْتَ ذَا حِلْفٍ^٨ وَعَسْكَرٍ ضَخْمٍ . تَنْقُضُ^٩ الْغَرَائِمَ وَهِيَ مَنْقُوضَةٌ ، وَتُعْجِزُ الْقَوِيَّ وَهِيَ بَعُوضَةٌ ، لِيُرِينَ اللَّهُ عَجَائِبَ قُدْرَتِهِ ، وَضَعْفَنَا عَنْ أَوْعَفِ خَلْقَتِهِ .

ومنها ما كتبه ابن برد الاصغر في المناظرة بين الازهار ، مبتدعاً فناً جديداً ، اسلوبه قصصي ، وخياله لطيف . فقد اراد ان يفضل الورد على سائر الازهار فانطقها وجعلها تجتمع وتتحدث ، وتبايعه بالرياسة . ودونك بعض ما جاء في المبايعه :

ثُمَّ قَامَ الْخَيْرِيُّ^{١٠} فَقَالَ : وَالَّذِي أَعْطَاهُ الْفَضْلَ دُونِي ، وَمَدَّ لَهُ بِالْبَيْعَةِ يَمِينِي ، مَا أَجْتَرَأْتُ قَطُّ إِجْلَالًا لَهُ ، وَأَسْتَحْيَاءَ مِنْهُ عَلَى أَنْ أَتَنْفَسَ نَهَارًا ، أَوْ أَسَاعِدَ فِي لَذَّةٍ صَدِيقًا أَوْ جَارًا ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُ اللَّيْلَ سِتْرًا .

١ مستهدياً : طالباً هدية . ٢ صلتى : جأرتى . ٣ خلتي : صداقتى . ٤ لا حس لها سواها : اي مع اخا ذات ملك ، لا صوت لها الا منها . ٥ بندجها : بصوتها . ٦ بجوحة : وسط . ٧ الحلف : العهد بين القوم ، والصدقة . ٨ تنقض : تخدم وتقل ونكسر . ٩ الخيري : المنشور الاصغر .

ومنها ما كتبه ابن خفاجة في وصف تزهة، وهو يلتزم السجع والصناعة، ولكن بلاغته لا تنحط :

ذَهَبْتُ فِي لَمَّةٍ^١ مِنَ الْإِخْوَانِ نَسْتَقِي إِلَى الرَّاحَةِ رَكْضًا ، وَنَطْوِي التَّفَرُّجَ^٢ أَرْضًا . فَلَا نُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ نَمِيرٍ^٣ ، قَدْ اسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ قَرَارَةٍ^٤ سَمَاءٌ^٥ ، سَحَابُهَا غَمَاءٌ^٦ ، وَأَنْسَابٌ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ حَبَابٌ^٧ ، جِلْدُهُ حَبَابٌ^٨ ، فَتَرَدَّدْنَا بَيْنَكَ الْأَبَاطِحِ^٩ تَهَادَى^{١٠} تَهَادَى أَغْصَانُهَا ، وَتَتَضَاكُ تَضَاكُ أَقْحَوَانِهَا . وَلِلنَّسِيمِ ، أَثْنَاءَ ذَلِكَ الْمُنْظَرِ الْوَسِيمِ ، تَرَأْسُ وَشْيٍ ، عَلَى بَسَاطٍ وَشْيٍ^{١١} فَإِذَا مَرَّ بِغَدِيرٍ نَسَجَهُ دِرْعًا^{١٢} وَأَحْكَمَهُ صُنْعًا . وَإِنْ عَثَرَ بِجَدُولٍ شَطْبٍ^{١٣} مِنْهُ نَضْلًا ، وَأَخْلَصَهُ صَقْلًا ، فَلَا تَرَى إِلَّا بَطَاحًا^{١٤} مَمْلُوءَةً سِلَاحًا ، كَأَنَّا أَنْهَزَمَتْ هُنَالِكَ كِتَابٌ فَأَلَقَتْ يَا لَيْسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَضْخُولٍ ، وَسَيْفٍ مَسْخُولٍ .

ومنها رسائل ابن الخطيب ومقاماته ، وهي مملدة في أكثرها لظولها وتكلفها ، وجفافها، وغلبة الصناعة عليها . مثال ذلك قوله من رسالة :

سَيِّدِي الَّذِي هُوَ فَصْلُ جَنَسِهِ^{١٥} ، وَمَزْيَةُ يَوْمِهِ عَلَى أَمْسِهِ ، فَإِنْ أَفْتَحَرَ الدِّينُ

١ اللمة : (الصاحب في السفر للواحد والجمع . ٢ التفرج : فكشف الغم . ٣ نمير : ماء ناجع عذباً كان أو غير عذب . ٤ القرارة : القاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر . ٥ سماء : استخدم هنا معناها المجازي في قوله استدارت ، وهو المطر، ومعناها الحقيقي في قوله سحبائها غماء . ٦ غمء : لا فرجة فيها . ٧ التلعة : ما ارتفع من الأرض . ٨ الحباب : الحية، وهو هنا مستعار للجدول والنهر . ٩ الأباطح : نفاحات الماء . ١٠ التهادى : تتأيل . ١١ الوشي الاول بمعنى (الوشاية) ، والوشي الثاني بمعنى التوشية، ويريد به الزهر . ١٢ قوله نسجه درعاً : اخذه من قول الشاعر :

نَسَجَ الرِّيحُ عَلَى الْمَاءِ زَرْدًا ، يَا لَهُ دِرْعًا مَنِيعًا لَوْ جَمَدُ

١٣ شَطْبٌ : أي جعل فيها خطوطاً كخطوط نصل السيف . ١٤ البطاح : جمع بطحاء ، وهي المسيل الواسع فيه دقاق الحصى . ١٥ فصل جنسه : هذا من كلام المنطقة في التعريف بالحد الحقيقي ، وهو تعيين الشيء بجنسه وفصله . تقول : الانسان حيوان ناطق ، فالحيوان جنس يشمل الانسان والبهيمة، والناطق فصل يميز نوع الانسان عن نوع البهيمة . وهنا ابن الخطيب يجعل ممدوحه الفصل بين الانسان والبهيمة، أي انه جملة النطق نفسه .

مِنْ أَيْبِكَ بِبَذَرِهِ ١ أَفْتَحَرَ مِنْكَ بِشَمْسِهِ . رَحَلْتُ عَنْ الْمَنْشَا وَالْقَرَارَةِ ، وَمَحَلَّ
 الصَّبُورَةِ وَالْفَرَارَةِ ٢ ، فَلَمْ تَتَعَلَّقْ نَفْسِي بِذَخِيرَةٍ ، وَلَا عَهْدِ جَيْرَةٍ خَيْرَةٍ ، كَتَعَلَّقْتُهَا
 بِتِلْكَ الْأَذَاتِ الَّتِي لَطَفَتْ لَطَافَةَ الرِّاحِ ، وَاسْتَمَلَتْ بِالْمَجْدِ الصُّرَاحِ ٣ ، شَقَقَةً أَنْ
 تُصِيبَهَا مَعَرَّةٌ ٤ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقِيهَا ، وَيَحْفَظُهَا وَيُبْقِيهَا . إِذِ الْفَضَائِلُ فِي الْأَزْمَانِ
 الرِّذْلَةُ غَوَائِلُ ٥ ، وَالضِّدُّ عَنْ ضِدِّهِ مُنْخَرِفٌ بِالطَّبْعِ وَمَائِلٌ ٦ .

١ بدر : اسم والد الممدوح . ٢ القرارة : المستقر . الصبورة : جهلة الفتوة .
 القرارة : الغفلة عن الامور . ٣ الصُّراح : الخالص من كل شيء . ٤ معرّة : اذية .
 • يقول : الفضائل تغتال اصحابها في الايام الرديئة الخسيسة ، لان اكثر الناس ارذال
 فاذا رأوا فاضلاً كرهوه وانحرفوا عنه لمضادته لهم .

التصنيف والمصنفون

انواع العلوم . استنساخ الكتب .

قام التصنيف الى جانب الترسل ، فلم يترك الاندلسيون علماً او فناً ظهر في المشرق الا وقد بحثوا فيه ، ونالوا قسطاً منه ، قلّ او كثر . وكان لرحلاتهم الى المشرق ورحلات المشرقيين اليهم ، وتنافس ملوكهم في تعزيز العلوم ، واستقدام العلماء ، واستنساخ الكتب ، وانشاء المدارس والمكاتب^١ اثر كبير في بث النهضة العلمية بصقع الاندلس .

وتباينت درجات انشائهم بتباين اغراض مصنفاتهم ، وكانت الادبية ارقاها لغة ، واصفاها فناً . ولم يسلم بعضها من صناعة التزيين والتزام السجع كالخيرة لابن بسّام ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان .

١ لم تكن تخلو قرية في الاندلس من مدرسة صغيرة ، ما عدا كبريات المدارس في المدن . وكان للطب اربع مدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية ، يؤمها التلاميذ على اختلاف مللهم ونحلهم . وبلغ عدد المكاتب نحو ستين مكتبة اعظمها مكتبة قرطبة ، وقد اتينا على ذكرها في اللمحة التاريخية .

علوم اللغة

المعاجم . الصرف والنحو . الشروح اللغوية .

كثر المشتغلون باللغة من الاندلسيين والمشرقيين الذين هاجروا الى الاندلس ،
فتركوا طائفة نفيسة من المعاجم والشروح اللغوية ، وكتب الصرف والنحو ، واشتهر
منهم ابو علي القالي^١ صاحب الامالي في اللغة والنوادر ؛ وابو بكر الزبيدي^٢ وله
مختصر العين ، ولحن العامة ، والواضح في اللغة ، وطبقات النحويين ، والابنية في
النحو ؛ وابن سيده^٣ وله المحكم في اللغة ، وهو معجم مشهور ، في اجزاء عدة ؛
والمخصص وهو في سبعة عشر مجلداً ، مرتب على معاني اللفظ كفقهاء اللغة والالفاظ
الكتابية . ومنهم الاعلم الشنتمري^٤ وله شرح الجمل في النحو للزجاجي ، وشرح
ديوان المتنبي ، وديوان زهير ، والشعراء الستة . وابن خروف^٥ وله شرح كتاب
سليويه ، وكتاب الجمل للزجاجي . والشريشي^٦ وله شروح ثلاثة لمقامات الحريري ،
شرح كبير ووسط وصغير . وهناك غيرهم كثيرون .

- ١ قدم ابو علي القالي من الشرق الى الاندلس في زمن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠ هـ .
- ٢ (٩٤١ م) واستوطن قرطبة وألف اماليه للحكم بن الناصر ، ومات بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ .
- ٣ (٩٦٦ م) وكانت ولادته بمنارك من ديار بكر سنة ٢٨٨ هـ . (٩٠٠ م) . ٢ كان
ابو بكر محمد الزبيدي مؤدباً لمشام المويدي بن الحكم ، سكن في قرطبة ، واصله من اشيلية
وتوفي بها سنة ٣٧٩ هـ . (٩٨٩ م) وعاش ثلاثاً وستين سنة . ٣ هو ابو الحسن علي بن
احمد المعروف بابن سيده من اهل مرسية ، وكان امي ، وكان اعلم الناس بالغريب . توفي سنة
٤٥٨ هـ . (١٠٦٥ م) وعمره نحو الستين . ٤ هو ابو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى
المعروف بالاعلم لانه كان مشقوق الشفة العليا . ولد في شنتمرية من بلاد الاندلس سنة
٤١٠ هـ . (١٠١٩ م) واليها نسب ، ورحل الى قرطبة ، وكف بصره في آخر حياته . ومات
باشيلية سنة ٤٧٦ هـ . (١٠٨٣ م) . ٥ ابن خروف هو ابو الحسن علي بن محمد الحضرمي
الاشيلي توفي سنة ٦١٠ هـ . (١٢١٣ م) . ٦ هو الكمال ابو العباس احمد من اهل شريش
في الاندلس واليها نسب . اقام في بلنسية ثم رحل الى اشيلية فالشرق ، ثم رجع الى شريش ومات
بها سنة ٦١٩ هـ . (١٢٢٢ م) وكانت ولادته سنة ٥٥٧ هـ . (١١٦١ م) .

العلوم الدخيلة

العلوم الطبيعية . العلوم الرياضية . الفلسفة والمنطق .
السياسة والاجتماع . التاريخ والجغرافية . الفنون والصنائع .

رحلت العلوم الدخيلة من الشرق الى الغرب، فتلقاها الاندلسيون اما من علماء المشاركة ، واما من كتبهم، فكانت لهم ثم للاوربيين من بعدهم نوراً وهدى . فلما تثقفوا بها، واختمرت في صدورهم، وامتزجت بافكارهم، تصدروا للتصنيف فيها، والتزيد من لبائها، حتى فاقوا المشرقيين في بعضها .

العلوم الطبيعية

فنها العلوم الطبيعية كالطب والصيدلة، فقد اشتهر فيهما طائفة جليلة كابي القاسم الزهراوي^١ وكان بارعاً في تشخيص الامراض موقفاً في علاجها، وامتاز من اطباء الشرق المسلمين بتعاطيه الجراحة، واتقانه اياها، في حين ان الشرقيين كانوا يتحامون عنها ذهاباً منهم الى ان الدين يجرمها . فكان اطباؤهم لا يعرفون صفات اعضاء الانسان الا من مطالعتهم لكتب يونان . فاحيا اطباء الاندلس هذا الفن وعلى رأسهم ابو القاسم ؛ وكان ماهراً في بتر الاعضاء واستخراج الاجسام التي تبتلع فتعترض في الحلق وله كتاب اسمه التصريف لمن عجز عن التأليف، جعله على قسمين : الاول في الطب النظري، والثاني في الطب العملي او الجراحة، ترجم الى اللاتينية، واهتم اطباء الفرنجة بقسمه الجراحي .

ونبع في الطب من الاندلسيين ابناء زهر^٢، وهم اسرة عربية توارثت علم الطب خلفاً عن سلف كما توارثه ابناء بختيشوع في العراق .

١ هو ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي منسوب الى الزهراء في الاندلس ويسميه الفرنجة (Albucasis) توفي سنة ٥٠٠ هـ . (١١٠٦ م) . ٢ عرف منهم بالطب ابو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر الايادي؛ رحل الى الشرق فتطبب زمناً ثم عاد الى الاندلس

واحترف الطب أشهر فلاسفة الاندلس كابن باجة، وابن طفيل^١ وابن رشد^٢ واشتهر في علم النبات والعقاقير والادوية ابن البيطار^٣ وله كتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية .

العلوم الرياضية

ومنها العلوم الرياضية، فقد نبغ طائفة كبيرة في علم الحساب والهندسة والنجوم والموسيقى . وكان حظ التنجيم كحظ الفلسفة، فان اصحابه اضطهدوا ورموا بالزندقة، فصاروا يشتغلون به سرّاً ، ولا يتظاهرون . ويذكر صاحب نفح الطيب ان اول من اشتهر في الاندلس بعلم الحساب والنجوم ابو عبيدة مسلم بن احمد المعروف بصاحب القبلة ، لانه كان يُشرّق في صلاته ، وكان عالماً بحركات الكواكب واحكامها . ومنهم ابو القاسم اصبع بن السمع وكان بارعاً في علم النجوم والهندسة ، وله كتاب المدخل في الهندسة ، وكتاب كبير في الهندسة ، وكتابان في الاسطرلاب ، وزيج^٤

ومات باشبيلية، فقام بعده ابنه ابو العلاء زهر بن عبد الملك ، وله كتاب الادوية . توفي سنة ٥٢٥ هـ . (١١٣٠ م) . وخلفه ابنه ابو مروان عبد الملك بن زهر ، وكان متصلاً بعبد المؤمن خليفة الموحدين ، وله مؤلفات عدة . وجاء بعده ولده ابو بكر محمد بن عبد الملك المشهور بعلمه وادبه وموشحاته . وكانت اخته وابنتها عالمتين بطب النساء . ونبغ بعده ولده ابو محمد عبدالله ، وحظي عند الخليفة الناصر محمد بن يعقوب رابع خلفاء الموحدين ، وتوفي مسموماً كآبيه سنة ٥١٩ هـ . (١١٢٥ م) وهو في الخامسة والعشرين ، وترك ولدين عني اصغرهما بصناعة الطب ، واسمه ابو العلاء محمد .

١ هو ابو بكر محمد بن عبد الملك القيسي ، المعروف بابن طفيل ، الفيلسوف الطبيب ، وصاحب رسالة حي بن يقظان ، وزرّ لأبي يعقوب يوسف ثاني الخلفاء الموحدين ، وتوفي سنة ٥٨١ هـ . (١١٨٥ م) . ٢ هو ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد ويسميه (Averrhoës) ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ . (١١٢٦ م) واتصل بالخليفة الموحد ابي يعقوب يوسف . وهو اعظم فلاسفة الاندلس وفي مقدمة فلاسفة المسلمين ، واشهرهم عند الاوربيين ؛ مفكر حر وطبيب بارع ، توفي براكش سنة ٥٩٥ هـ . (١١٩٨ م) ونقل الى قرطبة . ٣ هو ضياء الدين محمد بن عبدالله بن البيطار الشامي ، ولد بمالقة ورحل الى الشرق وسكن دمشق حتى مات سنة ٦٦٦ هـ . (١٢٦٨ م) . ٤ الزيج : كتاب تعرف منه احوال حركات الكواكب .

على مذهب الهند المعروف بالسند هند . ومنهم ابو القاسم بن الصفار وكان عالماً بالهندسة والعدد والنجوم، وله زيج مختصر على مذاهب السند هند ، وكتاب في عمل الاسطرلاب . ومنهم ابو الحكم عمر الكرماني من اهل قرطبة، وكان راسخاً في علم العدد والهندسة . ومنهم الفيلسوف ابن رشد قيل انه اول من تنبه للشفق على وجه الشمس ، وكتب عنها .

واما الموسيقى فقد نهضت نهضة عظيمة في الاندلس ، واقبل عليها عامة الناس وخاصتهم ، والفضل في ترقيتها لزرياب^١ ، فانه ترك من اصواته بجزاً زائراً اغترف منه المغنون بعده . قيل ان محفوظاته من الاغاني بلغت عشرة آلاف مقطوعة . وكان العود على اربعة اوتار، فزاد فيه وتراً خامساً ، وهو الاوسط الاحمر . وكان مضراجه من الخشب ، فجعله من قوادم النسر ، وهي الين على الاوتار والطف .

وكان لزرياب عشرة اولاد : ثمانية ذكور، وثلثان انثيان ، وكلهم غنى ومارس الصناعة، وابرعهم في الذكور عبيد الله وعبد الرحمن وقاسم، وفي الاناث حمدونة .

^١ السُّفْعَ : جمع سُفْعَةٍ وهي سواد اشرب حمرة . ٢ هو ابو الحسن علي بن نافع مولى المهدي الخليفة العباسي، فارسي الاصل، وزرياب لقب له غلب عليه في بلاده من اجل سواد لونه مع فصاحة لسانه ، تشبيهاً له بطائر اسود حسن التفريد عندهم . وكان تلميذاً لاسحق الموصلي ببغداد، غنى بين يدي الرشيد مرة، فاعجب به واحبه، فحسده استاذة اسحق، وهدده ان لم يرحل عن بغداد، واعطاه مالاً . فرحل زرياب الى المغرب، ثم سمت همته الى دخول الاندلس وكان عليها الحكم بن هشام ثالث امراء بني امية . فكتب اليه يستأذنه في الذهاب اليه، ويعلمه بمكائنه من صناعة الغناء . فسر الحكم بكتابته وارسل اليه يُجمل له المواعيد، فعبر زرياب بعياله بحر الزقاق الى الجزيرة الخضراء . فجاءته الاخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع . وكان معه منصور اليهودي المغربي رسول الحكم اليه ، فثناه ورغبه في قصده ابنه وخليفته عبد الرحمن الثاني، وكتب اليه بنجر زرياب ، فجاء جواب عبد الرحمن يظهر رغبته فيه . وكتب الى عماله ان يحسنوا اليه ويوصلوه الى قرطبة . وامر خصياً من خصيائه ان يتلقاه بيفال وآلات حسنة ، فدخل الاندلس سنة ٢٠٦ هـ . (٨٢١ م) فاتزله عبد الرحمن في دار فخمة واجرى عليه وعلى اولاده المشاهرات، والعيديات، واقطعه من الضياع والبساتين ما يقوّم بأربعين ألف دينار، وكان يجالسه على النبيذ ويسمع غنائه .

الفلسفة والمنطق

ومنها الفلسفة والمنطق ، فقد تلقاها الاندلسيون عن كتب المشرقيين المنقولة والمصنفة ، فانصرف الى دراستها جماعة من المفكرين مستهدين لنقمة الفقهاء والعامّة . وكان المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الخليفة الاموي معنياً بجمع كتب الحكمة وسائر العلوم ، وجاء بعده محمد بن ابي عامر الحاجب المنصور ، فشغف بالفلسفة وعزز جانبها ، فنقم عليه الفقهاء ، وتجهوه ، فاسترضاهم بان احرق كل كتاب اتهموه . وما انتصف القرن الخامس للهجرة الا كانت كتب الفارابي وابن سينا ورسائل اخوان الصفا قد ذاعت في الاندلس وتداولتها الايدي ، فنهضت الفلسفة نهضة لا بأس بها ، ونبع ابن باجة ابو الفلاسفة الاندلسيين ، وله رسالة تدبير المتوحد ، ورسالة الوداع في الترتي الروحاني والاتصال بالعقل الفعال .

وبلغت الفلسفة اوجها في عهد الموحدين ، ولا سيما زمن خلافة ابي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن ، فانه فتح ابواب داره للفلاسفة ، وقرّبهم ورفع شأنهم . فكان في بلاطه ابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان ، ثم ابن رشد رأس فلاسفة الاندلس واشهر فلاسفة العرب عند الاوربيين .

وهناك مفكرون دينيون اطلعوا على الفلسفة والمنطق ، ووقفوا على مذاهب الفرق الاسلامية ، وغير الاسلامية فاتخذوا فلسفتهم لتأييد مذهب ديني ينتحلونه ، كما فعل ابن حزم ، وكان في بدء امره شافعيّاً ، فتعصّب لمذهبه ، وفاضل عنه . ثم صار

١ هو الفقيه ابو محمد علي بن احمد بن حزم ، فارسي الاصل يرجع جده الاعلى يزيد الى بني امية بالولاء . ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ . (٩٩٤ م) وكان والده وزيراً للدولة العامرية التي استبدت بعرش امية وحجرت على الخليفة . وصارت الوزارة اليه بعد والده ، فوزر للمستظهر بالله عبد الرحمن الخامس الخليفة الاموي ، وزهد في السياسة بعد زوال الدولة الاموية فانصرف الى العلم . وكان من تعصبه للظاهرية وسلطنة لسانه ان كرهه الفقهاء وحملوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، فاقصاه الملوك ، واتلفوا كتبه . قيل انها بلغت اربع مائة مجلد في نحو ثمانين الف ورقة . فذهب الى كورة لبليّة في الاندلس ، ومكث بها حتى مات سنة ٤٥٦ هـ .

ظاهرياً، فكره جميع المذاهب من اجل مذهبه الجديد، وطعن عليها وندّد باصحابها
وشنع على الفرق الاسلامية وسبها ، ولم يسلم من شتائم النصارى واليهود وسواهم
من اصحاب الاديان والنحل . وكتابه الفصل^١ في الملل والاهواء والنحل ، يريك
من صاحبه علماً واسعاً ، وعقلاً راجحاً ، وتعصباً ذمياً .

وكان للفلسفة الاندلسية اثر بليغ في الافكار الاوربية ولاسيا فلسفة ابن رشد .

السياسة والاجتماع

ومنها السياسة والاجتماع ، واشهر من صنف فيهما ابن حزم وابن ابي رندقة
الطُرُوشِي^٢ . فاما الاول فله كتاب طوق الحمامة في فلسفة الحب وعلاماته وصفاته ،
واحوال المحبين وما يعتريهم ويعرض لهم . وفيه بحوث نفسية لا بأس بها . وهو ، فيما
نعهد ، خير كتاب من نوعه في العربية .

واما الثاني فله سراج الملوك في سياسة السلطان ونظام الدولة، وصفات الوزراء
والجلساء ، وعلاقة السلطان ببيت المال ، وغير ذلك مما يختص بسياسة الرئيس وشروط
السيادة .

التاريخ والجغرافيا

ومنها التاريخ والجغرافية ، فقد كان لها حظ وافر في الاندلس ، ولاسيا الجغرافية
فانها نهضت نهضة لم تلق مثلها في الشرق ، اذ تحسنت بحوثها ، ووضعت لها الخطط
المنظمة . واما التاريخ فان اصحابه كانوا كالمشاركة يذكرون الحوادث والاخبار
والخرافات من غير نقد ولا تمحيص .

١ الفصل : جمع قصيدة وهي النخلة المنقولة من محلها الى محل آخر لتشعر . ٢ هو ابو
بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري ، ويعرف بابن ابي رندقة . ولد بطرُوشة (وقد
تفتح الطاء الاولى) من بلاد الاندلس حوالي سنة ٤٥١ هـ . (١٠٥٩ م) واليه نسب .
وتأدب على ابن حزم باشبيلية ، ثم رحل الى الشرق ، ومات باسكندرية سنة ٥٢٠ هـ . (١١٢٦ م) .

واشهر المؤرخين ابن القوطية^١، وله تاريخ الاندلس من الفتح الى سنة ٥٢٨٠ هـ .
 (٨٩٣ م) . وابن الفرضي^٢، وله تاريخ علماء الاندلس . والمظفر بن الافطس^٣ صاحب
 بطليموس، وله المظفري، وهو تاريخ في خمسين مجلداً يشتمل على مغازٍ وسيرٍ واخبار .
 وابو القاسم صاعد^٤، وله طبقات الامم في ذكر العلوم عندهم . وابن حيّان^٥، وله
 المبين في تاريخ الاندلس، ستون جزءاً، والمقتبس في تاريخها ايضاً، عشرة اجزاء . والفتح
 ابن خاقان، وله قلائد العقيان في ذكر الملوك والوزراء والقضاة والعقهاء والادباء .
 ولسه ايضاً مطمح الانفس ومسرح التانس في ملح اهل الاندلس، ذكر فيه من لم
 يذكرهم في القلائد . وابن بسّام^٦، وله الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة وادابها في
 القرن الخامس للهجرة . وابن بشكّو^٧، وله الصلة وهو تكملة تاريخ علماء الاندلس
 لابن الفرضي، في مجلدين . والبياسي^٨، وله كتاب الاعلام بالحروب الواقعة في صدر
 الاسلام، ابتدأ فيه بمقتل عمر بن الخطاب، وختم بخروج الوليد بن طريف الشاري على
 هرون الرشيد، وهو في مجلدين . وابن الابّار القضاي^٩، وله تكملة الصلة، ذكر

١ هو ابو بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية نسبة الى جدته سارة حفيدة غيطسه
 ملك القوط . ولد بقرطبة، وبرع في اللغة والحديث والاختار والحفظ، وتوفي بقرطبة سنة ٣٦٧ هـ .
 (٩٧٧ م) . ٢ هو ابو الوليد عبدالله بن محمد الازدي الفرضي ولد بقرطبة سنة ٣٥١ هـ .
 (٩٦٢ م) ورحل الى القيروان ومصر، ثم تولى قضاء بلنسية حتى مات سنة ٤٠٣ هـ .
 (١٠١٢ م) . ٣ هو المظفر بن الافطس من ملوك الطوائف توفي سنة ٤٦٠ هـ . (١٠٦٧ م) .
 ٤ هو ابو القاسم صاعد بن احمد بن صاعد قاضي طليطلة، ولد في المريّة سنة ٤٢٠ هـ .
 (١٠٢٩ م) وتوفي سنة ٤٦٢ هـ . (١٠٦٩ م) . ٥ هو ابو مروان حيّان بن خلف بن
 حيّان، ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ . (٩٨٧ م) وتوفي سنة ٤٦٩ هـ . (١٠٧٦ م) . ٦ ابن
 بسّام السّنّسري توفي سنة ٥٤٢ هـ . (١١٤٧ م) . ٧ هو ابو القاسم خلف بن عبيد
 الملك بن بشكّو ال قرطبي، ولد سنة ٤٩٤ هـ . (١١٠٠ م) وتوفي بقرطبة سنة ٥٧٨ هـ .
 (١١٨٢ م) . ٨ هو ابو الحجاج يوسف بن محمد الانصاري البياسي، منسوب الى يباسة
 بلد في الاندلس، اشتهر بالحفظ والرواية . ولد سنة ٥٧٣ هـ . (١١٧٧ م) وتوفي بمدينة
 تونس سنة ٦٥٣ هـ . (١٢٥٥ م) . ٩ هو ابو عبدالله محمد بن عبدالله القضاي المعروف
 بابن الابّار، ولد في بلنسية وكتب لصاحبها محمد بن حفص، وتوفي سنة ٦٥٨ هـ . (١٢٥٩ م) .

فيها اعيان الاندلس وادبائها . وله الحلة السيار في اخبار المغرب من المائة الاولى للهجرة الى المائة السابعة ، تبدأ بموسى بن نصير . وابن سعيد المغربي^١ وله المغرب في حلى المغرب ، في نحو خمسة عشر مجلداً ، ذكر به اخبار ملوك الاندلس والفاطمين والახشيديين وبني ايوب وسواهم . ولسان الدين بن الخطيب ، وله الاحاطة في تاريخ غرناطة ، ثلاثة اجزاء ، يقتتجه بقسم جغرافي ، خطط فيه ولاية غرناطة وما يتبعها من القرى ، وذكر عادات العلماء وازياءهم ، والجند وسلاحهم ، ومن نزل غرناطة من القبائل . وذكر ملوكها ووزراءها وقضاها وفقهاءها وادبائها وزهادها ، ومتصوفها منذ الفتح الى زمنه .

واشهر الجغرافيين ابو عبيد البكري^٢ ، وله معجم ما استعجم ؛ وهو معجم جغرافي للمواضع التي ورد ذكرها في اشعار العرب ، وله ايضاً المسالك والممالك . والشريف الإدريسي^٣ ، رأس الجغرافيين ، وله تزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، صنفه لروجر الثاني ملك صقلية مطابقاً لكرة من فضة نقش عليها صور الاقاليم السبعة ببلادها وبحارها وانهارها ومسافاتها . وزاد على ما في الكرة وصف احوال البلاد كعبارتها ، واجناس نباتها ، وصناعاتها وتجارتها ، واشكال اهلها ومذاهبهم وازيائهم ولغاتهم . وجغرافية الادريسي اعتمد عليها الاوربيون قديماً في تقويم البلدان ولاسيا الشرق . وذكر جرجي زيدان^٤ انه : « يؤخذ من خريطة محفوظة في متحف سان مرتين بفرنسا ان الادريسي كان على بينة من حقيقة منابع النيل فصورها بحيرات عند خط الاستواء كالتى اكتشفها اهل هذا التمدن في القرن الماضي - نعي فكتوريا نياتزا

١ هو ابو الحسن نور الدين علي بن موسى بن سعيد ولد بقرناطة سنة ٦١٠ هـ . (١٢١٣م) ورحل الى مصر والعراق والشام ، ودون ما شاهده في كتب عديدة . توفي سنة ٦٧٣ هـ .
 ٢ هو عبدالله بن عبد العزيز البكري اصله من مرسية ، وسكن قرطبة ، توفي سنة ٤٨٧ هـ . (١٠٩٤ م) .
 ٣ هو ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي العلوي ولد بسنة ٤٩٣ هـ . (١٠٩٩ م) وتوقف بقرطبة ، ورحل في البلاد ثم اتصل بروجر الثاني ملك صقلية ووضع له جغرافيته الشهيرة . توفي سنة ٥٤٨ هـ . (١١٥٣ م) .
 ٤ جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية . ج ٣ ص : ٨٥ .

والبرت نياتزا - رسمها الادريسي قبلهم بمئات من السنين» ١٥٠ هـ . وابن جبير^١ ، وله كتاب رحلته ، وصف به ما شاهده من عجائب البلدان وبدائع صنائعها ، ومساجدها ودواوينها واحوالها .

الفنونه والصنائع

اقبل الاندلسيون على الفنون المختلفة يتعاطونها ، فنهضوا بها ، وبلغوا غاية الاتقان والجمال في بعضها . وكان لهم عناية فائقة بالعمارة ، فقد مزجوا الفن العربي بالقوطي ، واستخرجوا منها طرازاً مستعرباً رائعاً لا تزال آثاره ناطقة في القصور والمعابد وحسبك جامع قرطبة ، وقصر إشبيلية ، وحمراء غرناطة ، فانهم من اعاجيب الزمان .

وشغفوا بالنحت والتصوير ، فزينوا قصورهم وحدائقهم واحواضهم بالتماثيل والصور ، ونقشوها على اوانيتهم واثاثهم ، حتى انهم نقشوا على اسطوانة في جامع قرطبة عصا موسى ، وعلى اخرى اهل الكهف ، وعلى غيرها غراب نوح .

ولما بنى الناصر الزهراء ، وسماها باسم جاريته الحسنة ، نقش صورة الجارية على باب المدينة ، وانشأ في المدينة حوضاً عظيماً زخرفه بالنقش والتصوير ، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً في صورة الانسان .

وبلغ من تقدم الفنون عندهم انهم حاولوا الطيران فنجحوا بعض الشيء . فقد

١ هو محمد بن احمد بن جبير الكناني ولد في بلنسية سنة ٥٣٩ هـ . (١١٤٤ م) ودرس على جماعة من الادباء والعلماء ، وبرع في الشعر والادب ، وسكن غرناطة ، ثم اوع بالاسفار فرحل رحلته الاولى الى مصر والشام والحجاز والعراق و صقلية ، ونقش الآثار والصنائع واحوال البلدان واهلها ثم عاد الى غرناطة ، وصنف رحلته المشهورة . ورحل ثانية بعد ان فتح صلاح الدين الايوبي بيت المقدس ، وعاد الى غرناطة ثم انتقل الى سبتة . ورحل ثالثة من سبتة الى مكة فبيت المقدس ، ثم تحول الى الاسكندرية فاقام بها يحدث حتى مات سنة ٦١٤ هـ . (١٢١٧ م) . وطبعت رحلته الاولى في ليدن ، وترجمت الى الايطالية ، وترجم قسم صقلية الى الفرنسية .

حدثنا صاحب نفح الطيب ان ابا القاسم عباس بن فرناس^١ : « احتال في تطيير جثائه ، وكسا نفسه الريش ، ومدّ له جناحين ، وطار في الجو مسافة بعيدة ، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخره ، ولم يدرك ان الطائر انما يقع على زِمِّهِ^٢ ، ولم يعمل له ذنباً^٣ . » ٥١ .

وكان مؤمن بن سعيد الشاعر معاصراً له فقال فيه من ابيات :
يَظُمُّ عَلَى الْعَنْقَاءِ فِي طَيْرَانِهَا ، إِذَا مَا كَسَا جُثَاثُهُ رِيشَ قَشْعَمٍ^٤

١ عاش ابن فرناس في القرن الثالث للهجرة زمن امارة محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الاموي . ملك من سنة ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ . (٨٥٢ - ٨٨٦ م) وله فيه شعر حسن رواه ابن عبد ربه في العقد . ٢ الزِّمِّ : منبت ذنب الطائر . ٣ يظم : يعلو ويغلب . القشعَم : النسر العتيق المسن .

الادب والادباء

المجاميع الادبية . العقد الفريد . جمع اداب الاندلس .
الذخيرة . فلائد العقيان . النقد الادبي . التوابع والزوابع .

كان للاندلسيين قسط وافر في الادب نال منه خاصتهم وعامتهم، نساؤهم وصبيانهم . واستهواهم الشعر الجاهلي، فحفظوه ورووه، فأيد فيهم ملكة البلاغة . وانصرف منهم طائفة الى تصنيف المجاميع الادبية، فمنهم من جمع اداب الشرق دون ان يلتفت لفت بلاده الا في النذرّة كابن عبد ربه صاحب العقد، فان كتابه اقدم مجموعة ظهرت في الاندلس ، ومن اوائل المجموعات الادبية عند العرب ولكنه عني باخبار شعراء الشرق وخطبائه ، وكتابه ، ومغنيه وقيانه . واورد جمهرة من اقوالهم ونواديرهم وملحهم، ولم يرو شيئاً لأدباء الاندلس الا ما كان من قوله . وقلما روى لغيره في معرض كلامه على ملوك بني امية بقرطبة ، فكأنه لم يجد في عصره ادبياً اندلسياً يستحق الذكر ، وهذا ما حمل الصاحب بن عباد على ان يقول عند ما انتهى اليه العقد : « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

ويشتمل العقد على اخبار واقوال ونوادير لا تجدها الا به، ولولاه لذهبت ضياعاً . وفيه لمحات تاريخية عن الخلفاء والملوك والامراء وايام العرب في الجاهلية . وفيه فصول في العروض والطب والاحان . وهو خمسة وعشرون كتاباً باسم خمس وعشرين جوهرة من جواهر العقد، اولها كتاب اللؤلؤة في السلطان . وانشاؤه بليغ مطبوع مرسل، فيه ايجاز ووضوح وبهاء .

ومنهم من جمع اداب اهل الاندلس دون سواهم كابن بسّام في الذخيرة . والفتح ابن خاقان في فلائد العقيان ، ومطمح النفس . وابن بشكّوال في الصلة . غير انهم خلطوا اخبار الادباء باخبار الملوك والوزراء والفقهاء وسواهم ، واكثروا من ذلك ، فغلبت على كتبهم الصبغة التاريخية .

ويؤخذ عليهم انهم اعتمدوا الصناعة في انشاء مجاميعهم ، فاسدوها بتكلفهم ،
ولاسيما القتح في قلائده . ولم يكن لهم يد طولى في النقد الا ما كان من احكام
شاملة ليس فيها غناء .

والنقد في الاندلس لم يرتفع له شأن الا عند ابي عامر بن شهيد ، حتى انه فاق
نقد المشرقيين في بعض نواحيه ، لان ابا عامر سلك طريقاً في كتابه التوابع والزوابع^١
لم يسلكه واحد منهم ، فكان ينظر في نقده الى نفس الاديب ، واعضاء جسده .
والتوابع والزوابع تحفة من تحف الادب ، لم يبق منه الا فصول اوردها ابن بسام
في الذخيرة ؛ وهو قصص ادبية خيالية يجتمع فيها ابن شهيد بالادباء ، وينتقدهم
ويعارضهم في منظومهم ومنثورهم . ويكون ذلك بان يطير الى ارض التوابع والزوابع
مع جني يقال له زهير بن ثوير ، يركبه على ادهم ، ويزيره شياطين الشعراء والكتاب ،
فتجري بينه وبينهم مساجلات ومناظرات ، فمنهم من يحلهم ويعترف بفضلهم شأنه مع
عَيْنَةَ بن نَوْفَل صاحب امرى القيس فانه تهيب الانشاد في حضرته ، وهم بالخصصة .
وشأنه مع حسن الدنان شيطان ابي نواس ، فقد ادر كته منه الهيبة ، واخذ في اجلاله
لمكانه من العلم والشعر . ومنهم من يخرجه ويخذه كما جرى له مع ابي الطبع
طوق بن مالك تابع البحتري ، فانه باراه في الانشاد ، فاسود وجه ابي الطبع ، وكر
راجعاً ولم يستلم . وكما جرى له مع زبدة الحقب جني بديع الزمان ، فانه عارضه في
وصف الماء ، فلما سمع زبدة وصفه ، غار في الارض وهو مبهور خجل .

ويتخلل تلك الاقاصيص آراء في النقد متعددة ، فمنها كلامه على تأثير النفس في
الانشاء وهذا لم يسبق اليه فيما نعهد . قال : « مقدار طبع الانسان انما يكون على
مقدار تركيب نفسه مع جسمه . فمن كانت نفسه مستولية على جسمه من اصل
تركيبه ، كان مطبوعاً روحانياً ، يُطلع صور الكلام والمعاني في اجمال هياتها ، واروق
لباساتها . ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من اصل تركيبه ، كان ما يُطلع من

١ التوابع : الجن الذين يتبعون الانس ، واحداها تابع وتابعة . الزوابع : جمع زوبعة
وهي اسم لشيطان ، او رئيس الجن .

الصور ناقصاً عن الدرجة الاولى في التام والكمال . « ١ هـ . ومنها قوله في تأثير تركيب الاعضاء : « انهم يُدرّكون بالطبيعة ، ويقصّرون بالآلة . وتقصّيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة الروحانية ، والحادثة لآلات الفهم ، والباعثة لرقيق الدم في الشريان الى القلب . وزيادة غلظ اعصاب الدماغ ، ونقصانها عن المقدار الطبيعي ، وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة ، من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه^١ ، وتواء القمّحْدُوَّة^٢ ، والتواء الشدق ، وخزّر العين^٣ ، وغلظ الأنف ، واتزواء الارنبية^٤ . « ١ هـ .

ومهما يكن في هذه الاحكام من غموض ومجازفة يحولان دون اتخاذها قواعد مطردة ، فانها دون شك خطوات محدودة خطاها ابن شهيد في مہبع النقد الحديث .

١ فرطحة الرأس : عرضه . تسفيطه : محاكاته للسفط وهو وعاء كالقفة .
 ٢ القمّحْدُوَّة : مؤخر القذال . خزّر العين : انكسار بصرها وضيقها وصغرها ،
 او نظرها بأحد الشقين ، او حولها . ٣ الارنبية : طرف الانف . واتزواء الارنبية : تجمعها
 وتقبضها .

عصر الانحطاط

(١٢٥٨ - ١٧٩٨ م و ٦٥٦ - ١٢١٣ هـ)

«يتبدى باستيلاء هولاءكو على بغداد»

«ويتهي بدخول نابوليون الاول مصر .»

فصول البحث واغراضه

لمحة تاريخية .

تفاقم الولايات . فيض العناصر العجمية . ميزة العصر .

الشعراء المحدثون (عصر الانحطاط) .

ميزة الشعر .

الكتاب المحدثون (عصر الانحطاط) .

ميزة (النثر . انشاء المترسلين . انشاء المصنفين . العلوم والآداب .

ملحة تاريخية

تفاهم الويلوت

فيض العناصر العجمية

الحروب والويلات . تخدير العقول . تكاثر العناصر
الاعجمية . انحدار اللغة . عهد بني عثمان .

تركنا العصر العباسي الرابع^١ ، والممالك الاسلامية نهبة الناهب ، يتداولها الغزاة
والفاتحون ، ويقوض عمرانها المغول المكتسحون ، وتنتشر فيها العناصر العجمية انتشاراً
مروعاً ، يتضاءل دونه العصر العربي حتى يكاد يذوب ويضمحل . ولبسنا هذا العصر
متزوّفاً بالدماء ، محفوّفاً بالارزاء ، ما تقر به عين ، ولا يهدأ خاطر ، لا تطمئن نفس ، ولا
يهجع ناظر . السيوف بين الهام والاعناق ، والرماح في النحور والترايب . البلاد فريسة
للبثق والتحريق ، والنهب والتهديم . النساء مردفات ، والاطفال بين سبي وذبيح .

فالمغول بفارس يشنون الغارات على العراق والشام ، ويوغلون في البلاد قتلاً
وتحريباً ، ويتعشّون الذعر امامهم ، فينبعث كالوباء المنتشر . فما تناسى الناس هولا كوا
وفظائمه ، الا ليلبتلوا بتيجورلنك ومجازره^٢ . والفرنجية بفينيقية وفلسطين يقتحمون
الديار المصرية والشامية . والمماليك يجهدون في دفعهم عنها ، ولكنهم يختلفون فيما

١ ادباء العرب ج ٢ . ص ٣٤٠ . ٢ قصد تيجورلنك المغولي سورية سنة ٨٠٣ هـ .
(١٤٠٠ م) وخرب حلب وحمص وحمّة وبلبيك ودمشق ، وقتل باهلاً ، واحرق الجامع
الاموي ، وكثيراً من المعابد والمدارس ، وسبي النساء ، وداس الاولاد بخيمله وبقره .

بينهم على المال والسلطان فيحتربون، ويتذابجون، ويتفانون . والكرج والارمن يتسايلون من الشمال مغيرين عاثنين، ثم يعودون بالسبايا والغنائم .

تلك حالة مصر وسورية والعراق في هذا العصر . واما جزيرة العرب، والمغرب فقد كان يتنازعها دول صغيرة تختصم وتتحارب، فما اطمأن عرش بوادة الا انتقل الى غيرها . واما الاندلس فقد خلت مرابعها من المسلمين بعد ان شردهم الفرنجة عنها .

وفي منسلخ القرن السابع للهجرة، شهدت اسية الصغرى دولة مسلحة فتية ترث ملك السلاجقة المحطم ، وتقيم على انقاضه عرشاً تركياً ابني عثمان ثم لا تلبث ان تنمو وتزعر ويشتد ساعدها ، فتغزو فيتسع ملكها ، فتتوغل في بلاد الروم حتى تقتطع القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ . (١٤٥٣ م) وتجعلها عاصمة لها .

ثم يقوم احد سلاطينها سليم الاول، فيولي وجهه شطر الشرق فيغزوه سنة ٩٢٢ هـ . (١٥١٦ م) وينتزع سورية ومصر من ايدي المماليك الشراكسة، ويخلع المتوكل على الله الخليفة العباسي ، ويأخذ منه الراية والبردة والسيف ومفاتيح الحرمين . فتنتقل الخلافة للمرة الاولى من العرب بل من قريش الى الاتراك .

ثم يمتد سلطان العثمانيين الى سائر البلاد العربية كالعراق والحجاز واليمن وتونس والجزائر، ويستعمل عليها ولاية من الاتراك .

فغير عجيب ان يكون لتوالي الحروب والحزن، وتقتيل العلماء، وتحريق المكاتب، وتفاقم العناصر العجمية، واستبدادها بالاحكام، اثر بليغ في تخدير العقول، وحط الاداب والعلوم . ولولا ان هؤلاء الاعاجم اسلموا ، وكان بهم حاجة الى العلوم لما سلمت لغة القرآن .

على ان مصر والشام كانتا قبل ان يستولي عليهما بنو عثمان مباءة الادباء والعلماء الهاربين من وجه المغول، او من وجه الفرنجة في الاندلس . ذلك بان المماليك، وان لم تكن لهم آصرة على اللغة العربية ، عطفوا عليها ، وقربوا اصحابها تشبهاً بساداتهم الايوبيين . ولكن ضعفهم فيها جعلهم يوثرون الازجال العامية على الشعر الفصيح ، فغلب القوالون على الشعراء، والعامية على الفصحى .

وكان بالشام فضلة من الايوبيين عطفوا على اللغة وآدابها، كالمملك المؤيد صاحب حماة، وهو الاديب المؤرخ المعروف بابي الغداء^١. الا ان سلطانهم كان ضعيفاً بالاضافة الى سلطان الممالك المنبسط على القطرين معاً، فلم يكن تأثيرهم بليغاً كتأثير اولئك.

وعلى الجملة فان اللغة لم تنحدر في عهد الممالك انحدارها على عهد بني عثمان لاسباب: منها ان دولة الممالك كان وطنها عربياً، اما دولة العثمانيين فوطنها عجمي. وكان الممالك اهل جهالة جهلاء لا يعرفون غير السيف والحرب، فلم يستغنوا في تنظيم دولتهم عن علوم العرب وآدابهم، فاكثروا المدارس في مصر والشام، وقربوا العلماء ليؤلفوا لهم، ويتولوا امور دواوينهم. وكذلك العثمانيون كانوا كالممالك في جهلهم وخشونتهم، الا انهم تحضروا بعد ان فتحوا القسطنطينية واتخذوها قاعدة لمملكتهم. وتحضرت لغتهم شيئاً فشيئاً بما افادت من العربية والفارسية واللغات الاوربية، واصبحت صالحة للعلوم والاداب، فاعرضوا عن لغة العرب، وكانوا قد اعتمدوا عليها برهة من الزمن، وجعلوا التركية لغة رسمية في جميع الولايات العثمانية. ولم يستثنوا الولايات التي تعمرها العناصر العربية، فانهم استعملوا عليها حكماً من الترك، يرفعون شأن لغتهم، ويسعون في تزيك العرب، واضعاف عصبيتهم. فهبطت اللغة في عهدهم هبوطاً مشؤوماً، وفسدت ملكة البلاغة، وتصلبت اذهان الادباء، وخيم عليهم خمول كسبات عميق، لا يستفيقون منه الا على مدافع نابليون في مصر، ونواقيس الاديار في شعاف لبنان.

١ هو السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل الايوبي ولد بدمشق سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) وكان عالماً فاضلاً مؤرخاً اديباً، ولاء حماة الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر. ثم ارسل اليه شعار السلطنة، واطلق يده في دولته. توفي سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) وتملك حماة بعده ابنه الملك الافضل ناصر الدين محمد.

ميزة العصر

الهول والفساد . الاستبداد . الضغط على حرية الفرد والجماعة .

عصر يصبغه الهول والذعر والفساد من جميع نواحيه، عصر تقتيل العلماء، واتلاف الكتب، وتخريب المدارس . عصر لم يُبق فيه هولاً كـو من رُمق الا ليجهز عليه تيمورلنك . ولم يعن المماليك في ارهاق العرب الا ليوطنوا العقاب للعثمانيين ابناء جلدتهم ، فيعمد هؤلاء الى بذر الشقاق في الطوائف خشاة ان يتواطئوا على شق عصا الطاعة . فاقتربت من اجل ذلك المظالم، وارتكبت المحرمات، واحل القتل والترويع، ودبت عقارب السعايات والدسائس، واستعبدت الافكار، وحطمت الاقلام، وخنقت حرية الفرد والجماعة . فذل العرب ، وتفرقت كلمتهم . وكان هذا العصر اسوأ العصور عليهم .

الشعراء المحدثون

عصر الانحطاط

ميزة الشعر

ضعفه . نخود القرائح عن الابتكار . الخداره في عصر
العثمانيين . التكلف . التقليد . صناعة لفظية جافة .
التاريخ الشعري . اغراضه كاغراض الشعر المولد . اقبال
الشعراء على التصوف والمجون .

بان الضعف على الشعر في العصر العباسي الرابع، وتلقاه عصر الانحطاط بكوارثه
ومجازره، وبوابل منهمر من العناصر الاعجمية لا تأتي في افساد اللغة، وتشويه فصاحتها .
فانحدر الشعر الى ادنى الدركات، وكان له بعض الرونق في اوائل العصر فيجف ماؤه،
وخبث طعمه في اواخره .

وطبيعي ان يسقط الشعر ويهوي من سمائه ، وقد تواضعت على أذاته عوامل
متعددة . فمن فصاحة آضت الى العجمة والرطانة، ومن قرائح ارمضها الشح والجفاف،
ومن اذهان اخلقتها الخمول والجود، ومن نفوس اضرعها الرعب والخنوع، ومن ملوك
ازرت بالشعر والشعراء .

وكان المماليك ارحب صدراً من العثمانيين لاستقبال الشعراء . ذلك بان مملكتهم
عربية الموطن ، فقر بهم اليهم، ولكنهم صرفوهم الى التأليف في الاداب والعلوم،
وآثروا على شعرهم اناشيد الزجالين ، لان عجزهم عن فهم العربية الفصحى حبب
اليهم الزجل . فاثابوا اصحابه ، فكثرت القول فيه ، ونظمت الموشحات والقصائد
العامية على انواعها .

ومع قلة المناصرين للشعر، فإن المشتغلين به لم يقلوا، بل كان منهم طائفة كبيرة معظمها شويرون ومتشاعرون . ذلك بأن الناس استهانوا جانب الشعر بعد ذهاب اربابه، واجترؤوا على نظمه دون ان يُؤثوا مواهبه، قتلهم به الخاصة، ولا كته افواه العامة، فكان من اصحابه الفقهاء والكتاب واهل الحرف وسواهم .

وكان التكلف والتقليد اظهر خصائص هذا الشعر، لان الجود الذي استولى على القرائح قطع ما بينها وبين الابتكار، ووقف بالشعراء عند اساليب المتقدمين ومعانيهم، يطبعون على غرارها، ويعرفون من بحارها . فقلما وقعت على معنى شريف او صورة خلاصة الا وجدت له اصلاً في شعر السالفين . فكانوا كالحیوان الطفيلي يعيشون على جسم غيرهم . وترك لهم الادباء العباسيون ارثاً عظيماً من الصناعة المعنوية واللفظية، فاقبلوا عليها يحترفونها، لانها لا تقصرهم على الاستنباط والاختراع، وانما تحتاج الى عناية باختيار الالفاظ المتجانسة، والتصرف في استخدام معانيها ليستخرج منها تورية او جناس، او ما شاكل ذلك من انواع البديع . والصناعة في الشعر جميلة اذا روعيت فيها البلاغة، ولم يفرط في استعمالها، ولكن شعراء الانحطاط ألحوا في طلبها حتى اسرفوا، وجعلوا المعاني خادمة لها، فصغر امرها، وقبح منظرها، وغث مخبرها . ولم يكن لهم ما كان لاسلافهم من البلاغة وحسن البيان، فاضطربت عباراتهم، وتراخى رساؤها، وجف ماؤها، وتثاقل اداؤها . وازدادت لغتهم ضعفاً وركاكة بازدياد انحطاطهم، حتى صار الشعر في غاية الاسفاف، وبات الشعراء يتلمسون الصناعة ليستتروا بها، فتنتشر عنهم، وما تواتيهم الا بعد لأي، ولا هم يبلغونها الا بشق النفس، فاذا هي بين ايديهم غثة باردة، كلها معازلة وحشو وتطويل . واذا الشعر جثة ميت لا حياة فيه .

واكثروا من التخميس والتشطير والتضمين والاقتباس، لما فيه من معان مستفادة يتوسع فيها ناظمها، ويغذي بها بنات افكاره الجائفة . ثم جاءهم التاريخ الشعري مع العثمانيين في القرن العاشر للهجرة، فكان لهم من ارقامه رياضة لاذهانهم الكلييلة، فتهافتوا عليه تهافت العطاش على الماء، وراحوا يتنافسون في استعماله كلما سنحت لهم تهنة او تعزية، فزيدت صناعة الشعر برودة وثقلًا، واصبحت بغیضة لا تطاق بعد ان

افرطوا فيه حتى جعلوا القصيدة جدولاً حسابياً ، في كل مصراع تاريخ او اكثر ؛
ويا قبح الله الشعر اذا خالطه الحساب !

واما اغراض الشعر فلم تخرج في مجملتها عن اغراض المولدين ، ولاسيا ذكر
الحروب والمجازر . الا ان هناك نوعين متناقضين تضاعف اقبال الشعراء عليهما
وهما التصوف والمجون . ومن غريب ظواهر الاجتماع ان يكثر التعبد والفحش عند
اشتداد الحروب والمحن . فبينما تنصرف طائفة الى التنسك والصلاة ليجلو الله غمام
الكروب ، تمن اخرى في طلب الملذات كمن يبادر الدنيا قبل فواتها . وكثيراً
ما يقود اليأس صاحبه الى المعرّات ، على امل ان يتفرج من همومه . ولضيق
الحروب ، وما يتبعه من فاقة وفقر ، وبذل ، وسي واغراء ، يد فعالة في قتل
الحياء وبعث الدعارة .

وقد كان عصر الانحطاط متتابع الولايات والحروب ، ففرغ الناس الى ربهم
يعتصمون بحبله ، ففرغ اليه الشعراء يدحونه ، ويستشفعون رسوله . فنظم البوصيري برده
الشهيرة ، وترسمه الحلي في بديعته ، جارياً على بحره وقافيته . ففتح طريقاً جديداً لمن
جاء بعده من الشعراء ، فاحتذوا على مثاله ، والتزموا انواع البديع في مدائح محمد وآله
وصحبه . وتشبه بهم ادباء النصارى ونظموا القصائد والبديعيات في مدح المسيح
ورسله ، اشهرهم المطران جرمانس فرحات ، والحوري نيقولاوس الصائغ صاحب
اول بديعية نصرانية .

وكان عصر الانحطاط عصر يأس وضيق ، وسي واغراء ، فاوغل الناس في
ارتكاب الفحشاء ، ومزقوا عن جسومهم غلاثل العفاف ، فاوغل الشعراء في الخلعة
والمجون ، واسرفوا في سرد الاخبار الفاحشة ، واستعمال الالفاظ الصريحة في البذاءة .
وراج عندهم غزل المذكر ، ولم يتحوب منه العلماء والمتصوفون . وكان مجونهم في
معظمه سمجاً غليظاً كراهيته ونبوة عن الطبع ، وخلوه من الظرافة التي اتسم بها شعر
النواصي واضرابه من مجان العصر العباسي الاول . وربما تكلفوا نظمه لئلا ينقصهم

فن من فنون القريض ، وسموا هذا الضرب من الشعر إحماضاً . وكان صني الدين في مقدمة من تكلف نظمه وتدوينه . ومع كثرة شعراء الانحطاط لتطفل الناظرين ، فإنه لا يستحق الذكر الا اقلهم . وابعدهم من جاء في صدر العصر كالْبُوصيري ، وابن نباتة ، وصني الدين الحلبي ، والتلعفري ، والشاب الظريف .

١ الاحماض، من أحمضت الابل : اكلت الحمض . وهو ما ملح وأمر من النبات ، وهو كفاكهة للابل تأكله عند سآمتها من الخلة وهي ما حلا من النبات . واستعمل الاحماض مجازاً للتفكه بالعبث والمجون .

الكتاب المحدثون

عصر الانحطاط

مبزة النثر

كثرة المتطفلين عليه . سقوطه .

لم يكن النثر اوفر حظاً من الشعر فيعدو عنه الاسفاف، وكلاهما رزى ببلاغته، ومضى عهد فرسانه المجليين . وربما كانت مصيبة النثر افدح، وخطبه اعم، لان عدد المتطفلين عليه اكثر من عدد المتطفلين على الشعر . وكانت النكبة في انشاء المترسلين أشد منها في انشاء المصنفين .

انشاء المترسلين

تلقفهم بالالفاظ . عجزهم عن توليد المعاني . طفت
العامية على الفصحى في الدواوين . فساد اللغة . التكلف .
السخف .

اصطبغ انشاء المترسلين في العصر العباسي الثالث بالوان الشعر، فغلب عليه الخيال
والمجاز، وقامت سجعاته مقام القوافي فلم يكن ينقصه غير الاوزان . ومتى افرغ
النثر في قالب الشعر ضاقت اغراضه، وتحدت موضوعاته، فما يصلح الا للاشياء التي
يطفو عليها الخيال الشعري كالوصف والرسائل ومقدمات الكتب والمقامات وما اشبه
ذلك . واما المباحث العلمية والادبية والتاريخية، فتنبو عنه؛ ولا تخضع له الا على
كره منها ونفار .

والاسلوب الشعري المنطق صعب القيادة؛ لا يستكين الا لكتاب بليغ؛ مستطيل
على الالفاظ؛ بارع في المجاز . وكان الكتاب العباسيون فيهم ملكة البلاغة؛ ولهم
حسن البيان؛ فصاروا بهذا الاسلوب الى اعلى منازل؛ ونافسوا به النثر الفني المرسل .
على ان هذه البلاغة ما لبثت ان تداعت في اواخر العصر الماضي؛ فاسف نثر المترسلين
وجفت صناعتهم، وثقلت الفاظهم، وقبحت محسناتهم . ثم وافي هذا العصر، فاحتضرت
البلاغة بين يديه . وحاول كتابه ان يجاروا من تقدمهم في الصناعة، واحتذوا على
طريقة القاضي الفاضل من التزام التورية والسجع والجناس، لان في صناعة الالفاظ
ستراً لعجزهم عن توليد المعاني واختراعها، فلم يستقيم لهم الامر، وجاءت عباراتهم
تتمطى متثاقلة، وتتناوب . وما انقضى صدر الدولة العثمانية، وسادت التركية في
الدواوين، وطغت العامية على الفصحى، حتى لفظت البلاغة نفسها . وصار الكتاب لا
يطيقون الافصاح عما في ضمائرهم، واعتاصت عليهم الصناعة، وفسدت اللغة في

عباراتهم، واكثروا من الحشو والكلام الفارغ . وتكلفوا السجع على ضعفهم، فيجاء
سخيفاً نابياً، متقللاً في اماكنه .

واشهر مترسلي هذا العصر من عاشوا في دولة المماليك ، وكتبوا لسلطينها ،
كالقاضي محي الدين بن عبد الظاهر، وشهاب الدين محمود الحلبي ، وشهاب الدين بن
فضل الله العمري .

انشاء المصنفين

قربه الى الطبع . فسادته في عهد العثمانيين .

واما انشاء المصنفين فلم تعمه الصناعة اللفظية كما عمت فن الترسل ، فقد لبث طائفة منهم يقصدون الى الاسلوب المرسل فاحسنوا في ذلك . ولكن لم تتفر لهم بلاغة اسلافهم ، فبجاء انشاؤهم في الجملة على شيء من اللين ، ولم يخلص من التعقيد والتطويل . ثم دب الفساد في لغتهم كما دب في لغة المترسلين فكاد يكون النثر عامياً ، كما يبدو في قصص بني هلال ، وتاريخ ابن اياس^١ وما شاكل ذلك .

^١ هو ابن اياس الجركسي الحنبلي ، من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وله بدائع الزهور في وقائع الدهور ، دوتن فيه تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨ هـ . (١٥٢١ م) ولغته ضعيفة اقرب الى العامية منها الى الفصحى .

العلوم والآداب

الحركة العلمية الادبية في عهد المماليك محدودة . ضعفها
في بني عثمان .

كانت الحركة العلمية في دولة المماليك محدودة لكثرة المدارس عندهم ، واقبال
العلماء على مصر والشام ، وانصرافهم الى التأليف باكتناف السلاطين . ولكن مصنفاتهم
قل فيها الاستنباط لتصلب الإذهان ، فجاءت في معظمها جمعاً وتحشية وشرحاً . فمن
الذين اشتغلوا بالنحو ابن مالك الطائي ، وله الفيتة الشهيرة ، وتسهيل الفوائد ، والكافية
الشافية ، ولا مية الأفعال . ومنهم ابن هشام وله قطر الندى وبل الصدى ، ومعني اللبيب
عن كتب الاعاريب ، والإعراب عن قواعد الأعراب . ومنهم ابن آجرؤم وله
الأجرؤمية .

ومن الذين اشتغلوا بتصنيف المعاجم اللغوية ابن منظور صاحب لسان العرب
جمع فيه تهذيب الازهري ، ومحكم ابن سيده ، وصحاح الجوهري ، وجمهرة بن دريد ،
ونهاية ابن الاثير ، وجعله في عشرين مجلداً . ومنهم الفيروزابادي وله القاموس المحيط
في اربعة مجلدات . ومنهم السيوطي ، وله المزهري في جزئين يشتمل اولهما على البحث
في الفاظ اللغة وفصيحتها وضعيفها ورديتها ، والمعرب والمولد والحقيقة والمجاز والقلب
والاببدال وما اشبه ذلك . ويشتمل الثاني على اوزان الكلام ، وابنية الافعال ومعرفة
التصنيف والتحريف ، ومن يحتاج بهم من شعراء العرب وغير ذلك .

وكان حظ التاريخ حسناً ، والنشاط له عظيماً ، فظهرت فيه كتب جليلة يصح
الركون اليها . وكان للمغرب يد على فلسفة التاريخ في مقدمة ابن خلدون . فمن الذين
اشتهروا في مصنفاتهم التاريخية ابن حليكان ، وله وفيات الاعيان في مجلدين ، وهو
كتاب نفيس ، وله ذيل اشهرها فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . ومنهم صلاح
الدين الصفدي وله الوافي في الوفيات ، وهو معجم للتراجم في خمسين جزءاً . ومنهم

ابو الفداء وله المختصر في اخبار البشر، تاريخ عام في اربعة اجزاء . ومنهم شمس الدين الذهبي، وله تاريخ الاسلام في اثني عشر مجلداً . ومنهم ابن خلدون وله كتاب العبر في ستة مجلدات .

وكذلك الجغرافية، فان اصحابها ما انفكوا يعانون الرحلات في سيلها، واشهرهم القزويني وله عجائب المخلوقات في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب . وابن بطوطة الرحالة المشهور وله كتاب تحفة النظائر، ويعرف برحلة ابن بطوطة . والمقرئزي، وله خططه التي بين فيها اقاليم مصر واحوال سكانها، وادعها من الاخبار والحوادث التاريخية طائفة حسنة، وهي في مجلدين كبيرين .

ونض علم الاجتماع في مقدمة ابن خلدون . وكان للعالم الطبيعي حظ حسن في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدّميري .

واشتغل جماعة من العلماء بوضع الكتب الجامعة لشتى العلوم والاداب، كالثوري وله كتاب نهاية الارب في فنون الادب، يزيد على ثلاثين مجلداً، ويبحث في الفلك وتقويم البلدان، والتاريخ الطبيعي، واللغة والادب . وكشهاب الدين بن فضل الله العمري، وله مسالك الابصار في ممالك الامصار، يتضمن الجائاً في التاريخ والجغرافية، والتاريخ الطبيعي . وكالقلقشندي، وله صبح الاعشى في صناعة الانشا، وتقويم البلدان . وكالابشيهي، وله المستطرف في كل فن مستظرف، يشتمل على ادب وسياسة واجتماع وتاريخ وجغرافية، وتاريخ طبيعي ونحو ذلك .

ولما ادال الله العثمانيين، واصبحت مصر والشام في حكمهم، ضعفت فيها الحركة العلمية، وأقلل معظم المدارس، وانتهت اوقافها . ثم اخذت التركية تغزو العربية وترجمها في عقر دارها، فغلبت طمطمانية الاعجام على المصريين، وقل المشتغلون بالعلم لقلة انصاره، وانقطاع وسائله . ولم يكن للتصنيف والمصنفين شأن يذكر لولا تلك الشهب التي كانت تلوح الفينة بعد الاخرى، فتتير سواد هذا الليل الدامس، ثم يتوارى شعاعها في الحجب الكثيفة، فيستبد الظلام . فمن هذه الشهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الادب واب لباب لسان العرب، شرح فيه شرح شواهد الكافية في النحو،

وضمنه المجاتاً في التاريخ والادب ، وجعله اربعة اجزاء . ومنها الصبآن ، وله حاشيته على شرح الاشعري على الفية ابن مالك . ومنها المطران جرمانس فرحات ، وله بحث المطالب في الصرف والنحو ، وهو كتاب مفيد حسن التبويب . ومنها عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي ، وله معاهد التنصيص شرح فيه شواهد تلخيص المفتاح في علم المعاني والبيان ، وترجم لاصحابها ، وذكر طرفاً من مختار شعرهم ، وشعر غيرهم . ومنها شهاب الدين الحفّاجي ، وله شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل . ومنها السيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس ، معجم كبير في اربعة عشر مجلداً يشرح قاموس الفيروزبادي .

وعرف من المؤرخين المحدثين ، وله خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر . والمقري التلمساني ، وله نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، في اربعة مجلدات ضخمة . وحاجي خليفة ، وله كشف الظنون ، معجم لاسماء المصنفات العربية ، رتبها على الابجدية ، وذكر فيه المصنف وغرض كتابه ، وما له من شروح ، واصحاب هذه الشروح .

واشتهر من مؤلفي الكتب الجامعة بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول ، فيه ادب ورياضيات ، وفلسفة وعلوم اسلامية .

عصر الانبعاث

(القرن التاسع عشر والثالث الاول من القرن العشرين)

- « يبتدئ بدخول نابليون مصر »
- « ويزدهر في اواخر القرن التاسع عشر »
- « ولا يزال مطرد الازدهار »

فصول البحث واغراضه

لمحة تاريخية .

- مواطن الادب . النصراني والعربية . لبنان والانبعاث . مصر والانبعاث .
- القرب والانبعاث . ميزة العصر .
- الشعراء المحدثون (عصر الانبعاث) .
- ميزة الشعر . اغراضه ومعانيه . منزلة الشاعر المحدث . شوقي :
- حياته وشعره .

الكتاب المحدثون (عصر الانبعاث) .

- ميزة النثر . الترسل . الشيخ ابراهيم اليازجي . التصنيف والمصنفون .
- الصحافيون . ولي الدين يكن . المنفلوطي . علوم اللغة . العلوم الدخيلة .
- الادب والادباء . سليمان البستاني .

ملحة تاريخية

مواطن العرب

تمقل الشعر في القبائل والامصار .

اراد الله ان يكون للغة العربية مواطن عدة، تتفياً ظلالها، وتعتز باكنافها؛ حتى اذا رزئت بواحد تعهدا الآخر بجايته فما تذهب بذهاب هذا الموطن ، ولا تطوى في كفنه . فقد كانت في البادية لا تتنفس ابعده من الفرات او بردى ، وكاد شعرها يقتصر على البدو دون الحضرة . ولكنه لم يضق بعطشه، ولا تبرم بسكنه، بل كان يستأنف نشاطه بتنقله في القبائل ، فما غيض ماؤه في قبيلة او جف المرعى ، الا تلقفته اخرى ، بصدور حافلة ، ومخيلات ثرة ، فكان له عهد في ربيعة ، وعهد في مضر وكادت نجد تستأثر به في الجاهلية ، وتستبد بفحوله ، حتى جاء الاسلام فتحول في قرى الحجاز ، بين شعراء قريش وشعراء الانصار . ثم اعتزت دولته في الشام ببني امية . فلما ادال الله بني العباس ، انفردت به العراق ، فتألق فيها كوكبه الدري زمناً ولا كالا زمان . ثم عاد الى الشام بعد ان تقطع جسم الدولة العباسية ، فزها حيناً ، وصار من بعد الى مصر طوال خلافة الفاطميين وملك الايوبيين ، غير ان الاندلس كانت تجاذبها الشق الاكبر منه .

فلما تأذن الله بعصر الانحطاط ، وجعل الملك في يد الاتراك ، واخرج العرب من الاندلس ، لبثت مصر والشام موئل العربية المشترك حتى دكه العثمانيون فايح عرض اللغة، فكثت ردحاً لا يعصمها معقل ، ولا ينصرها ناصر . ولكن الله تعالى ابى إلا ان يهيئ لها موطناً جديداً تنبعث منه حية فتية؛ فسخر لها لبنان . فكيف

تمَّ لهذا الموطن الجديد ان يحمل عبء النهضة ، ويرفع مشعل الادب العربي في
الخافقين بعد انطفائه ؟ وهو بلد سرياني اللغة ، ليس له سابق عهد بلسان العرب . هذا
ما نحاول ايضاحه في الابحاث التالية ان شاء الله .

النصارى والعربية

أنهم في العلم والادب . انصرفهم عن الادب ورجوعهم
اليه .

لم ينقطع النصارى يوماً عن خدمة العربية وتعهد آدابها وعلومها . فقد كان لهم
في الجاهلية شعراء وخطباء مبرزون ، اوقدوا جذوة النهضة ، وارتعوا البادية بمنهل
قرايحهم . وكان ملوكهم في الحيرة والشام يعززون الشعر ، ويرفعون قدر اصحابه ،
ويجيزونهم احسن جزاء .

ولما ظهر الاسلام ، واستولى بنو امية على الخلافة ، كانت العصبية العربية لم تزل
في عهد قوتها ، والناس منقسمون قبائل واحزاباً ، والشعراء يناصرون قبائلهم
واحزابهم على اختلاف الاديان والملل . وكان للنصارى شعراء متقدمون كالاخطل
والقطامي ، يتحاماهم فحول الشعر ، ويقرّ لهم الادياء المسلمون بالزعامة ، ولا يرون
حرجاً في تفضيلهم على نوابغ شعرائهم . فقد كان يونس بن حبيب ، وعمرو بن العلاء ،
وحماد ، وابو عبيدة يقدمون الاخطل مقدمة شديدة ، ويجعلونه اشعر الناس ، لا يبالون
ان يكون الفاضل نصرانياً والمفضل من المسلمين . لانهم انما كانوا ينظرون الى الشعر
واللغة ، والاخطل عندهم شاعر خنذيد ، صحيح العروبة ، صحيح اللغة . وفهم الاخطل
روح عصره فقال : « ان العالم بالشعر لا يبالى ، وحق الصليب ، اذا مر به البيت السائر
الجيد أمسلم قاله ام نصراني » .

على ان هذه الحال تبدلت غيرها في العصر العباسي ، اذ ضعفت الاحزاب ،
وضعفت العصبية العربية ، ونفذت الاعجام ، وغلبت الصبغة الدينية على الخلافة . فكان
الخليفة يجلس للمظالم ويقضي بالشرع معتزلاً بالإمامة والبيت النبوي معاً . واصطبغت
اللغة وآدابها صبغة دينية مقدسة وتسمت بلغة القرآن . فهذه الظواهر الجديدة في
العنصر العربي ، ولغته ، وادبه ومجتمعه ، جعلت قصور الخلفاء والامراء لا تحفل بغير

الشعراء المسلمين، وجعلت الشعراء النصارى يخجلون فما يذكرون منهم الا من أسلم كالي
تمام^١ وابن الرومي .

ومعلوم ان الشعر عند العرب عدة التكسب ، وطريق الحظوة والشهرة ، فلما
اصبح النصارى لا يجدون فيه ما يجده المسلمون جفوه، وانصرفوا عنه الى شيء آخر
اجدى لهم وانفع . ولم يُسمع لمن اتبعه منهم، ذكر يذكر بين الفحول من المسلمين .
وصدوف النصارى عن الشعر والادب اورث لغتهم ضعفاً، وبيانهم اسفاً . ذلك
بان اللغة العامية كانت قد تفشت في الجليل العباسي ، لتقلب العناصر الاعجمية ،
واصبح لسان العربي لا يستقيم الا بالتعلم . والعلم يومئذ يكاد ينحصر في المساجد
فلا يحظى به غير المسلمين . ولو اتيج للنصارى لما انتفعوا به ، والمسلمون كتابهم
وشعراؤهم قد احتكروا الادب احتكاراً، وطبعوه بطابع الاسلام .

ولئن فات النصارى في العباسيين ان يرفعوا شأن اللغة بشعرهم ونثرهم ، لم
يفتهم ان يرفعوا شأنها بعلومهم . فقد كانت مدارس السريان والروم تخرج منهم الفلاسفة
والاطباء والرياضيين يوم لم يكن للعرب شيء من هذه العلوم . فلم يجد خلفاء بني
العباس بدءاً من الاعتماد عليهم في بناء حضارتهم، فقربوهم ، ورفعوا قدرهم، وفتحوا
لهم دور الترجمة، فنقلوا الى العربية علوم اليونان والسريان، فحفلت الخزانة بمصنفاتهم،
واطلع عليها المسلمون فاستفادوا منها . وبين انه لولا العلوم المنقولة لما ازدهرت حضارة
بني العباس .

وضعف اللغة في النصارى جعل المسلمين على كرور الايام ، وهم مستأثرون
بالاداب، يعتقدون ان النصرانية والبيان العربي لا يجتمعان، وقال قائلهم : العربية
لا تتنصر . حتى اذا ضرب الدهر من ضربه، وعاد النصارى في القرن التاسع عشر
الى اللغة والادب، وأنسوا بالشعر بعد هجرانه، صعب على اديباء المسلمين تغيير عقيدتهم
فيهم، لما لها من الرسوخ في نفوسهم، وابوا ان ينسبوهم الى الفصاحة .

ومن اجل هذه العقيدة رفض الشيخ صالح التميمي الشاعر المسلم ان يعارض

^١ هذا على رواية من يزعم ان والده نصراني من جاسم .

خالصة المعلم بطرس كرامة^١ ، فاعتذر الى داود باشا صاحب العراق عن الرد عليها
بقوله :

عَهْدُنَاكَ تَعْفُو عَنْ مُسِيئَةٍ تَعَذَّرْنَا ، أَلَا فَاَعْفُنَا مِنْ رَدِّ شَعْرِ تَنْصَرًا^٢

على ان هذه العقيدة ما لبثت ان زالت من نفوس المسلمين او من نفوس اكثرهم
فصاروا يعترفون للنصارى بالفضل ، ويُطرون بلاءهم في النهضة ، ولا بدع فالفضل
يعرفه ذووه^٣ .

١ الخالصة قصيدة جميع قوافيها على لفظ الخال ؛ وكل لفظ له معنى يختلف عن الآخر .
واولها :

أَمِنْ خَدِّهَا الْوَرْدِي أَفْتَنَكَ الْخَالُ ، فَسَحَّ مِنَ الْأَجْفَانِ مَدْمَعُكَ الْخَالُ^١

١ افتنتك : اعجبك وولك . وأنكرها الاصمعي بالالف . الخال الاول : الشامة .
الخال الثاني : سحاب لا يخلف مطره .

٢ تعذر : اعتذر عن فعله . اعفنا : اتركنا . وقوله رد شعر : اي الرد على شعره .
ولو قال نقض شعره ، لاصاب . ٣ قال محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق
في كتابه خطط الشام (ج ٤ ص ٧٩) : « . . . وبينما كانت مدارس العلم في حلب وحماة ودمشق
وطرابلس و القدس وغيرها آخذة بالافوال والاندراس ، والمسلمون او الذين خرجوا من
الأمية بعض الشيء من اهل هذه الديار يولون وجوههم قبل المناصب الدينية والادارية
والعسكرية ، كان اخوانهم المسيحيون يتعلمون في مدارس نظامية في الجملة ، جعلت تدريس
العربية وآدابها واللغات الحية ، اول بند من منهاج الدراسة فيها . فجاء من ابناءهم ومن اخذ
العلم عنهم من سائر الطوائف ، جماعات يذكر في التاريخ بحسن بلائهم في خدمة الاداب ،
واختصاص المجتمع . ومنهم افراد ترحوا الى مصر واميركا وتولوا الاعمال الكبرى ، واطهروا
آثار قرائتهم ونبوغهم ، ولاسيما في القرن التالي (القرن الرابع عشر للهجرة) . وبطلت القاعدة
التي كان وضعها بعض ضعاف النظر من تقييح نحو النصارى ، وغناء اليهود ، فاصبح بالتعلم من
النصارى نخبة ثقات ، ومن اليهود مغنون ومغنيات ، بمعنى ان الزن ابطل ذاك الزعم . » ١

لبنان والارمنيات

دخول العربية لبنان . انهزام السريانية . العصبية العربية .
بدء الحركة العلمية . المدارس . بلاط الامير بشير .

بدأت النصرانية تنبسط بلبنان بعد القرن الرابع للمسيح، مجاهدة اهل الشرك، حتى قيض لها النجاح على ايدي الرهبان والمتعبدين، وامت لها السيادة المطلقة، فانهمزمت امامها الوثنية الجافية .

وكانت السريانية لغة اللبنانيين يستعملونها في طقوسهم، ومخاطباتهم، وكتابتهم . ولم يصبر لهم عهد بالعربية الا يوم اقتحم معاوية لبنان يريده، فلم ينل غير سواحله فاتبعها دمشق، وامتنعت عنه الجبال لوعودة مسالكها فارتد عنها . واضطر بعده عبد الملك بن مروان الى ان يصالح المردة او الجراجمة^١ على الف دينار يؤديها اليهم في كل جمعة، ليدفع معرفتهم عن المسلمين في السواحل . ومما لا شك فيه ان ارتباط الساحل الفينيقي بدمشق الاموية مهد طريق الفتح للغة العربية . ولم يصعب عليها ان تتوغل الجبل لما بينه وبين الساحل من الاتصال^٢، ثم لما بينها وبين السريانية من التشابه والقربى . ولكنها لبثت فيه بطيئة الانتشار، ولاسيا مواطن الموارنة فقد ظلت بها السيادة للسريانية حتى القرن السادس عشر . ولم ترفع لغة الضاد رأسها الا بعد ان تقاطرت الاسر العربية الى لبنان واستوطنت فيه، وعادت اليها احكام

١ اختلف في اصل المردة او الجراجمة، والراجح انهم قوم من الجرجومه في جبل الكام، بعثهم قسطنطين (الحياقي) ملك الروم الى الشام للدفاع عنه . فاعتصموا بلبنان وقتلوا العرب واشتحووا فيهم . ولما تصالح ملك الروم وعبد الملك بن مروان ارجعهم الى بلادهم وكان عددهم اثني عشر ألفاً . ٢ ذكر ابن جبير ان المسلمين المتعبدين اذا ارادوا التنسك قصدوا شعاف لبنان وانقطعوا بها الى الله، فيقبل عليهم النصارى، ويأتونهم بالقوت، ويجسنون معاملتهم .

اقطاعه ، واخصها بنو معن^١ وبنو شهاب^٢ . فان الامير المعني فخر الدين الثاني^٣ بسط سلطانه على جميع لبنان، وعرف بالتساهل والحدب على النصارى لنشأته فيهم^٤ . فانتشرت الاسر المارونية على عهده في جميع لبنان، وأهل بها الشوف خصوصاً، بعد ان كادت تنحصر في الشمال . فكان امتزاج الاسر العربية وغير العربية، واختلاطها بالسكنى والزواج سبباً قوياً لانهمزام السريانية، وانتصار لسان العرب، وهو لغة الحكام واكثر اصحاب الاقطاعات . وازدادت العربية قوة ومناعة في ولاية الشهابيين بعد تنصرهم، وتنصر الامراء اللمعيين معهم^٥ . فكان منهم في الموارنة اسر خطيرة الشأن، عربية النجار او اللغة، لا عهد لها بالسريانية قط . ولم تكن الاسر العربية كلها مسلمة، وانما كان منها نصارى لجأوا الى لبنان فراراً من الاضطهاد والعسف فأثروا في تعريب مسيحية .

ومما اذكى الروح العربي في نفوس اللبنانيين، على اختلاف الملل والنحل، تفشي سياسة الاحزاب فيهم . فان المعنيين والشهابيين كانوا على رأس القيسية العدنانية . وكان بنو سيف^٦ وبنو علم الدين^٧ على رأس اليمانية القحطانية . فانقسم اهل لبنان

١ بنو معن : قبيلة عربية من ايوب بن ربيعة بن تزار جاءت لبنان في القرن الثاني عشر للمسيح . وتزلت الشوف متحصنة فيه، تريد مجاهدة الصليبيين . ولبثت تنمو ويعظم شأنها حتى القرن السابع عشر . ٢ بنو شهاب : قبيلة عربية من مخزوم ثم من قریش، جاؤوا حوران في صدر الدولة الاموية ثم انتقلوا الى وادي التيم وكانت بينهم وبين المعنيين مودة ومصاهرة . وانتقل اليهم الحكم في لبنان بعد بني معن سنة ١٦٩٧ م (١١٠٩ هـ) وانتهى سنة ١٨٤١ م (١٢٥٧ هـ) . ٣ كانت ولاية فخر الدين الثاني من سنة ١٥٩٨ م (١٠٠٧ هـ) الى سنة ١٦٣٣ م (١٠٤٣ هـ) وقتل في الاستانة سنة ١٦٣٥ م (١٠٤٥ هـ) وانبسط سلطانه على لبنان وبيروت وطرابلس وصيدا وصفد وبانياس وغيرها . وكان سريره يقتل بين دير القمر وصيدا وبيروت . ٤ نشأ الامير فخر الدين في بني الخازن بقرية بلوثة بالقرب من عجلتون . وبنو الخازن اسرة مارونية معروفة . ٥ بنو اللمع : قبيلة ترجع نسبها الى بني الفوارس ثم الى تنوخ، كانوا دروزاً فتنصروا مقتدين بالشهابيين . ٦ بنو سيف : اكراد مستعربون، زعيمهم يوسف باشا سيف، استولى على اقطاعه العسافيين الترك الممتدة من طرابلس الى البتروان الى كسروان في سنة ١٥٩٣ م (١٠٠٢ هـ) بعد ان اغتال اميرهم محمد منصور عساف . وكان بنو سيف يتعصبون لليمانية . فجرت بينهم وبين المعنيين حروب كثيرة، حتى اخضع الامير فخر الدين الثاني يوسف باشا وازال سلطانه . ٧ بنو علم الدين قبيلة يمانية من اصحاب الاقطاعات .

قسمين كبيرين، وكانت بينهم فتن وحروب اعادوا بها عهد العصية العربية القديمة .
وهكذا استعرب لبنان في مجموعته ؛ وتضاءلت السريانية متوارية عن افواه
موارنته ؛ مجتزئة بكتب الدين . ولما آذن الله بنهضة الاداب العربية بعد انحطاطها
كان للموارنة السهم الاكبر في بعثها وحياتها .

والحركة العلمية قديمة في لبنان، بدأت منذ عهد الصليبيين بفتح المدارس ، كما
يحدثنا الدويهي في اخبار سنة ١١١٢ م (٥٠٦ هـ) . وفي تواريخ الصليبيين ذكر
لمدارس منظمة بنوها في ممالكهم ، وجعلوا فيها اساتذة وطنيين ، فكان بدء اختلاط
اللبنانيين بالفرنجة حافظاً لهم على طلب العلم . ولكن اثر هذا الاختلاط كان
اوضح وابين ، بعد ان حملت فرنسة نفسها على حماية نصارى الشرق ، ولاسيما الموارنة
في لبنان . فان لويس الرابع عشر جعلهم في عهده ، وشملهم برعايته ، وتبرع بتعليم نفر
من غلمانهم في المدرسة اليسوعية ببائيس .

وكان من مساعي سفراء فرنسة في الاستانة ان عقدت معاهدات تجارية بين
ملوك الفرنسيين وسلاطين بني عثمان . واجيز للرهبان الغربيين ان يسكنوا لبنان
والولايات . ثم عقدت معاهدات بين الدولة العثمانية ودول غربية اخرى ، فراج التبادل
التجاري ، واشتد اختلاط الشرقيين بالغربيين ، ووفدت البعثات الدينية من الغرب
تبني اديارها ومدارسها في الشرق ، وكان حظ لبنان منها الاطيب .

وعني البابا غريغوريوس الثالث عشر بكهنة الموارنة عناية تذكر ، فانه انشأ لهم
المدرسة المارونية برومة في اواخر القرن السادس عشر ، فاخرجت طائفة مختارة من
العلماء كابطيريك الدويهي ، والسماعة ، والحصري ، والحاقلاني ، وسواهم . وانتشر
جماعة من تلاميذها في قواعد اوربة^١ يعلمون ، ويصنفون ، وينقلون علوم المشاركة الى

١ من الذين لبثوا في اوربة (السماعة المشهورون ، وكسرجيوس الرزقي ، ومرهج ابن نبيرون
الباني ، اقاموا في رومة يخدمون الكرسي الرسولي . واقام في باريس ابراهيم الحاقلاقي ، وجبرائيل
الصهيوني ، ويوحنا الحصري . واتصل بامراء فلورنسة بطرس مبارك الماروني اليسوعي .
واشتهر في مدريد ميخائيل الغزيري . وعلم في فينا انطون عريضة الطرابلسي .

الغريين، فحببوا الى الاوربيين دراسة آداب الشرق وعلومه . وحمل جماعة منهم الى مسيحي الشرق^١ ولاسيا ابناء ملتهم بلبنان ، علوم الغريين وآدابهم ، وانشأوا لهم المدارس، فايقظوا فيهم حياة فكرية جديدة كان لها اثر محمود فيما بعد .

وفي القرن الثامن عشر نُظِمَت الرهبانيات المارونية، فكان لها يد في النهضة لانها جعلت تعليم الاحداث وتهذيبهم في قوانينها ؛ ونشطت الى فتح المدارس مجاناً وانشاء المطابع وتسهيل اسباب العلم .

هذا ، وللأمير الشهابي بشير الكبير^٢ تأثير حسن في الحركة الادبية ، فانه قرب الشعراء والكتاب ، واجازهم . وكانت المناظرات بينهم تجري في حضرته، فتستحث قرائحهم للنظم والنثر . ومن شعرائه بطرس كرامة، ونقولا التراك، والشيخ ناصيف اليازجي . وكان بينه وبين محمد علي صاحب مصر من الصداقة ما يمكنه من ايقاد بعثة لبنانية الى قصر العيني لدراسة الطب .

على ان النهضة الحقيقية لم تلمس الا بعد نصف القرن التاسع عشر حين ظهرت المدارس الراقية، وانتشرت الطباعة والصحافة .

١ من الذين رجعوا الى وطنهم البطارقة جرجس عميرة، واسطفان الدويحي ، ويعقوب وسلمان عواد، ويوسف اسطفان، ويوسف تيان؛ والمطارنة يوحنا الحوشي، واسحق الشدراوي، وميخائيل الحصري، وارميا نجيم؛ والكهنة اسطفان ورد، واندراوس اسكندر، وميخائيل فاضل البيروتي ، وبطرس التولوني ؛ وله تلمذ المطران جرمانوس فرحات في حلب .
٢ حكم من سنة ١٧٩٠ - ١٨٤٠ م (١٢٠٥ - ١٢٥٦ هـ) وجعل سريره في بيت السيدين من اعمال دير القمر .

مصر والانبعثات

حالة مصر قبل الانبعثات . نابوليون في مصر . انشاءاته .
محمد علي . مآثره . البعثات العلمية . المدارس . الطباعة .
عهد اسماعيل . النهضة المحسوسة .

كانت مصر قبل القرن التاسع عشر في شبه عزلة عن الاوربيين ، لا تكاد تعرف شيئاً عن حضارتهم وعلومهم ، مع انها لم تخل يوماً من قناصل وتجار اجانب . الا ان المصريين كانوا ينفرون منهم ولا يرون خيراً في الاتصال بهم . ولطالما اعتدوا عليهم وساموهم الخسف ، فمحتج دولهم عند الباب العالي فما يستطيع عملاً ، لان القطر المصري كان على اسوأ حالة من الحمول والفوضى والاضطراب . فالجهل تخيم على جميع الطبقات ، ضارب باستاره المظلمة على الازدهان ، لا تستوضح في ذلك الظلام الدامس غير نور ضئيل منبعث من الازهر ، ينسج من خيوطه الدقيقة للدين علماء ، ولغة نخاة وتصريفين . والماليك بيدهم ازمة الامور يتولون مشيخة البلد ، ويردون اليها الادارة والاحكام . والوالي التركي الذي تبعته الدولة العثمانية آلة بيدهم ، لا يبدي ولا يعيد الا عن امرهم . وهم يثقلون الشعب بالضرائب ويختلسون اكثراها ، ويقتتلون على السيادة ، فيبطش بعضهم ببعض . فما يقوم شيخ البلد منهم الا وله خصوم تناوئه ، وتعمل على اسقاطه ، وما يطول الامر حتى يقتكوا به وينصبوا غيره .

ولم يكف مصر ما دهاها من عسف الماليك ، ومذاجمهم وقتنهم ، حتى سُلط عليها الطاعون ، فجاحها غير مرة ، فكانت الجنازات تحمل بالجملة ، وربما اوفت على الاربعين ، وتدفن بلا صلاة . ونقص سكان القطر نقصاناً محزناً ، فكانوا لا يجاوزون ثلاثة ملايين عندما غزاهم نابوليون الاول .

دخل نابوليون مصر سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) وهي على هذه الحال من الجهل والفوضى ، فزال عنها سلطة الماليك ، فاعتصموا منه بالصعيد . وكان القائد الفرنسي

يرمي من افتتاح مصر الى قطع طريق الهند عن انكلترة واقامة قيصريّة شرقية ممتدة الجوانب . فالتخذ الاصلاح الاجتماعي والتثقيف الفكري، طريقاً لاكتساب ثقة المصريين، والوصول الى غايته . وكان قد استصحب معه جماعة من العلماء والصناع المتخصصين باللغات والآثار والجغرافية والهندسة والبناء والكيمياء، والطبيعي والرسم والتصوير وغير ذلك . فاقاموا المعامل والمصانع والمراصد والمستشفيات والحدائق والملاهي، واستعملوا العربات . وانشأوا مدرستين لتعليم الفرنسيين المولودين في مصر، ومجمعاً علمياً مصرياً، ومكتبة جامعة اباحوا النظر فيها، ومطبعة حروفها عربية ولاينية، ويونانية، سميت المطبعة الاهلية، ادارها المستشرق يوحنا يوسف مرسال . واصدروا جريدتين فرنسيتين احدهما العُشاري^١ المصري (La Décade Égyptienne) والاخرى بريد مصر، (Le Courrier d'Egypte) وجريدة عربية اسمها التنبيه، تولى انشاءها اديب عصره اسماعيل الخشّاب . وكانت تنشر ما يجري من الاحكام في ديوان القضايا الوطنية فشده المصريون مما رأوا من حضارة الفرنسيين، ولعبت باذهانهم اشياء لا عهد لهم بمثلها، فتنبهوا او كادوا يتنبهون لما هم عليه من جهل وخمول .

ولم يطل لبث الفرنسيين في مصر فقد اضطروا الى الانزعاج عنها سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) فتركوها يتقاتل فيها الجنود العثمانية والماليك .

وكان محمد علي في الحملة البحرية التي بعثها العثمانيون لمحاربة الفرنسيين، واجلائهم عن مصر . فما زال يتقدم مجده، ونشاطه، وحسن سياسته حتى بايعه المصريون بالولاية سنة ١٨٠٥ م (١٢٢٠ هـ) ورضي الباب العالي باستعماله .

وعلم محمد علي ان لا راحة لدولته الا بزوال دولة المماليك، فما انفك يتربص بهم حتى اغتالهم في القلعة سنة ١٨١١ م (١٢٢٦ هـ) . ولم ينجو الا اثنان من اربع مائة؛ وكانت نفسه الكبيرة تسمو الى مطمع عظيم الا وهو الاستقلال بالبلاد . ولطالما كان هذا المطمع حليف نفوس الولاة في مصر، وهي بما فيها من خصب وثروة ورجال

١ يقال : ثوب عُشاري طوله عشرة اذرع، والمراد هنا عشرة ايام . وكانت هذه الجريدة تصدر اسبوعياً . وكان الاسبوع في اصطلاح التقويم الجمهوري الفرنسي عشرة ايام .

كانت وما برحت جديرة بان تستقل . والاستقلال يحتاج الى جيش منظم، وادارة
صالحة . ولم يفت محمد علي فساد نظام الجيش في مصر، وفساد ادارتها، فصرف
همته الى تطهيرهما واصلاحهما . وكان قد رأى حسن تنظيم الجيوش الاوربية في
تحارب الانكليز والفرنسيين من اجل مصر . وشاهد ما احدثت حملة نابليون من
اصلاح وعمران . فعقد نيته على استعانة الفرنج في اعماله الاصلاحية، فاوفد البعثات
العالمية الى اوربة^١ وجاء منها باساتذة متخصصين يديرون مدارس الجيش والطب والصناعات
والفنون^٢، فاصبحت مصر على اتصال وثيق بالغرب بعد ان كانت على شبه انقطاع
عنه . وحدث مدرسة مصرية في باريس تعد الطلاب للتعليم العالي^٣ . وما زال يستكثر

١ اوفد بعثة من احدث الممالك الى ايطالية سنة ١٨١٦ م (١٢٣٢ هـ) لدرس
الفنون العسكرية والهندسة والطباعة . وبعثة اخرى الى انكلترة سنة ١٨١٨ م (١٢٣٤ هـ)
لدرس الخيل (الميكانيك) ونواميس السوائل . وبعثة ثالثة الى فرنسة سنة ١٨٢٦ م
(١٢٤٢ هـ) بادارة المستشرق الفرنسي جومار وهي اهم البعثات ، فيها واحد واربعون
فقي تعلموا العلوم المختلفة وعادوا الى مصر يعلمون ويديرون الدواوين، ويؤلفون ويترجمون
وفيهم القواد والاطباء . وتابع البعثات في اوقات مختلفة فأنت بالفوائد الجليلة . ٢ اول
عمل باشره في اصلاح الجيش ان بعث جماعة من مماليكه الى الصعيد ليتعلموا فنون الحرب على
اساتذة من الفرنج . ثم انشأ مدرسة التجهيز في قصر العيني سنة ١٨٢٥ م (١٢٤١ هـ) وضم
اليها نحو خمس مائة غلام من غير المصريين فيهم الاتراك والارمن واليونان والاكراد
وسواهم . وجعل اكثر اساتذتهم من الايطاليين . على انه ما لبث ان عدل عن النظام الايطالي
الى النظام الفرنسي فاقام في السنة نفسها مدرسة اركان الحرب في ابي زعبل من ضواحي
القاهرة، وعهد في ادارتها الى اساتذة فرنسيين . وانشأ ايضاً في ابي زعبل مدرسة طبية ومستشفى
سنة ١٨٢٦ م (١٢٤٢ هـ) . وعهد في ادارتها الى الطبيب الفرنسي الدكتور كلوت بك .
وكان اساتذها فرنسيين والتلاميذ يجولون الفرنسية ، فاضطروا الى توسط الترجم بسين
المعلمين والمعلمين، فجاءوا بهم من لبنان والمغرب ومن الارمن . ٣ كان مديرها اسطفان
بك، ارمني الاصل، من طلاب البعثة الباريسية الكبرى . وكان انشاؤها لامرئ احدها حاجة
مصر الى اساتذة متوفرين على تدريس العلوم العالية، والثاني فقر اللغة العربية الى الكتب
العلمية الحديثة . فكان الطلاب المصريون يتعلمون الفرنسية فيها ثم ينتقلون الى العلوم
العالية . وبقيت هذه المدرسة حتى سنة ١٨٤٨ م (١٢٦٥ هـ) ثم اقفلت على اثر الثورة
الفرنسية .

من المدارس حتى انشأ في القطر نحو خمسين مدرسة بين ابتدائية وتجهيزية ، يعني معظمها بالفنون الحربية والطبية والصناعية ، اكثر مما يعني بالعلوم والاداب . ولم يحفل محمد علي باللغة العربية ليله الى التركية ، حتى انه حاول مدة ان يجعلها لغة التعليم والدواوين ، فلم يوفق بمحاولته لرسوخ العربية في مصر . وهو وان لم يكن له فضل يذكر على لغة العرب ، فان فضله في النهضة الفكرية عظيم ، ولولاه لما توثقت صلة مصر بالغرب ، فاستفادت من علومه وفنونه وحضارته . ولم يغفل عن الطباعة والصحافة ، فقد انشأ المطبعة الاهلية سنة ١٨٢١ م (١٢٣٧ هـ) وهي مطبعة بولاق . وعهد في ادارتها الى نقولا مسابكي الماروني ؛ وقد كان اتقن فن الطباعة في رومة . واصدر في سنة ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) جريدة الوقائع المصرية باللغة التركية . ثم بالتركية والعربية^١ . وكانت تنشر مراسيم الحكومة والحوادث التي ينبغي ان يطلع عليها الجمهور . وتداولها جماعة من الكتاب المعروفين كالشيخ حسن العطار ، ورفاعة بك الطهطاوي ، واحمد فارس الشدياق ، والشيخ محمد عبده وغيرهم .

وخرف محمد علي في آخر ايامه سنة ١٨٤٨ م . (١٢٦٥ هـ)^٢ فولي الحكم مكانه ابنه ابراهيم ، ولكنه لم يعيش بل مات في السنة نفسها . فخلفه عباس الاول ابن طوسون بن محمد علي ، وتوفي سنة ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ) فتولى بعده سعيد بن محمد علي ومات في سنة ١٨٦٢ م (١٢٧٩ هـ) . وفي عهد هذين الاميرين تقهقرت الاداب والعلوم في مصر لانهما لم يترسما خطوة السلف الصالح في تعزيزها . فغلقت المدارس ، وتعطلت المصانع ، وتقاست عوامل النهضة . وكادت مصر تفي الى سابق خمولها لو لم يتداركها اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ) فيدفعها الى الامام دفعة قوية ، فتجري في المضمار كالفرس الكريم لا يثنى او يحرز الغاية . وعهد اسماعيل هو عهد النهضة المحسوسة والاصلاح الملموس . فانه نشر العلم بعد ان لحد ، وفتح المدارس المختلفة ونظمها تنظيماً حسناً ، واستقدم لها مهرة الاساتذة

١ صارت الوقائع المصرية تصدر اخيراً بالعربية وحدها ، وقصرتها الحكومة على الشؤون الرسمية من قوانين ومراسيم . ولا تزال تصدر ثلاث مرات في الاسبوع . ٢ توفي محمد علي سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ) .

من الغرب ، وانشأ نظارة المعارف^١ لتعدها ومراقبتها . وجعل اللغة العربية اساساً للتعليم ، ورفع مستواها ، واعاد اليها رونقها الفائت . وجدد ارسال البعثات العلمية الى اوروبا . وكان يشهد امتحانات التلاميذ ، ويقف للناجحين ويقدم لهم الجوائز . وبسط كفه للادباء والمصنفين ، فحثهم على العمل والانتاج ، فألفوا وترجموا ونشروا الكتب القديمة . وعيم مصر في ايامه جمهرة من الادباء اللبنانيين فرأوا المجال رحباً لاقلامهم وذكائهم ، فشغلوا الدواوين ، واداروا الاحكام ، واثاروا تياراً ادبياً بما انشأوا من الجرائد والمجلات ، وبما نقلوا وصنفوا من المؤلفات . وكذلك الاجانب الغربيون هبطوا مصر وفتحوا المدارس الخاصة ، ومعظمها مدارس البعثات الدينية لمختلف مذاهب النصارى .

ويطول بنا القول اذا اردنا تعداد مآثر اسماعيل ، وما احدث من الاصلاح وال عمران . وما بنى من القصور والشوارع ، والقناطر . وما شق من الترع ، وما انشأ من المعامل والمصانع . وما اصلح من الزراعة ، وما نظم من المجالس في القضاء والنيابة . فالنهضة مدينة بكثير من الاعمال الاصلاحية لاسماعيل . ولكن افراطه في السخاء والانفاق ، اضطره الى الاكثار من الضرائب ليسي ما عليه من الديون للاجانب ؛ ومهد الطريق لتدخل دول اوروبا في شؤون الحكومة المصرية ومراقبة دخلها وخرجها حفاظاً على اموال رعاياها ؛ وافضى الى خلعه عن عرش الامارة سنة ١٨٧٩ م (١٢٩٧ هـ^٢) وتولية ابنه توفيق . وفي ولاية توفيق حدثت الثورة العراقية^٣ ، واحتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ م (١٣٠٠ هـ) .

١ النظارة في مصر بمضى الوزارة . مات اسماعيل سنة ١٨٩٥ م (١٣١٣ هـ) وهو اول من تلقب بالخدوي ، وصارت ولاية مصر بعده ارثاً في نسله من بكر الى بكر . وكانت قبلاً تنتقل في الاسرة العلوية الى من يختاره السلطان العثماني . ٢ الثورة العراقية منسوبة الى احمد غرابي ، كان جندياً صغيراً ثم اعتلى الى قيادة الجيش ثم الى نظارة الحربية . ورأى من الخديوي توفيق ايثاراً للترك ، فآلب عليه الجيش . وعارضهم النواب ، ورئيس النظار محمود سامي البارودي ، فاضطهدوا الاتراك والشراكسة ، واحتقروا الفرنجة ، وغلبوا ايدي المراقبين الماليين منهم ، واطرحوا سلطة الخديوي . ثم قرروا عزله واخراج اسرته من مصر وتولية محمود سامي مكانه . فاعلنت انكلترا وفرنسة حماية الخديوي والدفاع عنه ، فثار

العرب والاندلس

اطوار الاستشراق . اهل المستشرقين .

لم يقتصر عمل الغربيين في النهضة على نقل حضارتهم وعلومهم الى بلاد العرب ، بل كانت لهم ايدي مشكورة أسداها المستشرقون منهم الى العربية وآدابها .

والاستشراق قديم العهد مرّ باطوار مختلفة حتى صار الى ما هو عليه الآن ، فقد عني الغربيون بدراسة العربية منذ القرن العاشر للمسيح يوم كانوا في اشد الفقر الى العلم والادب ، ويوم كانت بلاد العرب تشع بانوار العلوم والآداب ، وقواعد الاندلس مناور العرب بمدارسها وجامعاتها . فكان الفرنجة يقدمون اليها من جهات مختلفة يدرسون العربية وعلومها ، فنشأ الطور الاول من الاستشراق وهو طور استفادة الاوربيين من العرب واشهرهم في هذا العهد البابا سلفستروس الثاني ^١ .

وازدادت مهاجرة الاوربيين الى الاندلس في القرن الثاني عشر ، وتضاعف اقبالهم على دراسة العربية ، والنقل منها الى لغاتهم . واشتهر فيهم يومئذ جيرار الكريغوني ^٢ فانه نقل الى اللاتينية نحو ستين كتاباً جليلاً للفارابي والرازي وابن سينا وغيرهم .

واقدم الملوك المستشرقين فريديريك الثاني قيصر المانيا ^٣ والنفس العاشر ^٤ ملك

عراي بالبحر ، فتقدم الاسطول الانكليزي الى الاسكندرية ، وقذفها بالمدافع فهدم اكثر حصونها ، ثم احتلها واحتل سائر مصر . ونفي عراي والبارودي وغيرها من الوطنيين الى جزيرة سرنيد (سيلان) وصودروا على املاكهم . ولم يُعف عنهم الا سنة ١٩٠١ م (١٣١٩ هـ) .

١ مدة بابويته من سنة ٩٩٩-١٠٠٣ م (٣٩٠-٣٩٦ هـ) . ٢ جيرار الكريغوني منسوب الى كريغونية بلدة من ايطالية ، تعلم في طليطلة ، واتقن العربية وادبها . ولد سنة ١١١٦ م وتوفي سنة ١١٨٧ م (٥٠٨-٥٨٣ هـ) . ٣ فريديريك الثاني نودي به قيصر على المانيا سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ هـ) وقاد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٩ م (٦٢٧ هـ) وتوفي سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) . ٤ النفيس العاشر الملقب بالحكيم امتاز بالشعر والعلوم ولاسيا علم الفلك ،

لاون وقشتالة فقد كان لها فضل عظيم في نشر علوم العربية وآدابها في اوربة .
 واصطبغ الاستشراق بعد الحروب الصليبية صبغة دينية ظاهرة ، لاهتمام رومة
 باخراج الدعاة الى الشرق . فكان الاحبار الاعظمون يحضون الكليات والمدارس على
 دراسة العربية ، فالبابا اونوريوس الرابع^١ تقدم بفتح مدرسة للغة العربية في باريس .
 والبابا يوحنا الثاني والعشرون^٢ امر قاصده بباريس ان يراقب الدروس العربية في
 كليتها . والبابا يوليوس الثاني^٣ كان اول من طبع كتاباً عربياً . وفي النصف الثاني من
 القرن السادس عشر اجاز الحبر الاعظم للرهبانية اليسوعية انشاء مدرسة ومطبعة في
 رومة للعربية والعبرانية . ثم انشئت المدرسة المارونية ، فاغنى تلاميذها الساعنة
 مكتبة الفاتيكان بالمصنفات العربية .

وترسم ملوك فرنسا احبار رومة في العناية بتدريس العربية ، فان فرنسيس الاول
 استقدم اغوستينوس جوستينياني اسقف نابو من اعمال كورسكة ، وعهد اليه في
 تعليم العربية والعبرانية في رمس سنة ١٥١٩ ، وحدث فيها المطابع العربية . ثم عم
 الاستشراق سائر اوربة ، واكب الغربيون على العربية ليجنون من ثمارها الياضة ، فكان
 لهم منها نعم الزاد في ابان نهضتهم .

وما اكتمل القرن السابع عشر حتى خرج الاستشراق من طور الاستفادة الى
 طور العلم بالشيء ، ولكنه لم يخلص من العاطفة الدينية وانما اضاف اليها المآرب
 السياسية . واقدام مستشرق في هذا العهد : ادورد بوكوك^٤ (Pocock) الانكليزي ،

قيل انه اتى باشهر علماء عصره من مسلمين ونصارى ويهود ، واتزلهم في قصر جميل بطليلة
 فاقلموا اربع سنوات يبحثون في المسائل الفلكية . ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٣ / ٦٢٤ هـ) .
 ومملك سنة ١٢٥٢ م (٦٥٠ هـ) وتوفي سنة ١٢٨٤ م (٦٨٣ هـ) .

١ مدة بابويته من سنة ١٢٨٥ - ١٢٨٧ م (٦٨٤ - ٦٨٦ هـ) . ٢ مدة بابويته
 من سنة ١٣١٦ - ١٣٣٤ م (٧١٦ - ٧٣٥ هـ) . ٣ مدة بابويته من سنة ١٥٠٣ - ١٥١٣ م
 (٩٠٩ - ٩١٩ هـ) . ٤ رحل الى الشرق وسكن حلب ثم علم في اكسفورد . من آثاره
 نشر مختصر الدول لابن العبري . ولد سنة ١٦٠٤ م (١٠١٣ هـ) وتوفي سنة ١٦٩١ م
 (١١٠٣ هـ) .

ثم دربلو^١ (d'Herbelot) الفرنسي . ثم جان جاك ريسكي^٢ (Reiske) الالماني .
 ونهض الاستشراق في القرن التاسع عشر نهضة عظيمة ، وتكاثر المستشرقون ،
 وانشئت في قواعد اوربة المدارس ، والجمعيات ، والمجلات الآسيوية تعنى جميعها بعلوم
 الشرق ، وتدعم سياسة الاستعمار والتوسع التجاري . وكان الفرنسيون اسبق الناس
 اليها فانهم انشأوا في باريس مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٧٩٥ م (١٢١٠ هـ) .
 واليها يرجع الفضل في اخراج طائفة جليلة من علماء المشرقيات على اختلاف اجناسهم .
 وعلى مثالها انشأت الدول الاوربية المدارس الشرقية في حواضرها . وانشأ الفرنسيون
 الجمعية الآسيوية سنة ١٨٢١ م (١٢٣٧ هـ) . واصدروا سنة ١٨٢٢ م (١٢٣٨ هـ)
 مجلة لها تنشر اعمالها . واقتفى الانكليز اثرهم ، فنظموا الجمعية الآسيوية الملكية
 سنة ١٨٢٣ م (١٢٣٩ هـ) . ثم انشأوا مجلة باسمها . وكذلك صنع الالمانيون سنة
 ١٨٤٤ م (١٢٦٠ هـ) .

وفضل المستشرقين في النهضة قائم على ما يطبعون وينشرون من المخطوطات
 القديمة ، وما يصححون منها بمقابلة نسخ الاصول بعضها ببعض ، وما يضعون لها من
 الفهارس الشاملة ، والحواشي والمقدمات المفيدة . وهم في التحقيقات التاريخية ، سادة
 الحلبة لا يضطلع بهذا العبء احد مثلهم . ولطالما كابدوا الاسفار الشاقة والنفقات
 الباهظة ليظفروا بنسخ مخطوطة نادرة ، او يقفوا على نقوش وحفريات قديمة . ولا حافز
 لهم الا الشغف الخالص بالتحقيق العلمي .

ومن محامدهم عقد المؤتمرات الشرقية في مدائن اوربة ، يأتون اليها على شحط
 الديار ، واختلاف الامصار ، وربما دعوا اليها علماء العرب . واقدم هذه المؤتمرات
 عقد في باريس سنة ١٨٧٢ م (١٢٨٩ هـ) ثم تعاقبت المؤتمرات بعده في شتى
 الحواضر والعواصم .

١ عاش في اواخر القرن السابع عشر ، وله في اللغة العربية معجم في تاريخ الشرق وآدابه
 اشبه شيء بدائرة المعارف . ٢ نشر طائفة جليلة من كتب العرب ، ونقلها الى اللاتينية ،
 وحشأها ، كمقامات الحريري ، وتاريخ ابي الفداء ، ومعلقة طرفة . ولد سنة ١٧١٦ م (١١٢٩ هـ)
 وتوفي سنة ١٧٧٢ م (١١٨٨ هـ) .

وللمستشرقين ابحاث ادبية في الشعر والشعراء، والكتابة والكتاب، ولكنها
غير دقيقة في الجملة، لعجمتهم، وضعف الروح العربي فيهم، وقلة خبرتهم بمذاهب
الكلام عند العرب . وليس لهم براعة في الانشاء ولا انقاد لهم سحر البيان فيكون
لما كتبوه في العربية منزلة ادبية مذكورة . غير انهم اعتمدوا في الاغلب على لغاتهم،
فافادوا من حيث تأت لهم الافادة .

ميزة العصر

الاحوال السياسية . الفتن في لبنان . عهد المتصرفين .
مهاجرة اللبنانيين . عهد الانتداب الفرنسي . حالة مصر
والبلاد العربية . امتزاج الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية .
المدارس . الطباعة . الصحافة . الجمعيات العلمية .
الاحزاب السياسية . النقابات . المكاتب . النهضة
النسائية . النهضة القومية . تفشي الخلاعة .

يصطبغ هذا العصر بالوان شتى من الحوادث والسياسيات والاخلاق والعادات،
كما يصطبغ بالوان شتى من العلوم والفنون والحضارة وال عمران . فقد مرت احوال كانت
فيها البلاد تضطرب بين الفتن والمذابح والثورات والحروب . ومرت احوال كانت
فيها البلاد راتعة في رغد من العيش ، وراحة وطمأنينة وامن . فعهد الامير بشير كان
غاصاً بالقلاقل والفتن والحروب . ثم جاء بعد الشهابيين عهد غاص فيه لبنان بالدم
المراق في المجازر الطائفية ، يؤرث ناراها عمال الاثراك لاضعاف الشعب العربي وتفريقه
وتستغلها الدول الاوربية فتنفرد كل دولة منها بطائفة تبني عليها نفوذها وسياستها .

ثم كان عهد المتصرفين فخطت به القلاقل ، وسادت الطمأنينة لبنان ان
تكافلت على حمايته وتعهد طوائفه دول سبع . ولكن ضيق العيش في بقعته الجمودية
حمل ابناؤه على الارتحال عنه ، فأنحدر منهم فريق الى بيروت ، وهاجر فريق الى مصر ،
وأخر الى اوربة . ثم ولّت جماعتهم وجهها اميركة ، فاحدثوا في كل بلد حلوه حركة
علمية ادبية ، بدت آثارها في صحفهم ومدارسهم وجمعياتهم ومصنفاتهم .

ثم كان الانتداب الفرنسي ، واصبحت بيروت عاصمة لبنان ، فهبطها اللبنانيون
قضهم وقضيضهم ، واستأثرت على الاخص بجاعة المثقفين منهم ، فجعلوها عكاز القرن
العشرين ، ولم يخل لبنان في عهد الانتداب من فتن وقلاقل ، وضيق اقتصادي .

ولم يكن حظ سورية في زمن العثمانيين احسن من حظ لبنان ، فقد لقيت شيئاً

عسيراً من استبداد الولاة، واضطهادهم للاحرار، ولم يرفه عنها عهد الانتداب، وما استقامت لها سياسة فيه، ولا سلمت من الثورات والفتن.

وكذلك مصر لم يهدأ لها هادئ فن حرب المايك والفرنسيين، الى حروب محمد علي وابنه ابراهيم، الى الثورة العربية، الى الاحتلال الانكليزي، وما حدث في ظله من فتن حتى نالت مصر دستورها سنة ١٩٢٢ م (١٣٤١ هـ).

والبلاد العربية على الاجمال تداولتها الاحداث والغير، فكانت تضطرب بين الشدة واللين، والضيق والرخاء. ومع هذا، فالنهضة كانت تسير سيراً حثيثاً في طريق اليكالم، ولا سيما بعد منتصف القرن التاسع عشر حيث توافرت لها الاسباب والعوامل، فن امتزاج قوي بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، الى مدارس راقية وطنية

١ المدارس الوطنية قديمة في لبنان انشأها الرهبان اللبنانيون وكثرت منذ القرن الثامن عشر، ولكنها لم تكن منظمة، اشهرها يومئذ عين ورقفة، وكانت ديراً فاحيلت مدرسة سنة ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ)، ولم تنظم شوؤونها وينهض تعليمها الا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر. وفتحت في القرن التاسع عشر مدارس جديدة كدار عبد الله هرياً انشأها الرهبان الموارنة بين كسروان والفتوح سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦ هـ) واليكسند انشأها الارشمندريت اثناسيوس قصير قرب طرابلس لاحداث الطائفة الارثوذكسية. واول مدرسة بيته الرقي المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني، انشأها في بيروت سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ). ثم المدرسة البطريركية للروم الملكيين، ومدرسة (ثلاثة الاقمار للروم الارثوذكس سنة ١٨٦٥) (١٢٨٢ هـ). ثم المدرسة الوطنية الاسرائيلية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ). فمدرسة الحكمة المارونية سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ). وتعددت المدارس الوطنية في القرن العشرين ومنها مدارس الاناث. ونظمت الحكومة اللبنانية معارفها بعد الحرب (عامه، وفتحت المدارس في المدن والقرى ومنها دار المعلمين، ودار المعلمات في بيروت. ولم تقتصر المدارس على لبنان وحده بل كان لسورية منها حظ حسن، وتاج مدارسها الجامعة السورية في دمشق انشئت سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ). وفيها المجمع العلمي العربي، وكليات الطب والحقوق والاداب. وكذلك مدارس العراق اخذت تنهض منذ عهد الملك فيصل. اما مصر فقد اتينا على ذكر مدارسها الوطنية في زمن محمد علي وحفيده اسماعيل، وارقى المدارس التي انشأها اسماعيل دار العلوم، وفيها كان للعربية شأن كبير. وفي سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) انشئت الجامعة المصرية وهي من ارقى الجامعات، وللاداب العربية فيها منزلة سامية. وكانت مدرسة الطب في مصر تعتمد على اللغة (العربية)، فجعل التعليم فيها بالانكليزية منذ سنة ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ). وللأزهر يد على النهضة فان طلابه هم الذين كانوا يرسلون في البعثات العلمية الى اوروبا.

واجنبية^١ . الى طباعة^٢ انتشرت وعتت وتقدم فنها ، ولا تزال تطرد السير بنجاح ،

١ المدارس الاجنبية ظهر رقيها بلبنان في مدرسة عينطورة سنة ١٨٣٦ م (١٢٥٠ هـ) عندما انتقلت من يد الآباء اليسوعيين الى يد الآباء المازاريين ، وصارت تعلم الاداب العربية . ثم بدأت تظهر في بيروت والجبل مدارس المرسلين الاميركيين ، وتزاحمها في الوقت نفسه مدارس الرهبان اليسوعيين ، وتم عملهم العظيم بانشاء كليتين راقيتين هما مفخرة بيروت في العالم المتعدن ، وتسميان اليوم جامعتين . فالكلية الاميركية انشئت سنة ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ) وبدأت تمنح تلاميذها الاجازات العلمية سنة ١٨٧٠ م (١٢٨٧ هـ) . ثم صارت في طريق الكمال ، وانقسمت الى فروع منها العلمي والطبي والادبي والتجاري والاستعدادي ، وفيها المرصد الفلكي . وانشئت الكلية اليسوعية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ) وفروعها الهندسة والطب والحقوق والفلسفة وعلم الكلام ، والاداب الشرقية . وفي اواخر القرن التاسع عشر انتشرت المدارس الاجنبية في بيروت ولبنان للصبيان والبنات ولاسيما مدارس اخوة المدارس المسيحية ، واخوة مريم ، والراهبات . وكذلك كان انتشارها في سورية ، واقدمها مدرسة الراهبانية (فرنسيسية التي جاءت حلب في اواخر القرن السادس عشر ، ولم تلبث ان فتحت مدرسة بلغت من الرقي ان صارت تعلم عدة لغات بينها العربية ، وطرفاً صالحاً من العلوم والفنون وانتشرت في مصر المدارس الاجنبية من عهد اسماعيل ، واكثرها للفرنسيين ثم للانكليز . ٢ اقدم مطبعة ظهرت في لبنان مطبعة قزحياً انشأها الرهبان الموارنة سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) وكانت سريانية عربية . ثم مطبعة مار يوحنا الصباغ في الشوير للروم الملكيين انشئت سنة ١٧٣٢ م (١١٤٥ هـ) . ثم مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس انشئت في بيروت سنة ١٧٥٣ م (١١٦٧ هـ) . وهذه المطابع كانت مطبوعاتها قليلة واكثرها دينية حتى كانت سنة ١٨٣٦ م (١٢٥٠ هـ) . فنهضت المطابع العربية في بيروت بظهور المطبعة الاميركية ثم المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨ م (١٢٦٥ هـ) والمطبعة اللبنانية انشأها داود باشا متصرف لبنان سنة ١٨٦٣ م (١٢٨٠ هـ) وكانت بسدير القمر . ومطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ م (١٢٨٤ هـ) للمعلم بطرس البستاني و خليل سر كيس . والمطبعة الادبية سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ) ل خليل سر كيس . واقدم مطبعة عربية في الشرق انشئت بحلب سنة ١٦٩٨ م (١١١٠ هـ) . انشأها البطريرك أنثاسيوس الرابع ، وهو بطريرك من اسرة الدبّاس تقلب مراراً بين الارثوذكسية والكاثوليكية الملكية (راجع المشرق ٣ [١٩٠٠] ص ٣٥٧ ، حاشية ٣) . وقد اتينا على تاريخ (الطباعة في مصر) وكان انتشارها منذ عهد اسماعيل بانتشار الصحف . واول مطبعة اهلية المطبعة (القبطية) انشأها الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الاقباط سنة ١٨٦٠ م (١٢٧٧ هـ) . ثم مطبعة وادي النيل سنة ١٨٦٦ م (١٢٨٣ هـ) . وزاد انتشار المطابع في القرن العشرين ولاسيما بعد الحرب الكبرى ، فكان منه فيض في بيروت والقاهرة . ثم انتشر في سورية والعراق وفلسطين .

وخصوصاً في القاهرة وبيروت . الى صحافة نمت نمواً سريعاً بفضل المتوفرين على انشائها . الى جمعيات علمية وخيرية^١ واحزاب سياسية، ونقابات . الى مكاتب في حواضر الشرق والغرب حافلة بطوائف الكتب والمخطوطات العربية . الى نهضة نسائية محمودة اخرجت فتيات حسنت ثقافتهن ، فكان منهن صحافيات ومؤلفات ومعلمات ومحاميات وقوابل وطبيبات . وكان مسيحيو لبنان وسورية، ولا سيما الموارنة، اسبق الناس الى اضاءة مشعل النهضة، لرقى مدارسهم وتقدم عهدها، ثم لسهولة امتزاجهم بالغربيين . فساروا بها شوطاً بعيداً منفردين، حتى تنبه المسلمون في اواخر القرن التاسع عشر . وكان المصريون اسرعهم الى اطراح الغفلة لفترة دواعي النهضة عندهم، وخصوصاً في زمن اسماعيل . ونشط بعدهم مسلمو بيروت ودمشق وحلب فأنشأوا المدارس^٢، واقبلوا بالولادهم الى معاهد النصارى، يشقونهم ثقافة حديثة راقية . وصدفوا عن المدارس الاميرية^٣ وقد رأوا انها لا تنشى الا رجالاً مستتركين في بيانهم ، رجال سيف وادارة لا رجال علم وثقافة .

١ اول جمعية علمية في بيروت سمي لانشائها المرسلون الاميركيون ، فظهرت سنة ١٨٤٧ م (١٢٦٤ هـ) . وغايتها نشر العلوم وتنشيط (الفنون، اعضاؤها منهم وطنيون كالمعلم بطرس البستاني، والشيخ ناصيف اليازجي، ومنهم اميركيون كالدكتور عالي سحيث، والدكتور فاندليك . واول مجمع علمي في مصر انشأه نابوليون بوناپرت سنة ١٧٩٨ م (١٢١٣ هـ) . وسبقت حكومة دمشق الى انشاء المجمع العلمي العربي سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ) . وتلتها حكومة لبنان فأنشأت المجمع العلمي اللبناني سنة ١٩٢٨ م (١٣٤٧ هـ) . وكان عمره قصيراً . واما حكومة مصر فلم تنشئ مجمعها اللغوي الا سنة ١٩٣٤ م (١٣٥٣ هـ) .

٢ نشأت جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت سنة ١٨٨٠ م (١٢٩٨ هـ) . وفتحت المدارس للصبيان والبنات، ونهضت بها نخضة حسنة في الثلث الاول من (القرن العشرين . وانشأ الشيخ احمد عباس الازهري المدرسة العثمانية سنة ١٨٩٥ م (١٣١٣ هـ) . وعرفت بعد الحرب الكونية بالكلية الاسلامية . وانشئت في دمشق جمعية المقاصد الخيرية سنة ١٨٧٨ م (١٢٩٥ / ١٢٩٦ هـ) . وسعت في تأسيس المدارس . وكذلك فتحت المدارس في حلب وسواها من المدن السورية . ٣ فتحت الحكومة العثمانية المكتب الاعداوي للمسلمين في بيروت سنة ١٨٩١ م (١٣٠٩ هـ) . ثم انشأت المدرسة الرشيدية العسكرية . واول مدرسة اميرية في حلب ، المنصورية انشئت سنة ١٨٦١ م (١٢٧٨ هـ) . وفتح مدحة باشا في دمشق سنة ١٨٧٨ م (١٢٩٥ هـ) . ثلثي مدارس ابتدائية للذكور والاناث، ودار صنائع .

ومن آثار النهضة في الامم العربية تزوعهم القوي الى الاستقلال ، وطلب المجد
المفقود، ونقمتهم على الظلم والاستعباد فكانت لهم من اجل ذلك ثورات بالسيوف
دامية، وثورات بالاقلام حامية . فلقوا من الضغط والتنكيل شيئاً كثيراً، فنفروا
ينشدون الحرية في اوربة واميركة . ونشروا صحفهم للدفاع عن حقوقهم، ودفع الظلم
والظالمين، فالفوا بالاغتراب انطلاقةً من القيود الثقيلة التي كبلت بها حرية التفكير .
وكانت مصر بعد الاحتلال الانكليزي ارحب سماء للانعقاد الفكري ، فقصد اليها
جماعات الكتاب والادباء من لبنانيين وسوريين وعراقيين، فوجدوا فيها مجالاً واسعاً
لآرائهم وانتقاداتهم . فحملوا على اسواء الحكم الحميدي^١ ونادوا باصلاحه، وشدوا
باسم الدستور حتى أعطوه سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) . فنعشت حرية القول والعمل
مدة، ثم خاصمها الاتحاديون، واجهز عليها جمال السفاح في الحرب العامة، فلم ينبض
لها عرق الا بعد ان تقلص ظل الترك عن البلاد العربية، وخيم ظل الانتداب الاوربي .
وهي عند الفرجة على علائهم، اقرب منالاً منها عند بني عثمان .

على انه، وان تكن الحرية السياسية لم تعط بعد الحرب الا بمقدار، لقد اعطيت
الحرية الخلقية جزافاً، فشاعت الخلاعة، واصبح الجهار بها ضرباً من المدنية الحديثة .
وساعدها على الانتشار دور السينما، والصحف والقصص المجونية المباحة .

فهذا العصر ، كما تبين ، من اعظم العصور في قلائله وحروبه وانقلاباته . في
حضارته وعلومه وفنونه . هو عصر الاستبداد المطلق، والحرية العرجاء ، عصر يصطبغ
بلونين مختلفين : تركي خشن ، واوربي ناعم ، على ما في هذين اللونين من مساوى
وحاسن .

١ الحكم الحميدي : نسبة الى السلطان عبد الحميد الثاني استخلف سنة ١٨٧٦ م
(١٢٩٣ هـ) وخلع سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ) وتوفي سنة ١٩١٨ م (١٣٢٧ هـ) .

الشعراء المحدثون

عصر الانبعاث

مبزة الشعر

ضعفه واسفاه اول النهضة . ارتفاع لغته مع التقليد .
الشعر المطبوع والشعر المصنوع . الشيخ ناصيف اليازجي .
محمود سامي البارودي . التجديد . مواطنه . الشعراء
المخضرمون . جديدهم وقديهم . خليل مطران .
شوقي . المجددون بعد الحرب الكبرى . الخلاف بينهم
وبين المحافظين . محاسنهم ومساوئهم .

بدأ الشعر يتطور بتطور حضارة العصر ، ويتقدم بتقدم العلوم والفنون .
وكان في صدر القرن التاسع عشر ضعيف اللغة ، بين الاسفاف ، لا يختلف بميزته
عن شعر عهد الانحطاط لاتصاله به . ثم لان بواعث النهضة لم تكن توافرت
بعد ، ولا ظهرت لها نتائج . وأشعر الناس في هذه الحقبة نقولا الترك^١ وبطرس

١ ولد نقولا الترك في دير القمر سنة ١٧٦٣ م (١١٧٧ هـ) من اسرة تعرف بالترك .
واتصل بالامير بشير الشهابي الكبير ، وتوفي سنة ١٨٢٨ م (١٢٤٤ هـ) وله ديوان غير
مطبوع . ومن شعره قوله من موشح يصف به طرابلس واهلها :

بأي عهد التهامي والصفاء ، زمن مر بطرأ بلس
يا ههنا عيش رغيد سلفا ، لي بذاك المعلم المؤتئس (كذا)

حبذا الفجاء أهنا كل ناد ، والحمى العمور ، والركن الحصين !
كتب السعد عليها يا عباد : أدخلوها بسلام آمنين

كرامة^١ في لبنان ، والسيد علي الدرويش^٢ في مصر .

وما انتصف القرن الفائت حتى اخذت بروق النهضة تلتفع ، فارتفعت لغة الشعر ، وانجلت ديباجته ، واستحكم نظمه وتوثق بنيانه . إلا انه لم يكن ذا حظ من الابتكار والتجديد ، لان اصحابه تلمذوا للشعراء المتقدمين ، وتشفقوا بلغتهم واساليبهم واغراضهم ، فرأوا الخير في محاكاتهم ، والتشبه بهم ، فاحتذوا على مثالهم في الاستهلال

بلدة طيبة ، خير البلاد ، والمقام المُستَهْي للناظرين
اهلها قومٌ لطاف ظرفاً ، نعم أجدُّ كرام ، الأنفس (كذا)
ما هم عيب سوى حسن الوفا ، والخُلوص المنتهي عن دنس

١ ولد بطرس كرامة في حمص سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ) وجاء لبنان واتصل بالامير بشير . وكانت وفاته سنة ١٨٥١ م (١٢٦٨ هـ) وله شعر كثير طبع بعضه في ديوان كبير . ومنه قوله يصف ينبوع الصفا وتجربة مائه الى بيت الدين في عهد الامير بشير :
صاح قد وافى الصفا يروي الظما ، شراب كوثري العس (كذا)
وأفاض الشهد في روض الحمى ، لجلا الغم ، وبرء الأنفس

حبذا الفوار منه حين راق ، فأرانا ماؤه ذوب الشجين
تزه القلب عن الهم ، وراق ، بسنا صافي صفاه ، كل عين
نثر الدُر بفيض وانفاق ، وسقى الوارد أهنا الاطيين
قد جرى عذبا ، فأغنى السدما ، بزلال ، عن رحيق الأكوس
وعلى الاغصان أبقى النعمما ، فزكت مثل ندأى العرس

٢ نساء السيد علي الدرويش في القاهرة ، واتصل بالامير عباس الاول صاحب مصر . وتوفي سنة ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ) وله ديوان جمعه احد تلاميذه ، وسماه الاشعار بجميد الاشعار ، مطبوع على الحجر . ومن شعره قوله يصف قصرًا :

وقصر كالسماء به نجوم ، مطالعها السعادة ، والبُذور
على أقطاره تيكى عيون ، إذا أبتمت لوارده زهور (كذا)
فليس لوافد وافته ، خر ، وقد نفدت للاحته البحور
وحسبك روضه في كل مجد ، وفضل بالبنان له يسير
تقاصر عن سناه ذو ثناء ، وحسن القصر ما فيه قصور

بالغزل ثم التخلّص الى المدح . ووصفوا مثلهم الطلول والابل، وذكروا اما كن
الاعراب في البادية . وشاركوهم في استعاراتهم وتشايبهم، وعارضوهم في منظوماتهم
متوكتلين على معانيهم والفاظهم . فجاء شعرهم مصطبغاً بالوان العصور الخالية ، ليس
له من صبغة عصره الا لون ناصل .

وفي الادب القديم صورتان متبايتان : صورة الشعر المطبوع ، وصورة الشعر
المصنوع . فاضطرب الشعراء بين هاتين الصورتين، وتعلقوا باهدهما من الناحيتين .
فتارة يرسلون الشعر على سجيته، وتارة يوشون لفظه ويزينون . غير انهم كانوا اميل
الى الصناعة^١ منهم الى الطبع لسهولة الأخذ بها على من فاته التوليد والابتكار ،
ثم لقرب عهدهم باصحابها في عصر الانحطاط ، وقد كان لهم الحريزي يومئذ منارة
وهدي ، واستاذاً اكبر . وزعيم هذه الطبقة من شعراء النهضة الشيخ ناصيف
اليازجي^٢، وشعره خير مثال لانبعث اللغة، وللتقليد الحائر بين المطبوع والمصنوع .
على ان هذا الشعر الحائر لم يلبث ان هدهد الطريق السويّ شاعر فارس نبغ في
الربع الاخير من القرن الماضي، الا وهو محمود سامي البارودي^٣ . فانه رغب عن الصناعة

١ من جملة صناعتهم التأريخ (الشعري)، فقد كان له حظ كبير عندهم .

٢ الشيخ ناصيف اليازجي ولد في كفرشما من قرى لبنان سنة ١٨٠٠ م (١٢١٥ هـ) .
وانصل بالامير بشير الشهابي وكتب له، ولزمه حتى نفى الامير سنة ١٨٤٠ م (١٢٥٦ هـ) .
فانحدر ناصيف الى بيروت، وفيها ظهرت مصنفاته العديدة، في الشعر واللغة، فكانت هداية
للطلاب في مدارس النصارى . وكانت وفاته سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) ومن شعره قوله
في مدح اسعد باشا القائد العثماني :

بناءً العلى بين القنا والبوارق ، على صهوات الخيل تحت البيارق
وقد سرّ في العباد وإغنا قليل محل السرّ بين الخلائق
يقلب هذا الدهر أحوالنا ، كما تقلّب فينا لاحقاً إثر سابق

ومنها :

أقام السرايا يُنفّرُ الموجُ خيلها ، بكلّ لواءٍ فوق لبنان ، خافق
بجارتُ على وجه البحارِ زواجرُ ، جبالٌ على متن الجبالِ السواجرُ

٣ هو محمود سامي باشا البارودي ولد في القاهرة سنة ١٨٣٩ م (١٢٥٥ هـ) .
وكان قائداً في الحملة المصرية التي حاربت مع الدولة العثمانية في ثورة البلقان واقرطش فأبلى

اللفظية فجرى شعره مع الطبع؛ غير ان حظه من الابتكار لم يكن احسن من حظ اصحابه . فقد ترسم في اغراضه ومعانيه، وفجولة لفظه، ابا فارس، والمتني، والشريف الرضي، والطُّرَّائي، فجاء صورة عنهم، بيد انها صورة بئنة الشخصية، وان تكن مستعارة، واضحة التقليد .

فشعراء القرن الماضي كانوا على الاجمال محافظين كل الحفاظ على القديم، لا يعينهم اختراع او تجديد، وانما همهم في تحدي اسلافهم، والاستمداد من آثارهم . الا الذين عرفوا الثقافة الاجنبية، وتادبوا بأدب الغرب فقد كان لهم بعض الحظ من الجديد؛ وهم قلة لا يكاد يذكر منهم الا نجيب الحداد .

احسن البلاء . وما زال يتقلب في المناصب الرفيعة حتى ولي نظارة الجهاد، ثم رئاسة مجلس النظار . وقبض عليه بعد الثورة العراقية في جملة زعماء الثوار ونفي معهم الى جزيرة سر نديب « سيلان » وفيها نظم روائع شعره . ولبت في المنفى سبع عشرة سنة حتى عفي عنه، وكان قد كف بصره فعاد الى مصر واقام بها ومات سنة ١٩٠٦ م (١٣٢٢ هـ) . وله ديوان شعر في جزئين طبع بمصر . ومن شعره في منفاه قوله :

ولمَّا وَقَفْنَا لِلدَّوَاعِ وَأُسْبِلْتُ مدامعنا ، فوقَ السَّرائِبِ ، كَأَمْزِنِ
أَهْبْتُ بِصَبْرِي أَنْ يَعُودَ ، فَبَزَّتْنِي ، وَنَادَيْتُ حِلْمِي أَنْ يَثُوبَ ، فَلَمْ يُعِنِ
وَمَا هِيَ إِلَّا خَطَرَةٌ ثُمَّ أَثْلَمَتْ ، بِنَاعِنِ شَطُوطِ الْحَيِّ ، أَجْنَحَةُ السَّفَنِ
فَكَمْ مُهْجَةٌ مِنْ زَفَرَةٍ الْوَجْدِ فِي لَطْفِي ، وَبِكَمْ مَقْلَةٌ مِنْ غَزَرَةٍ الدَّمْعِ فِي دَجْنِ
وَمَا كُنْتُ جَرَّبْتُ النُّوَى قَبْلَ هَذِهِ ، فَلَمَّا دَهَتْنِي ، كَدْتُ أَقْضِي مِنَ الْحُزْنِ
وَلَكِنِّي رَاجَعْتُ حِلْمِي ، وَرَدَّتْنِي إِلَى الْحُزْمِ رَأْيِي لَا يَجُومُ عَلَى أَفْنِ
وَلَوْلَا بُنْيَاتٌ ، وَشَيْبٌ عَوَاطِلٌ ، لَمَّا قَرَعْتُ نَفْسِي ، عَلَى فَاثِتٍ ، سَنِي

١ نجيب الحداد هو سبط الشيخ ناصيف اليازجي ، ولد في بيروت سنة ١٨٦٧ م (١٢٨٤ هـ) . وقدم مصر وهو في حدود العشرين، واشتغل بالصحافة والقصص التمثيلية . وكان شاعراً مجيداً وله في الشعر اغراض جديدة كوصف القمار ووصف حريق سوق الشفقة في باريس وغير ذلك . توفي مصدوراً في مصر سنة ١٨٩٩ م (١٣١٧ هـ) قال في القمار:

قَدْ اخْتَصَرُوا التَّجَارَةَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَعُدُّمْ فِي الدَّقِيقَةِ اَوْ يَسَارُ
كَأَنَّ وَجُوهُهُمْ ، نَدْمًا وَحُزْنًا ، كَسَاهَا لَوْنُ صُفْرَتِهِ النُّضَارُ
فَبَيْنَا تَبْصُرُ الْوَجَنَاتِ وَرَدًّا ، إِذَا هِيَ فِي خَسَارَتِهِمْ جَهَارُ

وكان الجديد أوضح في شعر الذين تخضرموا وادركوا حضارة القرن العشرين،
واتصلوا بآداب الغربيين ولاسيما اللبنانيون فانهم على الغالب اقرب من غيرهم الى
التجديد والتغريب . وتختلف درجات التجديد في قطر واحد ، او في قطر وآخر،
باختلاف الثقافة والبيئة . فالمهاجرون من لبنان الى اميركة اسبق الى الجديد من
المتخلفين . والمجددون من النصارى اعرق من المجددين المسلمين . وشعراء العواصم
التي تعددت فيها المدارس الاجنبية ، وشملت الحضارة الغربية، ابعد عن القديم من
شعراء المدن المستمسكة بتقاليدها وعلومها الماثورة . ومن هنا كان الجديد اوضح
في لبنان ثم في مصر فسائر الاقطار العربية .

هذا وان الشعراء المخضرمين، على الاطلاق، ما تأتى لهم ان يتخلصوا من قديمهم
وان اشتدت رغبة بعضهم في محاكاة الغربيين . فخليل مطران^١ شيخ المجددين في

عصائب لا يودُّ المرءُ فيها ،
يلاحظُ بعضهم بعضاً بعين ،
فكم غضبوا على الأيام ظلماً ،
وكم تركوا النساء تبيت تشكو ،
تبيت على الطوى ترجو وتحشى ،
فبيست عيشة الزوجات حزن ،
وبدست خلة الفتيان : هم ،
أخاه ، ولا يراعي الجار جار ،
يكاد يضي أسودها الشرار ،
وكم حنقوا على الدنيا وثاروا ،
ونسعدوها الأصبغية الصغار ،
يورقها السهاد ، والانتظار ،
وتسهد ، وهجر ، وأفتقار ،
وأنعاب ، وبخسران ، وعار ،

١ شاعر لبناني لا يزال حياً الى زماننا ، هبط مصر في اواخر القرن الماضي واقام بها ،
ويعد في مقدمة شعراء الطبقة الاولى ، وزعيم المجددين ، الا انه افسد شعره بما ادخل عليه من
اغراض مبتذلة كان يتكلف نظمها ارضاء للناس . طبع الجزء الاول من ديوانه سنة ١٩٠٦ م
(١٣٢٦ هـ) . ومن روائعه الليرونية ، والاسد الباكي ، والتمثال ، والمساء . قال يصف
غروب الشمس في قصيدة المساء :

والشمسُ في شفقٍ يسيلُ نصاره ،
مرت خلال غامتين تحدرًا ،
فكأن آخر دمة للكون قد
وكأني آنست يومي زائلاً ،
فوق العقيق ، على ذرى سوداء
وتقطرت كالدِّمعة الحمراء
مزجت بآخر أدعبي لبرثائي
فرايت في المראה كيف مسائي

عصرنا ؛ ران القديم على ناحية جليلة من شعره ، ولم ينظمه كلفاً به ، وانما مراعاة
 للمحافظين ، او توددأ الى الناس في افراحهم واحزانهم . وكذلك احمد شوقي على
 سمو قدره في دولة الشعر ، كان الجديد عنده اقل حظاً من القديم . والمحافظون الذين
 ينكرون هذا الجديد لا يزال عددهم وفراً ، مع انبساط نفوذ الاعاجم ، وانتشار
 علومهم وفنونهم ؛ واكثرهم يجهل الادب الاوربي ، والانسان عدو لما يجهل . غير انه
 نشأ بعد الحرب الكبرى جيل من الشعراء تشفقوا ثقافة اجنبية ، وتمكنوا من نظم
 الشعر في العربية ، فحاولوا انبذ القديم واطراحه ، وجعل الادب العربي صورة عن الادب
 الغربي ، فما استاغته جمهرة الناس ، وتنكر له المحافظون فشنعوا عليه وازدروه .
 فقامت المجددة الغالية تطعن في المحافظين ، وتمتهن ادبهم ، وتسخر من جمودهم
 وتقليديهم . فكانت حرب سجال بين دعاة الحديث واصحاب القديم .
 وكلا الخصمين محق في بعض ما يدعيه ، جائر في بعضه الآخر . فالمحافظون لم يظلموا
 هؤلاء المجددين لما رموهم بضعف الصياغة ، والسعي في طلب الالفاظ ، وغموض
 المعنى ، وتحدي الشعراء الغربيين . فصياغة الجيل الذين نشأوا بعد الحرب العالمية
 اضعف على الاجمال من صياغة المخضرمين . وفيهم ولع جنوني بتصيد الالفاظ
 الموسيقية البراقة ليلوتوا بها صورهم الغربية ، لا يستثنون من ذلك عنوان القصيدة ،
 فعندهم دمة القلب ، والشاطي المجهول ، ووادي الدموع وما اشبه . وغموض المعنى
 في شعرهم ناتج عن اغرائهم في اختيار الالفاظ ، وافرطهم في الاعتماد على صور من
 التشبيه والاستعارات الشاذة ، يزجها خيال طليق جامح لا يقتزن بالذهن . واساليبهم
 الشعرية ، وصورهم الخيالية ، واغراضهم ومعانيهم ، مصطبغة بالوان الادب الفرنسي كل
 الاصطباغ . وربما غزوا التوراة والانجيل ، تشبهاً بشعراء الفرنجة ، واغتموا منها مادة
 لمنظومهم او اغاروا على الخرافات اليونانية ، وتوقلوا الاولب والبرناس واستنزلوا الالهة
 والربات . وبلغ من افتنائهم بالغربيين ، واعتلاقهم اياهم ، ان ترسموهم في مذاهب الشعر
 عندهم ، فاتبعوا الفئة المتحررة (Les Romantiques) ، والفئة الواقعية (Les Réalistes)
 والفئة الرمزية (Les Symbolistes) . وجاءت ثقافتهم الغربية امتن من ثقافتهم العربية ،
 فاذا هم تحدثوا عن اديب عجمي افاضوا بوصفه وتحليل ادبه ، وتصوير عصره ،

واذا هم تحدثوا عن اديب عربي ، اضطربوا في معرفته ، وتبيان عصره ، وبدا عليهم العجز والتقصير .

على ان المحافظين قد جاروا على الشعراء الجدد اذ عروهم من كل فضيلة ، ونسبوههم الى الغشاة في حين انهم يحسنون اشياء لا يحسنها هؤلاء . فهم اشد منهم اتصلاً بعصرهم المتحضر ، وصدق تصويراً للحياة والطبيعة ، وعلق خاطراً بوحدة الموضوع ، واكل احتقالات بشعر المنابر .

وكذلك الشعراء الاحداث لم يظهروا المحافظين حين اتهموهم بالتقليد ، وقالوا انهم اشبه شيء بالصدى يرجعون اقوال المتقدمين ، ويعددون الموضوعات ، ويغالون مثلهم ، وينظمون على ابوابهم المعروفة . وليس لهم براعة الا في شعر اوحته حادثة تدعو الى مدح او رثاء او ما شاكل ذلك . وانهم كسالى جامدون لا قبل لهم بالمطالعة ليتزيدوا من العلوم والفنون ، فتكتمل ثقافتهم . ولكنهم لم ينصفوهم في نكران محاسنهم ، فلغتهم اشد احكاماً ، واسلوبهم اصفى عروبة ، وشعرهم افيض عاطفة ، واوضح معنى ، واكل ابهاماً ، واحفظ لتراثنا الادبي . ومهما غلا اصحاب الحديث في مذهبهم ، فلا ينبغي لهم انكار قديمهم ، فليس من ادب طريف تحت الشمس الا وله صلة بالتليد .

اغراض ومعاني

الابواب القديمة والجديدة . القصص والتمثيل .

ما آذن الشعر بالتطور على انوار الحضارة الغربية حتى اخذت الاغراض والمعاني الجديدة تتسرب فيه ولاءً ، وتمتزج بالقديمة امتزاجاً يقوى ويشد مع تقدم العلوم والفنون . حتى اذا اكتمل شباب القرن العشرين ، طغت الاغراض الحديثة على الاغراض الماثورة ، وغلقت ابواب مطروقة ، كان الخير في تغليقها كالمسدح والهجاء . واهملت ابواب لم تبق من طلبات الشعراء كالفخر والحماسة والطرود . ولبثت ابواب مفتوحة المصاريع ، مطردة الاتساع كالغزل ، ووصف الحجر ومجالس اللهو ، والطبيعة والعمران ، والجيوش والمعارك ، والرثاء ، والشكوى والتاريخ ، والسياسة والاجتماع والدينيات ، والكفريات ، والشعر التعليمي . واستحدثت اغراض لم تكن معروفة من قبل كوصف المخترعات ، والمستنبطات ، والقصص والتمثيل

المدح

رواج سوقه في القرن التاسع عشر . ضعفه بعد الحرب العالمية الاولى .

كان للمدح سوق رائجة في القرن التاسع عشر ، ثم اقبل القرن العشرون ولم تكسدها بضاعة عند الشعراء المخضرمين . وميزة المدح في شعر الانبعاث لا تختلف عنها في الشعر التالذ ، فلها الغلو المقيت والزلفى والاستجداء . ولها الاوصاف والمعاني المعهودة . ولها التصدير بالغزل المتكلف ، وحسن التخلص .

على ان الشعراء الذين ظهوروا بعد الحرب العالمية الاولى اعرضوا عن هذا الفن ، واستنكروه ، وكرهوه ، وابوا ان يحسبوه من اغراض الشعر ، فضعف وانحط شأنه . ولولا بقية صالحة من المحافظين وشبه المحافظين ، لفني هذا النوع ولم يبق منه الا ما

يجري بين الادباء والاصحاب من الاخوانيات كالتهنئات والتقريظات . ومن شعراء المدح في القرن الماضي نقولا الترك ، وبطرس كرامة ، والشيخ ناصيف اليازجي . واشتهر من المخضرمين احمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، و خليل مطران ، والشيخ عبدالله البستاني ^٢ ، وشبلي الملاط ^٣ ، ومعروف الرصافي ^٤ ، وغيرهم .

الرجاء

طوي هذا الفن او كاد بسبب تبدل الاخلاق والعادات وقيام القوانين المدنية في وجه المعتدين على اعراض الناس . ولم يبق منه الا مداعبات لطيفة فيها تهكم وتصوير سخري ، مما لا يتناول المحارم ، واكثره يجري بين الادباء .

الحماسة والفخر

هذا فن اشرق في القرن الماضي عند محمود سامي البارودي الشاعر الفارس ، ثم خبا نوره ، وخذت معه همم الشعراء ، فما ينظم فيه الا ابيات متفرقة يذكر فيها الشاعر آباءه واخلاقه ، وشاعريته .

الطرد

شاع هذا الفن في القرون الخالية يوم كان الشعراء يتلهون بالصيد ، او يرافقون

١ حافظ ابراهيم شاعر مصري ولد سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) . وتوفي سنة ١٩٣٢ م (١٣٥١ هـ) . واحسن شعره في الاجتماعيات والوطنيات . ٢ الشيخ عبدالله البستاني ولد في الدُّبِّيَّة من قرى لبنان سنة ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ) . وتوفي في بيروت ، وقبر في دير القمر سنة ١٩٣٠ م (١٣٤٩ هـ) . وهو لغوي من الطبقة الاولى ، وله شعر اكثره في المدح والثناء . وكانت له عناية بالتاريخ الشعري والقصص . ٣ شبلي الملاط شاعر لبناني لا يزال حياً الى عصرنا ، اجاد المدح وله في الشعر القصصي قصائد حسنة . ٤ معروف الرصافي شاعر عراقي ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ م (١٢٩٢ هـ) . وله شعر جيد في الوصف والقصص .

الملوك في قنصهم ، فيصفون الطرد وادواته ، والطرائد واجناسها . اما شعراء عصرنا فلم يحفلوا به ، ولا عطفوا عليه ، ولم يكن لهم من الملوك محرض على سلوكه فاهملوه واطرحوه ، ولم يلبث ان دخل في عالم النسيان .

الغزل

الافصاف المادية . وصف العواطف . الخلو من الفحش .
الغزل المتكلف . الغزل العاطفي . اسماعيل صبري .
بشارة الخوري .

ما برح المقام الرفيع لهذا النوع من الشعر ، وما انفك بعض الشعراء المعاصرين يقتصون اثر المتقدمين في اوصافهم المادية وتشابيههم واستعاراتهم . غير انهم جعلوا مكاناً لتحليل العواطف وتصوير نزوات النفس في سرورها وألمها ، واستئناسها ووحشتها ، وسكونها واضطرابها . مما لا تجد مثله في كثير من الغزل القديم . وغزلهم في الغالب خال من الالفاظ الفاحشة ، وان تكن معانيه لا تخلو من الاستسلام الى الشهوة ، والالحاح في طلب اللذة .

والغزلون في الشعراء كثر ، فمنهم المتكلفون الذين يصطنعون الغزل . واسطة لا غاية ، او ارضاء للفن ، لا تلبية للعاطفة . فاما الاولون فالتقليد والجفاف طافيان على نسيهم لانهم يتوسمون فيه اسلوب المتقدمين . واما الآخرون فلهم صور جميلة ملونة ، فيها اتساق حسن ، وفيها خيال لطيف ، ولكنها تظهر احياناً جامدة لا تتحرك ، كالاوئان المنحوتة ، افرغت في قالب الجمال ، واعوزتها الحركة والحياة .

ومنهم العاطفيون وهم قلة بالاضافة الى المتكلفين ، واحسنهم من تأتى له ان يجمع العاطفة والفن ، فكانت له صور بديعة الاشكال والالوان ، عميقة الاثر ، قوية الاحساس والشعور . كغزل اسماعيل صبري ، وبشارة الخوري ، والياس ابي شبكة .

١ هو اسماعيل صبري باشا شاعر مصري رقيق الشعور ، ولكنه كان مغلاً ، ولد سنة ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ) وتوفي سنة ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ) ومن غزله قوله :

الخمر ومجالس اللهو

لم يقيم بعد ابي نواس شاعر الخمر يصف الخمر الا كان مقلداً له ، مقصراً عنه ، وقد وصفها في عصر الانبعاث جماعة من الشعراء ووصفوا معها مجالس اللهو ، ولكنهم لم يغنوا غناء شاعرها العباسي ، بل لم يلحقوا غباره . ومن وصافها احمد شوقي وحافظ ابراهيم وبشارة الخوري . إلا ان شوقي اجاد وصف المراقص العصرية في خمرياته .

الطبيعة والعمران

وجوه النظر الى الطبيعة . تشخيصها . الامتراج بها .

للشعراء وجوه مختلفة في النظر الى الطبيعة ووصفها ، فمنهم من يرنو اليها من ناحيتها الباسمة ، فما يرى غير الرياض الأريضة ، والازهار الفواحة ، والاثمار اليانعة ، والاطيار المغردة ، والمياه المصطفقة ، والكواكب المؤتلفة . ومنهم من يلحظها من ناحيتها العابسة ، فما يستهويه غير ليلها المظلمة ، ورياحها الخافقة ، ورواعدها القاصفة ، وامطارها الجارفة ، واشجارها العارية ، ومقاوזה المتقاذفة ، ووحوشها الجائعة . ومنهم من يروود ناحيتها ، فيتهيج لهجتها ، ويكتب لكاآبتها . وهم في وصفها متباينو

أَقْصِرْ فَوَادِي فَمَا الذِّكْرَى بِنَافِعَةٍ ، وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدٍّ مَا كَانَا
سَلَا الْفَوَادِ الَّذِي شَاطِرَتُهُ زَمْنًا ، حَمَلِ الصَّبَابَةَ ، فَأَخْفُقْ وَحَدَّكَ الْآنَا

٢ بشاردة الخوري ، ويعرف بالاخطل الصغير ، شاعر لبناني نشأ قرب بيروت ولا يزال حياً ، وهو اشهر الشعراء الغزلين . ومن غزله :

كفاني يا قلب ما أحملُ ، أَفِي كُلِّ يَوْمٍ هَوَى أَوَّلُ !
أَيُلْقِي مِنْكَ جَدِيدُ الْهَوَى ، فَوَادًا مِنَ السُّكْرِ لَا يَعْقِلُ
لَهُ عَثْرَةُ الطِّفْلِ حَوْلَ السَّرِيرِ ، وَدَمْعَتُهُ الْبَكَرُ إِذْ يُعُولُ
أَفِي كُلِّ وَجْهِ لَنَا مَرْتَعٌ ، وَفِي كُلِّ ثَعْبٍ لَنَا مَنَهْلُ
كَفَى نَحْمًا كُنْ يَغْرِ الْجَمَالَ ، وَتَرَحَّلْ أَنْتَ ، وَلَا يَرَحُلْ
عَذْرَتُكَ يَا قَلْبَ مَنْ لِلْهَوَى ؟ أَنْتَرُكُهُ بَعْدَنَا يَذُبُّ ؟

الفكرة والاسلوب، فقد يصفها احدهم وصفاً مادياً يحلّيه بشتى التشابيه والاستعارات، دون ان يتحد بها ويستجلي اسرارها. ويصفها غيره فيبعث فيها روحاً حية، وشعوراً متدفقاً، ويغوص على دخائل نفسها، يستشفها ويصورها حسبما تلي عليه عاطفته، ويوحى اليه خياله. او يمزج بها روحه وشعوره، ويخرج منها صوراً ملونة تبرز ما في نفسه من بهجة او كآبة، من حزن او سرور. ويصفها آخر فيستخرج منها صوراً شاملة للجماعة الانسانية، وما يجري في مقاييس الحياة، من خير وشر، وعدل وظلم، واتفاقات وتناقضات. ويصطبغ هذا الشعر على الغالب بالكآبة والتشاؤم والثورة على النظم والشرائع. وقد تناول شعراء العصر اوصاف الطبيعة على اختلاف وجهاتها. فوصفوها وصفاً مادياً^١، وشخصوها وانطقوها^٢، ومزجوا بها ارواحهم^٣، واحتذوا على مثال الغربيين في النظر الشامل الى الكون، فعل جبران خليل جبران^٤ وايليا ابي ماضي^٥.

وكذلك وصفوا مشاهد العمران، ففتحوا المدن والقصور، والكنائس والمساجد، والآثار والتماثيل. وفي شعر شوقي طائفة حسنة من هذا النوع.

١ مثال ذلك وصف شوقي للبنان ودمشق. ٢ كوصف شوقي لرحلة. ٣ كقصيدة المساء لخليل مطران وقد روينا شيئاً منها. ٤ كاتب شاعر مفكر، ولد في البشري من اعمال لبنان سنة ١٨٨٣ م (١٣٠١ هـ). وهاجر الى الولايات المتحدة، ومكث فيها حتى توفي وكانت وفاته في نيويورك سنة ١٩٣١ م (١٣٥٠ هـ). ونقل جثمانه الى مسقط رأسه في لبنان. وامتاز بخياله الخصب وصوره الجميلة العميقة، ونثره الشعري الذي طبعه بطابعه، وسجي باسمه، ومصنفاته المبتكرة. ولكنه كتب اكثرها واحسنها باللغة الانكليزية. وله في الشعر كتاب المواكب وهو قصيدة طويلة من المسمط ينشد فيها الحرية في كهوف الغاب، ثائراً على ضعف الانسان وتقاليده وشرائعه. قال فيها:

ليس في الغابات راع، لا ولا فيها القطيع
فالسَّتا يمشي ولكن لا يُجاريه الربيع
خُلِقَ الناسُ عبيداً للذي يأبى الخُضوع
فإذا ما هبَّ يوماً سائراً، سار الجميع

اعطني النَّايَ وغنِّ، فالغنا يرعى المُقول
وأُنينُ النَّايِ أبقي من مجيد ودليل

٥ ايليا ابي ماضي شاعر لبناني هاجر الى اميركة ولا يبرح مقبلاً فيها، وله ديوان تذكاري

الجيش والمعارك

ناصريف اليازجي . البارودي . شوقي .

حفل عصر الانبعاث بالحروب والثورات والفتن؛ فتأثر بها الشعر، وناله من وصف
الجيش والمعارك نصيب وفر . واشهر اصحاب هذا الفن الشيخ ناصريف اليازجي ،
ومحمود سامي البارودي واحمد اشوقي . وكانوا في اكثر اوصافهم مقلدين ، يغلب
عليهم خيال المتقدمين ومعانيهم ، لا يذكرن الا السيوف والرماح والدروع والمغافر ،
والخيل والغبار . وقلما ذكروا المدافع والقذائف والخناقات ، والخنادق وسواها
من ادوات الحرب الحديثة واساليبها .

الرثاء

الاقبال عليه . تصوير شخصية الميت . رثاء المدن
والممالك . شوقي .

لا يزال للرثاء شأن عظيم عند الشعراء ، ولكنه خرج بعد الحرب عن قصد
التكسب والزلفى ، وكاد يقتصر على كل اديب لامع او عالم عامل ، او زعيم وطني .
ومما يحمد في شعر المجددين ان اكثر رثائهم يصور شخصية الميت تصويراً دقيقاً فما يصلح
الا له ، وليس كالرثاء التقليدي يصح نقله الى كل ميت عند تساوي الدرجات والطبقات .
وللمحدثين براعة تذكر في رثاء المدن والممالك ، وشعر شوقي حافل بذلك .

الماضي ، وديوان الجداول ، وديوان الخائل ، وهو في مقدمة الشعراء المجددين ، وشعره
يصور الطبيعة والحياة الانسانية ابرع تصوير . قال :

قد يصيرُ الشُّوكُ إكْبِلًا لِمَلِكٍ أو نَبِيٍّ
وَيَصِيرُ الْوَرْدُ فِي عُرٍ وَقَرٍ لِّصٍّ أو بَغِيٍّ
أَيَغَارُ الشُّوكُ فِي الْحَقْلِ مِنْ أَزْهَرِ الْجَنِيِّ ،
أَمْ تُرَى بِحَسْبِهِ أَحْقَرُ مِنْهُ ؟

السكوى

البارودي . تامر الملاط . سليمان البستاني . خليل مطران .

وهذا الباب من النوع الوجداني، يعبر به الشاعر عما في نفسه من ألم وحزن وغم وشقاء ؛ وهو كثير في شعر المحدثين . واحسن ما ورد لهم في هذا الباب ما خرج عن نفس صادقة الشعور بالالم ، لا تتكلفه حباً للفن ، او جرياً مع المذهب الغربي البكاء . فمنه الشعر الذي نظمه البارودي في منفاه^١ ، ووصف تامر الملاط نفسه^٢ ، وسليمان البستاني داه^٣ ، و خليل مطران همومه وآلامه^٤ .

١ اوردنا للبارودي شيئاً من شعر منفاه في مكان آخر مر بنا . ٢ تامر الملاط اخو شيلي الملاط الشاعر، ولد في بعبدا من قصب لبنان سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) وتولى عدة مناصب في القضاء، حتى ترأس محكمة كمر وان . فحدث ان سُرق سجل منها، وأُثبت فيه صك مزور، فاتهم تامر بالجرم وحبس ولم تظهر براءته الا بعد ان خولط في عقله . وكانت وفاته سنة ١٩١٤ م (١٣٣٣ هـ) . وله شعر قوي الاحكام ، كثير الغريب ينجح الى اسلوب البادية حيناً ، والى اسلوب ابني تمام آخر . ومنه ما قاله في جنونه واروعه قصيدة يصف بها نفسه ، قال فيها وكلها من هذا الوصف البديع :

مَقُودٌ غَيْرَ مُخْتَارٍ ، كَأَنِّي آتِي صَمًا
إِذَا مَا حُسْرَةٌ أَرَّتْ ، عَرَّتِي هَزَّةٌ رُغْمًا
وَإِنْ صَرَ الذَّبَابُ الْفَثُ - صَرَّتْ أَضْلَعِي مَمَّا
وَيَأْتِينِي الْبُكَاءُ عَفْوًا وَيَعَصِفُنِي الْبُكَاءُ لَمَّا
وَلَا أَسْتَطِيعُ جَذْبَ النَّفْسِ عَنْ ضَحْكِ بِيْ ائْتِمًا

٣ قال سليمان البستاني من قصيدة يصف بها داه :

تَلَوْحُ لَكَ الْوُجُوهُ الْبَيْضُ سَوْدًا ، وَوَجْهُ الْأَفْقِ يَبْدُو مُكْفَهَرًا
يَقُولُ لَكَ الْأَمْسَى صَبْرًا ، وَأَتَى عَلَى هَذَا الْعَذَابِ نَطِيقُ صَبْرًا
إِذَا عَالَجْتَ عُضْوًا هَجْتَ عُضْوًا ، وَإِنْ دَاوَيْتَ رَأْسًا هَضْتَ صَدْرًا
كَأَنَّ بِكُلِّ عِرْقٍ مِنْكَ دَاءٌ ، تُسَكِّنُ عِلْمَهُ ، فَتَشْوُرُ أُخْرَى

٤ قال خليل مطران من قصيدة الاسد الباكي :

ذَرُونِي أَحْسُو الْحُسْرَ غَيْرَ مُنْفَرٍ ، عَنْ الْوَرْدِ مِنْهَا ، نَفْرَةَ الطَّائِرِ الْخَاطِي

(الشعر القصصي . التعليمي . شوقي .

في الشعر المحدث طائفة حسنة من القصائد التاريخية ، يجري بعضها مجرى الشعر القصصي الرائع كهزمية شوقي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي ، وبائتته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية . وبعضها ينحط الى مستوى الشعر التعليمي لضعف الميزة الادبية فيه كشعر شوقي في دول العرب وعظماء الاسلام .

السياسة والاجتماع

الوطنيات والقوميات . النظر الى الحياة الاجتماعية ومشاكل الحياة . الشعر الانساني . التماس الإصلاح بالهدم .

وهذا النوع له حظ وافر في شعر المتقدمين ، فقد كان للحزب السياسية شعراء ينافحون عن حقوقها وآرائها . وكان للمجتمع شعراء يأتون بالحكم والامثال للارشاد وتهذيب الاخلاق ؛ ويتألمون لآلام الناس فيرثون الممالك البائدة ، ويبكون على المدن المنكوبة . الا ان المتأخرين وسعوا نطاق هذا الباب ، ونوعوا اغراضه وافتنوا فيها ، وخرجوا الى اشياء لم يعرفها الاوائل ؛ فنظموا في الوطنيات ، والقوميات . وتغنوا بالحرية والاستقلال ، وثاروا على الظلم والظالمين . وناصروا الاستعباد والمستعبدين ، وعطفوا على الهيئة الاجتماعية ، وعرضوا لمشاكل الحياة فيها ، فنظموا الشعر الانساني السامي . فاذا هم يئنون لجراح الشعوب على اختلاف اجناسها ، ويبكون لمصارع الاخلاق ، ويحشون على الفضائل ، ويصورون عاقبة الرذائل ، ويحضون على تحرير المرأة ، وتعليمها ، وتربية الاطفال وتثقيفهم . ويدعون الى الحياة الرياضية ، ويخصونها بالاناشيد ، ويطرون المعاهد العامة كالمستشفيات والملاجئ والمدارس ، وما شاكل مما يتناول

فَرُبَّتْ كَأْسٌ عَنْ شِفَاهِي رَدَدْتُهَا ، وَقَدْ قَتَلَ الدَّمْعُ السَّلَافَةَ فِي الْكَاسِ
أَنَا الْأُمُّ السَّاجِي ، لِبَعْدِ مَزَافِرِي ، أَنَا الْأُمُّ الدَّاجِي ، وَلَمْ يَخْبُ نِهْرَابِي ،
أَنَا الْأَسَدُ الْبَاكِي ، أَنَا جَبَلُ الْأُمِّي ، أَنَا الرَّمْسُ يَمُشِي دَائِمًا فَوْقَ أَرْمَاسِ !

اصلاح المجتمع وسياسة الامم . غير ان التشاؤم والمرّف سيطرا على جانب من هذا الشعر، فذرفت فيه دموع غزيرة، وتضاعدت منه زفرات حارة ، وامتھنت التقاليد والعادات، وابتھت العقائد والشرائع، والتمس الاصلاح بالھدم والتعطيل .

الدينيات والكفريات

المتعبدون . مدح الانبياء . شوقي . الشك والانكار .

والدينيات احتلت مكاناً من الشعر في منظومات المتعبدین والمتزھدين من رجال الدين وغير رجال الدين . ومنها ما يدخل في باب الزهد والتوبة، ومنها ما يقتصر على قص اخبار الرسل والانبياء والقديسين، ومدحهم واستشفاعهم . ولشوقي في الدينيات شعر كثير اشھرہ نهج البردة والھمزية النبوية .

وتقوم الكفريات قبالة الدينيات؛ واصحابها جماعة رقت دينهم فاستهزؤوا وسخروا، او جماعة عرفوا من الفلسفة الشك والانكار، فشكروا وانكروا ليقول الناس انهم فلاسفة . او جماعة نغموا على رجال الدين، وساء ظنهم بهم حتى اذا ارادوا اصلاح مجتمعاتهم، وانقاذه من التشعب الطائفي، لم يجدوا الدواء الا في تعطيل الاديان، وھدم الجوامع والكنائس .

الشعر التعليمي

متون العلوم . التاريخ . الاناشيد والحكايات .

وكذلك الشعر التعليمي اقبل عليه المحدثون، وفي مقدمتهم الشيخ ناصيف اليازجي، فانه نظم الاراجيز في النحو والبيان والعروض . ثم اصبح هذا الفن مقصوراً على سرد الاخبار التاريخية، كما فعل شوقي في كتابه دول العرب وعظماء الاسلام . وعلى تربية الاطفال، واصلاح الاخلاق والحض على العلم، اما بطريق الحكايات على السن الحيوان، وضرب الامثال، شأن شوقي في اراجيزه القصصية . واما بطريق الوعظ والارشاد كانشيد شوقي لاحداث الامة .

المختصرات والمستنبطات

القطر الحديدية . الطيارات . السيارات .

هذه الاشياء جديدة في الشعر العربي لان المتقدمين لم يعرفوها ليعرفوها كما وصفوا غيرها من المحسوسات . ولما كان الحظ منها للمتأخرين، فافاضوا في ذكرها، واحسنوا نعتها؛ فاشتملت منظوماتهم على طائفة جليلة في صفات القطر الحديدية، والطيارات، والسيارات، والكهرباء، والصليب الاحمر، والهلل الاحمر، وغير ذلك من الاشياء التي ظهرت في العهد الحديث .

الفصل

اينار الاقصوصة . التاريخ . الحوادث الجارية . ضعف تحليل العواطف .

عرف القدماء شيئاً من الفن القصصي في ما كان يتخلل قصائدهم من ذكر الحوادث القصيرة، وعرفوه اخباراً وحكايات في الشعر التعليمي، بيد انه ضعيف الخيال، ساقط الميزة الادبية . اما المحدثون فقد اطلعوا على الشعر القصصي في آداب الاعاجم، فنبههم الى ما في ادبهم من نقصان؛ فحاولوا سد هذه الثغمة، وتوفروا على نظمها، فجعلوه فناً قائماً برأسه . إلا انهم آثروا الاقصوصة، ونكلوا عن القصة؛ ولو لم ينقل سليمان البستاني إلياذة هوميروس نظماً متقناً خلا الشعر العربي من القصص الطويل الرائع .

واشهر اصحاب الاقاصيص الشعرية احمد شوقي، و خليل مطران، وحافظ ابراهيم، وشبلي الملائط، وبشارة الخوري، ومعروف الرضافي . وموضوعاتهم مستمدٌ بعضها من بطون التواريخ، وبعضها من الحوادث الجارية في ايامهم . غير انهم يقتنون في اخراجها، ويسبقون عليها خيالاً جميلاً، وفناً شعرياً، فتغلب الصبغة الادبية على صبغة التاريخ والخبر . ولو برعوا في تصوير الاشخاص وتحليل العواطف النفسية براعتهم في عرض الحوادث ووصفها وسردها، لبلغوا غاية بعيدة في هذا الفن .

التمثيل

اول قصة تمثيلية منظومة . الاعتماد على التاريخ . شوقي .

واطلع المحدثون على الشعر التمثيلي عند الغربيين، كما اطلعوا على الشعر القصصي فنشطوا الى محاكمتهم، فنظم الشيخ خليل اليازجي^١ اول قصة تمثيلية، وحذا حذوه الشيخ عبدالله البستاني^٢. ثم كان احمد شوقي فرفع الشعر التمثيلي في قصصه، وفاق من تقدمه، وان لم يبلغ به الفن درجة سامية . ويعود توفيقه الى شاعريته وبراعته، ثم الى تصرفه في الاوزان والقوافي . فقد كان الذين تقدموه دونه شاعرية وبراعة، ودونه تحرراً من ربة الاحكام العروضية، فجاءت قصصهم ضعيفة الفن مملة، تصدع الآذان بقصائدها الطويلة الجارية على بحر واحد، وقافية واحدة .

وموضوعات الشعر التمثيلي مقصورة على حوادث التاريخ دون غيرها . وما من قصة تصور المجتمع العربي في حضارته العصرية، وعاداته واخلاقه، وازيائه . ومهما يكن من شيء فان ظهور الشعر القصصي والتمثيلي في الادب العربي اتم الفنون الشعرية بعد نقصانها، وخرج بالشعراء عن الحدود الشخصية الى الميدان الانساني المتسع .

اوزانه وقوافيه

المقطعات . اختلاف القوافي . الشعر المنثور .

لبث الشعراء في القرن الماضي يحافظون على الاوزان والقوافي كما جاءتهم عن

١ هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي، ولد ببيروت سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) وتعلم في الكلية الاميركية . ثم هاجر الى مصر واشتغل مدة بالصحافة ، ثم عاد الى بيروت ، واحترف التعليم . حتى اصيب بداء الصدر فانقطع عن العمل حتى مات سنة ١٨٨٩ م (١٣٠٧ هـ) . وكان شاعراً محسناً . وهو اول من حاول الشعر التمثيلي ، فألف قصة المروءة والوفاء منظومة في نحو الف بيت . ٢ وضع خمس قصص تمثيلية شعرية . وهي حرب الوردتين ، ويوسف بن يعقوب ، وبروتوس ايام تركوين الظالم ، وبروتوس ايام يوليوس قيصر ومقتل هيرودس لولديه .

العرب المتقدمين، الا ما كان من ميلهم الى الموشحات في قصائدهم الطويلة، وخروجهم بها عن اصولها؛ وتفننهم في تجزئتها وتفصيلها، حتى صاروا بها الى مسدسات ومسبعات، ومشمئات دون التفات الى عدد الاقفال والابيات، او الى اصطناع الخرجة في القفل الاخير. ولكنهم راعوا غلطها في الوزن والتقنية.

فلما سادت الثقافة الغربية في القرن العشرين، حاول شعراؤه ان يُحدثوا حدثاً في القوافي والاوزان فجعلوا ينظمون القصيدة مقطّعات، تختلف في عدد ابياتها حيناً، وتتفق آخر، ولكل مقطعة قافية تستقل بها عن اخواتها. ومنهم من جرى على اسلوب الشعر الفرنسي، في تشنية قوافيه، وتقطيعه وتفصيله، وآثر البحور الخفيفة الرشيقة. ومنهم من اهل القوافي، وحافظ على الاوزان. ومنهم من حافظ على القوافي، واهمل الاوزان، او اهملها معاً. وسعوا هذا النمط الاخير بالشعر المنشور، وهو اسخف ما وصل اليه القريض وكان ظهوره عند المهاجرين من لبنان. ولقي من جبران خليل جبران نصيراً قوياً يزينه بخياله الجميل وموسيقى الفاظه، ويحبّه الى جمهرة مريديه ومنافسيه، فانبرى الى تقليده أصيبية الادب مستسهلين الخطب؛ وانبرى كل كاتب اراد التشبه به، ولم يرزقه الله ملكة الشعر؛ فاسقوا الى الحضيض، حتى اصبح شعرهم المنشور، وليس فيه غير جمل مقطعة، مرصوفة، وغير تشابيه واستعارات سقيمة الخيال مكرورة لا طائل تحتها.

ونحمد الله ان انصار هذا النوع قليل، واكثرهم لا خطر له في الادب. وكذلك الذين اهملوا القوافي كان نجاحهم دون نجاح اصحاب الشعر المنشور.

منزلة الشاعر المحمدي

الذائد الوطني . المعلم الاجتماعي . شاعر الشعب .

لبث الشاعر المحدث طوال القرن التاسع عشر وبعض العشرين لا همّ له إلا ان يقف في حضرة الملوك والامراء ، واصحاب المناصب ، والاشراف يمدحهم ويرثي امواتهم ، فكان لهم صناجة تطربهم انغامها في الافراح والاحزان .

ثم اتخذ خاصة الذائد الوطني ، والمصلح الاجتماعي ، والمهذب الخلقي . فارتفعت منزلته في عيون الناس ، ولمسوا بنقائته ما يعبر عن شعورهم واحساسهم ، وآلامهم وآمالهم . وكان كلما ابتعد عن التملق والاستجداء ترداد منزلته علواً ، واقواله سيورة . فخطا خطوة محمودة في تحويل الشعر عن الافراد الى المجموع ، واصبح شاعر الشعب بعد ان كان شاعر الملوك .

ومن المجددين طبقة شخصية الإلهام تقتصر منزلتها على الفن دون سواه .

شوقي

(١٨٦٨ — ١٩٣٢ م و ١٢٨٥ — ١٣٥١ هـ)

حياته . علومه . شاعر الامير . بعد الحرب . صفاته
واخلاقه . نظمه الشعر . آثاره . ميزته . التاريخ .
السياسة . الاجتماع . الدين . الوصف . الغزل . المدح .
الثناء . الفخر . الحكمة والاخلاق . الشعر التعليمي .
شوقي والتمثيل : مصرع كليوباترة . مجنون ليلى . قهبيز .
علي بك الكبير . اميرة الاندلس . عنتره . نظرة عامة
في مآسي شوقي . ما ادرك عليه . اسلوبه . مترلته .

حياته

هو احمد شوقي بك ، ابن علي بك ، ابن احمد شوقي بك . ينتهي نسبه الى الاكراد من جهة ابيه ، والى الاتراك من جهة امه . وفيه عرق من الكرجية بجذته لاييه ، وعرق من اليونانية بجذته لامه . ولد في القاهرة زمن اسماعيل ، وكان ابوه مبذراً اتلف ما عنده ، فكفلته نِمْزار^١ جدته لوالدته ، وهو في المهد ، وكانت من وصائف دار الامارة .

علمه

دخل شوقي المدرسة منذ سنته الرابعة . ولما بلغ الخامسة عشرة طلب الحقوق مدة سنتين . ثم أنشئ في مكتب الحقوق قسم للترجمة ، فانسلك فيه سنتين اخريين ونال الاجازة . ثم بعثه الخديوي توفيق الى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب الفرنسية ، فسافر سنة ١٨٨٧ ، ودرس سنتين في مُنيليه ، وسنة في باريس واحرز اجازة الحقوق . ومكث بعدها ستة اشهر يتعرف بها باريس وحضارتها . ورحل في خلال سني دراساته الى فرنسا الجنوبية ، والى انكلترة والجزائر . وعاد الى مصر سنة ١٨٩١ وكان يتقن ثلاث لغات : العربية والفرنسية والتركية .

شاعر الامير

وتعهد. عباس برعايته كما تعهده توفيق من قبل ، فلما عقد مؤتمر المستشرقين في جنيف سنة ١٨٩٤ ، اوفده مندوباً عن مصر ، فلبث شهراً في سويسرة ، حتى اذا انفض المؤتمر ، برحها الى بلجيكة ، وشهد معرض انفرس . ثم عاد الى مصر ، فجعله عباس شاعره الخاص ، ورئيساً للقسم الفرنجي في حاشيته :

١ نزار هذه من اهل المورة سباهها ابراهيم باشا في حرب العثمانيين واليونان ، ثم اعتقها ، وازوجها محمد بك حليم احد رجاله الاتراك .

شاعرُ العَزِيزِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا اللَّقْبُ

فكان له من النفوذ والدالة ما لفت اليه انظار ذوي الحاجات ، ولاسيا طلاب الرتب والوسمة . فكان لا يرد طالباً ، ولا يخيب في سؤال ، فافاد بذلك ثروة حسنة . وتزوج وهو فتى في منتصف العقد الثالث ، فحملت اليه زوجته ثروة ضخمة عن ابيها فاصبح من كبار الموسرين . ورزق ثلاثة اولاد صبية وصبيين . ولما نشبت الحرب العامة ، خلعت انكلترة عباساً لاتصاله بالاتراك ، وابتعدت شاعره عن مصر ، فأم الاندلس ، واتخذ برشاونة له سكناً .

بعد الحرب

عاد شوقي الى مصر في اواخر سنة ١٩١٩ . وقد تغير سكان قصر عابدين ، فابتعد عنه وفي النفس ما فيها من ذكريات العهد الماضي . فصرفها الى العمل المنتج ، فنظم وألف ، ولم تغتر له هممة على كبر السن ، وايدان الشمس بالغروب . وكان في كل صيف يقصد الاستانة ، او بعض مصايف اوربة حتى سنة ١٩٢٥ فقصر اصطيفاه على لبنان .

وفي سنة ١٩٢٧ عقد مهرجان لتكريمه في دار الاوبرة الملكية . فجاءت وفود الادب من جميع الاقطار العربية ، وبايعته بامارة الشعر ، بعد ان بايعه بها كتّاب الصحف المصرية يوم كان « شاعر الامير » ، فزادوا اللاتباع ورد العجز على الصدر : « وامير الشعراء » .

وعاش سنواته الاخيرة عيشة هادئة خصبة ، يتمتع بجاه عريض ، ومال وفر ، واسرة نامية ، وشهرة طائرة . حتى توفاه الله في اليوم الثالث عشر من تشرين الاول سنة ١٩٣٢ . فانطوت امارة الشعر من بعده .

وتولت وزارة المعارف المصرية تنظيم حفلة الاربعين لتأبينه ، فدعت اليها البلاد العربية ، فلبتها برسائها من اهل الشعر والخطابة ، وكان يوم مشهود .

صفاته وامهله

كان متمليّ الجلم فوق الرّبعة، مستدير الرأس، محتلج العينين لاختلال اعصابهما .
 قليل الكلام في المجالس، كأن به غفلة عما حوله .
 وكان شديد الاعتداد بشاعريته، مفاخراً بها، يحب الثناء، ويضيق بالنقد .
 وكان يداري اصحاب الصحف، ويكثر من زيارتهم ليجملوا القول فيه .
 وابتسمت له الحياة، فضحك لها، واحبها، واستمتع بما فيها من لهو وجمال
 وشباب . وكان حسن الايمان على غير تعصب، فانتسج صدره لجميع الاديان، ولكن
 دون ان تضعف عقيدته الاسلامية .
 وكان وطنياً مخلصاً لمصر، وشرقياً مفاخراً بالشرق .

نظمه الشعر

بدأ الذوق الشعري يتولد في شوقي وهو حدث . ذكر احمد زكي باشا ان الشيخ
 محمداً البسيوني كان يعرض قصائده على تلميذه، قبل ان يرسلها الى دار الامارة .
 وكان شوقي بسذاجة التلميذ الناشئ يشير عليه بمحو تلك الكلمة وتصحيح تلك
 القافية، وحذف هذا البيت، وتغيير ذاك الشطر، والاستاذ يعقب بقوله، ويتزل على
 رأيه . وتحدث البسيوني الى صاحب العرش بكاء شوقي الصغير، وبراعته فكانت
 هذه الشهادة من الاسباب التي حفزت توفيقاً الى تعهد شاعرنا بالدراسات العالية .
 وسألت مجلة الهلال شوقي : كيف بدأ النظم ؟ فقال : « نظمت الشعر وانا
 طفل، وكنت يومئذٍ اخطئ واهدي، واتعثر ككل صاحب خيال طفل . ولكني
 لم البث ان تعلمت العربية على استاذ نابغة هو المرحوم المُرصني صاحب الوسيلة، حتى
 استقام لي ميزان الشعر بين العشرين والخامسة والعشرين، وعرفني الناس به في هذه
 السن . فحفظوا لي وغنوا :

مُضَيٌّ ، وَلَيْسَ بِهِ حِرَاكٌ ، لَكِنْ يَخْفُ إِذَا رَأَى
 يَا حُسْنَهُ بَيْنَ الْحَسَنِ ، فِي شَكْلِهِ إِنْ قِيلَ بَانَ

والايات السائرة :

خَدَعُوْهَا بِقَوْلِهِمْ حَسَنَاءُ ، وَالْعَوَانِي يَغْرُهُنَّ النَّسَاءُ

والايات التي اقول منها :

صُوْنِي جَمَالَكَ عَنَّا اِثْنَا بَشْرٌ ، مِنْ اَلْثَرَابِ ، وَهَذَا اَلْحُسْنُ رُوْحَانِي . اه
وكان ينظم الشعر في كل مكان وزمان، جالساً او ماشياً، وحده او مع الناس،
واشد ما يكون ارتياحاً الى النظم بعد منتصف الليل . ذكر كاتبه احمد عبد الوهاب
انه اذا حاول الشعر اخذ ير راحته اليسرى على رأسه ، وينظر الى خاتمه .

وتحدث خليل مطران عنه قال : « لا يعرف جلسيه انه ينظم الا اذا سمع منه
بادئ ذي بدء غغمة . ثم رأى ناظريه ، وقد برق ، وتواترت فيهما حركة المحجرين .
ثم بصر به وقد رفع يده الى جبينه ، وامرّها عليه امرأ خفيفاً هنيهة بعد هنيهة » .
وروى كاتبه انه اذا ضاق عليه الوقت ، واضطر الى صنع قصيدة ، تناول ملح
ثلاث من البيض النيء ، وشرع في النظم .

وكان سريع الخاطر، ربما اتم القصيدة في ساعة . قال محمد كرد علي : « من
جميل بديته المطواعة ، ما شهدته منه ليلة تكريمه في المجمع العلمي العربي ، فقد نظم
قصيدة ثم ابطلها لانه ما ارتضاها ، ونظم في الحال غيرها يجلس من اصحابه » اه .
وتحدث كاتبه انه نظم قصيدة النيل في ليلة واحدة ، وهي تربي على خمسين بيتاً ومائة .
وكان قوي الذاكرة ، يحفظ شعره ، ولا يعليه على كاتبه الا جملة ايات غير
ناسٍ شيئاً منها .

آثاره

لم يقيم عند العرب شاعر اكثر انتاجاً من شوقي ، فقد انتظم له ديوان مطبوع ، في الثلاثين من عمره ، ومات وهو على اشد ما يكون نشاطاً الى العمل ، فكانت اواخر سنينه ، اخصب ايام حياته . ولم تقتصر آثاره على الشعر ، وانما تجاوزته الى النثر ، وقد طبع معظمها ، وبقي اقلها لم يطبع .

فاما الذي طبع من الشعر ، فالجزء الاول من الشوقيات . وهو ما اشتمل على منظومه في القرن التاسع عشر « ١٨٨٨ - ١٨٩٨ م » . صدره بمقدمة في الشعر والشعراء ، وترجمة حاله . وافتتحه بمدحتين لعبد الحميد الثاني ، وعباس بن توفيق . وجعله على سبعة ابواب : فالاول الادب والتاريخ ، والثاني الوصف ، والثالث المديح ، والرابع المراثي ، والخامس الحكايات ، والسادس الخصوصيات . وهذا الباب خليط من خصوصيات الشاعر ، واشياء غير خصوصية ، كملحمته في حرب بني عثمان واليونان ، ووصف البسفور ، والقمر وسوى ذلك . ويظهر ان شوقي بعد ان طبع الابواب الاولى ، وانتهى الى الباب الاخير ، جهزت لديه قصائد جديدة فادخلها فيه ، وان لم تكن منه . فأخل في ترتيب الديوان ، وخالف ما حمل عليه نفسه في المقدمة .

ووعده في المقدمة بان ينشر في آخر كل عام هجري ما يحصل عنده من منظوم ومشور ، ولكنه لم يفعل . بل اهمل طبع شعره الى ما بعد الحرب العامة ، فنشر سنة ١٩٢٥ الجزء الاول من الشوقيات ، على ورق صقيل ، مشكول الحروف ، مشروح الغريب ، مفسر المعاني ، مصدر بمقدمة للدكتور محمد حسين هيكل ، حلل بها شاعرية صاحب الديوان . وهذا الجزء يختلف عن الذي طبع في شبابه بانه خلو من المدائح والمراثي والانشيد والحكايات . مخصوص بالسياسة والتاريخ والاجتماع ؛ لم يدخل

١ ذكر في مقدمة شوقياته انه ارجأ الشعر الذي عثر عليه او نظمه ، بعد تنسيق الابواب ، وطبعها ، الى الجزء الثاني ، لئلا يخل في ترتيبها .

فيه من الديوان القديم الا ما تلائم مع هذه الاغراض، كهمزيته في مؤتمر المستشرقين، وملحمته في الحرب العثمانية اليونانية .

ونشر الجزء الثاني سنة ١٩٣٠ ، وهو كسابقه في الطبع والاتقان الا انه دونه في الشرح والتفسير . مقسوم الى ابواب اولها الوصف ، والثاني النسيب ، والثالث متفرقات في الوصف والتاريخ والسياسة والاجتماع . وفيه قصائد كثيرة نشرت في الديوان القديم .

وطبع من القصص التمثيلية مصرع كليوباترة سنة ١٩٢٩ ، ومجنون ليلى وقبيز سنة ١٩٣١ ، وعلي بك الكبير وعنترة سنة ١٩٣٢ .

ونشر له بعد موته كتاب دول العرب وعظماء الاسلام سنة ١٩٣٣ ، ومعظمه اراجيز مزدوجات التزم فيها من القوافي ما لا يلزم . تبحث في تاريخ الاسلام وعظمائه ، منذ عهد النبوة الى زمن الفاطميين . ونشر الجزء الثالث من الشوقيات سنة ١٩٣٦ ، وهو مخصوص بالمراثي . ثم الجزء الرابع سنة ١٩٤٣ يتضمن اغراضاً مختلفة مما لم ينشر من شعره ومما نشر في الديوان القديم ، تولى ترتيبه محمد سعيد العريان فجعله ستة ابواب ، اولها متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع . والثاني الخصوصيات . والثالث الحكايات . والرابع ديوان الاطفال . والخامس من شعر الصبا . والسادس محجوبيات .

واما الذي طبع من النثر، فامية الاندلس سنة ١٩٣٢ ، قصة تمثيلية . واسواق الذهب ' سنة ١٩٣٢ ، مقالات اجتماعية ، اكثرها مسجع بادي التكلف .

مبنة

وقف شوقي من الشعر وقفة المستطيل على فنونه، المتصرف في اغراضه وشؤونه،
الضارب في سهوله وحزونه . واوتي شاعرية خصبة ، يدها اصول اربعة ينتمي اليها ،
وترفدها مخيلة قوية، دعمت بالعلم، وغذيت بالاسفار . ويحفزها طموح شديد الى بلوغ
اعلى ذروة في القريض ، يحدد بها عهد المتنبي عند سيف الدولة ، والبحري عند
المتوكل ، واي تمام عند المعتصم . ويجاري من شعراء الفرنجة فيكتور هيجو في السياسة
الوطنية، والتاريخ واساطير القرون . ولافتنين في الحكايات الخرافية . وكُرناي في
المآسي التمثيلية . فإلى هؤلاء الشعراء خصوصاً ، والى امثالهم عموماً كان ينظر طامعاً
في محادثتهم ، والارتفاع الى منازلهم . فتعلمد لهم ، واستقى من مجورهم . ثم انبرى
يجاريهم، ويعارضهم، وينافسهم . فكان له منهم عناصر قوية مختلفة اختلطت اختلاطاً
عجيباً، فاخرجت شخصية مركبة تذكرك دائماً بغيرها، وان يكن لها طابع لا يخفى
في شتى طرقه، والفاظه وتعابيره . وهذا ما نعى باظهاره في دراستنا لاغراض الشاعر .

التاريخ

اولع شوقي بالتاريخ منذ عهده الاول بالنظم فتوفر عليه، وبرع فيه . وعني على الاخص بتاريخ الاسلام، وتاريخ مصر . فكان له منها اداة صالحة لاغراضه الشعرية . وتتبع الحوادث الجارية في عصره، فدونها في منظوماته السياسية والاجتماعية، فانظم له منها قصائد مشهورة في الوطنيات والخلقيات .

وكان التاريخ القديم والمعاصر ذلك الينبوع الثر الذي استسقاءه شاعرنا على ظمًا، فتدفق له بالخصب الخير من شعره فاتخذة عبرة وذكري للمصريين والمسلمين ، يذكرهم باجداد اسلافهم ويحض المهم القاعدة على النهوض، بوصف ما كان لدولهم من فتوح، وعظمة، وازدهار . ويروض به اطفالهم على البأس، وطلب المجد المفقود :

وَيُرْوِي أَلْوَقَائِعَ فِي شِعْرِهِ ، يَرُوضُ عَلَى أَلْبَاسٍ أَطْفَالَهَا

وقد تطول قصائده التاريخية، فأحياناً يوفق فيها، فيخرج منها شعراً قصصياً رائعاً كهزيبته التي قدمها الى مؤتمر المستشرقين في جنيف، وبائتته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية، وقصيدة النيل، وقصيدة ابي الهول . واحياناً تخونه الروعة الادبية، فيقتصر على سرد الحوادث كأنه مؤرخ لا شاعر . وهذا ما يصطبغ به اكثر شعره في كتاب دول العرب وعظماء الاسلام .

واجل حلية يتلأل بها هذا الشعر، عاطفة الدين، وعاطفة الوطن، فان شوقي يكاد يتلظى حمية، واندفاعاً في ذكر عز مصر، وحضارتها القديمة . وذكر انتصارات المسلمين ، واتساع ممالكهم . ويكاد يتفطر حزناً ولوعة في وصف ما نزل بمصر والبلاد الاسلامية، من النكبات والارزاء . وسيان عنده مصر الفرعونية، او مصر الاسلامية، وبقاع يعمرها العرب، او بقاع يعمرها الاتراك .

واذا خلا شعره من الحوادث ، فما يخلو من الاشارات التاريخية ، فانها مبثوثة في شتى منظوماته . وفيها الجميل المستملح، وفيها المتكلف المبتذل، للافراط في تكراره .

السياسة

تقلب شوقي في احضان السياسة المتقلبة مع المكان والزمان، فجاء شعره وفيه صور متناقضة ، لوجوه السياسة المتناقضة . فقد كان شاعر القصر في زمن عباس ، فنطق بسياسة القصر ، وأيد صاحب العرش . وكان اللورد كرومر عميد انكلترة قد بسط نفوذه على مصر حتى أصبح لا يصدر امر الا عن امره . فطبيعي ان يتذمر الخديوي على هذا النفوذ، وان يتذمر شاعره معه، فيحمل على العميد طاعناً فيه، مندداً باعماله ، مقبلاً سياسة من يتودد اليه ، فعله برياض باشا^١ بعد خطبته التي فاه بها في المدرسة الصناعية سنة ١٩٠٤، متملقاً للورد، كافراً نعمة مصر واصحاب عرشها . فقد أنبه شوقي تأنيداً اليماً، واتهمه بالخيانة، مشبهاً اياه بعراي . وعراي في نظر شوقي خائن، لانه ثار على ولي نعمته توفيق، واعقب بثورته احتلال الانكليز . قال منها :

خَطَبْتَ فَكُنْتَ خَطْبًا، لَا خَطِيئًا ، أَضِيفَ إِلَى مَصَائِمِنَا الْعِظَامِ
لَهَجْتَ بِالْإِحْتِلَالِ وَمَا أَتَاهُ ، وَجُرْحُكَ مِنْهُ ، لَوْ أَحْسَنْتَ ، دَامَ
وَمَا أَغْنَاهُ عَمَّنْ قَالَ فِيهِ ، وَمَا أَغْنَاكَ عَنْ هَذَا التَّارِي
أَحْبَبْتُكَ أَلْبَادُ طَوِيلَ دَهْرٍ ، وَذَا تَمَنُّ أَوْلَاءَ وَالْإِحْتِرَامِ ؟

ويحتملها :

أَفِي السَّبْعِينَ ، وَالذَّنِيَا تَوَلَّتْ ، وَلَا يُرْجَى سِوَى حُسْنِ الْخِتَامِ
تَكُونُ، وَأَنْتَ أَنْتَ رِيَاضُ مِصْرٍ ، عِرَايِ الْيَوْمَ فِي نَظَرِ الْأَنَامِ !

وتقضي السياسة الانكليزية بخلع اللورد كرومر عن منصبه سنة ١٩٠٧ ، فيقيم له رئيس الوزارة مصطفى باشا فهمي حفلة وداع في ملعب الاوبرة . ويودعه بخطبة

١ رياض باشا تقلب في الوزارات المصرية من عهد اسماعيل الى عهد عباس . وكان رئيس الوزارة في بدء الثورة العرابية، ثم في زمن عباس سنة ١٨٩٣ .

لطيفة مثنياً عليه . ويخطب اللورد بعده فيندد بالخدوي السماعيل ، ويخاشن الامة المصرية . وكان الامير حسين كامل حاضراً (السلطان حسين فيها بعد) فسمع شتم والده بأذنيه ، ولم ينبس ببنت شفة . فغضب شوقي غضبة شريفة ، ونظم قصيدة جميلة ، هاجم بها اللورد وحكومته ، ولم يعف عن الامير حسين . وانما هو ينطق بلسان صاحب العرش . قال في اولها والخطاب للورد :

أَيُّكُمْ أَمْ عَهْدُ إِسْمَاعِيلَ ، أَمْ أَنْتَ فِرْعَوْنُ يَسُوسُ الْتَيْلَا ؟
أَمْ حَاكِمٌ فِي أَرْضٍ مَضَرٍ بِأَمْرِهِ ، لَا سَأْلاً أَبَدًا ، وَلَا مَسْئُولًا ؟
يَا مَا لِكَا رِقَّ الرِّقَابِ بِبَاسِهِ ، هَلَّا اتَّخَذْتَ إِلَى الْقُلُوبِ سَبِيلًا !
لَمَّا رَحَلْتَ عَنِ الْبِلَادِ تَشْهَدُ ، فَكَأَنَّكَ الْدَاءُ الْعِيَاءَ رَحِيلًا
أَوْسَعْتَنَا يَوْمَ الْوَدَاعِ إِهَانَةً ، أَدَبٌ ، لَعَمْرُكَ ، لَا يُصِيبُ مَشِيلًا !
هَلَّا بَدَا لَكَ أَنْ تُجَامِلَ بَعْدَمَا صَاغَ الرَّئِيسُ لَكَ الثَّنَا إِكْلِيلًا
أَنْظُرْ إِلَى أَدَبِ الرَّئِيسِ وَلُطْفِهِ ، تَجِدِ الرَّئِيسَ مُهَذَّبًا ، وَنَبِيلًا

.....

فِي مَلْعَبٍ لِلْمُضْحَكَاتِ مُشِيدٍ ، مَثَلَتْ فِيهِ الْمُبْكِيَاتِ فُضُولًا^١
شَهِدَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ لَعْنُ أَصُولِهِ ، وَتَصَدَّرَ الْأَعْمَى بِهِ تَطْفِيلًا^٢
جُبْنٌ أَقْلٌ ، وَحَطٌّ مِنْ قَدْرَيْهِمَا ، وَالْمَرْءُ إِنْ يَجْبُنْ ، يَعِشْ مَرْدُودًا
لَمَّا ذَكَرْتَ بِهِ الْبِلَادَ وَأَهْلَهَا ، مَثَلَتْ دَوْرَ مَمَاتِهَا تَمْثِيلًا^٣

ومنها :

الْيَوْمَ أَخْلَفْتَ الْعُهُودَ حُكُومَةً ، كُنَّا نَظُنُّ عُهُودَهَا الْإِنْجِيلًا
دَخَلْتَ ، عَلَى حُكْمِ الْوَدَادِ وَشَرْعِهِ ، مَضَرًا ، فَكَانَتْ كَالسَّلَالِ دُخُولًا

١ ملعب للمضحكات : اي دار الالوة . ٢ الاعمى : الشيخ عبد الكريم سلمان ، من المتوددين للانكليز المتردين على الصحف التي تؤيد سياستهم . وكان قد ضعف بصره ، وكاد يكف . ٣ به : اي بالملعب .

هَدَمَتْ مَعَالِمَهَا، وَهَدَّتْ رُكْنَهَا ، وَأَضَاعَتْ أَسْتِقْلَالَهَا الْمَأْمُولَا

وازيل التاج عن مفروق عباس في الحرب العامة ، وزين به جبين حسين كامل .
فهنا شوقي ، وبايعه على الوفاء ، لانه لا يخون اسماعيل في ابنائه :

أَخُونُ إِسْمَاعِيلَ فِي أَبْنَائِهِ ؟ وَلَقَدْ وُلِدْتُ بِبَابِ إِسْمَاعِيلَا

ومدح الانكليز الذين حافظوا على عرش مصر في برهة تنتثر بها العروش .
وكان يخشى ثله ، بعد ان لاذ عباس بالاتراك ، وبسطت انكلترة حمايتها على البلاد :

وَتَذَارِكُ الْبَارِي لَوَاءَ مُحَمَّدٍ ، فَرَعَى لَهُ غُرَّاءَ ، وَصَانَ حُجُولَا
فِي بُرْهَةٍ يَذُرُ الْأَسِرَةَ نَحْسَهَا ، مِثْلَ النُّجُومِ ، طَوَالِهَا ، وَأُقُولَا
اللَّهُ أَدْرَكَهُ بِكُمْ ، وَبِأَمَّةٍ ، كَالْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ عُقُولَا
حُلَفَاؤُنَا الْأَحْرَارُ إِلَّا أَنَّهُمْ أَرْقَى الشُّعُوبِ عَوَاطِفَا وَمُيُولَا
لَمَّا خَلَا وَجْهُ أَلْبَلَدٍ لِسَيْفِهِمْ ، سَارُوا سِمَاحًا فِي أَلْبَلَدِ عُدُولَا
وَأَتَوْا بِكَابِرِهَا، وَشَيْخِ مُلُوكِهَا ، مَلِكًا عَلَيْهَا ، صَالِحًا ، مَأْمُولَا

ومن غرائب الاتفاق ان تكون هذه القصيدة في بحرهما ورويها ، كالقصيدة التي
حمل بها على اللورد كرومر ، وندد بسياسة حكومته ، وهجا حسين كامل ذاك الذي
شهد لعن اصوله ، وسكت صابراً على الاذى . وهنا نفسية شوقي معقدة لا تنجلي
صریحة . فانه يجب الاتراك ، ولا يسره ان تذهب سيادتهم عن مصر ، ولكنه ساخط
عليهم ، لاصطلاحهم حرباً خسروا بها باقي تلك السيادة :

أَلْقَوْمُ حِينَ دَهَا الْقَضَاءُ عُقُولَهُمْ ، كَسَرُوا بِأَيْدِيهِمْ لِمِصْرَ غُلُولَا
هَذَا مَوَادِي التَّيْلِ رُكْنَ سِيَادَةٍ ، لَهُمْ كَرُّ كَنْ الْعَنَكَبُوتِ ضَيْلَا

-
- ١ العالم جمع معلم : موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده ويريد بها معلم حضارتها .
٢ يريد بالغرر والهجول ، الايام المشهورة ، والغزوات المظفرة . ٣ الاسرة :
العروش . الافول : جمع آفل . ٤ بكم : الخطاب للسلطان حسين كامل . وبامة :
اي انكلترة . ٥ القوم : اي العثمانيون .

ويجب عباساً، ويؤثره على حسين، ولكنه لا يرى بدءاً من اظهار الرضى بعد ان انقطع ما بين عباس والعرش . واصبح من خير مصر ان يحفظ تاجها امير من ابناء اسماعيل ، ولو كان الحسين الذي هجاه، لتعود به السلطة الشرعية التي اغتصبها عميد الانكليز واستأثر بها برهة من الدهر :

هَلْ كَانَ ذَاكَ الْعَهْدُ إِلَّا مَوْقِفًا ، لِلْسُلْطَتَيْنِ ، وَلِلْبِلَادِ وَيِيلاً
يَعْتَرِ كُلُّ ذَلِيلٍ أَقْوَامَ بِهِ ، وَعَزِيزُكُمْ يُنْقِي أَقْيَادَ ذَلِيلًا

وكان عباس ميالاً الى العثمانيين ، متودداً صاحب الخلافة ، ساعياً في اجلاء انكلترة عن مصر . فكان شوقي يفعل فعل سيده ، مجارياً سياسة العرش من جهة وعاطفته التركية من اخرى . وهو بين السياسة والعاطفة ، يفاخر بالترك، ويؤثرهم في قرارة نفسه على العرب، وان كان بيانه عربياً . ويرى ان الخلافة لا تصلح الا لهم . وان عصر عبد الحميد الثاني اسعد العصور على الشعب ، عصر الرحمة والعدل والخير ، فيطعن على الذين يعيبونه ، والذين يشورون على صاحب السلطان .

وتدور الايام على عبد الحميد فيسقط عن سريره ، ويستخلف اخوه محمد رشاد . فيودعه شوقي بقصيدة حسنة ، ويأومه في شيء من الألم لانه ضن بالدستور :

أُوذِيتَ مِنْ دُسُورِهِمْ ، وَحَنَنْتَ لِلْحُكْمِ الْعَسِيرِ

ثم يبايع الخليفة الجديد ويمدحه ، ويمدح ابطال الدستور الذين خلعوا عبد الحميد ، ولا يجد في ذلك حرجاً ما دام السلطان للترك والخلافة فيهم .

الا ان حال شوقي تبدلت بعد الحرب ، فلا هو اتصل بالقصر ، ولا هو شاعر الامير ، فاصبح في سياسته الصق بالشعب ، واقرب الى القلوب ، وان لم يغفل عن مدح صاحب العرش وتأنيده ، وهو الوفي لابناء اسماعيل . ولكن هذا المدح كان يأتي عرضاً لا غاية ، يستطرد اليه الشاعر في بسطه لحادث سياسي او اجتماعي يشغل مصر ،

١ ذاك العهد : اي عهد الحكم في مصر قبل تولية السلطان حسين . (السلطانان : اي السلطة الشرعية لصاحب العرش ، والسلطة العملية التي اغتصبها عميد انكلترة . ٢ عزيزكم : الخطاب لاهل مصر .

فيثني على الملك بعمل حميد أتاه، او يحضه على عمل صالح يريد أن يأتيه . وانما يجعلهم في الدفاع عن مصر ، واستقلالها ، وحريتها . ولا تأخذه هواة في الحملة على الانكليز، والتشديد باعمالهم، وتقبيح تصرفهم في البلاد .

وإذا رأى في الامة شقاقاً وخلافاً، ثار ثائره ، وهب يدعو الاحزاب الى الوئام ، وترك الشحناء ، خشاة ان يستغل الغريب خصامهم . ولم يكن ينتسب الى حزب سياسي، بل كان يضع حرية مصر واستقلالها فوق الاحزاب . فاليك كيف يؤنب المصريون على تحاذلهم، وانقسامهم :

إِلَامَ الْخُلْفُ بَيْنَكُمْ إِلَّا مَا ؟ وَهَذِي الصَّجَّةُ الْكُبْرَى عَلامًا
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ، وَتُبْدُونَ الْعَدَاوَةَ ، وَالْخِصَامَا ؟
وَأَيْنَ الْقَوْرُ ؟ لَا مِصْرُ اسْتَقَرَّتْ عَلَى حَالٍ ، وَلَا السُّودَانُ دَامَا !

ومنها يصف حالة مصر والدولة المحتلة :

تَبَاغَيْتُمْ كَمَا نَأْتِكُمْ خَلَايَا مِنْ السَّرَطَانِ ، لَا تَجِدُ الضِّمَامَا
أَرَى طَيَّارَهُمْ أَوْفَى عَلَيْنَا ، وَحَلَقَ فَوْقَ أَرْوُسِنَا ، وَحَامَا
وَأَنْظُرْ جَيْشَهُمْ ، مِنْ نِصْفِ قَرْنٍ ، عَلَى أَمْصَارِنَا ضَرْبَ الْخِيَامَا
فَلَا أُمْنَاوُنَا نَقْصُوهُ رُمَحًا ، وَلَا خُوَانُنَا زَادُوا حُسَامَا
وَنُلْفِي الْجَوَّ صَاعِقَةً ، وَرَعْدًا ، إِذَا قَصُرُ الدُّبَارَةِ ، فِيهِ غَامَا
إِذَا أَنْفَجَرَتْ عَلَيْنَا الْخَيْلُ مِنْهُ ، رَكِبْنَا الصَّنْتَ ، أَوْ قُدْنَا الْكَلَامَا
فَأَبْنَا بِالتَّحَاذُلِ ، وَالتَّلَاحِي ، وَآبَ بِمَا أَتْبَغَى مِثْلًا وَرَامَا^٢

ولم يطلق شوقي السياسة التركية ، وان انقطعت علاقة الاتراك بمصر . بل ظل يراقب سير الحوادث عندهم ، ويعني بها ، مدفوعاً بعباطفة الحب والوشيجة ، والدين . فتراه يحمل على الخليفة وحيد الدين ، لاعتماده على الانكليز ، ويمدح مصطفى كمال ،

١ قصر الدوبارة : مقر العميد الانكليزي في مصر . ٢ التلاحى : التلاءن والتلاوم . وآب : الضمير يعود على قصر الدوبارة .

ويهنئه بانتصاره على اليونان . ثم تلقى الخلافة فيتألم لالغائها، ويعاتب الغازي في رفق وحزن، لمحوه اياها، وهي « ملاءة فخر الاتراك . » ويخشى ان تعود الى العرب، ويتولاها الحسين بن علي، فيقطعن في الحسين العاجز الذي مديده في الحرب الى موالاته الاعداء ، ويدعو المسلمين الى الاعراض عن مبايعته .

ثم لا يلبث مصطفى كمال ان يرفع دعائم الجمهورية على انقاض الخلافة ، فينتهج شوقي ابتهاجه بكل شيء . يعلي شأن الاتراك والمسلمين . فيمدح الجمهورية ، ويذم حكم الفرد ، الا انه لم ينس الخلافة بل ظل يرجو عودتها الى الترك ، وأن تكون شورى بينهم شأنها في فجر الاسلام :

عُودِي إِلَى مَا كُنْتُ فِي فَجْرِ الْهُدَى ، عَمْرُ يُسُوسُكَ ، وَالْعَتِيقُ يَلِيكَ

ومهما تعقدت سياسة شوقي، وتناقضت، وتباينت ، فانه ثابت على امور لا يتخلى عنها : اولها استقلال مصر، وان يكون الملك دستورياً في ابناء اسماعيل . وثانيها عودة الخلافة الى الاتراك لان فيها عزهم وعز الاسلام ، ولا بأس عنده ان تجعل شورى كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين .

الاجتماع

شعر الاجتماع ممتزج عند شوقي بشعره السياسي والتاريخي . قرب قصيدة اجتماعية اشتملت على الآراء السياسية ، والحوادث التاريخية معاً . لذلك افرد لهذه الانواع الثلاثة باباً واحداً في ديوانه .

وكانت اجتماعياته في اول امره تتصل بالشعر التعليمي الخاص ، كأناشيد الاحداث ، والحكايات الخرافية على السن الحيوان . ثم ارتفع بها الى الاغراض العامة ، وادمج فيها السياسة والتاريخ لاعتماد هذه الانواع بعضها على بعض . وكان وهو شاعر القصر لا يتعدى بها سياسة البلاط ، وتقاليده . فاذا عرض لقضية السفور والحجاب ، جرى المحافظين في رأيهم بحجاب المرأة ؛ لان شاعر الامير لا يجمل به ان ينادي بالسفور ، وإن يكن هواه فيه ، وهو الذي شهد حضارة باريس ، وثقف ثقافة غربية راقية . ومما لا ريب فيه ان عقيدة الحجاب غير متمكنة من نفس الشاعر ، وان حافظ على تقاليدها في اسرته . فقد نظم قصيدة « صداح » ورمز الى المرأة بببليل جميل يكرم في قفصه ، ولا يطلق سراحه لئلا يطير ، فيهون على الصيادين . ورأى الغيد في الاستانة ، سوافر على ضفاف كوك صو يغتسلن ، فانكر الحجاب ، ونسي انه شاعر الامير :

قُلْ لِلْجَانِحِينَ إِلَى حِجَابٍ ، أَتُحْجَبُ عَنْ صَنِيعِ اللَّهِ نَفْسُ ؟
إِذَا لَمْ يَسْتُرِ الْأَدَبُ الْعَوَائِي ، فَلَا يُغْنِي الْخَرِيرُ وَلَا الدِّمَشْقُ

بيد انه لم يجرؤ على المجاهرة برفع الحجاب الا بعد ان ابتعد عن القصر ، وتحرر من سياسته ، وتقاليده ؛ فنقض قصيدة صداح ، واخذ برأي قاسم امين^١ ونادى بحرية الاناث . ودونك بعض ما يقول في صداح ثم في نقيضتها :

١ هو زعيم المنادين بتحرير المرأة المسلمة ، في كتابيه تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، توفي في مصر سنة ١٩٠٨ .

بِالرَّغْمِ مَتَّي مَا تُعَا لِحْ فِي التُّحَاسِ الْمَقْتَلِ
حِرْصِي عَلَيْكَ هَوَى، وَمَنْ يُحْزِرُ تَمِينًا، يَنْجُلِ

ومنها يحكم بالحجاب وطبيعته :

أَنْتَ ابْنُ رَأْيٍ لِلطَّيِّعَةِ فِيكَ غَيْرُ مُبَدَّلِ
أَبَدًا مَرُوعٌ بِالْإِسَارِ، مُهَدَّدٌ بِالْمَقْتَلِ
إِنْ طُرْتُ عَنْ كَنَفِي وَقَعْتَ عَلَى النَّسُورِ الْجَهْلِ

وقال في نقيضتها :

قُلْ لِلرِّجَالِ طَعَى الْأَسِيرِ، طَيْرُ الْجِبَالِ مَتَى يَطِيرُ ؟
أَوْهَى جَنَاحِيهِ الْحَدِيدُ، وَحَزَّ سَاقِيهِ الْخَرِيرُ
ذَهَبَ الْحِجَابُ بِصَبْرِهِ، وَأَطَالَ حَيْرَتُهُ السُّفُورُ

ومنها :

إِنَّ السَّمَاءَ جَدِيدَةٌ بِالطَّيْرِ، وَهُوَ بِهَا جَدِيرُ
وشوقي على الحالين، يرى تعليم المرأة ورقبها، ويأبى لها الجهل والحمول :
وَإِذَا النِّسَاءُ نَشَأْنَ فِي أُمِّيَّةٍ، رَضَعَ الرِّجَالُ جِهَالَةً وَخُمُولًا
وينكر بيعها بالدينار لرجل لا يستحقها . واكره شيء إليه ترويح الفتيات

بالشيوخ :

أَلْمَالُ حَلَّلَ كُلَّ غَيْرٍ مُحَلَّلٍ، حَتَّى زَوَاجَ الشَّيْبِ بِالْأَبْكَارِ
مَا زُوِّجَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ وَإِنَّمَا بَيْعَ الصَّبَا وَالْحُسْنُ بِالْدِينَارِ

ولم يقتصر تطور شعره على المرأة وحدها بعد تركه البلاط ، بل تجاوز الى اغراض الاجتماعية الطليقة من سياسة الخلافة، والعرش المصري ، الى الشعر الذي لا تقف دونه الحدود والامصار، الشعر الذي جعل من صاحبه شاعر الشعب لا شاعر الامير، وشاعر الشرق الاسلامي، لا شاعر مصر وحدها :

١ الحِجَالُ جَمْعُ حَجَلَةٍ : خدر المرأة .

كَانَ شِعْرِي أَلْغَاءً فِي فَرْحِ الشَّرِّ ق ، وَكَانَ أَلْغَاءً فِي أَحْزَانِهِ

ويجمع مصائب الشرق فيجعلها واحدة :

وَنَحْنُ فِي الشَّرْقِ وَالْقَصْحَى بَنُو رَحِمٍ ، وَنَحْنُ فِي الْجَرْحِ وَالْأَلَامِ إِخْوَانُ

وهذا البيت من قصيدة رائعة عارض بها نونية ابي البقاء الرندي، ونفثها في

دمشق زفرة حارة على المسجد الاموي، وعز بني امية البائد . قال منها :

بَنُو أُمَيَّةَ لِلْأَنْبَاءِ مَا فَتَحُوا ، وَلِلْأَحَادِيثِ مَا سَادُوا ، وَمَا دَانُوا
كَانُوا مُلُوكًا ، سَرِيرُ الشَّرْقِ تَحْتَهُمْ ، فَهَلْ سَأَلْتَ سَرِيرَ الْغَرْبِ : مَا كَانُوا ؟
عَالِينَ كَالشَّمْسِ فِي أَطْرَافِ دَوْلَتِهَا ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ، مُلْكٌ وَسُلْطَانُ
بِالْأَمْسِ قُمْتُ عَلَى الزَّهْرَاءِ أُنْدُبُهُمْ ، وَالْيَوْمَ دُمِعِي ، عَلَى الْفَيْحَاءِ ، هَتَانُ ١
مَعَادِنُ الْغَزْرِ قَدْ مَالَ الرِّغَامُ بِهِمْ ، لَوْ هَانُ فِي تَرْبِهِ الْإِبْرِيْزُ مَا هَانُوا
مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسْأَلُهُ « هَلْ فِي الْمَصَلَّى ، أَوْ الْحَرَابِ ، مَرْوَانُ ؟ »
تَغَيَّرَ الْمَسْجِدُ الْمَحْزُونُ ، وَاحْتَلَقَتْ ، عَلَى الْمَنَابِرِ ، أَحْرَارُ وَعِبْدَانُ
فَلَا الْأَذَانُ أَذَانٌ فِي مَنَارَتِهِ ، إِذَا تَعَالَى ، وَلَا الْأَذَانُ أَذَانُ

وله قافيةً بديعة نظمها لما نكبت دمشق في الثورة الدرزية السورية على عهد

الجنرال ساراي القائد الفرنسي وفيها عتاب لطيف لفرنسة التي احبها ، وطالما اشاد

بذكرها لتثقفه فيها . قال منها والخطاب لدمشق :

رَمَّاكِ بِطَيْشِهِ ، وَرَمَى فَرَنْسَا أَخُو حَرْبٍ ، بِهِ صَلَفٌ وَحُمْقُ
إِذَا مَا جَاءَهُ طَلَّابُ حَقٍّ ، يَقُولُ : عِصَابَةٌ خَرَجُوا وَشَقُّوا
دَمُ الثَّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا ، وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ
جَرَى فِي أَرْضِهَا ، فِيهِ حَيَاةٌ ، كَمُنْهَلِ السَّمَاءِ ، وَفِيهِ رِزْقُ
بِلَادُ مَاتَ فِتْنَتُهَا لِتَحْيَا ، وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَبْقُوا

١ الزهراء : قصر للمعتد بن عبَّاد على نهر اشبيلية . ومدينة قرب قرطبة ، بناها عبد الرحمن الثالث الخليفة الاموي .

وَحَرَّرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاهَا ، فَكَيْفَ عَلَى قَنَاهَا تُسْتَرْقُ !

ومنها هذا البيت العاثر :

وَالْحُرِّيَّةُ الْحَمْرَاءُ بَابٌ ، بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

ومن قصائده الاجتماعية السامية مملكة « النحل » وفيها يدعو الى العمل والاستقلال الذاتي ، بأسلوب رمزي جميل يصف به دولة النحل وما هي عليه من نظام وتدبير وبعد نظر . وكذلك قصيدته مضاير الايام في وصف حياة الانسان منذ عهده بالمدرسة الى يوم يشيب ، ويطويه الدهر ، وهي من خير شعره .

على ان شغفه بالاجتماعيات كلّفه ان يتناول كل دقيقة وجليلة منها ، فرويت له قصائد باردة ، ضعيفة الروح الشعري ، كقصيدة ايها العمال ، وقصيدة الصحافة ، وسواهما .

الدين

لم يكن شوقي من المتعبدين القانتين الذين يصرفون النفس عن متع الحياة وملاذها ، ولا يجدون مشقة في التثبت باحكام الدين وفروضة واتباع اوامره ونواهيه . بل ابتلي بالمعاصي كما ابتلي غيره من الشعراء ، وشرب الخمر ولها وعبث . وقعدت همته عن الحج الى البيت الحرام عندما دعاه الخديوي عباس الى مراقبته ، فاعتذر شاكياً تعب الرحلة ، وبعد الشقة ، في حين لم يضق بأسفاره العديدة الى الاستانة ، ومدائن اوربة .

على انه لم يكن مغموز العقيدة فآثر الايمان ، وانما هو من اولئك الجماعة الذين عظمت نقتهم بعفو الله ، فلم يجرموا النفس شهواتها ، ولا اخرجوها باتباع الشرائع ، واقامة احكامها :

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْعُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلَنِي فِي خَيْرٍ مُّقْتَصِمٍ
وكان للدين اثر قوي في شعره ، اصطبغت به شتى قصائده ، بله القصائد التي خصها بهذا الغرض ، كنهج البردة ، والهمزية النبوية^١ في مدح محمد ، وذكر سيرته . فقصيدته التي قالها في مؤتمر المستشرقين هي تاريخ لديانات المصريين القدماء ، وللاديان الثلاثة التي جاء بها موسى والمسيح ومحمد . واليك قوله في مولد عيسى :

١ عارض بها بردة البوصيري وهمزيته . مطلع البردة :
أَمَنْ تَذَكَّرَ حَيْرَانَ بِذِي سَلَمٍ ، مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ يَدَمٍ
ومطلع نهج البردة :
رَبِّمْ عَلَى اقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ ، أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
ومطلع همزية البوصيري :
كَيْفَ تَرُقِي رُقِيَّكَ الْأَنْبِيَاءُ ؟ يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَاءُ ؟
ومطلع همزية شوقي :
وُلِدَ الْهَدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ ، وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

وُلِدَ الرَّفِيقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عِيسَى ، وَالْمُرُوءَاتُ ، وَالْهَدَى ، وَالْحَيَاءُ
وَأَزْدَهِيَ الْكُونُ بِالْوَلِيدِ، وَضَاءَتْ ، بِسَنَاهُ مِنَ الثَّرَى الْأَرْجَاءُ
وَسَرَتْ آيَةُ الْمَسِيحِ كَمَا يَنْسَرِي - ، مِنَ الْفَجْرِ فِي الْوُجُودِ، الضِّيَاءُ
تَمَلَّأُ الْأَرْضَ وَالْعَوَالِمَ نُورًا ، فَالْثَّرَى مَا سَجَّ بِهَا وَضَاءُ
لَا وَعِيدٌ ، لَا ضَوْلَةٌ ، لَا أَنْتِقَامٌ ، لَا حَسَامٌ ، لَا غَزْوَةٌ ، لَا دِمَاءُ

وقوله يصف التنزيل على محمد :

فَلِجَبْرِيلَ جَيْشُهُ وَرَوَاحٌ ، وَهُبُوطٌ ، إِلَى الثَّرَى ، وَأَرْتِقَاءُ
يَحْسَبُ الْأَفْقُ ، فِي جَنَاحِهِ نُورٌ ، سُلْبَتُهُ النُّجُومُ وَالْجُزَاءُ
تِلْكَ آيُ الْفُرْقَانِ أَرْسَلَهَا اللَّهُ ضِيَاءً يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ
نَسَحَتْ سُنَّةَ النَّبِيِّينَ وَالرُّسُلِ كَمَا يَنْسَخُ الضِّيَاءُ الضِّيَاءُ

وشوقي مولع بذكر الانبياء والملائكة والقديسين، والجنة وحورها وولدانها .
ومولع بالتلميح الى الحوادث الدينية المشهورة ومولع خصوصاً بالتحدث عن المسيح لا
يتترك سائحة الا ذكره فيها . فاذا نعت نفسه بالصفح والرحمة تشبهه بابن مريم فقال :
وَلَا بَيْتٌ إِلَّا كَابْنِ مَرْيَمَ مُشْفِقًا ، عَلَى حُسْدِي ، مُسْتَغْفِرًا لِعِدَاتِي
واذا ذكر الدستور، شبهه بعيسى، ورأى فيه شقاء لعميان البصائر ، وانهاضاً
للمقعدين الخاملين :

فَدَاوِ بِهِ الْبَصَائِرَ فَهُوَ عِيسَى ، وَفُكَّ بِرَاحَتِيهِ الْمُقْعِدِينَ^١

ولا يتخرج ان يجاري عقيدة النصارى في المسيح، فيعترف بصلبه وقيامته . قال
يخاطب توت عنخ امون بعدما نبش عن آثاره :

خَرَجْتَ مِنَ الْقُبُورِ خُرُوجَ عِيسَى ، عَلَيْكَ جَلَالَةٌ فِي الْعَالَمِينَا

١ في هذا البيت تقديم وتأخير . والمراد : في جناحي جبريل نور يحسبه الافق انه
مسلوب من النجوم والجوزاء . ٢ الخطاب للملك فؤاد . والضمير في به للدستور .

وقد يتخذ المسيح والصليب حجة له في مخاطبة دول النصارى بالشؤون السياسية .

قال في اندلسيته الجديدة :

عِيسَى سَيِّئُكَ رَحْمَةً وَمَحَبَّةً ، فِي الْعَالَمِينَ ، وَعِصْمَةً ، وَسَلَامٌ
مَا كُنْتَ سَقَاكَ الدِّمَاءُ ، وَلَا أَمْرًا هَانَ الضَّعَافُ عَلَيْهِ وَالْأَيْتَامُ
يَا حَامِلَ الْأَلَامِ عَنْ هَذَا الْوَرَى ، كَثُرَتْ عَلَيْهِ ، بِأَسْمِكَ ، الْأَلَامُ

وقال يخاطب اللورد ألنبي بعد رفع الحماية عن مصر :

يَا فَاتِحَ الْقُدْسِ ، خَلَّ السَّيْفَ نَاحِيَةً ، لَيْسَ الصَّليبُ حَدِيدًا كَانَ ، بَلْ خَشْبًا
إِذَا نَظَرْتَ إِلَى آيِنٍ أَنْتَهَتْ يَدُهُ ، وَكَيْفَ جَاوَزَ فِي سُلْطَانِهِ الْقُطْبُ
عَلِمْتَ أَنَّ وَرَاءَ الضَّعْفِ مَقْدَرَةٌ ، وَأَنَّ لِلْحَقِّ ، لَا لِلْقُوَّةِ ، الْغَلْبَا

فالدين كما ترى بل الاديان على اختلافها ، تشغل جانباً عظيماً من منظومات

الشاعر .

الوصف

فتح شوقي للوصف باباً رحباً في شعره ؛ وتناول الموصوفات على شتى أنواعها ، واجاد نعتها وتصويرها . وهو بارع في الاوصاف المسادية اكثر منه في الاوصاف الروحانية ، يجيد نعت اعضاء المرأة وحسن صورتها . وقد يضيق بوصف لواجع الحب ، واثر الغيرة في النفس ، وتصوير عواطف المرأة ، وطباعها ، واهوائها . ويحسن نعت الطبيعة الناضرة الباسمة ، وعرض مفاتنها ، واتساق ألوانها . ويقصر في تصوير احساسه بها ، واتحاد روحه بروحها . ويعين في ذكر المغنين ، ومدح اصواتهم . وقلما عني بوصف الغناء ، واطهار مواطن الجمال فيه فعل ابن الرومي .

واوصافه منها قديمة ينسحب بها على اذنيال المتقدمين كوصف الخمر والمرأة . ومنها جديدة كوصف الرقص الحديث ، وحضارة المدن الغربية وآثار الفراعنة ، وصبيان المكتب ، والطيارات ، والغواصات . ومنها بين القديم والحديث كوصف الطبيعة ، والحرب ، والرسوم والآثار ، والمدن المنكوبة .

وله صور رائعة ترسم المشهد المتعدد الحالات بايجاز قوي ، وسرعة فائقة ، كوصف غرق السفينة :

طُعِنَتْ ، فَأَنْبَجَسَتْ ، فَاسْتَصْرَحَتْ ، فَأَتَاهَا حَيْنُهَا ، فَهِيَ خَبِرٌ

ووصفه درجات الحب :

نَظْرَةٌ ، فَأَيْتَسَامَةٌ ، فَسَلَامٌ ، فَكَلَامٌ ، فَمَوْعِدٌ ، فَلِقَاءٌ

ووصفه انطلاق المدفع :

إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرَ أَفْقٍ ، عَلَى جَنْبَاتِهِ ، وَأَسْوَدَ أَفْقٍ

وينطلق به خيال جميل مجنح ، يطير الى الصور المخدرة ، فيهتك حجابها ويسجها

١ هذه السفينة اغرقها غواصة ، لذلك قال طُعِنَتْ .

بشتی الالوان ، ویجسمها ، ویجی میتها . کوصفه الريح وقد مرت علی بردی ،
فارتدت بليلة :

وَقَدْ صَفَا بَرْدَى لِلرَّيْحِ ، فَأَبْتَرَدَتْ
ثُمَّ انْتَشَتْ لَمْ يَزُلْ عَنْهَا الْبَلَالُ ، وَلَا
لَدَى سُتُورٍ ، حَوَاشِيَهُنَّ أَفْنَانُ
جَفَّتْ مِنْ الْمَاءِ أَذْيَالُ وَأَرْذَانُ

الغزل

تغزل شوقي، ولكنه لم يبرح في هذا الفن براعته في غيره من الاغراض ؛ لان الغزل من الوجدانيات التي ينبغي للشاعر ان يحس تأثيرها في نفسه ؛ فان لم يكن لآلم الحب من سلطان على قلبه ، فهيئات ان يأتي بغزل عاطفي صادق اللوعة ، متواصل الحنين . وشوقي لم يكن من المتيمين المتألمين ، ولا من العشاق الروحانيين ، وانما هو صاحب لذة يتبعها في مواطنها ، فما تحرمة سعة يده الوصول اليها . فلم يشعر بذلك الالم الذي يشعر به من يغرى بشيء . ويصعب عليه نيله ، فيأسف عليه ويأسى ، وتثور عاطفته وجداً وكداً ، فيلفظها لسانه قطعاً دائمة من افلاذ كبده .

ولم يكن شوقي مجاهراً بلذته فيستر عجزه عن بث لواعجه بعشاء من القصص الغرامي ؛ لان البيئة التي وجد فيها قضت عليه بالترصن والتستر . فشاعر الحديوي لا يصح له ان يكون مستهتراً ؛ بل لا يصح له ان يعنى بالنسيب . وربما استهل مدحته متغزلاً ، واراد نشرها في جريدة الحكومة ، فتعوز بطانة الامير الى مدير المطبعة ان يسقط الغزل منها ، كما اصاب قصيدته : خدعوا بقولهم حسناء .

ومثل هذا التعرض من الحكومة يحمد نشاط الشاعر الى النسيب ، ويحملة على الاقتصاد فيه ، وقلة التبسط في شرح احواله .

وشوقي في غزله مقلد متكلف ، يترسم البهاء زهير في سهولة الفاظه ، ولين تعابيره ، وخفة اوزانه ، وابتدال معانيه :

مُضَيٌّ ، وَلَيْسَ بِهِ حِرَاكٌ ، لَكِنْ يَخْفُ إِذَا رَأَى

فكانه ينظم هذا الشعر ، لا رغبة في النسيب ، وانما ليتغنى به المغنون .

ويعارض ابا الحسن الحصري القيرواني في قصيدته الشهيرة : يا ليلُ ، الصبُّ متى غده ؟ والمعارضة ضرب من التقليد :

مُضْنَاكَ جَفَاءُ مَرَقْدُهُ ، وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عَوْدُهُ

ويحاول ان يحتدي على مثال ابن ابي ربيعة في زيارته الليلية ، فيطرق فتاة الحبي، وترجوه النساء ؛ حتى اذا عرفنه ، طلبن منه الامان للعدارى . ولكنه يقصر عن عمر اشواطاً، سواء في الصراحة والصدق، او في جمال القصص والحوار .
ويصطنع غزل الشعراء الفرسان، فيمزج الفاظ الحب بالفاظ الحرب ، وهو لم يشهد وغى، ولا حمل سيفاً ولا رمحاً :

فَلَكُمْ رَجَعْتُ مِنَ الْأَسِنَّةِ سَالِمًا ، وَصَدَرْتُ عَنْ هَيْفِ الْقُدُودِ طَعِينًا
ويدخل الحكمة في نسيه كالمثني :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَدْرَ فِي النَّاسِ شَائِعٌ ، وَأَنَّ خَلِيلَ الْغَانِيَاتِ مُضِيعٌ
ويخشوشن مثله، فيقاتل العيون، كما قاتل استاذهُ الحدود :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ الْعُيُونَ فَإِنَّهَا ، فِي حَرِّ مَا نَضَلَى، الضَّعِيفُ الْبَادِي
ويتغزل بالطبيعة كأنها امرأة فعل ابن الرومي :

وَدَخَلْتُ فِي لَيْلَيْنِ : فَرَعَكِ وَالْدُجَى ، وَلَكُثْتُ كَالصُّبْحِ الْمُنُورِ فَالْكُ

وهو مقلد في وصف محبوبه ، يعنيه ان ينعث شعره وعينه ، وثغره ورضابه وقوامه ؛ ويخصه بالتشاييه المبتذلة : بالليل، والسيوف، واللؤلؤ، والكوثر، والغصن .
وقلما يلتفت الى وصف العواطف والاهواء ، وما يعتاد النفس من شوق وصبابة ، وغيرة وحرقة ، وخوف وامن ، ويأس ورجاء ؛ او الى تصوير طباع محبوبه ، وما يلتقطه من حركاته وسكناته، وغنجه ودلاله . بيد انه يذكر طول ليله ، ويراعي النجم، ويتحدث الى الحمام، ويشكو ويئن ويتظلم متشبهاً بالشعراء الاقدمين .

ولا يخلو غزله من جمال الفن وحسن الصناعة، وان خلا من صدق العاطفة، وجدة المعنى . وقد تخضع له ابكار المعاني، ولا تستسلم بنات العواطف كقوله :

صُوْنِي جَمَالَكَ عَنَّا إِنَّا بَشَرٌ ، مِنْ الْأَرَابِ ، وَهَذَا الْخُسْنُ رُوحَانِي
أَوْ فَأَبْنِي فَلَكَا ، تَأْوِينُهُ مَلَكَا ، لَمْ يَتَّخِذْ شَرَكَا ، فِي الْعَالَمِ الْفَانِي

المدح

لم يكن شوقي اول الامر يرى خيراً في المدح، وانما كان يأسف ان يتخذ الشعر حرفة للتكسب . وقد اعرب عن هذا الرأي في مقدمة ديوانه الاول ، ونعى على الشعراء الذين يضيعون شعرهم بالمديح . ولكنه اعترف بانه ينهى عن خلق ويأتي مثله، واعتذر بقوله : « انه قرع ابواب الشعر، ولم يجد امامه الا دواوين لا مظهر للشعر فيها، وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء . والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحاً في مقام عال، ولا يرون غير شاعر الحديوي صاحب المقام الاسمي . » فما زال يتمنى هذه المنزلة حتى بلغها، واصطنع المديح، واتبع القدماء ؛ لانه رأى ان الخير في الاحتراس من مفاجأة الناس بالشعر الجديد دفعة واحدة .

واذا عدنا الى منظوماته في صباه نرى انه كان يحاول ان يتخذ للشعر وجهة جديدة تبعد به عن القديم البالي . ولكن الاقدار عاكسته من حيث سلمته ، واصابه ما اصاب شعراء العرب من قبل : حظوة عند الامراء، ورزق واسع ، وشاعرية مقيدة مرهونة بالمديح، وما يشبه المديح . فقع من دنياه بان يكون :

شَاعِرُ الْعَزِيزِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا الْقَلْبِ

فانصرف الى المدح الذي كان يققته ، ويجد به غضاضة على الشعراء والشعراء . فأنس به بعد استيحاش، وحالفه بعد خلاف . ولم يتخرج من القلو الممقوت والتزلف والتذلل ؛ ولم يجزع من التقهقر مئآت من السنين الى الوراء :

وَقِيلَ : «أَبْنُ رَبِّ الْبَلِيلِ !» فَأَفْتَرَّتِ الْفَرَى ، وَنَاجَى الْاَثَرَى نَعْلَيْكَ يَسْتَوْهَبُ الْخَضْبَا

فَلَسَمِعَ لِعَبْدِكَ ، وَأَبْنُ عَبْدِكَ مَنْطِقًا مُتَطَايِرًا بِكَ فِي الْقَوَائِي صَيْثُهُ

إِلَيْكَ عَزِيزَ الْمَالِكِينَ بَعَثَهَا ، ثَقِيلُ عَنِّي ، دُونَ أَعْتَابِكَ ، اَلْثَرَبَا

وبلغ من افراطه في تقويه الحقيقة أن جعل عصر عبد الحميد خير العصور على
الرعية :

عَمَرْتُ أَنْتَ ، بَيْدَ أَنْكَ ظِلٌّ لِلْبَرَايَا ، وَعِصْمَةٌ وَسَلَامٌ
مَا تَتَوَجَّعُ بِالْخِلَافَةِ حَتَّى تُوَجَّعَ الْبَالُسُونُ ، وَالْأَيْتَامُ
وَسَرَى الْخَضْبُ وَالنَّاءُ وَوَأَفَى الْبَشَرُ وَالظِّلُّ وَالْجَنَى وَالْغَمَامُ

وكان معجباً بمدايح البحترى، وحسن ديباجته . فلما اراد ان يصف موكب عباس
في يوم عيده، لم يغفل عن معارضة الوليد في رائيته التي وصف بها موكب المتوكل يوم
الفطر . فتوكلأ عليها، وتعلق بالفاظها ومعانيها، ولكنه انحدر عنها انحداراً مشووماً .
قال في مطلعها متغزلاً :

أَشْكُو هَوَاكَ لِمَنْ يَلُومُ فَيَعْذِرُ ، وَأُجَادِلُ الْعُدَالَ فَيْكَ ، وَأَكْثِرُ

ويثب فيها الى المدح وثباً كصاحبه البحترى حتى يصل الى وصف الموكب :

بَاكَرْتَ دَارَ الْمَلِكِ فِيهِ بِمَوْكِبٍ ، قَامَ السَّرَاةُ بِهِ ، وَحَفَّ الْعَسْكَرُ
رَاعَتْ رَوَاقُهُ النَّهَارَ جَلَالَةً ، فَالْشَّمْسُ تُجْفِلُ ، وَالضُّحَى تَسْتَأْخِرُ
كُمِّي الْخَمِيسُ بِهِ جَمَالَكَ رَوْنَقًا ، وَأُعِيرَ غُرَّتَكَ اللَّوَاءُ الْأَحْمَرُ
فَالْأَرْضُ مَائِجَةٌ الْمَذَاهِبِ بِأَلْقَنَّا ، وَالْأَفُقُ حَالٍ بِالسُّيُوفِ مُجَوَّهَرُ

غير انه بعد رجوعه من الاندلس ، وتخلسه من شرك القصر ، تغيرت صبغة
مدائحهم، فذهب عنها الغلو الكاذب ، وترفعت عن العبودية والزلفى ، وان لم تنتزه في
الجملة عن التقليد . فاصبح الشاعر يتخذ من المدح وسيلة الى النصح والارشاد، وطلب
الاصلاح وال عمران كقوله يمدح الملك فواداً :

فَعَجِّلْ يَا ابْنَ إِسْمَاعِيلَ عَجَلْ ، وَهَاتِ النُّورَ ، وَأَهْدِ الْخَائِرِينَ
هُوَ الْمَصْبَاحُ ، فَأَتِ بِهِ وَأَخْرِجْ ، مِنْ الْكَهْفِ ، السَّوَادَ الْغَافِلِينَ

مَلَايِيْنُ تَجْرُ الْجَهْلَ قَيْدًا ، وَتُسْحَبُ بِالْقَلِيلِ الْمُطْلَقِيْنَا
فَدَاوِ بِهِ الْبَصَائِرَ فَهَوَ عَيْسَى ، وَفَكَ بِرَاحَتِهِ الْمُتَعَدِّيْنَا

وممدوحو شوقي كثير، فمن الامراء العلويين : اسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ،
والحسين، وفؤاد . ومن الخلفاء : عبد الحميد الثاني، ومحمد رشاد . ومن الرؤساء
والزعماء : مصطفى كمال، وسعد زغلول . ومن الدول : فرنسا ، وانكلترة . ومهما
تعدد ممدوحوه من امراء مصر ، فهو صادق العاطفة ، يخلص لهم الولاء جميعاً ؛ وان
اختلفت لهجته في مخاطبتهم باختلاف زمانه ومكانه . وهو صادق في مدح الاتراك
ملكيين كانوا او جمهوريين . واصفى مودة لفرنسة منه لانكلترة .

الرثاء

توفر شوقي على الرثاء اكثر منه على المدح لان مدائح كادت لا تتجاوز طبقة الملوك والامراء والزعماء . واما مرثيته فقد عمت طبقات مختلفة . فانتظم له منها شيء غير قليل . ولقي بسببها لوم النقاد وعنتهم ، والى هذا يشير في بعض مرثياته :

يَقُولُونَ يَرِثِي الْوَارِثِينَ فَوَيْحَهُمْ ، أَأَمَلْتُ عِنْدَ الرَّاحِلِينَ الْجَوَازِيَا !

ولا نكير ان الشاعر صادق ، لم يتخذ الرثاء اداة للتكسب والزلفى ، بل كان يندفع اليه اما بعامل التأثير ، واما بعامل الواجب ، واما ارضاء للحاسة الفنية في نفسه . وكان صادق الولاء في كثير من مرثيته ، باذي الحزن والاسف . غير انه لم يكن بكاء عاطفياً ، ولا مصوراً للوعته وحزنه ، ووقع المصاب عليه ، حتى في رثائه لاحب الناس اليه كابييه وامه وجدته ، والامير توفيق ولي نعمته . فكان قواه العاقلة تأبى عليه ان يستسلم الى الضعف والجزع عند حلول النوائب . وتزين له الصبر والترصن والحكمة . فكان رثاؤه لابييه تفسفاً اكثر منه تفجعاً :

أَنَا مَنْ مَاتَ وَمَنْ مَاتَ أَنَا ، لَقِيَ الْمَوْتَ كِلَانَا مَرَّتَيْنِ
نَحْنُ كُنَّا مُهْجَةً فِي بَدَنِ ، ثُمَّ صِرْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنَيْنِ
ثُمَّ عُدْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنِ ، ثُمَّ نَلَقِيَ جُثَّةً فِي كَفْتَيْنِ
ثُمَّ نَحْيَا فِي عَلِيٍّ بَعْدَنَا ، وَبِهِ نُبْعَثُ أُولَى الْبَعْثَيْنِ

ونعت اليه والدته وهو بالاندلس ، وهي بمصر ، فتذكر المتنبى عندما نعت اليه جدته وهو بعيد عنها . و اراد الرثاء فغلب عليه حب المعارضة ، فخضع لارادته ، مع ما هو عليه من الحزن والالم ، فجاءت مرثيته متكلفة ظاهرة التقليد ، تعرج عرجاً وراء قصيدة ابي الطيب . وقد صدرها بالشكوى والحكم المبتذلة حتى وصل الى قوله ، وفيه التقليد البين :

لَكَ اللَّهُ مِنْ مَطْعُونَةٍ بَقَيْنَا التَّوَى ، شَهِيدَةَ حَرْبٍ ، لَمْ تُقَارَفْ لَهَا إِثْمًا
 سَقَاهَا بِشِيرِي ، وَهِيَ تَبْكِي صَابَةً ، فَلَمْ يَقَوْ مَغْنَاهَا عَلَى صَوْبِهِ رُسْمًا
 أَسَتْ جُرْحَهَا الْأَنْبَاءَ غَيْرَ رَفِيقَةٍ ، وَكَمْ نَازِعٍ سَهْمًا ، فَكَانَ هُوَ السَّهْمًا
 تَعَارُ عَلَى الْحُمَى الْقَضَائِلَ وَالْعَلَا ، لِمَا قَبَلَتْ مِنْهَا ، وَمَا ضَمَّتِ الْحُمَى

ولم يغفل عن التبجح بنفسه حتى الافراط اسوة بأبي الطيب :

أَتَيْتَ بِهِ لَمْ يَنْظِمِ الشِّعْرَ مِثْلُهُ ، وَجِئْتَ لِأَخْلَاقِ الْكِرَامِ بِهِ نَظْمًا
 وَلَوْ نَهَضَتْ عَنْهُ السَّمَاءُ ، وَمَخَضَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، كَانَ الْأَمْرُ ، وَالْثَبَرُ ، وَالْكَرْمُ

ولم يكن رثاؤه لجدته خيراً من رثائه لأمه ، ولا اقل تقليداً للمعتبي . واما
 رثاؤه لتوفيق ، فاوله حكم عامة ومغالة بالرزء ، ثم وصف للميت ، ثم مدح وتهنئة
 بالامارة لابنه عباس .

ومراثي شوقي في الجملة تفجع على الميت بتعظيم الخسارة فيه ، واطهار مناقبه
 واعماله ، واستطراد الى الحكم والمواعظ ، او الى اغراض في السياسة والعمران .
 وربما اتخذ من حرفة الميت اداة للثناء ، كقوله في عثمان باشا غالب وكان عالماً بالنبات :

صَجَّتْ ، لِمَصْرَعٍ غَالِبٍ ، فِي الْأَرْضِ ، مَمْلَكَةُ النَّبَاتِ
 أَمَسَتْ يَتِيحَانِ عَلَيْهِ مِنْ الْحِدَادِ مُنْكَسَاتِ

ومن خصائصه ان يتحدث الى الاموات ، فامّا يسألهم عن الآخرة ، او عن الاولى
 او عن الاشياء التي كانوا يتعاطونها في الحياة . واما يكلفهم القيام من قبورهم
 لينظروا الى ما استجد بعدهم من الامور السياسية والعمرانية . قال في رياض باشا :

١ يقول : سقاها البشر برجوعي من الاندلس صوباً هطالاً من السرور وهي تبكي
 شوقاً ، فلم يستطع رسم مغناها اي جسمها الضعيف ان يحتمل هذا المطر القوي . ٢ السماء :
 السحاب . يقول : لو ارتفع عنه السحاب متبخراً ، او لو تخضت به الارض لتلد شيئاً ، لكان
 للسحاب مطراً بكرمه ، وللارض ذهباً بنفاسته ، وكرماً بشمره اي خمرأ تسكر .

رَهِيْنَ الرَّمْسِ حَدَّثَنِي مَلِيًّا ، حَدِيثَ الْمَوْتِ تَبَدُّ لِي الْعِظَاتُ
سَأَلْتُكَ : مَا الْمُنِيَّةُ ؟ أَيُّ كَأْسٍ ؟ وَكَيْفَ مَذَاقُهَا ، وَمَنْ السَّقَاةُ ؟

وقال في الحسين بن علي ملك الحجاز :

قُمْ تَحَدَّثْ أَبَا عَلِيٍّ إِلَيْنَا ، كَيْفَ غَامَرْتَ فِي جَوَارِ الْأَرَاقِمِ ؟

وقد يشبه المريثي بالشمس القافلة ، متمنيا أن يكون يوشع ليردها عن مغيبها .

قال في سعد زغلول باشا :

شَيِّعُوا الشَّمْسَ وَمَا لُوا بِضُجَاهَا ، وَأَنْعَنِي الشَّرْقُ عَلَيْهَا ، فَسَكَاهَا

لَيْتَنِي فِي الرِّكْبِ لَمَّا أَفَلَتْ ، يُوشَعُ ، هَمَّتْ ، فَنَادَى ، فَتَنَاهَا

وكان له بالمغنين صلوات وثيقة لعنايتهم بملحين شعره ، والتغني فيه . فلم يمت

مغن محسن في مصر الا خضع بمرثية . فقد رثى عبده الحمولي ، وعبد الحي ، والشيخ

سلامة حجازي ، والشيخ سيّد درويش . قال في عبده الحمولي :

سَاجِعُ الشَّرْقِ طَارَ عَنْ أَوْكَارِهِ ، وَتَوَلَّى فَنُ عَلَى آثَارِهِ

ومنها البيت المشهور :

يَسْمَعُ اللَّيْلُ مِنْهُ فِي الْفَجْرِ يَا لَيْلُ فَيُضْغِي مُسْتَهْلًا فِي فِرَارِهِ

وقال في عبد الحي :

رُحْمَاكَ عَبْدَ الْحَيِّ أُمُّكَ شَيْخَةٌ ، قَعَدَتْ ، وَهَيْضَ لَهَا الْعِدَاةَ جَنَاحُ

كُسِرَتْ عَصَاهَا الْيَوْمَ ، فَهِيَ بِلَا عَصَا ، وَقَضَى فَنَاهَا الْأَجُودُ الْمِسْمَاحُ

ويختصها :

قُمْ غَنِّ وَلَدَانِ الْجِنَانِ وَحُورَهَا ، وَأَبْعَثْ صَدَاكَ ، فَكَلَّنَا أَرْوَاحُ

وله مرثي في جماعة من الشعراء والكتاب المشهورين كاسماعيل صبري باشا ،

وحافظ ابراهيم ، وجرجي زيدان ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، ويعقوب صرّوف ،

ومحمد المويلحي . وفي طبقة من زعماء السياسة والاجتماع في مصر : مصطفى كامل ، وسعد باشا زغلول ، وبطرس باشا غالي ، وثروة باشا ، ومصطفى باشا فهمي ، ورياض باشا ، وقاسم امين نصير المرأة .

وربما تناول بمرائيه عظماء الشرق والغرب ؛ كراثئه لنجل امام اليمن ، وفوزي الغزي الزعيم السوري ، والملك حسين بن علي ، والشاعر الموسيقي الايطالي فردي ، وفيكتور هيغو ، وتولستوي . واجمل رثائه ما بكى فيه على ممالك المسلمين البائدة ، ومدنهم المنكوبة ، فان عاطفة الدين تُشيع به روعة وجلالاً . فمن ذلك بكاءؤه على ادرنة ، وعلى دمشق ؛ وعلى الخلافة بعد ان محاهها الغازي مصطفى كمال .

الفخر

ليس لشوقي قصائد في الفخر قائمة برأسها ، وانما له ابيات متفرقة يفتخر فيها على الغالب بشعره وسيرورته ، مترسماً خطه ابي الطيب المتنبي . وربما افتخر بنسبه في الترك ، وبكرم اخلاقه :

رُؤَاةُ قَصَائِدِي ، فَأَعْجَبَ لِشَعْرِ بِكُلِّ مَحَلَّةٍ ، يَرْوِيهِ خَلْقُ

.....

وَأَرْسَلْتُهَا فِي سَمَاءِ الْخِيَالِ ، تَجُرُّ عَلَى النَّجْمِ أَذْيَالَهَا

الحكمة والاضيق

لم يكن شوقي فيلسوفاً صاحب مذهب خاص يشيد به ، ويدعو اليه وانما كان شاعراً مثقفاً ، مطلعاً على طرف صالح من الفلسفة الاسلامية . فكانت له آراء في الحياة والاجتماع ، توكتا في اكثرها على الاقدمين . فقال مثلهم بوحدة النفس الكلية ؛ وتنقل اجزائها في الذراري الى ان تفنى الاعيان ، فتعود الى مقرها الازلي . وقد اشار الى هذا التنقل في رثائه لابييه : « انا من مات ومن مات انا . » وتحدث عن النفس في قصيدة اخرى ، عارض بها عينية الرئيس ابن سينا ، فقاده حب المعارضة الى ان يجاريه في رأيه الافلاطوني . فقال بان النفس الجزئية اهبطت الى الجسم من عالم الارواح . وشبه النفس الكلية بالشمس ، والنفوس الجزئية بالاشعة ، تطلع على العاير والعاير . فاذا انطوت الحياة ، ترجع النفوس الجزئية الى مصدرها الكلي كما ترجع الاشعة الى الشمس عندما ينطوي النهار :

يَا نَفْسُ مِثْلُ الشَّمْسِ أَنْتِ : أَشَعَّةٌ فِي عَايِرٍ ، وَأَشَعَّةٌ فِي بَلَقَعٍ
فَإِذَا طَوَى اللَّهُ النَّهَارَ ، تَرَجَعْتَ شَتَّى الْأَشَعَّةِ ، فَالْتَقَتْ فِي الْمَرْجِعِ

على ان هذا المذهب لم يكفر الشاعر مؤونة التطلع الى ما بعد الطبيعة ، لاستشفاف تلك الاسرار المعلقة على ابناء هذه الحياة :

يَا صَاحِبَ الْعَصْرِ الْخَالِي أَلَا خَبْرٌ ، عَنْ عَالَمِ الْمَوْتِ يَرْوِيهِ الْأَلْبَاءُ !
أَمَّا الْحَيَاةُ ، فَأَمْرٌ قَدْ وَصَفَتْ لَنَا ، فَهَلْ لِمَا بَعْدَ تَمْثِيلٍ وَإِدْنَاءِ ؟

فاذا عزه الامر وقف حائراً عاجزاً ، كما وقف المتنبّي والمعري قبله :

فِي الْمَوْتِ مَا أَعْيَا ، وَفِي أَسْبَابِهِ ، كُلُّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِطَيِّ كِتَابِهِ

وقد ينتحل رأي ابي العلاء في ان الروح هي الجانية على الجسم والمسبية

لفنائه :

فَإِنَّ الْحَيَاةَ تَفُلُّ الْحَدِيدَ ، إِذَا لَبَسْتَهُ ، وَتُبْلِي الْحَجَرَ

واطلق بعضهم على شوقي لقب شاعر الاخلاق، ولا ندرى اكان هذا اللقب من اجل ما له من الشعر في التربية والتهديب الاجتماعي ؛ ام كان من اجل استمساكه بلفظة الاخلاق ، وتردادها في منظوماته عشرات المرات، حتى صار بها الى الابتذال ، وبدا تطفلها في معظم شعره . وحسبك منها قوله :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ ، فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ، ذَهَبُوا

فهذا البيت من الامثال السائرة . فتح لشوقي معناه ، ووفق فيه ، ولكنه افسده ، ووضع قدره بكثرة تكراره له :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ ، فَإِنْ تَوَلَّتْ ، مَضَوْا فِي إِثْرِهَا قُدَمَا

كَذَا النَّاسُ بِالْأَخْلَاقِ يَبْقَى صَلَاحُهُمْ ، وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ ، حِينَ تَذْهَبُ

وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ وَهِيَ خُلُقٌ ، فَإِنَّهُ وَهْيُ أَسَرِّ

وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ ، فَأَقَمَ عَلَيْهِمْ مَا تَمَّ وَعَوِيلاً

وَلَيْسَ بِعَاوِرِ بُنْيَانِ قَوْمٍ ، إِذَا أَخْلَاقُهُمْ كَانَتْ خَرَابًا
وليس هذه الايات جميع ما ورد له في هذا المعنى ؛ وانما هي بعض من كل ،
والذي اغفلناه اكثر من الذي اثبتناه . واما ما ورد من لفظ الاخلاق في معانٍ
اخرى، فشيء لا يعد ولا يحصى .

١ قال ابو العلاء :

وَلَوْ سَكَنْتَ جِبَالَ الْأَرْضِ رُوحٌ لَمَّا خَلَدَتْ نَفْسَادٍ ، وَلَا إِرَابٌ
نضاد ، كقطام : جبل بالعالية . إراب : من مياه البادية .

واقوال شوقي في التربية والاصلاح ، والحض على العلم والعمل ، وترك الصفات
الرديئة كثيرة . ومنها ما يجري مجرى الامثال :

تَرْكُ النَّفْسِ بِلَا عِلْمٍ ، وَلَا أَدَبٍ تَرْكُ الْمَرِيضِ بِلَا طِبٍّ ، وَلَا آسَ .

.....

مَا فِي الْحَيَاةِ ، لِأَنْ تُعَا تِبَ ، أَوْ تُحَاسِبَ ، مُتَّسِعٌ

.....

وَلَوْ زَادَ الْحَيَاةَ النَّاسُ سَعِيًّا ، وَإِحْلَاصًا ، لَزَادَتْهُمْ جَمَالًا

.....

إِنَّ الْغُرُورَ إِذَا تَمَلَّكَ أُمَّةً ، كَالزَّهْرِ يُخْفِي الْمَوْتَ ، وَهُوَ زَوَامٌ

.....

إِنْ مَلَكَتِ النَّفُوسَ ، فَابْغِ رِضَاهَا ، فَلَهَا نَوْرَةٌ ، وَفِيهَا مَضَاءٌ

الشعر التعليمي

كان شوقي، في اول عهده بالشعر، يتجرى الاغراض العامة الطليقة، ويأنس بها اكثر من سواها . وقد راقه منها الشعر التعليمي للاطفال، من اناشيد وطنية ومدرسية، ومن اساطير على لسان الحيوان اشبه باساطير لافنتين . وكان يجتمع باحداث المصريين ويتلو عليهم من هذه الاساطير ليرى وقعها في نفوسهم . فانتظم له تسعة اناشيد منها ما لا يتجاوز البيتين، واحدى وخمسون خرافة . والظاهر انه كان ينوي ان يتوفر على هذه الاشياء ويكثر منها مستعيناً بصديقه خليل مطران^١ فلما التمع نجمه في دار الامير، اعرض عنها وانصرف الى غيرها .

وهو في اناشيده يدعو الاحداث الى محبة الوطن، ويذكركم بتاريخه واجاده . او يجعل لهم منها ادعية اشبه بصلوات تتلى في اوقات معلومة، كدعاء الصباح، ودعاء النوم، ودعاء الخطب، ودعاء اشتداد المرض، وما شاكل .

واما اساطيره ففيها نقد وتصوير للاخلاق، على سخر لطيف في بعضها، اوردها على لسان الحيوان . وربما اشترك فيها الانسان . واكثرها يجري في سفينة نوح، او بين سليمان بن داود والحيوانات . وموضوعاتها منها ما هو من اختراعه، ومنها ما استقاه من خرافات المتقدمين، كأسطورة اليامة والصيد، واسطورة القرد في السفينة . فالاولى تذكر بحكاية السلحفاة والبطتين في كيلة ودمنة . والثانية اشبه شيء بحكاية الراعي الكذوب والذئب، لاحد مخرفي الفرنسيين . وبعض هذه الاساطير مستقل في مغازيه، وبعضها الاخر مكرور متشابه المرامي .

ومغازيها الخلقية تتناول تأديب الملوك خاصة، والشعب عامة . واكثرها لا يختص بزمان ومكان، واقلها ما تصورت به حالة من احوال مصر او من احوال العصر . فحكاية ملك الغربان وندور الخادم امثلة حسنة للملك الذي يغفل عن صيانة ملكه

١ ذكر ذلك في مقدمة ديوانه الاول .

من الطواريء . وحكاية الاسد ووزيره الحمار، امثلة اخرى للسلطان الذي لا يحسن اختيار رجاله . وحكاية ولي عهد الاسد وخطبة الحمار، تصور الاحق الذي يريد ان يتخلق بخلق بلقي ليس فيه، فينال الاذى . وقصة القرود في السفينة، تطالعك بعاقبة الكذب على صاحبه . وقصة امة الارانب والفيل، تدعو الى الاتحاد على العدو لقمهره، وفيها تمثيل بين مصر والاحتلال الانكليزي . واسطورة فأرة الغيط وفأرة البيت ، تمثل شبان العصر الذين يحتقرون حرفة آباءهم طامعين في ارفع منها فينالهم الخسران والهلاك . واسطورة النملة الزاهدة، تصور اولئك المتصوفين الذين يتكلمون على غيرهم في تحصيل معاشهم .

وعلى الجملة ، فهذه الحكايات تزين الاتحاد والتعاون ، وتقبح الكسل والطيش واخيانة والخداع والعبودية . وتدعو الى حسن التربية، واختيار المؤدب والمعاون . وتظهر مغبة تعجيل الامر قبل اوانه، وآفة ضعف النظر في العواقب، ومضار الاهمال والغفلة وغير ذلك مما يرمي الى تهذيب النفس وارشادها .

وشعرها كسائر الشعر التعليمي يخلو في اكثره من الروعة الادبية ، مكتفياً بمجرد الاخبار والعظة . ولولا لمحات من التصوير والاحساس في بعضه، لبط في مجموعه عن مستوى الشعر الصحيح، ولم يبق له الا البحر والقافية . فن صورته الجميلة :
 أَلَمْ عَصْفُورٌ بِمَجْرَى صَافٍ ، قَدْ غَابَ تَحْتَ أَلْغَابٍ فِي أَلْأَلْفِ
 يَسْتَقِي الثَّرَى ، مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي الثَّرَى ، خَشِيَّةٌ أَنْ يُسْمَعَ عَنْهُ ، أَوْ يُرَى

وَجَلَسَ أَلْهَرُّ بِجَنْبِ الْكَلْبِ ، وَقَبْلَ الْحُرُوفِ نَابَ الدِّبِ

سَمِعْتُ بَانَ طَاوُوسًا أَتَى يَوْمًا سُلَيْمَانَ
 يُجَرِّرُ دُونَ وَفْدِ الطَّيْرِ أَذْيَالًا وَأَرْدَانًا
 وَيُظْهِرُ رِيشَهُ طَوْرًا ، وَيُخْفِي الرِّيشَ أَحْيَانًا

ودونك الاحساس الشعري في الحمار والجمال :

الحمار : لَا بُدَّ لِي مِنْ عَوْدَةٍ لِلْبَلَدِ ، فَإِنِّي تَرَكْتُ فِيهِ مِقْوَدِي
الجمال : فَقَالَ : سِرْ وَأَلْزَمْ أَخَاكَ الْوَتْدَا ، فَإِنَّمَا خُلِقْتَ كَيْ تَقِيدَا

والحمار في السفينة :

سَقَطَ الْحِمَارُ مِنَ السَّفِينَةِ فِي الدُّجَى ، فَسَكَى الرَّفَاقُ لِفَقْدِهِ وَتَرَحَّمُوا
حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ ، أَتَتْ بِهِ ، نَحْوُ السَّفِينَةِ ، مَوْجَةٌ تَتَقَدَّمُ
قَالَتْ : خُذُوهُ كَمَا أَتَانِي سَالِمًا ، لَمْ أَتَبَلَّغْهُ لِأَنَّهُ لَا يُهْضَمُ

تحليل بعض الحكايات :

١ - اليامة والصيد : كانت ياماة باعلى شجرة آمنة مستترة ، فربها صياد
ولم يرها . فلما هم بالانصراف ، برزت له الحقااء وقالت : « يا ايها الانسان عمَّ
تبحث ؟ » فرماها ، فسقطت وهي تقول : « ملكت نفسي لو ملكت منطقي . »

٢ - القرد في السفينة : كان في سفينة نوح قرد تعود الكذب ، فاراد ان
يزح يوماً ، فاخذ يصيح زاعماً ان موجة تريد ابتلاعه . فارسل نوح اليه النصور لتنقذه ،
فوجدته سالماً . ثم صاح ثانية : « قد تُقَبِّلُ مَرْكَبُنَا يَا نُوحُ ! » فارسل نوح من
حضر ، فلم يروا شيئاً مما ذكر . وبينما كان يوماً يلعب ، قذفت به السفينة الى الماء ،
فاخذ يصيح ، وينوح ويستغيث ، فلم يصدقه احد ، لاشتهار كذبه .

٣ - ملك الغربان وندور الخادم : كان للغربان ملك ، عرشه قائم في نخلة
عظيمة ، فجاء يوماً خادمه ندور ، وقال له : ان سوسة دبَّت في جدران القصر ،
واشار عليه ان يبعث الغربان في اهلاكها . فضحك السلطان مستخفاً وقال :

أَنَا رَبُّ الشَّوْكَةِ الضَّافِي الْجَنَاحِ ، أَنَا ذُو الْمِنْقَارِ ، غَلَابُ الرِّيَّاحِ
أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ ، أَنَا لَا أَبْصِرُ تَحْتِي يَا نَدُورُ
ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَامٌ بَعْدَ عَامٍ ، قَامَ بَيْنَ الرِّيَّاحِ وَالنَّخْلِ خِصَامٌ

١ . أنت شوقي المركب مشاكلة للسفينة مع انه مذكر في الاصل .

وَإِذَا النَّحْلَةُ أَقْوَى جِدْعَهَا ، فَبَدَأَ لِلرَّيْحِ سَهْلًا قَلْعَهَا
 فَهَوَتْ لِلْأَرْضِ كَأَتَلِّ الْكَيْزِ ، وَهَوَى الدِّيَّانُ ، وَأَنْقَضَ السَّرِيرُ
 فَدَهَى السُّلْطَانَ ذَا الْخَطْبُ الْهُولُ ، وَدَعَا خَادِمَهُ الْعَالِي يَقُولُ :
 « يَا نَدُورُ اخْبِرْ أَسْعِفْ بِالصَّيَاحِ ، مَا تَرَى مَا فَعَلَتْ فِينَا الرِّيحُ !
 قَالَ : « يَا مَوْلَايَ لَا تَسْأَلْ نَدُورُ ، أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ »

٤ - ولي عهد الاسد وخطبة الحمار : ولد للاسد ولي عهده ، فجاءت سباع الارض والسماء تهنئه ، وعقدت مجالس الافراح ، فتكلم الفيل والثعلب والقرد ، فاحسنوا جميعاً . ثم رفع الحمار عقيرته ، ليشرف عشيرته :

فَقَالَ : بِاسْمِ خَالِقِ الشَّعِيرِ ، وَبَاعَثِ الْعَصَا إِلَى الْحَمِيرِ
 فَأَرْعَجَ الصَّوْتُ وَلِيَ الْعَهْدِ ، فَمَاتَ مِنْ رَعْدَتِهِ فِي الْعَهْدِ
 فَحَمَلَ الْقَوْمُ عَلَى الْحِمَارِ ، بِجُمْلَةِ الْأَنْيَابِ وَالْأَظْفَارِ
 وَأَتَدَبَ الثَّعْلَبُ لِلتَّائِبِينَ ، فَقَالَ فِي التَّعْرِيزِ بِالْمَسْكِينِ :
 لَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ قَرَارًا ، عَاشَ حِمَارًا وَمَضَى حِمَارًا

٥ - امة الارانب والفيل : كان لامة الارانب وطن تعمره مطمئنة اليه ، مبتهجة به . فاختاره الفيل طريقاً له ، يمزق به اصحابه . وكان فيهم ارنب لبيب مجرب ، فدعاهم الى الاتحاد على دفع العدو « فالاتحاد قوة الضعاف . » فاجتمعوا للامر ، يتباحثون فيه ، فاشار بعضهم ان يحفروا هوة على طريق الفيل ، فيقع بها ، ويستريحوا من شره . فاستحسنوا رأيه ، وحفروا الهوة ، وهلك الفيل . فجاؤوا الى من اشار بحفرها يريدون تملكه عليهم ، فابى وقال : ان صاحب الحق بالتاج والسريز ، من دعا معشر الارانب الى الاتحاد .

شوقي والتمثيل

حاول شوقي الفن التمثيلي وهو في فرنسا يطلب الحقوق . وكانت قصة علي بك الكبير باكورة مآسيه ، نظمها شعراً ثم اهلها ، واهل فن التمثيل معها . وولى وجهه ، بعد رجوعه الى مصر ، شطر المدح والثناء وسواها من الاغراض التي يعنى بها امثاله من شعراء البلاط عند العرب .

فلما تنكر له قصر الامارة ، بعد الحرب الكبرى ، وذهب ما كان له من اثر في نفسه وشعره ، عاوده الحنين الى التمثيل الذي افتتح به حياته الشعرية ، فأكب عليه يعالجه بنشاط الشباب ، وان ولى زمانه . واقباله على هذا الفن يشرح لنا سبب إيلافه دور السينما في اواخر حياته .

وما كانت سنة ١٩٢٩ م حتى بدأ يطبع مآسيه وينشرها . فاخرج مصرع كليوباترا ؛ ثم نظر في علي بك الكبير ، فلم يرض عنها ، فعمد الى اصلاحها سنة ١٩٣٠ بعد ان مضى على وضعها نحو ثلاثين سنة . واشتغل معها بتأليف مجنون ليلى ، وقبيز ، والسيدة هدى ، والبخيلة . وفي سنة ١٩٣١ شرع يؤلف اميرة الاندلس وعنترة . وطبعت مآسيه كلها الا السيدة هدى والبخيلة .

مصرع كليوباترا

(١٩٢٩ م)

١ تاريخها

طبع شوقي هذه المأساة سنة ١٩٢٩ م وقدمها الى الامير فاروق ولي عهد الدولة المصرية، بابيات من الرجز، وذيلها بنظرات تحليلية، يرجح انها من صنفه . ومثلت في مصر عدة مرات فكان لها نصيب من النجاح لا بأس به .

١ موضوعها

مصدر هذه المأساة تاريخ البطالسة في مصر . وموضوعها اواخر ايام كليوباترا، واستيلاء رومة على مملكتها في نحو السنة الثلاثين قبل الميلاد .

١ - الحوادث المتقدمة - تولت كليوباترا الملك بعد ابيها ، فنازعها اياه احد اخوتها، فناصرها يوليوس قيصر، ووطد لها السلطان . فصحبته الى رومة، ولبثت عنده حتى اغتيل سنة ٤٤ ق م . فعادت الى الاسكندرية . ثم اغوت انطونيوس احد القواد الذين انتهى اليهم الحكم في رومة ، فوقع في هواها ، وانكر رومة من اجلها، ولزمها لا يستطيع فراقها . فغضبت المشيخة الرومانية من عمله ، وبعثت اليه اكتافيوس القائد الآخر، فجاء باسطولة ليعاقبه ويستولي على مصر .

٢ - حوادث المأساة - اتحد اسطول انطونيوس واسطول كليوباترا على محاربة اكتافيوس ، وحدثت بينهم واقعة اكشيوم البحرية، وفرت كليوباترا باسطولها الى ابان المعركة وفر في اثرها انطونيوس . ثم التحم القائدان في معركة برية على اسوار الاسكندرية ، فباء انطونيوس بالخذلان . ورأت كليوباترا ان حبيبها لا قبل له بجبايتها، ففرغت الى اكتافيوس ترجو ايقاعه في اشراكها، فطلب منها ان تتخلى عن انطونيوس، فتوارت في قصرها، واشاعت انها ماتت، فكره انطونيوس الحياة بعدها

وانتحر . ثم تبين لها ان القيصر الظافر يروم بها شراً ، فأبت عليها نفسها ان يقتلها
عدوها ، او يدخل بها رومة أسيرة ذليلة . فقربت من صدرها ثعباناً ساماً فنهشها
وماتت .

٣ - الحوادث المخترعة - حافظ شوقي على سير الحوادث التاريخية كل المحافظة
ولكنه صبغها بالوان جديدة جعلت كليوباترا ارفع نفساً ، واعظم خلقاً . فهي لم تفرّ
من وقعة اكثيوم جيناً او غدرأ بجيبيها ، انما السياسة المصرية قضت عليها بالفراق .
وهي لم تخف نفسها وتشع خبر موتها تواطؤاً مع اكتافيوس ، انما الطبيب اولمبوس
هو الذي خدع انطونيوس ونعاها اليه كذباً . وهي لم تحاول ان تتصّبى القيصر
المنتصر ، انما اتصلت به من اجل مفاوضات ظهر فيها خداعه وابطاؤها . وكذلك
انطونيوس لم يفر في أثرها ، ولكن شوقه اليها حمله على ان يترك مطاردة عدوه الى
الغد بعد انتصاره عليه .

واضاف الى الحوادث التاريخية غرام حاي وهيلانة ، وانتحار هذه مع مولاتها
كليوباترا ، ثم نجاتها بترياق الكاهن انوبيس .

٣ الفصل

تجري حوادث هذه المسألة بالاسكندرية ، مرة في مكتبة قصر كليوباترا ،
واخرى في احدى غرفه ، وحيناً في حجرة الولاثم ، وآخر داخل معبد الاسكندرية
وخارجه . واخيراً في غرفة العرش .

الفصل الاول - انتصار القائد وغفلة العاشق - المنظر الاول : بينما كان امناء
مكتبة كليوباترا يتحدثون برجوع اسطولها من معركة اكثيوم تحت الظلام ، اذا
بهم يسمعون هتاف الشعب بانتصار الاسطول . ثم تدخل كليوباترا ، فتسمع الهتاف
فتنكر الامر ، وتخبرهم انها تراجعت باسطولها عمداً ليتفانى اسطولا القائدين
الرومانيين :

مَوْقِفٌ يُعْجِبُ أَعْلَا كُنْتُ فِيهِ بِنْتُ مِصْرٍ ، وَكُنْتُ مَلَكَةً مِصْرٍ
المنظر الثاني : تلقى كليوباترا وصيفتها هيلانة ، وامين مكتبتها حاي مجتمعين

في غرفة من قصرها . وكانت تعلم ان حالي يبعثها ، ولكنها ارادت ان تعامله بالحسنى من اجل جارتها الامينة ، فعدت زواجهما . ثم يدخل انطونيوس ويشيرها بانه انتصر على خصمه ، الا ان شوقه اليها جعله يرجي مطاردته الى الغد ، فتلومه على عمله :

تَرَكَتَهُمْ لِعَدِي هَٰذِي مُجَازَفَةٌ ، غَدٌ غُيُوبٌ ، وَأَسْرَارٌ ، وَأَقْدَارٌ !
 فيسألها ان تقل اللوم ، وان تأمر بوليمة له ولقواده . حتى اذا انقضى الليل استأنفوا الحرب « محامير مجانين » .

الفصل الثاني - سوء سياسة كليوباترا - يجتمع المدعوون في حجرة الولاثم ، ويشربون ويطربون . فتثير الملكة سخط قواد انطونيوس ، بتعصبها لمصر ، وازدراءها رومة ، حتى حملت العاشق الاعمى على ان يتبرأ من وطنه ارضاء لها .

الفصل الثالث - انتحار انطونيوس - يرى الكاهن انوبيس مناجياً ذاته داخل المعبد ؛ ثم يرى انطونيوس في خارجه يندب حظه ، ويأوم نفسه على ضعفه في الحب . واوروس غلامه الامين يعزيه ، وقد خانته جنوده وقواده ، ووالت عليه عدوه . ويأتي اولبوس الطبيب فينقل اليه خبر انتحار كليوباترا . فيجزع ويأس ، ويستغفر رومة لانه عفا من اجل حبه . ويستغفر كليوباترا لانه ظن فيها الخيانة والغدر . ثم يطلب من اوروس ان يقتله ، ليتخلص من حياته الشقية . فيأبى الغلام ان يريق دم مولاه ، ويؤثر الانتحار على تكلف ما لا يستطيع ، وينتحر بعده انطونيوس .

وتدخل كليوباترا المعبد ، فتسأل انوبيس عن حية سمها سريع القتك ، خفيف الالم ، لا يشوه الجمال . وتطلب منه ان يحفظها لها ، حتى اذا امسى تاج مصر دريئة للخطر ، بعث بها اليها في سلة من التين .

وير جنديان رومانيان خارج المعبد ، فيبصران انطونيوس صريعاً فيحملانه الى داخله . فتخف اليه كليوباترا تناديه ، فيستفيق من اغماؤه ، ويعلم ان اولبوس خدعه . ثم يلفظ روحه ، وتبكيه كليوباترا . ويدخل اكتافوس ، فيودعه ويقبل رأسه بعد ان يتحقق موته .

الفصل الرابع - مصرع كليوباترا - كليوباترا في قصرها تناجي نفسها ، وتذكر مراقبة اكتافيوس لها خشاة ان تهرب او تنتحر . لانه يروم ان يدخل بها رومة زينة لاتنصاره . ويأتي حاي حاملاً سلاً من التين ، فتعلم ان الكاهن لبي طلبها عندما رأى الخطر يحدق بعرشها فتودع ما حولها حتى الزنبقة في الاصيل وداعاً مؤثراً ، ويغني لها مغنيها إياس نشيد الموت . ثم يأتي قائد روماني برسالة من سيده ، يسألها الذهاب معه الى رومة ، ويعدها بأن يبقئها في ملكها ، وتكون رومة الوصية عليه . فتزغب الى الرسول ان يزورها القيصر في المساء لتفضي اليه بسر كتمته عن الصحاب والامناء . فيخرج الرسول . وتودع هي ولدها قيصرون ووصيفتيها ، ثم تتناول الافعى ، فتضعها على صدرها ، فتعضها ، فتتموت . وتفعل شرميون فعلها ، فتقضي في اثرها . وتقضي بها هيلانة فيدر كها انوبيس بترياقه فينقذها ، ويذهب بها حاي الى طيبة ليعيشا معاً . وتنتهي المأساة بوداع اكتافيوس لكليوباترا ، وتهديد انوبيس لرومة .

٤ الجو المصري

لم يغفل شوقي ان يخلق جواً سحرياً تعبق به مأساته المصرية . فما وقوف العراف حبرا يطالع الاكف ويكشف المستقبل الا صورة عن كهانة المصريين القدماء . ولا الافاعي وتربيتها ، وسمومها وترياقاتها والاكتار من التحدث عنها والتشبيه بها ، الا شيء يذكرك بمصر وثعابينها وحواتها ، وبما جاء في التاريخ القديم عنها .

٥ الاغوار والصفات

كليوباترا : اجاد شوقي وادق في تصوير كليوباترا و اظهار شخصيتها من نواح شتى فأرانا اياها :

١ - مصرية - تغار على مصر وتتعصب لها ، حتى اعماها التعصب ، فاساءت السياسة ، واحتقت القواد الرومانيين عليها وعلى عشيقها انطونيوس ، مع شدة حاجتها الى هؤلاء الاعوان . وجها لمصر يفوق حبها لانطونيوس فارتى حرجاً في الحرب من المعركة وترك حبيبتها يتحطم اسطوله واسطول اكتافيوس ، لتضعف رومة وتسود مصر .

٢ ملكة - تحافظ على العرش، وتجاهد في صيانتها وتموت من اجله . وراعية
تعنى باصلاح بلادها، وتعطف على رعيتها وتحسن اليهم .

٣ سياسية - لم يكن انطونيوس حبيبا لكليوباترا من اجل الحب وحده ، وانما
كان اداة لاضاعف رومة وتقوية مصر . فقد شطرت به اسطول الرومانيين، وجعلت
احد الشطرين في يدها لتحطم الآخر بل حاولت تحطيمها معاً في انهزامها من معركة
اكشيوم ليخلو لها الجو، فتسود البحر :

قُلْتُ رُومًا تَصَدَّعَتْ فَتَرَى شَطْرًا مِنْ أَلْقَوْمٍ فِي عَدَاوَةٍ شَطْرٍ
وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ رُومًا إِذَا زَا لَتْ عَنْ أَلْبَحْرِ، لَمْ يَسُدْ فِيهِ غَيْرِي

ولكن سياستها اخفقت برجع انطونيوس عن مطاردة العدو . ثم باحناقها
القواد الرومانيين حتى ارسدوا الخيانة لها ولسيدهم . ثم بعضيان اسطولها ، ورفضه
ان يمضي لنجدة انطونيوس :

أَبِي أَعْلِمْتَ أَنَّ أَلْجَيْشَ وَلِّيَ ، وَأَنَّ بَوَارِجِي أَبَتْ أَلْمُضِيَّ

والسبب الاول يعود على غفلة القائد العاشق . والثاني على سوء تصرفها . والثالث
على فساد تدبيرها ، لان فرارها باسطولها من معركة اكشيوم جعل نصر انطونيوس
مرهوناً الى الغد، وجعل بوارجها تأبى المضي مرة ثانية .

٤ ربة بيت - تعطف على اولادها، وتشملهم بحنان الام الرؤوم، حتى لتكاد
تشتهي الذل لاكتافئوس من اجلهم ، لو رضي المجد ، ولو سمح النبل . ولا يقتصر
حنانها على اولادها بل يشمل ما في بيتها من خدم وجوار ، فاذا هي ترعاهم وتحسن
اليهم، وتغفر للسيء منهم، وتعاملهم معاملة ذوي الصهر والقربي . فلا غرو ان يجبوها
حب العباداة، وتنتجر وصيقتها بانتجارها .

٥ حسناء - وحسنها بادٍ في حديث الناس عنها، وفي حديثها عن نفسها . حتى
انها لما ارادت الانتحار حرصت على جمالها ان يزيله الموت . فقالت لانوبيس :

ولكن اي هل يُصان الجمال ؟

وهل يُطفأ اللون ؟

وهل يُبطلُ الموتُ سِحْرَ الجُفونِ ؟

٦ عاشقة - احبت الابطل فبسطت سلطانها عليهم ، وشاقتها العبقريّة في الرجال فتعشقتها . وحبها لانطونيوس يزينه الوفاء اذا لم تعرض له سياستها الوطنية . فقد تخلّت عن قيصرها في المعركة لانها تريد ضيقاً في سلطانه لا يُحشَى منه على مصر . ولكنها بادلتها الحب الصادق والتنازع عليه ساعة موته ، وباسمه هتفت وهي تجود بالروح :

أَلَيْسَانِي حُلَّةٌ تُعْجِبُ أَنْطُونِيُو سَيْنَةَ .

٧ صفات اخرى - تحب اللذة واللهو والعبث ، تحب القراءة والشعر ، ذكية ، رائعة البيان ، ابية عزيزة النفس .

انطونيوس : عاشق ضعيف الارادة ، صادق المودة ، اعماه الحب فانساه واجبه ، وانساه رومة فانكرها مرضاة لحييته ، فاسخط قواده . واغفله عن البصر في العواقب فترك مطاردة العدو الى الغد ، فكان فيه خذلانه . وحمله على الفرار كالجنباء حتى اذا علم انها انتحرت ، قابل الموت غير خائف ؛ لانه طلب الحياة من اجلها ، ومن اجلها انتحر يائساً . ولم يشأ ان يعاتب كليوباترا على خذلها اياه في المعركة بل غفر لها فرارها . وهذا العاشق الموله شجاع باسل ، وقائد عظيم تشهد له بذلك كليوباترا :

أَلْيَوْمَ تَعْلَمُ رُومًا أَنَّ فَارِسَهَا جَيْشٌ بِمُفْرَدِهِ ، فِي الرَّوْعِ ، جَرَّارُ
واوروس :

رَأَيْتُكَ ، وَالْحَرْبُ تَبْلُو الْكُسَاةَ ، فَأَشْهَدُ كُنْتَ إِلَهَ أَلْوَعِي
وهو ابن رومة الابن ، لولا الحب الذي انساه اياها . على انه عاد اليها يستغفرها ساعة موته :

رُومًا حَنَانُكَ ، وَأَغْفِرِي لِقَتْلِكَ . . .

اشخاص آخرون : اكتافيوس قائد روماني شجاع حزين .

انربيس : كاهن مصري ، عالم بالافاعي وسحومها . يحب مصر ويكره رومة . ويعطف على كليوباترا ، ولكنه يرى لها الانتحار ، لثلاثيه تاج مصر .

هيلانة وشرميون : وصيفتان امينتان للملكة انتحرتا معها .

حاي : احد امناء المكتبة ، احب هيلانة ، وابغض الملكة . ثم احبها عندما عطف عليه وازوجته بمن يحبها .

اولبوس : طبيب روماني في بلاط كليوباترا نقم على انطونيوس لانكاره رومة ؛ وتهاككه بين يدي ملكة مصر فنعاهها اليه كذباً ، وقد رآه في اشد حالة من الاضطراب النفسي ، فدفعه بذلك الى الانتحار .

اوروس : غلام انطونيوس وصفيّه ، أثر الانتحار قبل سيده .

انشو : مضحك الملكة له مواقف سخر ونكتة لا بأس بها .

حبرا : عراف مصري . إياس : مغني الملكة . غلنيز : ساقياها . بولا : شاعر .

٥ مصلحتها

١ محاسنها - مصرع كليوباترا ، هي اجود مآسي شوقي ، وابرعها فناً ، وادقها تصويراً ووصفاً ، وتحليلاً . وعقدتها القصصية موفقة كل التوفيق ، فان شوقي اضفى عليها من العوامل الفنية ، والمفاجآت المستحكمة المترابطة ، ما صرف الذهن عن حلها التاريخي المنتظر . فانت تشعر بتولد هذه العقدة في الفصل الاول حين ترك انطونيوس المعركة دون ان يبلغ نهايتها . ثم تشعر باستحكامها في الفصل الثاني عندما تغلو كليوباترا بعصبيتها لمصر ، فتقطعن على رومة ، وتحمل عشيقها المولّه على التبرؤ منها ، لا تبالي ان تعيظ الرومانيين وتسخطهم ؛ فخرجوا من عندها وهم يضمرون الغدر بسيدهم لاستخذائه اليها . فنسمع اولبوس يقول وهو منصرف من الوليمة :

أُرُوسُ! أَنْطُونِيُو! حِسَابُكُمَا غَدًا ، رُومًا الْأَيَّيَّةُ لَمْ تَتَمَّ عَنْ ثَارِهَا

وفي الفصل الثالث تظهر نتيجة المعركة بانهزام انطونيوس لان قواده وجنوده مكروا به من نقمته عليهم ، وانضموا الى اكتافيوس . ولكن العقدة لم تنحل هنا لان مصير كليوباترا وتاج مصر بقي مترجماً . واذا بالمؤلف يفاجئك بزيارة الملكة للكهنة ، واتفاقها واياه على ان يبعث اليها بالافعى السامة حين يصبح العرش في خطر . فيحدث هذا الاتفاق تشوقاً الى معرفة النتيجة لان مصير كليوباترا هو المقصود من

المأساة . وفي الفصل الرابع تنحل العقدة انحلالاً طبيعياً بعد نجاوى طويلة قد يشفع بطولها هول الموقف وخطره .

وفيها من المشاهد الرائعة ما يخلق بالذكر كالوليعة وما حدث في خلالها من حب وبغض وهو وسخر (ف ٢) وانتحار انطونيو (ف ٣) ونجاوى كليوباترا قبل مصرعها (ف ٤) .

ووفق شوقي في اشعارها توفيقاً حسناً ، فان فيها من القصائد والمقطعات الجميلة شيئاً غير قليل . وحسبك منها : « انا انطونيو ، وانطونيو انا » (ص ٤٣) و « زنبقة في الآثية » (ص ٨٩) ، و « اليوم اقصر باطلي ، وضالي » (ص ٩٩) . وتأتى له في نهاية كل فصل منها بيت بارع يترك في النفس والمسامع دويّاً . فالقائد الروماني يهجم في نهاية الفصل الاول عندما رأى سيده انطونيوس يريد اللهو :

أَلَا إِنَّهُ لَيْلٌ لَهُ مَا وَرَاءَهُ ، غَرَامُكَ حَيٌّ فِيهِ ، وَالْمَجْدُ مَيِّتٌ

وكليوباترا تودع حبيبها في ختام الفصل الثاني ، وهو خارج للقاء اكتافيوس :

يَا لَيْتُ سِرّاً يَا نَسْرُ طِرّاً ، عُدْ ظَافِراً ، أَوْ لَا تَعُدْ !

واكتافيوس يختم الفصل الثالث بوداع انطونيوس :

أَقْبِلْ مَا قَبْلَ الْغَارِ مِنْكَ وَأَهْتِفْ : أَنْطُونِيُوسُ الْوَدَاعُ !

وابلغها ما جاء في ختام المأساة اذ يقول انوبس مهدداً الرومانيين :

قَسَمًا مَا فَتَحْتُمْ مِصْرَ الْكِنِّ ، قَدْ فَتَحْتُمْ بِهَا لِرُومَةِ قَبْرًا

٢ مساوئها - كان شوقي في مصرع كليوباترا اقل مساوئ منه في غيرها .

فليست له تلك السقطات الفاضحة التي تعودناها منه في مآسيه الاخرى ، وان تكن فصولها لم تخل من طفيليات الحوادث التي يستغني صاحبنا عنها . فخبير حاي وهيلانة تافه غث من بدئه الى نهايته ، يفسد وحدة العمل ، ويخرج بالمأساة عن الموضوع اذ لا يمت اليها الا بسبب ضعيف . وكذلك كان المشهد الذي جاء في عرض القصة عن عشق الشيخ زينون امين المكتبة ، لكليوباترا ، وعبث حاي به (ف ١ منظر ١) .

مجنون ليلي

(م ١٩٣١)

١ تاريخها

نشر شوقي هذه المأساة سنة ١٩٣١، وقدمها بابيات من الشعر للامير فاروق ولي عهد مصر، وذيّلها بنظرات تحليلية، ومثلت لأول مرة في القاهرة فكان لها بعض النجاح.

٢ موضوعها

استمد الشاعر حوادث قصته من اخبار المجنون في كتاب الاغاني. وموضوعها حب قيس ليلي، وجنونه، وموته. والمجنون شاعر بدوي من بني عامر، قيل انه عاش في زمن بني امية، وشك بعضهم في وجوده.

١ - الحوادث التاريخية - احب قيس بن الملوّح ابنة عمه ليلي العامرية، وتغزل بها. ثم خطبها الى ابيها فردّه خائباً لاشتهار حبه لها وقوله فيها. ومنعه عن زيارتها، فلم يمتنع، ولا انقطع عن التشبيب بها، فاستعدى عليه السلطان، فأهدر دمه. ثم ازوجها رجلاً من ثقيف او من عُقيل يقال له ورد فجئت قيس جنونه، وهام على وجهه في البراري يعاشر الوحوش، وينشد الاشعار، ويذرف العبرات، ويمزق ثيابه، ويغمى عليه، حتى مات.

٢ - الحوادث المخترعة - خالف شوقي التاريخ في بعض الحوادث وتصرف فيها على هواه. فمنها ما لا معنى له كجعل عبد الرحمن بن عوف والي الصدقات يشفع لقيس عند ليلي وابيها. مع ان التاريخ يذكر ان عبد الرحمن ابى ان يتولى هذه الوساطة، وقد تولاها بعده في السنة التالية خلفه نوفل بن مساحق.

ومنها ما زَيْنَ المأساة وعظَّم شأنها كرفعه ليلي الى مستوى البطولة ، اذ جعلها
تفرض قيساً عندما خيَّرها ابوها فيه . فابت الا ان تحافظ على الشرف الموروث ،
والعادات البدوية . ورضيت ان تتزوج الفتى الثقفي وهي لا تحبه . مع انها في التاريخ
اكرهت اكرهاً على هذا الزواج ، وهددت من اجله بالتمثيل . ولم يكن زوجها
عند شوقي اقل بطولة وبذلاً منها . فانه لما تبين حبها لقيس ، وشدة كلفها به آلى على
نفسه ان يصاحبها مصاحبة الشقيق لشقيقته ، فلبثت في كنفه عذراء كما كانت في
بيت ابيها . ولكنها وفّت له ، وحافظت على شرفه ، فردت قيساً كاسف البال ،
لما ارادها على الفرار معه .

ومنها ما اتخذ وسيلة ختام مأساته كجعله ليلي يموت قبل قيس ، مع ان قيساً
هو الذي مات قبلها .

واضاف الى هذه الحوادث خبر الجن ، وهو من مخترعاته .

٣ العمل

مكان المأساة بادية نجد والحجاز تنتقل من حي بني عامر الى طريق للقوافل بين
نجد ويثرب ، الى قطعة من الصحراء ، الى قرية من قرى الجن ، الى حي بني ثقيف
بالطائف وتنتهي في مقابر بني عامر .

الفصل الاول - المهدي يطرد قيساً - بينما كان فتيات بني عامر وفتيانهم
يتسامرون في اوائل الليل ، اذا بقيس بن ذريح الشاعر ، يقبل عليهم ، ويكلم ليلي في
امر المجنون ، فتأبى ان تدوس عادات العرب ، وتتذمر على مجنونها لانه ذكر ليلة
الغيل في شعره ، وما هي الا لقاء وثحية وابتسامة .

ثم ينقض السمر ، ويظهر المجنون ، يطلب ناراً من بيت ليلي ، وما وكده الا
رؤيتها . فتخرج اليه بالنار ، فيحادثها ويلهو عن نفسه . فتسعى النار الى كفه وهو لا
يأبه لها ، وتحرقه فيقع مغنى عليه . فتنادي ليلي والدها ، فيأتي اليه ويسعفه ، فيصحو .
فيؤنبه ، ويجرم عليه دخول داره .

الفصل الثاني - المجنون الهائم - يهيم المجنون على وجهه في طريق للقوافل قريب من الحي، وقد اهدر السلطان دمه . وراويته زياد يصحبه، وامه تتبعه الجارية بطعام وصفه العراف ليتداوى به من جنته . ويعبث به اولاد صغار فيهم بحبصهم ، ثم يغمى عليه . واذا بابن عوف جامع الصدقات ، يقف به ، ويناديه فما يستفيق . ويركب الحسين بن علي ، فتضج من تحت البادية ، وقيس في اغنامه . ثم تمر قافلة تحو باسم ليلى فيستفيق قيس على ذكر اسمها . ويعده ابن عوف ان يشفع به عند عمه ، فيفرح ، ويتهيج .

الفصل الثالث - خيمة ابن عوف - يأتي ابن عوف وقيس الى حي ليلى ، فيتسلح الاهلون للقتل بالعاشق حفاظاً على شرفهم . فيلاطفهم ابن عوف ، ويسكن نائرتهم ، ويستلينهم على قيس . ويكاد يظفر بحاجته لو لم يقف فيهم منازل يبين معرات الشعار ، واقتضاح فتاة الحي بشعره . فيعاودهم السخط على المجنون ويهون بقتله فينبري بشر للدفاع عنه ، فيظهر المحي ان منازل لا يحسد قيساً ، وانه حض على قتله ليحظى بليلى من بعده . فتحدث ضجة في القوم ، ويرسلون الى منازل نظرات احتقار ، ويجره زياد الى الخارج ليؤدبه . فيتبعه الناس الا ابن عوف والمهدي والد ليلى ، فانهما يدخلان الحباء . وتأتي ليلى من حجابها ، فيقص عليها ابوها خبر ابن عوف ، ووساطته لقيس ، ويضع الامر بيدها . فتعلن الرفض القاطع صوناً للشرف ، ورعاية للتقليد . وتبدي رغبتها في الزواج بورد الثقفي الذي جاء يخطبها منذ حين . فيرجع ابن عوف خائباً حزيناً .

الفصل الرابع - زوجة عذراء امينة - المنظر الاول : عاد قيس الى هيامه بعد اخفاق ابن عوف ، وزواج ليلى بورد . فضل الطريق وقاده التسيار الى قرية من قرى الجن . فابصرته طائفة منهم وفيهم شيطانه الاموي ، فاقبلوا يحتفون به ودلوه على الطريق .

المنظر الثاني : يأتي قيس حي بني ثقيف ، ويرى ورداً زوج ليلى ، فيسأله عنها . فاذا هي لا تزال عذراء ، لان ورداً تهيب جها الصادق لقيس ، ودفعته شهامته الى ان

يساكنها مساكنة الاخ لاخته . ثم تدخل ليلي ، فيتركها ورد منفردين ، فيتساكنان مرارة الفراق ، ويرغب اليها قيس ان تذهب وايه ليعيشا معاً ، فتأبى ان تجيب سؤاله ، محافظة على شرف زوجها ، ويخرج قيس ساخطاً .

الفصل الخامس - مصرع الحب - ماتت ليلي وجداً ، ودفنت في قبور بني عامر . ووقف الناس يعزون اباه ، ويمرون بزوجها ورد صامتين ناقيات لانه سلبها من تحبه . الا ان والدها المهدي ، ينوه بفضل ورد ، وحسن معاملته لابنته . وينفض الجمع ، فيدخل الغريض المغني ، وابن سعيد الشاعر ، ورجلان آخران ، فيبصرون القبر الجديد الذي ضم جثمان ليلي ، فيأخذ الشاعر يتحدث الى الميت المدفون فيه ، ويذكره ايام الحياة الفانية ، ويعني الغريض انشودة الموت ، ثم يتوارون ذاهبين الى بني عامر . ويدخل قيس وزيد ، فيتلقاها بشر ، ويخبر قيساً بموت ليلي ، فيغمى عليه حيناً ثم يصحو فيقترب من قبرها ، فيكب باكياً منشداً . ويأتي شيطان به الاموي ، فيطرده قيس لان الشعر الذي اوحاه اليه هو الذي جنى عليه وعلى ليلي . ويحيي ابن ذريح خاشعاً ، باكياً على قبر ليلي ، معزياً قيساً . ويسمع من جانب القبر هاتف باسم قيس وليلى ، فيلبسه المجنون ، ويحتضر ، ويموت .

٤ الملوك العربي

تصطبغ هذه المأساة بلون عربي ناصع ، صادق التصوير ، تتمثل فيه حياة البادية وحب البدو ، وعاداتهم وعقائدهم وسياساتهم . فاما حياة البادية ، فانها وحشة جافية ، لا ترى فيها غير موقد النار وحال الشاة . ولا تسمع غير راغية تجميعها ثاغية (ف ١ ص ٤ - ٥) وهموم الحياة فيها محدودة ، واهلها يحقون الى صيد الطباء والاسد :
وَفِي كُلِّ نَاحِيَةٍ شَاعِرٌ ، يُعْغِي بِلَيْلَاهُ أَوْ رَاوِيَةً

(ف ١ ص ٦) وطعامهم الرطب والشواء واللبن (ف ٣ ص ٦٧) .

واما حبهم ، فعذري يقتل صاحبه (ف ١ ص ٦) . وقد يكتفي المحبان اذا اجتمعا ، بالنظرة والتحية (ف ١ ص ١٤) ، واذا جاوزاها ، فالى حديث عف وشكوى (ف ١ ص ٢٢) .

واما عاداتهم فهي مبثوثة في نواح شتى ؛ تطالعك بصور متعددة عن هؤلاء
الاعراب الجفاة، فهم أباة مفرطون في ابائهم، لا يزوجون من يشب ببناتهم، ويشتهر
حبه لمن :

وَمِنْ سُنَّةِ آلِيهِ نَفْضُ الْأَكْفِ مِنْ الْعَاشِقِينَ إِذَا شَبَّوْا
ويستعدون عليه السلطان اذا الح في الزيارة والتشبيب ، فيهدر السلطان دمه .
وفي ذلك يقول قيس :

قُلْ لِلْحَلِيقَةِ يَا أَبْنَ عَوْفٍ فِي غَدٍ : مَنَذَا أَبَاحَ لَهُ دَمَ الْعُشَّاقِ ؟
وينقم عليه الحي باجمعه ، فاذا رأوه مقبلاً ثاروا لقتله لان عار الفرد يعم القبيلة ؛
والقبيلة باجمعه يلزمها الدفاع عن الفتاة التي شهت .

ومن عاداتهم الشفاعة للعشاق المنبوذين ، فالحسين بن علي تشفع لقيس بن ذريح
عند ابي لبني ، وابن عوف توسط للمجنون عند والد ليلي . واذا حل بهم الثقيل اوقدوا
له نار الطرد :

تَرَأْتُ فَلَمْ أَكْرَمْ فَهَلْ أَنْتَ مُشْعِي ، وَقَوْمُكَ نَارَ الطَّرْدِ حِينَ أَمِيلُ ؟
واذا ضل احدهم الطريق صفق بيديه ، ولبس ثوبه مقلوباً لينبه اليه من يراه
فيهديه :

لَقَدْ ضَلَّ الطَّرِيقَ أَمَا تَرَاهُ ، يُصَفِّقُ بِالْيَمِينِ وَبِالشِّمَالِ
وَقَدْ قَلَبَ الثِّيَابَ عَلَيْهِ نَهْجاً عَلَى عَادَاتِهِمْ عِنْدَ الضَّلَالِ
ويجترون الفتاة في امر زواجها اذا كانت فطنة رشيدة ، فالخنساء خيرها ابوها في
دريد بن الصمة ، وليلى خيرها ابوها في قيس .

واما عقائدهم فما تقل في المأسة عن عاداتهم ، فهم يؤمنون بالعرافين ويلجأون
اليهم في الشدائد . واذا خدرت رجل احدهم دعا باسم من يجب ليزول الخدر كما
دعت ليلي باسم قيس (ف ١ ص ٦) ويتشاءمون اذا خلجت العين اليسرى . قال قيس :
خُلِجْتُ قَبْلَ نَلْتَقِي عَيْنِي الْيُسْرَى ، وَرِيعَ الْفَوَادِ رَوْعَةَ ظَانِرِ
ويكبرون في اذن المعنى عليه ليستفيق :

قَيْسُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ كَبُرُوا فِي أذْنَيْهِ

ويعتقدون ان لكل شاعر تابعاً من الجن ، يوحى اليه . وان الجن بنوا تدمر ،
وان سليمان الحكيم غضب عليهم ، وحبسهم في القمام والقاهم في البحار (ف ؛ منظر ١) .
واما الحالة السياسية ، فان شوقي يطلعنا في لمحات صغيرة على العداء المستحكم
بين العلويين والامويين ، وضرب بني امية على ايدي المتشيعين وتيقظهم الشديد في
مراقبتهم ، حتى بات هؤلاء يعتصمون بالتقية (ف ١ ص ٢ - ٣) .

٥ الاغوار والصفات

قيس - لم يبتدع شوقي شخصية قيس ابتداءً ، شأنه في شخصية كليوباترا ،
وانما كان متوكئاً في اظهارها على صاحب الاغاني . فها ذكر ابو الفرج نعتاً او حالة
لقيس ، الانظمه شوقي شعراً واثبتته في مأساته . فقيس مجنون ، اذا ذكرت له ليلى تاب
من خبله وتحدث كأنه اعقل الناس :

إِذَا سَمِعْتُ اسْمَ لَيْلَى ثُبْتُ مِنْ خَبْلِي ، وَتَابَ مَا صَرَعْتُ مِنِّْي الْعَنَاقِيدُ

ويغمى عليه - وما اكثر اغماؤه - فلا يستفيق الا على النداء باسمها . وربما خيل
اليه ذلك تحيلاً :

لَيْلَى ! أَلَعَلِّيْ مَجْنُونٌ يُخَيِّلُ لِي ؟ لَا أَلْحِي نَادُوا عَلَى لَيْلَى ، وَلَا نُودُوا

ويهم على وجهه مصاحباً الظباء والوحش حتى انست به وعطفت عليه . ويطأ
التراب حافياً ، ممزق الثياب ، اصفر اللون ، هزيراً . وكان جميل الصورة ، وابن
سيد الحلي :

وَقَيْسُ ، يَا لَيْلَى ، وَإِنْ لَمْ تَجْهَلِي ، زَيْنُ السَّابَبِ ، وَأَبْنُ سَيِّدِ الْحِمَى

ليلى - ترك شوقي لنفسه الحرية في تصوير هذه الفتاة فابداها لنا محبة لقيس
مفاخرة به كما يروي التاريخ عنها . ولكنه جعلها مع ذلك محافظة على التقاليد
البدوية ، تضحى بحبها من اجل شرفها :

تَصُونُ الْقَدِيمَ وَتَرَعَى الرَّمِيمَ ، وَتُعْطِي التَّقَالِيدَ ، مَا تُوجِبُ

وتخلص الوفاء لزوجها على حبها لقيس ، فارتضى ان تحونه ، وتهجر داره . وجعلها البدوية المفاخرة بالبادية ، التياهة على الحضر ، الاموية التي ليست بمعزل عن سياسة الاحزاب ، مع سكنها البادية ، واشتغال قلبها بالحب . الفطنة الرشيدة يعجب بها والدها ويشق بها ، ويترك لها الحرية في اختيار زوجها . ويعجب بها بعلمها ويشق بها ، ولا يخشى عليها الانفراد مع من تهواه ، فيخلى لها المكان .

المهدي - ابو ليلى ، سيد من عامر ، طيب القلب ، لا يحمل حقداً على قيس ، ولا يريد به شراً ، يحب عليه حنو النسب على نسيه . بيد انه عربي شريف ، تحكمت فيه التقاليد البدوية ، فلم يجد منها مناصاً .

ورد - زوج ليلى ، احبها بشعر قيس ، فشق بهذا الحب ، ولم يلق بالزواج سعادة ، لانه رجل شريف ، رأى قلب ليلى مشغولاً بسواه ، فتورع ان يجرح هذا القلب .

بشر - يخرج شوقي لهذا الشخص صورة فيها سخر لطيف ، فيرينا به الجبن والخوف والادعاء ، والحب لقيس ، ينتحل شعر المجنون وصيده ، وليس له يد فيهما . ويهاجم منازل لا يريد تأديبه مناصرة للمجنون ، ولكنه لا يصنع شيئاً غير التهديد من بعيد .

منازل - غريم قيس في حب ليلى ، يحسده عليها ، ويسعى في الدس له ليقتك الحي به . وفيه خبث وجبن ، وفصاحة ولسن .
زياد - راوية قيس وصديقه ، يدافع عنه .

٦ منزلتها

١ محاسنها - وفق شوقي في بعض المشاهد والمفاجآت توفيقاً لا بأس به ، مثال ذلك موقف منازل خطيباً في بني عامر يحضهم على قيس ، وقد خاف ان تقبل فيه شفاعته ابن عوف . فكان اشبه بانطونيوس عندما اراد ان يحرض الشعب الروماني على

بروتوس قاتل يوليوس قيصر . وكان العامريون قد لانوا لقيس بعض اللين ، فخشي منازل سوء المغبة ان بادر بالطعن عليه ، فجهر بمدحه واثني على شعره الذي تتلقفه الرواة ، حتى انتهى الى مبتغاه ، وهو ان هذا الشعر النسيار كان سبب اقتضاح ليلى ، ولو كان شعر غيره لما تحدث به الناس (ف ٣ ص ٥٢) .

ومشهد آخر لا يعدو عنه الجمال ، وفيه يصور شوقي تضارب العوامل النفسانية في صدر ليلى عندما خيّر لها ابوها في قيس ، فتنازعها عاملاً الحب والشرف . ثم اسرع العقل في التغلب على العاطفة فرفضت قيساً . وما ان خلت بنفسها حتى عاودها الضعف فتحصرت ولامت نفسها اشد اللوم (ف ٣ ص ٧٢) .

وشعر هذه المأساة يرتفع في مواطن عدّة كتصوير البادية ومقابلتها بالحضر (ف ١ ص ٤ - ٦) . وانشودة الحادي . ودالية المجنون عندما استفاق من اغماؤه على صوت الهاتف باسم صاحبتة . فان فيها كثيراً من روح قيس ، واسلوبه ، وتكراره اسم ليلى (ف ٢ ص ٤٣) . ونونيته الحسنة : تَعَالَى نَعِشْ يَا لَيْلَى فِي ظِلِّ قَفْرَةٍ (ف ٤ ص ٩٨) .

وكان الحتام بيتاً جميلاً له وقع قوي في النفس ، فان المجنون سمع وهو يموت صوتاً من القبر ينادي :

الصوت : قَيْسُ ، لَيْلَى !

فقال :

قيس : . . . رَنَّةٌ فِي أُذُنِي ، رَدَدَتْ : قَيْسُ وَلَيْلَى الْفَلَوَاتِ
نَحْنُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ لَمْ تَرَنَا لَمْ تَمُتْ لَيْلَى ، وَلَا الْمَجْنُونُ مَاتَ

٢ مساوئها - عني شوقي باظهار اللون البدوي عناية تذكر فنجح في مواضع كثيرة ، ولكنه لم ينجح من التعثر في بعضها . كتعريف ليلى بقيس بن ذريح لسامي وهند ، ومصافحتها اياه . فهذا التعريف فرنجي الطريقة ، لم يعهده العرب ولا المسلمون من بعد (ف ١ ص ١) . وكذلك نعت قيس بالاديب ، مع ان هذه اللفظة لم تكن معروفة بهذا المعنى ، في صدر الاسلام ، ولما هي من وضع العباسيين .

وهناك اشخاص عديدون لا قيمة لادوارهم في المأساة كدور قيس بن ذريح

ودور الغريز واصحابه ، ودور الاموي وقرية الجن . فكلهم متطفلون يفسدون على القصة تساوقها وارتباطها ، حشرهم شوقي حشراً ليملاً فراغ الفصول بالحوادث . والعقدة غير بارعة الاحكام والحل لا طراد سيرها التاريخي ، وسيطرة الحوادث التافهة عليها ، وقلة خطر الدسائس ، وضعف المفاجآت . فان دسيسة منازل ما ولدت حتى ماتت . وشعرنا بانتهاء المأساة عندما أبت ليلي ان تذهب مع قيس ، واذا بالموؤلف يجددها ليميت العاشقين (ف ٤ منظر ٢) . ولم يكن في نقل بشر خبر موت ليلي الى المجنون ما يثير النفس لضعف الاداء والمناقلة . فهذه المأساة رديئة الفن المسرحي في الجملة ، واسوأ ما فيها تطفل الحوادث واحتشادها .

قمبيز

(١٩٣١ م)

« مقدمة الى الامير فاروق ، مذيلة بنظرات تحليلية ، مثلت على مسرح رمسيس في السنة نفسها » .

١ موضوعها

استقى شوقي موضوعه من تاريخ مصر القديم ، في القرن السادس قبل المسيح .
ومداره ان قمبيز ملك الفرس ارسل ليخطب نفريت بنت امازيس فرعون مصر .
فابت الاميرة ان تترك موطنها الى بلاد غريبة . وكان من المحتم ان يثير رفض نفريت
غضب قمبيز فيغزو مصر . فحفز حب الوطن اميرة مصرية اخرى الى تقديم نفسها
لقمبيز باسم نفريت ، وهي الاميرة نتاس بنت أبرياس فرعون مصر السابق (ف ١) .
وكان في الجيش المصري قائد يوناني ، اسمه فانيس ، قد خان مصر والتحق بالجيش
الفارسي . فأخبر قمبيز بحقيقة زوجه ، وانها نتاس لا نفريت ، فغضب الملك ، وعول
على غزو مصر واخضاعها (ف ٢) .

وكان امازيس قد مات ، وتملك بعده ابنه بساماتيك . فيغزو قمبيز مصر .
ويفتتحها ، ويخضع بساماتيك ويأخذ عليه العهد . وتتحرر نفريت تكفيراً عن ذنبها
الى مصر . ويعلم قمبيز ان بساماتيك نقض العهد ، واخذ يولب القرى والمدائن ويدعوهم
الى الثورة ، فيأتي به ، ويهدده ويأمر بسجنه . وتدخل عليه زوجته نتاس تستعطفه
في مصر ، فيطردها . فتلقت الى فانيس وتقول له متهمكة :

مَوْلَاكَ كَمْ تَخْدَعُهُ ، مَوْلَاكَ كَمْ تَسْخَرُ بِهِ !

فيثور قمبيز ، ويقتل القائد اليوناني . ثم يقتل احد قواده لانه اشار عليه بالرفق ،
ويقتل بعده العجل آبيس معبود المصريين . ثم يستيقظ ضميره ؛ وتبدو له اشباح قتلاه

وفيهم اخوه واخته فيطبق عليه الجنون، فينتحر . ويسدل الستار على اربع جثث صريعة .

٢ مزارعها

١ محاسنها - اعطانا شوقي صورة صادقة تنطق بعصبية نكتاس لمصر ، فان وطنيتها مملووسة في جميع اجزاء المأساة . وكذلك احسن وصف حالة مصر قبل الفتح الفارسي ، وتغلب العنصر الغريب على الجيش المصري ، ولا سيما العنصر اليوناني ، وضعف الروح الحرلي في نفوس المصريين ، وانغماسهم في الترف واللهو . ووفق في تمثيل جنون قبيز وشجاعته ووحشيته .

٢ عيوبها - في هذه المأساة عيوب كثيرة ، فان العرض في الفصل الاول ، استوعب خمسين صفحة ، ومجموع صفحات القصة مائة وخمس وعشرون . وهو مقسوم الى ثلاثة مناظر شغلها المؤلف باشياء يستغنى عنها كشكوى نفريت لابيها في المنظر الاول . ووليمة الوفد الفارسي وما تحملها من سحر واحلام ، في المنظر الثالث . فان الشكوى باردة ، حقيرة الاثر . والوليمة متطفلة لا عمل لها الا ان تقطع سير العمل القصصي ، وان بدا فيها اللون المحلي قوياً .

والفصل الثالث 'جعل منظرين ، اولهما لا يزيد على صفحة واحدة حيث تبدو نفريت على ضفاف النيل ، تذكر بابيات سخيفة انانيتها ، وما جرت على مصر من الويل والحرب ، وتلقي بنفسها الى النيل . وكان الاولى بالمؤلف ان يحذف هذا المنظر البارد ، لانه اشار اليه في المنظر الثاني .

وفي القصة شخصان شأنهما خطير ، وليس لهما عمل يذكر . احدهما نفريت هذه ، والثاني تاسو حبيب نكتاس . واذا كان المؤلف اضطر الى اظهار نفريت لتأثير رفضها في محور المأساة ، فما شأن تاسو وما تأثيره ؟ فقد جعل الاميرتين تتهاككان على حبه ، ولم يخلق له عملاً جديراً بهذا الحب . والأقبح ان وجوده شوه جمال التضحية وهبط بسموها . فان نكتاس تعترف وهي في بلاد الفرس ، انها هجرت وطنها من

اجل تأسو الذي هجرها ، مع ان المأساة قائمة على رمز التضحية الوطنية :

وَمَنْ هَجَرْتُ وَطَنِي ، لِأَجْلِهِ حِينَ هَجَرْتُ

والعقدة غير متينة الاحكام ، فانها تشتت وتنحل ، دون ان تبعث في النفوس خوفاً او تشوقاً . فقد مهد لها المؤلف في الفصل الاول بزواج نتناس بدلاً من نفريت . وجاء فانيس بلاد فارس في الفصل الثاني ، فاشياً سر هذا الزواج ، فعرف قبيز الحقيقة ، وعرفت نتناس افتضاح امرها ، ومضى كل هذا بسرعة الخاطر ، ووثباته ، فضعف شأن الدسيسة ، وضاع اثر المفاجأة . وفي الفصل الثالث تظهر مصر مفتوحة ، وقبيز مالك عليها فلا يبقى من تلك العقدة الرخوة الا ان يهيج قبيز ، ويفرش المسرح بالضحايا ثم ينتحر .

علي بك الكبير

او دولة المماليك

(١٩٣٢ م)

« قدمها المؤلف الى مؤتمر الموسيقى الشرقية في القاهرة في ١٤ اذار ١٩٣٢ .
« ومثلتها فرقة فاطمة رشدي على مسرح الكورسال في الشهر نفسه ، والسنة نفسها .
« وذيلتها جريدة البلاغ المصرية بنظرات تحليلية » .

١ موضوعها

جرت حوادث هذه المأساة حوالى سنة ١٧٧٠ م . مكانها القسطنطينية والصاحبة وعكسا . وموضوعها مستمد من تاريخ مصر يوم كانت ولاية عثمانية ، والسلطان فيها للمماليك ، يتولون مشيخة البلد ، واليههم يرجع الامر والنهي . وكان شيخ البلد يومئذ علي بك الكبير ، فطمع في الاستقلال بمصر ، فثار على الدولة العثمانية وهي مشغولة بمحاربة روسية . وكاد يظفر بامنيته ، لو لم يخنه اقرب الناس اليه ، صهره محمد ابو الذهب ، ومماوكة مراد بك . فالتجأ الى ضاهر العمر صاحب عكا ، فاعانه هذا على استرجاع ملكه ، وامده بالعسكر ، ولكن نجمة كان قد افل فاحقق في مسعاه ، واسر وقتل . وحافظ شوقي على الاحداث التاريخية كل المحافظة الا انه زاد عليها خبر الجارية امال وزواج علي بك منها ، وتعشق مراد بك لها ، دون ان يعلم انها شقيقته ، وخيانتة مولاه من اجلها . والحقيقة ان مراد بك كان يهوى نفيسة امرأة علي بك ، وخانه من اجلها ، ولكنها لم تكن شقيقته كما جعلها شوقي في قصته .

٢ مزاياها

١ ما لها - في المأساة تصوير بليغ لدولة المماليك واستبدادهم وغدرهم ، ثم

لتمرد الجارية امال على الرق عندما عرضها ابوها للبيع واراد علي بك ان يشتريها ،
حتى اذا رأى منها هذا التمرد اعجب بها وتزوجها حرة . وفيها صور شتى لشجاعة
علي بك وحزمه واقدامه ، وكرم اخلاقه ، وعطفه على الفقير .

٢ ما عليها - تقوم العقدة القصصية على موضوعين غير ملتحمين احدهما الموضوع
التاريخي وهو ثورة علي بك واخفاقه ، والآخر الموضوع الادبي ، وهو حب مراد
لامال ، وحبها له ، وجهلها انهما شقيقان . ولا يخفى ما في هذا الازدواج من ضعف
الفن لان موضوع المأساة في الاصل علي بك الكبير ، فعليه وحده كان ينبغي ان
تبنى العقدة ، وتتسلسل منها الحوادث والمفاجآت الى ان تنحل . واما حب امال ومراد
فهو موضوع آخر يصلح لمأساة مستقلة فامتزاجه بثورة علي بك لا مسوغ له البتة .

واظهر المؤلف امال بمظهر الزوجة العفيفة التي تحافظ على شرف بعلمها ، فلم تحنه
مع حبها لمراد . غير انه لم يوقعها في اخطار جسيمة واشراك ودسائس لتثير الروع
والاعجاب في النفوس . وكان التعارف بينها وبين اخيها بارداً لا يبعث الحرارة في
الصدر ، فان والدهما مصطفى النحاس عندما انذره الموت ، رأى من الخير ان يتعارفا
ليكف الاخ عن التصدي لاخته . ولكن شوقي لم يفلح في ارسال هذا الانقلاب على
جلال شأنه ، فجاء غثاً متاقلاً . وسبب ذلك ان مراداً سبق والده الى التعريف ،
فنفى عن الموقف جماله الطبيعي (ف ٣ ص ١١٢) .

ويفرغ المسرح في الفصل الثالث حين يخرج مراد وامال بجثة والدهما ، ويدخل
بعدهما علي بك مجروحاً . وفراغ المسرح دون اشارة من الخارجين ، تدل على مجيء
اشخاص آخرين ، من العيوب التمثيلية عند اصحاب الفن .
وعلى الجملة فعيوب هذه المأساة اكثر من فضائلها .

اميرة الاندلس

(١٩٣٢ م)

« تم طبعها في اول تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ م » .

١ موضوعها

هذه قطعة من تاريخ الاندلس في زمن ملوك الطوائف ولدت حوادثها وغت في اشبيلية عاصمة العباديين بالاندلس . وانتهت في اغمات بلد على مقربة من مراکش بالمغرب الاقصى . وموضوعها ان الاميرة بثينة بنت المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية، زارت قرطبة بثياب غلام، فرأت فتى في السوق يشتري كتباً، فحادثته وحادثها ، على انها فتى مثله وافترقا وقلبا مشغول بهواه . وخطبها سير بن ابي بكر وزير يوسف ابن تاشفين امير المرابطين . فردت يده ، وبحث عن فتاها حتى عرفته فاذا هو حسون بن ابي الحسن التاجر الاشبيلي ، فزارته في داره متنكرة بالزي الغلامي الذي عرفها فيه . فرحب بها ، وفيما هو يروي خبر مقتل اخيها الظافر في قرطبة ، اغمي عليها وانسدل شعرها ، فتبين حقيقة امرها ، وتعشقا كما تعشقتهم .

ثم غزا يوسف بن تاشفين الاندلس ، وازال عنها ملوك الطوائف واعتقل المعتمد ابن عباد وأسرته ، وارسلهم الى اغمات . الا بثينة ، فقد سبها مغربي ، فعرف ابو الحسن التاجر مقرها ، فاشتراها ، وجاء بها الى ابنه حسون . فابت ان تتزوج الا برضى ابيها وامها ، فسار بها الى اغمات حيث تم الزواج .

٢ مضمونها

قد يصح على هذه المسرحية ان نسميها مناظر تمثيلية ، لما فيها من المشاهد والفصول المستقلة المتقاطعة . واما ان نسميها مأساة بالمعنى الفني المعروف ، فهذا تجوز

عظيم لا مسوغ له . واي مأساة تدعى ؟ وليس فيها عقدة معروفة ، ولا قصة متسلسلة الحوادث ، وموحدة العمل . وانما هي اخبار مبثوثة لا يكاد يجمع بينها جامع ؛ اخبار ابن عباد . على اختلاف حوادثها ، ونواحيها ، جمعها شوقي من التاريخ على علاتها ، ووسمها بسمه المأسى بالرغم من انف الفن . فكان الاختلاط والاضطراب وضعف التأليف اعظم ميزاتها .

ولا نحاول ان نتوسع في تحليلها ونقدها ، لانها لا تستحق هذه العناية ، وانما نعرض ما فيها من تراكم الحوادث وتقاطعها ليكون المطلع على بيئة منها . فالفصل الاول يشتمل على ثلاثة مناظر لا يحتاج موضوع القصة الى سوى الاول منها . اما الثاني ففيه وليمة الوفد الاسباني ، ومقتل ابن شاليب وزير الفنس ، فلا معنى لاقحامه في المأساة . المنظر الثالث منقطع عن الاول والثاني بترهة نهريّة خارجة عن الموضوع .

اما الفصل الثاني فخارج عن الموضوع برمته ، فما سرقة كنوز طليطلة ونكبة ابي الحسن التاجر من قوام المأساة ، بل كلاهما يستغنى عنه .

والفصل الخامس يحتوي ثلاثة مناظر ؛ احدها بالاندلس وفيه سبي بثينة ونجاتها والاخران في اغمات . فلو اكتفى شوقي بالاخيرين لكان اولى . لان بثينة روت لاييها خبر سبيها ، فلا حاجة الى ذكره قبلاً ، لولا شغف المؤلف بالاكتثار من الحوادث المختلفة ليملأ بها الفصول .

وهذه المسرحية نثرية ؛ واضحة الانشاء ، سهلة العبارة ، خالية من التكلف الذي تعمد به شوقي في اكثر نثره .

عنترۃ

(١٩٣٢ م)

« تم طبعها في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٢ » .

١ موضوعها

وقعت حوادث هذه المأساة في اواخر العصر الجاهلي ، في احياء بني عبس وعامر ، ببادية نجد . وموضوعها مستقى من سيرة عنترۃ بن شداد العبسي ، وما كان من حبه لعلبة بنت عمه مالك ، وكلفها به لشجاعته وفصاحته ، وشهامة نفسه ، مع انه عبد اسود انكره ابوه ، والى عمه تزويجها به .

فاتفق مرة ان غزي الحلي ، وسليت النساء ، ونهبت الاموال . فاستغاث شداد بابنه ، والحقه بنسبه ، فكر ، واستنقذ السبايا والنعم ، وهزم الاعداء . ولكن والد عبلة ابنت مكابر لا يرضى به صهرأ ؛ ولا يرد يد ابنته عن طالب ، رجاء ان يتخلص منه ، جاعلاً رأسه صداقها . وعنترۃ يفسد عليه خططه ، ويتزل بالخطاب الويل والحرب ، حتى تزوجها بالرغم منه .

وهذه الحوادث اقتطفها المؤلف من مواضع شتى في السيرة ، وغير في الاسماء وبدل ، وزاد من عنده ، حب ناجية لصخر العامري خطيب عبلة ، وزواجهما بحيلة مقتعلة ؛ وذلك ان عشرين فارساً من بني عبس كلفوا حراسة عبلة ، في طريقها الى بني عامر ، ليتزوجها صخر ، فتصدى لهم عنترۃ ، وانقذها ، بعد ان مكّن سيفه منهم فقتل بعضهم ، وفر الباقون . وكانت ناجية ، وهي فتاة من عبس ، تحب صخرأ ، فخلعت عليها عبلة خمارها ووشياها ، واركتها هودجها ، وارسلها عنترۃ الى بني عامر مع بعض اصحابه ، فدخلت خباء صخر وهو يظنها عبلة .

وفيا بنو عامر يولون ولائم العرس ، هبط عليهم عنترۃ ، فذعروا وتطايروا من

امامه . وكانت عبلة معه ، فقضى العباسيون عن ابائها ، بزواجهما من عنتره . وقضى
عنتره على صخر بن يتزوج ناجية ، فاذعن مستخذياً ، وقامت الافراح .

٢ منظرها

ليست هذه المأساة ، بخير مآسي شوقي ، ولا بشرهن ، فهي بارعة في تحليل
الاشخاص والعادات ، الا ما كان من دعوة عبلة الى الوحدة العربية ومكافحة
الاستبداد الاجنبي ، مشحونة كغيرها بالحوادث الطفيلية ، ضعيفة الارتباط ، مبتذلة
المبارزات . بيد انها لا تخلو من المشاهد الرائقة كتحرير عنتره ، ودفاع عبلة عن حبها
متمردة على ابائها واخويها ، ودعوتها العرب الى الاتحاد . ثم المفاجأة التي كان بها
حسن الختام .

نظرة عامة

في مآسي شوقي

شوقي والتاريخ

بنى شوقي مآسيه على حوادث التاريخ، وادخل في بعضها الاساطير والخرافات «مجنون ليلى . قبيز . عنتره .» غير انه كان يراعي الجانب القصصي احياناً، فيغير في الاحداث التاريخية ويبدل ويقدم ويؤخر . الا ان الاختراع ضعيف في الجملة، فالتاريخ هو المسيطر على العقد والمفاجآت المسرحية . ويلام شوقي انه لم يتورع من تشويه الحقيقة التاريخية في بعض المواضع . فقد جعل عملة «عنتره» تدعو الى الوحدة العربية وخلع نير الاعاجم . مع ان الجاهلي لم تخطر في باله هذه الاشياء، ولم يتجاوز القبيلة بعصبته . وجعل ابن عوف يشفع لقيس، مع ان الذي شفع له نوفل بن مساحق «مجنون ليلى» وليس من داع قصصي يسوغ هذا التغيير .

ومآسيه على لولنين من التاريخ احدهما مصري «كليوباترا، قبيز، علي بك الكبير» والاخر عربي «مجنون ليلى، اميرة الاندلس، عنتره» .

شوقي وقوانين ارسطو

لم يتقيد شوقي بوحدي المكان والزمان بل كان ينتقل حراً من موضع الى آخر، وربما استغرق هذا الانتقال شهراً او اقل من شهر، او اكثر . ولئن ابيح للكاتب المسرحي ان يتمرد على ارسطو في هاتين الوحدتين، لم يبيح له ان يفتت على وحدة العمل كما فعل شوقي في مآسيه .

العمل

عني شوقي بالاكتثار من الحوادث في فصول مآسيه، فاذا هي عنده اظهر من

تصوير الحياة وتضارب العواطف والاهواء . وفاتها الارتباط والتساق ، فاضعفت العقدة ، وافسدت العمل ، وهبطت بالفن التمثيلي هبوطاً مشثوماً لا حد له . فأنى تبينتها تجد معها المعرفة والضرر ، ولولاها لكانت سقطات شوقي هينة يسيرة ، ولما نعت عليه مآسيه . واليك البيان :

١ يتطفل على الموضوع مخبر دخيل يرافقه ولا يترج به « مصرع كليوباترا » .
٢ تتوزع العقدة بين خبرين لا يتحدان اتحاداً قوياً ، فيبدو عليها الضعف والاسترخاء . « علي بك الكبير » .

٣ يحشر في العرض حوادث غريبة عن العمل ، لا علاقة لها بما يأتي بعدها « مصرع كليوباترا ، اميرة الاندلس » .

٤ يعترض الفصول اشخاص طفيليون لا قيمة لادوارهم ، وحوادث خارجة عن الموضوع ، لا عمل لها الا ان تقطع العمل : « مجنون ليلى ، قبيز ، عنترة ، اميرة الاندلس » .
٥ تستأنف المأساة بنجر جديد بعد انحلال العقدة « مجنون ليلى » .

فاتفاق الحوادث المختلفة على العمل ، اودى بوحده ، وحال دون العقدة ، فقطع اوصالها ، وصد الجاذبية عنها ، فلم يتسلسل تيارها في الفصول .

واذا اضفنا ضعف المفاجآت المختلفة ، وخنوع اكثرها للتاريخ ، وسيرها في ركابه ، تبينت جلياً ضالة تأثير العقدة في النفوس .

ونهاية مآسي شوقي فواجع ونكبات ، وقتلى وصرعى ، ما عدا عنترة واميرة الاندلس .

الافكار

وفق شوقي في تصوير اخلاق اشخاصه وعاداتهم ، توفيقاً يحمده عليه ، ولا سيما مصرع كليوباترا ، ومجنون ليلى ، وقبيز ، وعلي بك الكبير . فأرانا الحب والبغض ، والشجاعة والجن ، والوفاء والخيانة ، والظلم والحلم ، والشرف والوطنية ، وحال العواطف وقبحها . الا ان اشخاصه ليسوا بأشخاص الانسانية ، يرافقون الاجيال والاحقاب ، وانما هم يحيون ويموتون في عصورهم .

الحب

يحتذي شوقي على مثال كورنه في اظهار الحب وتصويره، فهو مقيد بالعقل ابداً خاضع للواجب . فكليوباترا لم تتحرج من خذل حبيبها مراعاة للسياسة المصرية . وليلى رفضت قيساً محافظة على التقاليد البدوية . وورد خنق عاطفته ملياً داعي الشهامة والمروءة « مجنون ليلى » . وامال حبست نفسها عن مراد وفاء لزوجها « علي بك الكبير » . وعبله ابت ان ترف الى عنزة دون رضى ابيها . وبثينة لم تتزوج حسوناً الا بعد ان استسلمت الى ارادة والدها « اميرة الاندلس » . على ان هذا الحب لا يبدو عظيماً بخضوعه للواجب الا في مجنون ليلى ، ويعود ذلك على ضعف اثر التضحية، اما لحقارة العقبات التي تحيط بها، « علي بك الكبير » ، واما لقلّة خطرها « كليوباترا » ، او لحسن نيتها، « عنزة، اميرة الاندلس » .

والحب في مآسي شوقي لا تتصور فيه الغيرة ، مع ما لها من القوة في توجيهه وإلهابه . وهو خال من الظرف والنعومة والدلال ، وخال من تصوير اللوعة والحزن ، وتفاعل العواطف في حالة البعد والحرمان

الخطبات

تشتمل مآسي شوقي على مغازٍ خلقية نبيلة ، كالتضحية في سبيل الوطن « كليوباترا، قبيز » . وفي سبيل الشرف « مجنون ليلى ، علي بك الكبير » . وكالسمعي الى الوحدة القومية، والاستقلال، وخلع نير الغريب « عنزة ، علي بك الكبير » . فكانه يمثل في ذلك حالة مصر خصوصاً، والشرق الاسلامي عموماً .

وفيها الثورة على الرق، وتقبيح الظلم والغدر « علي بك الكبير » . وفيها وخز الضمير ، والم النفس النادمة « قبيز » . وفيها مغبة الاثم ، وعقاب الجريمة « كليوباترا ، قبيز » .

وفيها تصوير بليغ للشجاعة والمروءة والوفاء والحلم، وعزة النفس، وعلو الهمة،

وسواها من السجاياء الحسنة . وفيها كثير من المواعظ وآداب النفس ، التي طالما شغف بها شوقي وبثها في شتى قصائده .

الشعر

غلب النوع الغنائي على شوقي حتى في مأسية ، فاصطبغ به اشخاصه فاذا هم غنائيون مثله ، يحتفلون بالقصائد الوجدانية الموسيقية ، اكثر من احتفالهم بفن التمثيل . وقد ارتفع شوقي في كثير من هذه القصائد ، فكانت له المقطعات الجميلة ، والابيات المقلدة ، والوثبات الرائعة ، والايجاز المحكم في تأدية المعنى .

وشعره يرافق المواقف العاطفية ، فيلين في موضع اللين ، ويشتد في موضع الشدة ، فاجتمعت له الرقة والجزالة ، والنعومة والصلابة . وتطفو عليه المعاني ، والصور والتشابه البدوية ، في قصص البادية « عنتره » مجنون ليلي . وهو على تقلب احواله رائق الديباجة ، واضح الغرض ، بعيد من الغريب المستوحش .

ولشوقي الفضل الذي لا يجحد في اخضاع الشعر للتمثيل ، بعد عصيانه على متقدميه . فقد حرره من رق الخليل ، فخالف في الانواع . فكانت له القصائد ، والمقطعات ، والتوشیحات ، والمسّمطات ، والمزدوجات . وخالف في الاوزان فكان ينتقل من بحر الى آخر في المشهد الواحد . وخالف في القوافي فكان يثب من روي الى روي متى شاء . فاتسع له مجال القول ، وانطلق عنده عنان الفكر والخيال .

ما أدرك علي

كان شوقي كثير المعارضة للمتقدمين، راوية لاشعارهم، فقادته ذلك الى التوكؤ على معانيهم سواء في معارضاته او في سائر اقواله . فكثرت عنده المعاني المطروقة، والصور المقلدة، تحتشد حولها وجوه واجيال من طوائف الشعراء . وقد يحاول اخفاء سرقة في اخراج المعنى عن اصله فما يستقيم له الامر كقوله يرثي الملك حسينا الهاشمي :
لَكَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ مَاتَمٌ ، قَامَ فِيهَا أَبُو الْمَلَأِكِ هَاشِمٌ
فهذا المعنى مأخوذ من قول ابن النبية :

مَاتَمَةٌ فِي الْأَرْضِ لِكَنِّهَا عُرْسٌ عَلَى السَّعْرِ الطَّبَاقِ الشَّدَادِ
وقول ابن النبية اجود واصح . فقد جعل الارض في مآتم لان الميت فارقتها . وجعل السماء في عرس لان الميت حلَّها . اما شوقي فاراد ان يولد من المعنى شيئاً جديداً لم يقله سابقه، فجعل الارض والسماء في مآتم على السواء .

ويدرك عليه في هذا البيت قوله : قام فيها، والصواب قام بها . يقال قام بالامر لا قام فيه . وقوله : ابو الملائك والصواب ابو الملوك او ابو الاملاك . ولُقِّبَ هاشم ابا الاملاك لان منه خرج ملوك العباسيين والطالبين . واما الملائك فجمع ملك اي الروح السماوي . وغلط شاعرنا في جعله هاشماً يقوم بمآتم الحسين في السماء لان هاشماً مات جاهلياً، ولم يدرك الاسلام، فليس له ولاية عند الله ، فترتفع منزلته في الجنة ، فيتولى مثل هذه الحفلات .

والعثرات اللغوية كثيرة في شعر شوقي نجتزئ منها بقدر قليل قال :

وَأَحْمَرٌ مِنْ خَفَرَيْهِمَا خَدَاكَ

والصواب ، من خفرهما اذ ليس لكل من خديها خفر يختلف عن خفر الآخر .

وقال :

أَنَا مَنْ بَدَلَ بِالْكِتَابِ الصَّحَابَا لَمْ أَجِدْ لِي وَافِيًا إِلَّا الْكِتَابَا

ووجه الكلام : انا من بدل الكتب بالصحاب . وقال في قبيز :

أَسْفًا عَلَى الْقَتِيَانِ أَيْنَ حَمَاسُهُمْ ، قَتَلَ النَّعِيمُ حَمِيَّةَ الْقَتِيَانِ

وانما يقال الحماسة لا الحماس ، والحماس شجر . وقال في علي بك الكبير :

بَعْضُ الْجَوَالِبِ

والجوالب لا يستعمل الاعم النساء ، او غير العاقل . وقال في كليوباترا :

أَثَرُ الْبُهْتَانِ فِيهِ ، وَأَنْطَلَى الزُّورُ عَلَيْهِ

فانطلى الزور عليه من كلام العامة . وقال فيها :

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَصْبَحَ أَنْتَبَهْنَا نَزَى الْأُسْطُولَ أَزَيْنَ مَا تَرَاءَى

يقال : اصبح فلان : دخل في الصباح . ولا يقال اصبح الصبح . وقال :

بَطَلَ الشَّرْقُ قَدْ بَكَتَكَ الْمَعَالِي ، وَرَنَّاكَ الْوَيْفَى وَالْأَخْصَامُ

والخصم لا يجمع على اخصام .

ويؤخذ عليه اكثره من استعمال ذا للاشارة شأن المتنبي وهي ضعيفة في الشعر .

ولم يسلم من الغلو المستكره كقوله يصف قذائف الاتراك :

قَذَائِفُ تَخْشَى مُهْجَةَ الشَّمْسِ كُلَّمَا عَلَتْ مُضْعِدَاتٍ ، أَنَّهَا لَا تُصَوَّبُ

وله معانٍ بادية السخف والزراية كقوله في رثاء محمد علي زعيم الهنود المسلمين :

وَقَبَاؤُهُ نَهَجُ الْهُنُودِ فَهَلْ تُرَى دَفَنُوا الزَّعِيمَ مُكْفَنًا بِقَبَائِهِ

وربما خرج على اصول العروض وقوانينه ، فألحق العيوب المستكرهه بقوافيه

كثائته في لبنان ، فانها مشوبة بسناد الردف . او استباح الاوزان فكسرها كقوله :

مَنْ نَسِيَ السَّلَفَ وَخِدْمَتَهُ ، لَمْ يَذْكُرْ فِي غَدٍ الْخَلْفَا

فقد اورد القبض اي حذف الحرف الخامس ، فجاء تفعليل الجزئين الاولين فاعل ،

فاعل . والقبض لم يسمع في هذا البحر .

السلوب

لا تخطئ أسلوب شوقي اذا تتبعته في تعابيره، والفاظه وصوره وانتقالاته، على ما في شعره من رسوم ووجوه لشعراء مختلفين . فأسلوبه بادي الشخصية وان تكاثرت عناصره الغريبة ، وشخصيته بيئة الطابع ، وان تكن في جملتها مستعارة . فلشوقي الديباجة المشرقة ، والرنة الموسيقية ، والاستهلالات البارعة ، والالفاظ البراقة الصخابة البليغة الوقع في النفوس . والتشابه المترفقة الناعمة ، يستمدّها من الطبيعة الباسمة ، والقصور الضاحكة ، ومن وسوسة الحلى والجواهر ، ومن الحياة الزاهية المبتهجة التي يشعر بها كل الشعور : « كأن أسعها البشرى أو العيد » .

ويقرط في ذكر عيسى ومريم والملائكة والانبياء ، والصحابة وعظماء التاريخ ، والاسلام والمسلمين ، والتوراة والانجيل والقرآن ، والصليب والهلال ، والجنة والخلد ، والحر والولدان ، والشمس ويوشع ، والاخلاق ، والعبقرية ، والرفيف والرفرف ، والضجيج ، والبناء والحائط والشرع ، والجناح .

ويكثر في كلامه من الاستفهام :

رَبَاعُ الْخُلْدِ وَيَحْكُ مَا دَهَاها ؟ أَحَقُّ أَنَّها دَرَسَتْ أَحَقُّ ؟

وربما انقطع عن الخبر ليثب الى الاستفهام تعمداً :

رَفَعُوا لَوْلَبَها فَأَنذَفَعَتْ ، هَلْ رَأَيْتَ الطَّيْرَ قَدْ زَفَ وَحَامًا

ويحفل شعره بالاشارات الى الحوادث التاريخية المشهورة ، وخصوصاً ما يتعلق منها بالاديان ، وبتاريخ الاسلام . ولا يخلو من غموض ، اما لالتباس ضمايره ، او لقصر الفاظه عن اداء معانيه ، او لبعد استعاراته وكنائياته ، او لتعسفه في ابراز فكرته . فهو من هذا القليل يشبه المتنبي واما تمام .

١ لولبها : الضمير يعود على الطائرة . زف الطائر : رمى بنفسه او بسط جناحيه

ليطير .

وقصائده متعددة الاغراض، وان دل عنوانها على غرض واحد . فقد يمدح، او يرثي، او يصف طيارة، فيدخل في مدحه وراثته ووصفه، السياسة والتاريخ، والاجتماع والنصائح، والوطنيات والدينيات، وغير ذلك مما يحدث عنه كيمياء عجيبة التركيب، تخرجها شاعرية غريبة الوثبات، مكهربة التوايد، ملونة الانتاج .

مصراته

مسحت ربة الشعر احمد شوقي بزيت العبقرية ، ونضجته بماء الخلود ، ثم القته الى الشرق شاعراً ضنت بامثاله قروناً طوالاً . وحرصت على تنشئته ، فأتاحت له ثقافة حسنة رفعت مستوى تفكيره ، وذلك له اسقاراً عديدة ، تعهدت بالغذاء موفور خياله . الا ان الهة القدر خانتها فيه ، وعكست آمالها من حيث حققت آماله . فما ان انتفض جناحاه ، وزف للظيران في افق الوحي الطليق ، حتى لوحت اليه بققص من ذهب ، فاغرته به ، وخطفت ابصاره بلعانه . فعشا الى ضيائه لا يبصر ما عداه ، وارتنى السجين الموصد على الفضاء الفسيح ، والتزى في القضبان على التحليق في الافلاك . فطوى جناحيه وهما على اشد ما يكون حاجة الى الانطلاق . واذا به في قصر الامير لا يرى من الشعر غير المدح والثناء وما يشبه المدح والثناء . فجنى عليه البلاط ما جنى من قبل ، على المتنبى والبحتري واي تمام . وصرفه كما صرفهم الى شعر الحفلات والمآتم . فكان شاعر الامير وامير الشعراء ، والشاعر المترف المتنعم ؛ وكان ايضاً شاعر العبقرية المسجونة ، وشاعر التقليد والمحاكاة .

وشاء القدر ان ينفي عن مصر ، ثم عاد اليها لا ليتصل بالقصر ، وقد انقطعت ما بينهما الاسباب ، بل لينشد تلك الحزبة التي اضاعها في شبابه ، وليتصل بالشعب ويلبس جراحاته بعد ان كان لا يتبينها الا عن بعد . فاجتمع له في الوطنيات ، والدفاع عن مصر والاسلام والشرق شي . يحمد عليه .

وكانه اراد ان يستعيز مما خسره وهو في البلاط ، فنشط الى الاغراض التي باسرها في صباه ، فنظم اساطير القرون ، ونظم القصص التمثيلية . فكانت اواخر سنينه اخصب ايامه ، واشرفها انتاجاً . وانه وان لم يبلغ بالتمثيل غاية الفن والاتقان ، لقد فتح طريقه للشعراء ، وذلل لهم البحور والقوافي . وكان كالفرس الكريم يجيد الاحضار مهما يطل عليه المجال . وقلما وف الشاعرية لصاحبها كما وفته له في شيخوخته .

ولو قُيِّضَتْ لها الحرية في الشباب كما قُيِّضَتْ لها في المشيب جاءت بالعجب العجائب ،
ولأدنى صاحبها رسالة عبقريته بامانة .

وطارت لشوقي شهرة في حياته ، لم يطر مثلها الا لافذاذ الشعراء المتقدمين . فان
منزلته عند الامير جعلته قبله الانظار ، وحديث المحافل . فكان اسمه يتردد على
الافواه ويجول في الخواطر . وقصائده لا تنشر في الصحف الا متوجة بمقدمات الشناء
والاطراء . ولم يكن النقد الادبي قد نهض يومئذ ، فكانت كل قصيدة له عصماء ،
وكل نفثة من نفثاته سحر البيان . فكثر رواة شعره ، والمعجبون به ، وقل من نظر
الى انتاجه ، فراه دون ما يرجى من شاعر مثله .

فلما تناهى شوقي عن عابدين ، وعاد من الشعب ، كان النقد قد تقدم تقدماً
محسوساً ، فانبرى الادباء في مصر ولبنان وسورية واميركة ، يروزون اقواله ، ويتلمسون
مواطن الضعف فيه ، وينعون عليه تقليده ، فتصدى لهم جماعة من نصرائه ينقضون
اقوالهم ، ويدودون عنه ، ويبالغون في تفضيله . حتى عقد بعضهم الجوائز لمن يعارضه
ويبذه . فاحتدم الجدل في ما له وما عليه ، واتسع مجال القول على خصومه ومريديه ،
فكان خلافهم فيه سبباً قوياً لتوطيد شهرته ، كما وطد الخلاف من قبل شهرة المتنبي
والبحتري والي تمام . اضيف الى ذلك مبايعته على امارة الشعر في حفلة حافلة بالشعراء
والادباء . وطبع آثاره طبعاً عاماً متقناً ، وطبعاً مدرسياً خاصاً ، مما سهل لها سبل الانتشار .
ثم حفلة تأيينه بعد موته ، وما كتب عنه من المقالات والدراسات . ولا ينبغي ان نجحد
فضل المغنين ، ولا سيما عبد الوهاب المصري فانه اطار اشعاره التي غنى فيها ، فسارت في
الحواضر والبوادي ، ورددتها قوالب الحاكي ، وتغنى بها المغنون ، وحفظها النساء
والاولاد والرجال .

١ عقد نعوام المكرزل منشئ جريدة الهدى النيوركية جائزة قيمتها مائة دولار ،
لمن يعارض شوقي في اربع قصائد مختارة ، ويفضله فيها . وخص من نقاده صاحب هذا الكتاب ،
وايليا ابي ماضي ، ومحجوباً الشرتوني . ثم اضيف الى الجائزة عشرون دولاراً تبرع بها احد
المهاجرين من لبنان . ولكن لم يتقدم احد من هؤلاء الثلاثة للمعارضة ، لان الناقد غير الشاعر ،
ولان القصائد المختارة قيلت في اغراض مخصوصة ، مضى عليها الزمان .

ولكن الشهرة وحدها لا تخلد صاحبها طويلاً إلا تدعم بعناصر الخلود الحقّة،
 وشوقي شاعر توافرت لديه عناصر العبقرية، فله الخيال الخصب المديد، وقوة الوصف
 والتصوير، ودقة الشعور بشباب الحياة وبهجتها . والوثبات العجيبة المحلقة، والملمحات
 السريعة الخاطفة . وأدب النفس الانسانية، واتساع عاطفتها واحساسها . وبراعة المعنى
 الطريف، وعمق مدلوله . وجمال اللفظ الانيق وهلهلته، كأنما ركب من نغم الآلات .
 وله الشعر الرائع في الوطن والاسلام ، والتاريخ والاجتماع ، والحكم ، والامثال
 الجارية على ألسن الناس . وهو شاعر عصره يمثله بسياساته، وفتنه، واحزابه ، وفوضى
 مجتمعه واخلاقه .

ولئن غلب القديم على شعره بتأثير حياته ، فما ينكر جديده في شتى اوصافه ،
 واجتماعياته وقصصه التمثيلية ، واساطير الماضين وسواها . فهو بحق واسطة عقد
 الاوائل والاواخر . وحسبه منزلة انه رفع قدر مصر في الشعر ، ولم تكن قبله تعد
 شاعراً منها في طبقة الفحول . فكان نابغتها الاوحد وامير الشعراء وشاعر الشرق
 والاسلام .

الكتاب المحدثون

عصر الانبعاث

مبزة النثر

كانت لغة النثر في صدر الانبعاث كلغة الشعر، ضعيفة التركيب، متناقلة الاداء، مصروفة الى الصناعة اللفظية . وكان الغموض يرافقها على الغالب، ولاسيا في الترجمات، لاستمساكهم بالالفاظ، دون المعاني . ثم بدأت ترتفع وتنجلي ديباجتها بعد منتصف القرن الماضي ، وظهرت نهضتها في مقامات الشيخ ناصيف اليازجي ، ثم في ترسل اديب اسحق .

الا ان جمهرة الكتّاب لبشوا يتسمون طريقة القاضي الفاضل والحريري في السجع والتزيين . بيد انهم حاولوا اطراحها في بعض اغراضهم ، ومنهم من تجنبها أصلاً او قصرها على الترسل وانواعه .

ولما نشأ كتّاب القرن العشرين اقلعوا عنها جملةً الى المرسل المطبوع . واقتصر المتكلف المسجوع على طائفة من الشيوخ حملوا معهم اسلوب القرن الماضي . ثم على طائفة اخرى من الجامدين الذين لا خطر لهم في النهضة .

وكيف دار الامر فالنثر كان اسرع تطوراً من الشعر ، واعجل تفلتاً من اغلال التكلف والتقليد . لان الكتّاب ادر كواروح العصر وحاجة ابنائه، فجاروا حياتهم في سيرها ، وانطلقوا الى الامام في حين كان الشعراء لا ينفكون عن التلفت الى الوراء .

١ منشي بليغ ولد في دمشق سنة ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) وترعرع في بيروت . وطارث له شهرة في مصر . جمعت نخبة اقواله واشعاره في كتاب اسمه الدرر . توفي ببيروت سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٣ هـ) .

ويعود الفضل في تقدم النثر، وتحرره الى اسباب عدة : منها انتشار الثقافة العربية ، وظهور النقد الادبي الحديث . ومنها مزاولة الصحافة ، والترجمة ، واطلاع الكتّاب على صحف الاعاجم ، ومصنفاتهم ، واساليبهم . ومنها نشر المخطوطات العربية القديمة بلغاء الكتاب المطبوعين كابن المقفع ، وابن خلدون ، والامام علي ، وابن عبد ربّه ، وابي الفرج الاصفهاني ، والجاحظ . فقد اقبل عليها الادباء وتدارسوها ، فراقتهم اساليبها . ورأوا فيها ما يسد بلغتهم ، ويعينهم على اداء افكارهم ، في مختلف الابحاث . فتلذوا لها ، وجفوا الطرق المتكلفة التي يضيع العمر في تنميق الفاظها وترتيبها . وليس بوسعها ان تقضي حاجة العصر بما فيه من آداب وعلوم وفنون .

واختلطت هذه الاساليب بعضها ببعض من كثرة الانسحاب عليها ، ومازجتها الاساليب الدخيلة امتزاجاً يختلف بين القوة والضعف ، فنشأ عنها طرق حديثة متعددة اشهرها ثلاث : طريقة الشيخ ابراهيم اليازجي ، وطريقة مصطفى الخففي المنفلوطي ، وطريقة جبران خليل جبران^١ .

واشتد تأثير الثقافة العربية بعد الحرب العالمية الأولى ، فجنحت طرق الكتاب في كثرتها الى اساليب الفرنجة ، فاصطبغت بالوانها اصطباعاً يتّناً سواء في فنون التعبير ، او بعض وجوه التركيب . وظهر الضعف على طائفة منها لان اصحابها قل حظهم من البلاغة العربية ، فطمعت عليهم العجمة ، وانحدرت ببيانهم اشأم انحدار .

وافادت اللغة الفاظاً جديدة ، قضت بها الحضارة والمخترعات والعلوم . فمنها ما نقل بلفظه الاعجمي وعُرب . ومنها ما وضعت له اصطلاحات من صلب اللغة . ومنها ما بقي حائراً بين لفظه الدخيل ووضع عربي جعل له ، ولم يأخذ به جمهرة المنشئين . وشاعت الفاظ اقليمية ، حملتها الجرائد والكتب ، فالتبست من طول الاستعمال بالفصح المائوس .

١ طريقة جبران قوامها تصوير خيالي جامع ، والفاظ ملونة ميلورة ، وجمل شعرية مقطعة ، فيها شبه بأسلوب التوراة . وكان لترجمة التوراة اثر ظاهر في نثر بعض الكتّاب المسيحيين ، ومنهم جبران .

ومال الكتاب الى شيء من الاسهاب في تعابيرهم . وآثر بعضهم المساواة بين اللفظ والمعنى ، الا المصريين فانهم على الاجمال تورطوا في التطويل والتكرار . وسرت عدواهم الى نفر من حملة الاقلام في سورية ولبنان .

ويمتاز النثر الحديث بوضوحه ، وسلاسة قياده لاقتبال الابحاث المختلفة ، مهما كانت عميقة متشعبة الاغراض . ولم يتفق اللغة مثل هذا الوضوح ولا تلك المرونة في عصر من العصور .

اغراضه

اتسعت اغراض النثر الى انواع العلوم والفنون على اختلافها . فشملت الترسل والخطابة ، والصحافة والقصص والتمثيل ، والابحاث العلمية والاجتماعية والادبية بما فيها من نقد وتحليل . فبلغ بها النثر غاية بعيدة ، وسد ثلثة كبيرة في الادب العربي القديم .

الترسل

لقي الترسل حظوة كبرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد ان ارتفعت لغة الكتاب . فاعتمدوا عليه في الاخوانيات والوصف والمقامات ، ومقدمات الكتب . ولم يرضوا به على الصحف السياسية والاجاث العلمية . والتزموا فيه على الغالب ، السجع ومزاوجة الالفاظ ومجانستها ، وتحليلتها بالصور البيانية ، والانواع البديعية ، وتجميلها بالاستشهادات ، والتلميحات ، والاشارات .

وجاروا المتقدمين في اكثر ابتداءات رسائلهم واختتاماتها ، وادخلوا الادعية ، والقباب التعظيم وعبارات التفخيم . ولم يربأوا بانفسهم عن التللف وخفض الجانب ، ولاسيا في كتبهم الى اصحاب المراتب والمناصب ؛ وعلى الاخص اذا كان هنالك حاجة يستنجزونها ، او عتي يلتسونها :

« كتابي الى السيد السند ، »

« كتابنا ايد الله الامير ، »

« الى اعتاب ولي النعمة . »

على ان الترسل لم يلبث ان نبذ هذا التكلف المقيت بعد ان سادت الثقافة الغربية ، وتحجرت اساليب النثر . فاقصرت الرسائل على ذكر الحاجات ، واقتصدت في التحيات والادعية . وانصرفت مقدمات الكتب الى نوع من الدرس والتحليل بدلا من السجع وزصف العبارات الفارغة . واكتسب الوصف دقة وشمولا واستغنى عن مترادفات الالفاظ والتعابير التي لا شأن لها الا ان تظهر ناحية واحدة من الموصوف . واهمل فن المقامات ولم يبق له ذكر يذكر . فاصبح الترسل على الاجمال يضع اللفظ والمعنى في ميزان واحد ، ويجعل كل جملة تختص بمعناها ، بعد ان كانت القيمة فيه لصناعة الالفاظ ، ولتقليب الجمل على المعنى الواحد .

ومن مشاهير المترسلين الشيخ ناصيف اليازجي وولده ابراهيم ، واديب اسحق ، والشيخ محمد عبده ، وابراهيم المويلحي ، والشيخ علي يوسف ، والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي . ونجترى هنا بالكلام على اثنين منهم هما اليازجي الابن ، والمنفلوطي .

الشيخ ابراهيم اليازجي

١٨٤٧ - ١٩٠٦ م و ١٢٦٤ - ١٣٢٤ هـ

عبد

هو الشيخ ابراهيم ابن الشيخ ناصيف اليازجي، نصراني من طائفة الروم الملكيين . ولد في بيروت، وترعرع في بيت ركن العلم اليه، فألفه صغيراً . وتوسم فيه والده مخايل النجابة، فتعهد به عنايته، ولقنه اوليات اللغة وفنونها، وحبب اليه آدابها . فاقبل عليها يتزود منها بالدرس والمطالعة، حتى تفقه اسرارها واستجلى حقيقتها ومجازها، واستكانت اليه شوارد الفاظها . فاصبح فيها علماً من الاعلام، وحجة غير مدافع .

ونظم الشعر صبياً، ولكن لم ينصرف اليه، وانما كان يروض نفسه عليه في السوانح . بيد انه تفرغ للنثر، وزاوله باعتناء، حتى برع فيه، وعد من كبار المنشئين . ومال الى الصحافة، فكان اول عهده بها في جريدة النجاح^١ اذ تولى انشاؤها سنة ١٨٧٢ . ولكن لم يطل بها امره لان دخلها لم يكف خرجها . فتركها في السنة نفسها، وذهب الى مدرسة اليسوعيين في غزير . وكانوا يريدون ترجمة الثوراة، فدعوه اليهم، واناطوا به تهذيب عبارتها . فاشتغل بها نحو تسع سنوات، منها في غزير ومنها في بيروت . فاخرجها بلغة انيقة، بليغة التعبير، ولاسيا العهد العتيق لانهم اطلقوا يده في تنقيحه اكثر من العهد الجديد .

١ النجاح : جريدة سياسية علمية تجارية . كانت تصدر في عهد الشيخ مرة في الاسبوع، بعشرين صفحة . وكان يديرها يومئذ في بيروت صاحبها يوسف الشلفون، ورزق الله خضرا .

وكان وهو في بيروت يعلم البيان وآداب اللغة في المدرسة البطريركية .
 راجعه الحنين الى الصحافة ، فاختار العلمية على السياسية ؛ واصدر مجلة الطبيب سنة
 ١٨٨٤ يشار كه فيها الدكتور بشاره زلزل ، والدكتور خليل سعادة . وكان يكتب
 فيها أماليه اللغوية فطار له ذكر في اللغة ، بعد ان عرف ببلاغة الانشاء . واقف
 الطبيب بعد سنة من صدورهما ، لقله الاقبال على المباحث العلمية .

وكانت الصحافة قد تحولت الى مصر لانطلاق حرية القلم فيها ، فيمم الش
 شطرها سنة ١٨٩٣ في مجلة اللبنانيين المهاجرين . وفي سنة ١٨٩٧ انشأ بها مجلة الب
 مع زميله الدكتور زلزل . ثم حجبها بعد سنة ، وانفصلا . واصدر الشيخ بعدها
 مجلة الضياء سنة ١٨٩٨ ، وظل يتعهدا بقلمه البليغ مدة ثماني سنوات حتى مات
 وكانت وفاته بالسرطان اصابه في الكبد ، ومات عزباً .

وفي سنة ١٩١٣ نقل رفاثه الى بيروت فدفن فيها . وصنع له اللبنانيون
 البرازيل تمثلاً من الشبه ، وارسلوه الى بيروت . فبنيت قاعدته في محلة باب يعقوب
 ورفع الستار عنه سنة ١٩٢٤ في حفلة حافلة شهدها ممثلو الحكومة الوطنية ، والس
 الفرنسية المنتدبة .

صفاء واخلاقه

وصفه جرجي زيدان في مجلة الهلال قال ما ملخصه : كان ربة القامة ، نح
 البنية ، عصي المزاج ، حاد البصر ، ذكي الفؤاد ، سريع الخاطر ، حلو المفاكهة ، ش
 الحرص على كرامته ، عفيف النفس ، ظاهر الانفة حتى الترفع . ضاق عيشه ، ولم ي
 اصطناع التملق ليرتق .

وكان صادقاً في اقواله واعماله ، لا يحلف ولا يخلف ، اميناً في ما ينقله
 الاقوال ، ينسب الفضل الى صاحبه . وبالضد ، اذا صحح مقالة لاحد ، سكنت ع
 ولكن اسلوبه ينم عليه .

وكان باراً بأبيه ، احسن اليه بعد موته ، وزاده شهرة باتمام كتبه ، وشرحه

علومه ومواهبه

كان الشيخ يعرف من اللغات الاجنبية، الفرنسية، ويلم بالعبرية والسريانية .
 وكان بارعاً في الرياضيات وعلم الفلك، وله مشاركة في العلوم الطبيعية والفقه الحنفي .
 وكثيراً ما جرت المباحثات بينه وبين علماء الفلك الفرنسيين . واشتغل بمحل المشكلة
 الرياضية المشهورة، وهي قسمة الدائرة الى سبعة اقسام، وتوصل الى نتيجة تقرب من
 الصواب، وبعث بها الى المجمع العلمي الفرنسي . وهو من اعضاء الجمعية الفلكية في
 باريس، وانفرد، والسلفادور .
 وكان ماهراً في صناعتي الحفر والتصوير اليدوي، جميل الخط، قاعدته فارسية .

آثاره

ليس لليازجي من الآثار ما يعادل شهرته العلمية، ويعود ذلك على بطئه في
 العمل، ثم على تنوقه في عبارته، وعنايته بتدخلها وتحكيكها . فانه لم يكن ينشر
 مقالة الا بعد ان يراجعها مرات، ويتجرى صحة مفرداتها ومركبها، ويغير فيها ويبدل .
 ولعل خوفه من النقد كان يدفعه الى زيادة التدقيق، اعلمه ان له خصوماً يتربصون به
 ليتبعوا سقطاته . ولا بد ان مناظرته للشدياق في الذود عن والده علمته ان يحتاط
 هذا الاحتياط . ومع ذلك فآثاره التي تركها ما بين تأليف وشرح وتصحيح تدل
 على مبلغ علمه وفضله .

فاما مؤلفاته، فمنها في النثر مجموعة رسائل بخطه طبعت على الحجر وضمت الى
 ديوانه . ثم ما كتبه في الطب والبيان والضياء من المباحث اللغوية والعلمية
 والادبية . ثم تعاليق على محيط المحيط للبستاني جمعها ونشرها في مصر الدكتور سليم
 شعون، وجبران النحاس . ثم نجعة الرائد في المترادف والمتوارد، جرى فيه مجرى

١ تصدى احمد فارس الشدياق لنقد الشيخ ناصيف اليازجي بعد وفاته سنة ١٨٧١
 فانبرى الشيخ ابراهيم يدافع عن ابيه في مجلة الجنان، وينتقد الفاظاً وردت في مقدمة سر
 الليال لاحمد فارس . وكان الشيخ يومئذ في الرابعة والعشرين، والشدياق في السبعين، وله
 شهرة طائفة، وكعب عال في اللغة . فلم يستطع الشيخ ان يبره، ولكنه وقف في الدفاع
 عن ابيه موقفاً نبيلاً .

الالفاظ الكتابية ، على اعتبار المعنى في التنسيق . ولكنه جعل مدار الكلام على الانسان ، وما يتعلق به من الصفات والافعال ، وما يكتنفه من الاشياء ، ويعرض له من الشؤون ، ووصف ما يجده في مزاولة الامور ، وما ينتظم به مجتمعه من احكام السياسة والقضاء . وقسمه الى اثني عشر باباً ، كل باب يتفرع منه فصول . مثال ذلك الباب الاول : في الخلق وذكر احوال الفطرة وما يتصل بها . وفصوله تبحث في الخلق ، وقوة البنية وضعفها ، وحسن المنظر وقبحه ، والسمن والهزال ، والطول والقصر ، والاطوار والاسنان ، والحواس وافعالها وما يتعلق بها . الا انه مات قبل ان يتمه ، والذي ظهر منه ثمانية ابواب طبعت في جزئين .

ومنها في الشعر ديوان مكتوب بخط يده ، طبعه على الحجر حبيب اليازجي ابن اخيه خليل ، وضم اليه مجموعة الرسائل . وشعره متين محكم ، ولكن اكثر اغراضه يجري على الطريقة التقليدية من مدح يتقدمه غزل بدوي ، وثناء اشبه بالمدح ، وتواريخ شعرية في التهنيات وفي ما يكتب على الضرائح . وله قصائد اجتماعية وطنية ، في دعوة العرب الى ترك التخاذل الطائفي وحضهم على الثورة ، وخلع نير الاتراك . وقصيدة يصف بها الزهرة وصفاً علمياً .

واما شروحه ، فاشهرها شرح ديوان المتنبي . وكان والده قد بدأ به في حواش علقها عليه ، فاقه الابن وذيله بنقد لغوي لشعر ابي الطيب .

واما تصحيحاته ، فاعظمها تنقيح عبارة التوراة . ثم تهذيب تاريخ بابل واشور لجميل المدور . وتصحيح كتب والده في الصرف والنحو ، واختصارها . وقيل انه حاول ان يؤلف معجماً في المأنوس من كلام العرب الاوائل ، فجلت الحوائل دون تأليفه .

ومن آثاره مصطلحات وضعها للمعاني الفنية الحديثة ، وفي الضياء شي . كثير منها . وقاعدة للحروف المطبعية ، حفرها بيده ، شاعت في مصر وبيروت واميركة .

صبرته

لم يرتفع الشيخ بنظمه كما ارتفع بنثره . فبانعده في طبقة الشعراء المقدمين ، وانما يسير في طلائع بلغاء الكتاب ، ويستوي على عرش امة اللغة الحاذقين .

وله في الكتابة اسلوب معروف، ولا سيما حين يعالج النقد اللغوي، فان طابعه الخاص لا يقتصر على الطريقة الانشائية وحدها، بل يتعداها الى شخصيته المتهكمة اللاذعة، الباسطة سلطانها على من تنتقده، المتحكمة به تحكم القوي بالضعيف. وسنحاول ان نظهر هذا الطابع في اسلوب الشيخ مما تناولناه من آثاره المتفرقة في مجلاته وخصوصاً الضياء، التي ظهر فيها نضجه وسمو انشائه.

أبحاثه واغراضه

تناول الشيخ في ترسله أبحاثاً مختلفة: منها الرسائل، واغراضها شكر وتهنئة، وعتاب واعتذار، وتعزية. ومنها المباحث اللغوية، كأماليه في اللغة، واللغة والعصر في فلسفة نشوء الالفاظ. والمجاز وانواعه. ونقد لغة الجرائد ومغالط المولدين، والعرب الاولين، والمعجمات اللغوية وشعر المعاصرين، وكتب الاب لويس شيخو ولاسيا مجاني الادب، ونقد على شعر المتنبي بين فيه اسباب غموضه وخفاء معانيه، وظهر ما به من الحسنات والسيئات. وعاب على شارحيه خلطهم واضطرابهم في تفسيره. وصحح اوهامهم واقال عثراتهم.

ومنها المباحث الادبية، كما في كلامه على الشعر وتعريفه، ونقد معانيه والفاظه. ومنها المباحث الاجتماعية، كنقده للجرائد وابانة مواطن الضعف في ابحاثها السياسية والاجتماعية، وما تحمل من الضرر في نثرها بذور التعصب بين الطوائف. ومنها المباحث الفلكية والطبيعية، كمقالاته في الزهرة، والقمر، والتنجيم، والجبال، والرياح، والبصريّات، وهلم جرا.

اسلوبه الانشائي

للشيخ انشاء متين بليغ، رائق الديباجة، واضح المعاني، بعيد عن الصيغ الشاذة والتراكيب الجافية. بريء من الغموض والالتباس حتى في ادق مباحثه اللغوية والعلمية وربما حلاه بالاستشهادات من شعر وآيات وامثال.

وجملته خطابية انشائية في الغالب، مترنة العبارة، رصينة محكمة. يميل بها الى الاسهاب من غير تطويل، ويعاقبها على المعنى الواحد دون اسراف. ولفظه محكم مختار، خالٍ من الغريب المستوحش، مصوغ من معدن واحد،

غير متقلقل ولا متنافر . وله تعابير مخصوصة لا يفتأ يرددها إما في ربط الجمل وشدها ، وإما في الخروج والانتقال . فهي أشبه بدعائم يعتمد عليها ، ومفاتيح يتصرف فيها .
فنها : لا جَرَم ، وبين ، وبل ، وفضلاً عن ، وزد على ذلك ، وبديهي ، وليت شعري ، وإيم الله ، وبالتالي . فهذه الالفاظ واشباهها لها حظوة كبيرة في انشائه .

واسلوبه ، يبعثه أحياناً مسجعاً ، وأحياناً مرسلأ . فاما المسجع فيأتي به في رسائله ، ومقدمات كتبه . وربما جاد به على مقالاته الصحفية ، متوجاً بحثاً من أبحاثه ، كما توجّ مقالة الزهرة . فقد استهلها استهلاً لا شعرياً ، فسجع وتخليل ، حتى اذا بلغ امنيتها ، عاد الى البحث العلمي في انشاء مرسل لا سجع به ولا خيال .

وفي هذا النوع من ترسله تكثر الفنون البيانية والبديعية ولا سيما التشبيه والاستعارة ومراعاة النظر كقوله : « وخفّت اليه طلائع الإجابة من كل وادٍ حتى أصبح مضارعاً لسوابق الافكار ، وسوابح الاحلام » .

والكلام هنا على القطر المصري ، انه دعا الادباء اليه فلبّته جموعهم . فلما قال : « طلائع الإجابة » ، جعل الإجابة جيشاً على سبيل الاستعارة . ورشحها ليزيدها قوة فكان القطر المصري لها ميداناً . وراعى النظر فجعل بها السوابق والسوابح من الخيول وجردّها فكانت خيول الافكار والعقول . وادخل عليها التشبيه الاضافي : سوابق الافكار وسوابح الاحلام .

والتشبيه الاضافي كثير في ترسل الشيخ اذا غرق ، وكذلك التشبيه التمثيلي الذي يأتي بصورة المحاكاة . كقوله : « الحمد لله الذي جعل العلم ضياءً للبصائر ، كما جعل النور ضياءً للنواظر . . . يُقَلَّبُ احوال الارض ، كما يُقَلَّبُ الدرهم بين الأنامل » . واليازجي شديد الحرص على اظهار الحقائق اللفظية . وحرصه هذا ، حمله على الاحتفال بالترشيح ليلبس الالفاظ المستعارة ، والمشبّه بها ، الاثواب التي هيكت لها ، فيعطيه قوة على قوتها ، ولا سبيل الى ذلك بغير الترشيح . فلما استعار الجيش للإجابة ، جعل القطر له ميداناً ، لان الجيش لا بد له من ميدان تصول فيه خيوله وتجول . ومثل هذا قوله في العلم : « وزخر في كل وادٍ تياره » . فقد جعل العلم كالنهر الفياض بصورة الاستعارة . ثم رشحها فجعل لها تياراً يزخر في كل وادٍ . وجاءت استعاراته وتشبيهه بل شتى تعابيره في الجملة ، قوالب جميلة نحتتها ايدي

الاقدمين، فأخذها عنهم واحسن انتقاءها، وتأليفها، وافرغ فيها صورته ومعانيه .
وسبب ذلك سعة اطلاعه على مذاهب الكلام عند العرب ، وتصنيفه نجمة الرائد في
المترادف والمتوارد .

واما انشاؤه المرسى ، فتقل فيه الصور البيانية والبديعية ، والقوالب الموروثة ،
ولكن لا يعدوه اللفظ الانيق وحسن اختياره . وهو افيض طبعاً وأمرن جانباً ، وأسلس
قياداً من المسجوع . ويزداد قوة ومضاءً بظهور شخصية صاحبه في مواطن الانتقاد ،
فيصطبغ بالوان من السلطة المتحكمة ، والاعتداد المكين بالنفس ، والتهكم
الحاد ، والقرص والتأنيب . فمن ذلك قوله في لغة الجرائد :

« يقولون : زُفَّ فلان على فلانة - هكذا مُعدّي بعلى - فيعكسون الاستعمال ،
لانه يقال زفَّ العروس الى بعلها ، اي اهداها اليه . ولا يقال زفَّ الرجل الى المرأة .
الا ان يكون هذا من مقتضيات هذا العصر الذي استنوت جمالته ، واصبح
ونسأوه رجاله . حتى رأينا الرجل يأخذُ المهرَ ، ورأينا المرأة تتطالُ الى النهي
والامر » .

وحبه للنقد ، والتنطس في سقطات الادباء ، والإدلاء بالرأي ، والمباهاة بالمعرفة ،
حملة على الاستطراد في كلامه . فبينما هو يتكلم على لغة الجرائد اذا به ينتقل بصلة
الغلط المشترك الى نقد الكتاب والشعراء المتقدمين كقوله :

« ترى اكثر كتّابنا اليوم يقولون : لا يخفى بأن الامرَ كذا ، ويسرني بأن
يكون زيدٌ كذا ، وهلمَّ جرّاً . مع انهم لو استعملوا المصدرَ في ذلك كله ، لم
يكن لهذه الباء محلّ عندهم . ومن الغريب ان ممن استدرج بهذا عنثرة العباسي في
معلقته المشهورة حيث يقول :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ فِي الْحَرْبِ دَائِرَةً عَلَى ابْنِي ضَمُخْ
وقول من قال ان الباء تُراد على مفعولٍ خشى ليس بشيء . لانه لو استعمل
الاسمُ هنا لم يُقلْ خَشِيتُ بالموت . وانكر ما جاء من مواضع زيادتها قول ابن
حجّة الحموي ، رواه لنفسه في خزانة الادب :

مَنْعَةً لَفَاءً ، مَهْضُومَةً الْحَشَا ، تَكَادُ بِأَنْ تَنْقَدَّ مِنْ رِقَّةِ الْحَضَرِ

فزادها في خبر كاد، وهو من المواضع التي لا تدخلها أن إلا سُذوذاً، فضلاً
عن إشكال دخولها في هذا الباب من اصله . فبا عثم ان زاد هذه الطينة بِلَّة
بدخول الباء . « ١٠ هـ .

واليك مثالين آخرين من اسلوبه احدهما من المسجوع ، والثاني من المرسل .
قال يصف الزهرة :

« هي مَلِكُ جُنْدِ الدُّجَى ، بل قائدُ مَعْسَكِ الأَنوار . بل إلهة الجبال استوت
على عرشٍ من النَّصَار ، اذا بَرَزَتْ في ثوبٍ بهاها ، فاكْفَهَرَتْ لها الشمسُ من الحسد .
بل غشيتها حمرةُ الخجلِ بعدما علتها صُفرةُ الكمد . فأقبل الهلال وقد انحنى بين
يديها وسجد . وأطافت بها حور الكواكب . كأنهن أترابٌ كواكب . فوقفن
لخدمتها متضائلات أمام عظمة جلالها . وقد أرخين شعورهن من حولها فشبين^١
من جمالها . فما كادت تتجلى لهن حيناً حتى توارت عنهن بالحجاب . وسرن في أثرها
متتابعات حتى برقعهن الصبحُ بأبيض الجلباب .

واذا رأيتها بارزةً في طليعة الكواكب . وقد تجلّت في فلكها حين لا يبدو
طالعٌ ولا غارب . فاستلّت من الهلال سيفاً استقبلت به نحر الظلماء . ثم نادى في
جيشها فإذا به قد طَبَقَ نواحي السماء . فبرز الرامي^٢ . فأوتر قوسه وانتصب
للنزال . ووضع الجبار^٣ يده على سيفه ونادى يا للأنزال . وأشرع السماك^٤
رحمه فخنق فؤاد العذراء^٥ . واطلق المريخ^٦ سهمه فاذا هو مُضَرَّجٌ بالدماء .
وتتابع سائر الجيش بسلاحه فلا ترى الا وميضاً وبريقاً ، وأسنة قد غاصت في كبِدِ
الدُّجَى فمزقتها تمزيقاً . فما اقبل جيش الصباح الا والأفق مخضوبٌ بدم الدُّجَى .
وقد بلغ سيله الرُّبَى بل جاوز الرُّبَى » . « ١٠ هـ .

وينتقل الى البحث العلمي فيترك السجع والخيال الشعري :

١ شبن من جمالها : اي زدن منه ، وذلك لضالة انوارهن بالاضافة اليها . والاشياء
تكشف باضدادها . ٢ من البروج الاثني عشر . ٣ الجبار : برج في السماء ويعرف
بالعذراء والسنبلة والجوزاء . ٤ السمك : ويعرف بالرامي : كوكب نير في جهة
الشمال امامه كوكب صغير يقال له راية السمك ورحمه ٥ العذراء : الجوزاء .
٦ المريخ : من السيارات السبع معروف بالحدة والحرب .

« لا جرم انه اذا كان بعد الشمس والقمر نجمٌ حريٌّ بالعبادة فأحرى النجوم
بذلك الزُّهْرَةُ لِما أنَّها اعظمُ الكواكب نوراً الخ ... » اهـ .

وقال في تعريف الشعر وهو من انشائه المرسل :

« إن النثر هو القالب الطبيعيُّ للكلام الموضوع للإبانة عن المعاني التي تتمثل
في النفس . يتخاطبُ به العالمُ والجاهلُ ، والذكيُّ والبليدُ ، والكاظمُ والاميُّ .
فوجب ان يكون بحيث تتفاهمه هذه الطبقات كلها . ويعبرُ به عن المقاصد بأبين
الصور وأوضحها . وذلك يقضي ، ولا جرم ، بان يُستعمل لكل معنى اللفظ الموضوع
له . بحيث يُنتقل من اللفظ الى المعنى من غير واسطة . وبجلافة الشعر فانه من
الكلام الذي يُقصد به ما وراء مدلول اللفظ من مُناغاة النفس ، ومناجاة الوجدان
فتورتي فيه المقاصد تحت الصور الخيالية . وتبرز المعاني تحت ثوبٍ من المجاز او
الكناية ونحوهما . ولذلك اختصَّ بمخاطبات البلغاء وطبقات الكتّاب والمتأدبين .
ونُحي فيه منحي البلاغة في المعنى ، والتألق في الالفاظ والاساليب وأكثر فيه
من التفنن بالانواع البديعية مما يجمع بعض اطراف المعنى الى بعضٍ مما يربطها من
تناسب او تضادٍ او غير ذلك بحيث تتألف منه صورٌ كاملةٌ على حدٍّ ما يفعل
المصور في تصوير الاشباح ، والمغني في تأليف النغم . والمقصود من كل ذلك
الاستيلاء على قوى النفس وإلباس المعاني المتأدية اليها من طريق الحسّ او العقل ،
ثوباً من الخيالات بعد تلوينه باللون الذي يُريده الشاعر تبعاً لغرضه .

ويبين أن هذا الذي ذكرناه من تأثير الشعر غير خاص بالكلام المنظوم . ولكن
كل ما تضمن شيئاً من الاغراض المذكورة وأثر في النفس تأثيرها عد شعراً .
وقد قدّمنا أن غالب شعر الاقدمين لم يكن على وزن ولا قافية . وانما كان الشعر
عندهم يمتاز عن النثر بشرف معانيه ، وجزالة الفاظه ، ونوع اسلوبه » اهـ .

مصرّفة

علمنا ان آثار اليازجي لا توازي شهرته العلمية ومزنته في اللغة وآدابها .
فكيف طارت له هذه الشهرة ، واستوت تلك المنزلة على قلة انتاجه ووشل مصنفاته ؟

١ يريد هنا بشعر الاقدمين ، الشعر الوارد في بعض اسفار التوراة والنبوءات .

هذا ما نحاول البحث فيه لنستجلي تلك الشخصية القوية التي آمت الكتاب والمفويين في اواخر القرن التاسع عشر، واولائل العشرين . وذهب لها صيت لم يذهب مثله الا للاقلين من معاصريها . وبلغت من ثقة الخاصة بمقدرتها اللغوية ، مبلغاً يمتد الى حد بعيد ، حتى عدت حجة مكيئة لا تقزع . ووُضع صاحبها في طبقة اشياخ اللغة المتقدمين ، وربما فضّلوه على كثير منهم .

بدأت شهرة اليازجي يهب ريحها ، ولما يزل رخص الانامل ، طريّ العود . فقد كانت مقارعة لاحمد فارس الشدياق أشبه بمقارعة بديع الزمان الهمذاني لابي بكر الخوارزمي . فلقت إليه الانظار ، وتحدث به الناس ، وعطف عليه النصراء .

ثم كانت اجاثه اللغوية والعلمية ، فنقد المعاجم وبين ما فيها من سقط ونقص وخلل . وصبّ على الكتاب والشعراء ، غارة منتشرة اصابت الاخضر واليابس من المتقدمين والمحدثين ، ولم تعف عنه وعن ابيه . وظهرت في نقداًته قوة الحجة ، وبراعة الاستنتاج والتعليل . فتهيبه الادباء ، واقرؤا له بالفضل والتقدم . ولم يخل من خصوم وحساد يناصبونه ، ويزيدون في شهرته ، وامتداد ذكره .

وكذلك مباحثه العلمية جعلته موضع الاعجاب والاكبار عند اهل زمانه . وذلك لاتصاله بعلماء اوربة ، واعتداد هؤلاء بأرائه واقواله .

وكان تأثيره في النهضة قوياً ، لانه في نقده لغة الجرائد نبه الكتاب على مغالطهم ، وحملهم على التماس الالفاظ الفصيحة ، والتراكيب الصحيحة في كتاباتهم . ورأوا في نجمة الرائد معيناً حافلاً ، يستسقونه على ظمأ ، فيجود لهم بشق الالفاظ ، والتعابير المترادفة ، فيستعينون بها حين يبتذل كلامهم من كثرة الاستعمال ، وتضييق مذاهبه في وجوههم . وكان انشاؤه البليغ غوذجاً لكثير منهم يتسحونه ويطبعون على غراره . وافاد اللغة بالمصطلحات التي استحدثها للمعاني الجديدة ، وبالحروف التي وضعها للطباعة والنشر . فشهد الناس بفضلها ، وبايعوه بالامامة ، وخذلوا ذكره ، فكان اول اديب عربي نصب له تمثال في حاضرة .

المنفلوطي

١٨٧٦ — ١٩٢٤ م و ١٢٩٣ — ١٣٤٣ هـ

حياة

هو مصطفى بن محمد أظني المنفلوطي . ولد في منفلوط من صعيد مصر ، واليها انتسب . وكان في الحادية عشرة عندما حفظ القرآن . فبعث الى القاهرة ، وادخل الازهر ، فمكث فيه عشر سنوات ، يدرس علوم الدين واللغة . إلا انه كان ميالاً الى الادب ، وليس في الازهر منه ما يروي الغليل . فكان يقتصر السوانح ، لينظر في الكتب الادبية ، مع ان قانون الجامع لا يسمح بها . فكان شيوخه اذا ظفروا بكتاب منها في يده ، عنفوه ، وعاقبوه ، وهو لا يرده عنها تعنيف ولا عقاب .

وكان افضل الكتب عنده ، العقد الفريد ، والاغاني ، وزهر الآداب ، ودواوين المتنبي والبحثري واي تمام والشريف الرضي . وافضل الكتاب ، عبد الحميد ، وابن المقفع ، وابن خلدون في مقدمته ، وابن الاثير اذا لم يسجع .

ولما ترك الازهر انضم الى حلقة الشيخ محمد عبده ، ولزمه فأفاد من معارفه في الادب والاخلاق والحكمة والطبيعي . وبعد وفاة الشيخ الامام (١٩٠٥م) عاد الى منفلوط ، ومكث بها بوهة سنتين ، يرأسل المؤيد باسبوعياته . ثم رجع الى القاهرة وثابر على التأليف والكتابة في الصحف حتى مات .

وكان محازباً لسعد زغلول باشا ، فبره سعد بمناصب الحكومة . ومات وهو رئيس لفرقة من كتاب مجلس الشيوخ ، ومشاهرتة لا تقل عن خمسين جنيهاً .

اخره وصفاته

كان رضي الطبع ، هادئ البوادر ، رزيناً متوقراً ، على شيء من الانقباض . وكان رقيق الفؤاد يتألم للمآسي البشرية ، ويعطف على البائسين ، ويبرهم بما تصل اليه يده . وربما شكوا اليه صديق خلّة ، او تلميذها في وجهه ، وعلم انه يكتسبها حياء .

فما يتأخر عن مساعدته ؛ وقد يقتسم ما في محفظته من الدراهم بينه وبينه .
 وكان له زوج ، فأصابها رمد اضعف بصرها ، فلم يدخر وسعاً في تسليتها والحدب
 عليها ، حتى انه كان يكتفها اعماً لا يقوم بها الا المبصرون ليوهمها انه لا ينكر عليها
 من نظرها شيء .

وكان مصرياً يكره الاحتلال الانكليزي ، ووفدياً يجاذب سعد زغلول ،
 وشرقياً يمتد المدينة الغربية ، ومسلماً يتعصب لدينه ، ويدافع بحماسة عن الاسلام
 والمسلمين .

أثره

ترك المنفلوطي آثاراً غير قليلة بين موضوع ومترجم : منها النظرات ، ثلاثة اجزاء
 وهي اسبوعياته التي كان يكتبها في المؤيد ، وفيها ما هو منقول ليس من وضعه .
 ومنها العبرات جزء واحد ، وهي مجموعة اقاصيص ، بعضها مترجم عن الفرنسية ،
 واجمله الضحية ، او ذات الكاميليا لدياس الصغير .

ومنها قصص اخرى نقلها على حدة ، وهي الشاعر او سيرانودي برجرارك لادمون
 رُستان . وفي سبيل التاج لفرنسوا كويه . ومجدولين او تحت ظلال الزيفون لالفنس
 كار . والفضيلة او بول وفرجينى لبرزدان دي سان بيير .

وكان يجهل الفرنسية ، فكانت هذه القصص تنقل اليه بلغة غير مهذبة ،
 فيلخصها ويتصرف فيها على هواه ، ويخالف الاصل ، فيجعل التمثيلية منها غير تمثيلية
 كما اصاب قصتي الشاعر وفي سبيل التاج .

وله في الشعر شيء قليل ، اغراضه مختلفة ، متفرق في الصحف . وله مختارات
 المنفلوطي ، مجموعة شعرية اختارها اطلاب المدارس ، ولم يُطبع منها الا جزء واحد
 مع انها تبلغ ثلاثة اجزاء .

مميزته

لا نحاول ان نستخرج ميزة المنفلوطي من شعره ، فانه ضعيف لا يعتد به . ولا
 من قصصه وفصوله المنقولة ، فانها لا تمت اليه بغير الالفاظ والتراكيب . وان يكن غير

فيها وبدل، فليس في تغييره وتبديله زيادة على الاصل او اختراع جديد وانما هو مسخ وتلخيص . ونحن نريد ان يكون الكلام فيه شاملاً خياله وتفكيره وتعبيره وهذا لا يتأتى لنا الا اذا درسنا مباحثه ، واقاصيصه التي هي من وضعه ليكون حكمنا عليه اصح واعدل .

اغراضه وخصائصه

تشتمل مباحث المنفلوطي على فصول ورسائل وكلمات متعددة الاغراض، فمنها الاجتماعية، ومنها الاسلامية، ومنها الادبية، ومنها التراثية . وكلها مجمعة في كتابه النظرات . ومنها القصصية وهذه بعضها ينضم الى المقالات الاجتماعية في النظرات ، وبعضها الآخر يستقل في العبرات .

الاجتماع

عني الكاتب عناية خاصة بالمباحث الاجتماعية، يريد بها اصلاح الاخلاق، وتطهير المجتمع من المفسد . وأغري بتمثيل البؤس والشقاء والدعارة ، وذكر الانتحار والمنتحرين . والتحدث عن سقوط الفتيان والفتيات ، واخيانات الزوجية ، والفضائح البيئية . فتكاد لا تقرأ فصلاً في النظرات الا وقعت فيه على خبر عاشق انتحر من يأسه . او طلاب ارادوا الموت لسقوطهم في الامتحانات . او فاسق لقي في جزاء فسقه موتاً شنيعاً . او زوجة خانت زوجها ، فساء مصيرها . او زوج أغار امرأته بسوء سيرته، واهمل تربية ولده باشتغاله عنه، فلاقى مغبة اثمه بنشوز قرينته، وفساد ولده . او فتاة خدعها فتى عن نفسها ، واغراها بمصاحبتة بعد ما وعدها بالزواج ، ثم تركها : « وفي صدرها هم يضطرم ، وفي احشائها جنين يضطرب . » او غير ذلك مما يفصل نقائص المترفين، واستهتارهم بالمعاصي، وادمانهم الخمر والميسر ، وجورهم على الفقير البائس، والضعيف الجاهل، بحيث يُتمثل المجتمع الانساني اقبح تمثيل .

والمنفلوطي في اجتماعياته يحنو على المرأة، ويشفق على ضعفها، وينعى على الرجل قسوته ، وظلمه لها، ويدعوه الى معاملتها بالحسنى . ويقبح الطلاق اذا جاء عن ملل وحب للتجديد . ويروي على حسن المساكنة قصة رجل^١ رمدت زوجه ، فضعف

١ الرجل هو المنفلوطي نفسه، والمرأة زوجته .

بصرها ، فازداد عليها عطفاً ، وبها تسكناً . وكان يدخل السرور الى قلبها بان يعتب عليها في امور لا يؤاخذ بها الا المبصرون ، يريد ان يوهما انه لا ينكر من امرها شيئاً .

واذا سقطت المرأة وساءت سيرتها لا يقسو عليها بل يحاول ان يجد لها العذر بايقاع الذنب على صاحبها ؛ اما لانه اكرهها على السقوط ، او لانه خدعها ومنأها بالوعود . ولكنه يرى ضرورة حجابها لانه في نظره صيان لعفافها .

وهو شديد الكره للمدنية الغربية ، وما جاءت به الى الشرق من اخلاق وعادات ، لا ينفك يحمل عليها ، ويشوه محاسنها ، ولا ينظر منها الا ناحية العيوب والذائل . فالسرور ، والفواحش ، وامراض الاخلاق والابدان ، وتجارة الاعراض ، وانتهاك الحرمات ، كلها بضاعة اجنبية ، اصدرها الغرب الى الشرق . ولولا المدنية الغربية لسلم الشرق من هذه الآفات . فخير له ان يبتعد عنها كل الابتعاد ، ولا يقتبس منها الا العلوم والفنون . بل خير له ان يبقى جاهلاً من ان يغوص في لججها ، ويقذفه تيارها . وغير خفي ما في هذه الآراء من مجازفات لا يسلم بها العقل الصحيح ، ولا يرتضيها العلم . لان هذه الآفات حلقة المدنيات في كل زمان ، لا ينفرد بها مصر عن آخر . وقد كان لها الشرق ملعباً فسيحاً في حضارته القديمة ، قبل ان تتولد المدنية الغربية الحديثة . ولكن المنفلوطي يستمد اتجاهه وآراءه من اخبار الصحف اليومية وتعليقاتها ، ومن احاديث الناس وتعليقاتهم . فلا غرو ان يكون صدى لما يسمع من سخطهم على المدنية الغربية ، واسناد جميع المفاصد والمصائب اليها ؛ وان يردد اقوالهم في الانتحار والمنتحرين ، والتهتك والحجاب ، والخمر والميسر ، والغني والفقير ، والضعيف والقوي ، فيصيب مرة ويخطئ مراراً .

وانه ، وان اراد الاصلاح الاجتماعي ، بهذه المباحث ، لقد تورط في بعض الاغراض تورطاً يلام عليه ، بحيث اصبحت الغاية لا تبرر الوسطة . فاكثاره من ذكر الانتحار ، وسقوط الفتيات والفتيان ، والخيانات الزوجية ، وتصوير المجتمع باقبح الصور ، مضر بالاخلاق اكثر مما هو مذهب لها . فان الفتى الذي يقرأ نظراته لا يرى في اهل زمانه الاشروراً وخبائث ، فيتشام بهم وينقم على الانسانية ، او يصبح وفي نفسه استسهال للمعاصي ، واندفاع الى طلب الملاذ . وكثيراً ما تخلو نظراته من

العبرة المتوخاة فما تجدد فيها غير سرد الحوادث الشائنة ، وربما ظهرت الموعظة ، ولكن اثر اللذة النفسية غالب عليها . فمقالة « الزهرة الذابلة » تدفع الفتى الذي اصابه الصمم الكامل الى اليأس والانتحار . مع ان هذا الفتى لجأ الى الكاتب مستغيثاً به لسمع كلمة تعزية تشجعه على احتمال مصابه ، فلأسمع صدره يأساً وقنوطاً . وكذلك « مدرسة الغرام » فيها من الافراط في ذكر اللذة ، ما تتضاءل دونه كل موعظة . وهكذا « الملاعب الهزلية » فانها اجدر بان تكون للهو لا للنصيحة لما فيها من الشواهد الميجونية المضحكة . وامثال هذه الاشياء كثير .

على اننا نظلم الكاتب اذا لم نذكر بعض ما له من الفصول الحسان ، « كالوفاء » في المحافظة على الزوج اذا اصبحت بعاهة او بلاء . و « يوم العيد » في باب الاحسان . و « عبرة الدهر » وفيه خبر رجل خان امرأته ، واهمل تربية ابنه ، فلقى مغبة عمله في سقوط امرأته ، وفساد اخلاق ابنه . و « البعوض » في تشبيه اذاه باذى الانسان . و « البائسات » في ذكر المرأة المصرية ، وترويجها صغيرة للتخلص منها ، وما تلاقي في زواجها من الشقاء .

واجتماعياته في الغالب لا تتعدى البيئة المصرية ، والرجل المسلم والمرأة المسلمة . فغايتة التي يرمي اليها ، هي اصلاح المجتمع المصري الاسلامي خاصة . واليك بعض ما جاء في « البائسات » :

« زرت منذ ايام حاكم بلدة في منزله . فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليه ، تشكو ألماً في عنقها ، وجرحاً في ذراعها ، وهماً في نفسها . وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة ، كأنها هي مركبة على زئبق رجراج . فسألت : ما شأنها ؟ فعملت أن اهلها زوجها وهي في هذه السن ، وعلى هذه السذاجة ، من رجل وحشي الخلق والخلق ، فامتنعت عليه ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرت منه الى منزل اهلها فنقموا منها هذا الإياء الذي سمّوه ببلادة ، وغفلة . واعادوها الى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه اليه مرة اخرى . وهنالك عاد زوجها الى عادته معها ، فعادت هي الى فرارها ، فعاد اهلها الى قسوتهم وجبروتهم . فلما اعيها الامر خرجت الى الطريق العامة ، هائمة على وجهها ، لا تعرف لها مذهباً ولا مستقراً حتى رُفع امرها الى ذلك الحاكم ،

فأمر باستدعائها، وآواها الى منزل ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهة الاسد^١ .

ان المرأة المصرية شقية^٢ بائسة^٣ ، ولا سبب لشقاؤها وبؤسها الا جهلها وضعف مداركها .

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواءً أكان على تقدير الطبيعة او على تقدير اولئك الجهلاء، استنقل اهلها ظلها، وبر مواهبها، وحاسبوها على المضغة والجرعة، والقومة والقعدة . ورأوا انها عالة^٤ عليهم ، وان لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً، وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب، اي خطيب كان يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها .

فان كانت ذات جمال او مال فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر ، وفجائع التطليق ، والا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع ، آلاماً جثائية^٥ تُطفئ نور شبيبتهـا ، وتذبل زهرة حياتها . وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء ان بكى ، ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءاً بالكذب والكيد ، وألجث والرياء . وهي فوق ذلك تنتظر من ثم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من ثم قاضيه كلمة الإعدام .

الاسلاميات

وهذه المباحث من حقها ان تُدرج في باب الاجتماع لانها منه . وانما جعلنا لها هذا الباب لتأثرها القوي بالدين ، واصطباغها بالعاطفة الاسلامية صبغة يخضع دونها العقل والتفكير ، وتتأجج عليها الغيرة الملتهبة بالتعصب للاسلام والمسلمين . وقد وقف بها الكتاب مواقف مختلفة ، فمن خطيب عسكري يدعو المسلمين في طرابلس الغرب الى جهاد الايطاليين ، ويحضهم على الصبر واستهانة الموت ، ويطعن على عدوهم المتحصن باساطيله ومعاقله . ومن نادب متفجع على الطرابلسيين ، يذرف الدمع على

١ كذا ، ووجه الكلام : ذراعي الاسد وجبهته . ٢ العالة : جمع عييل ، وهو زوجة الرجل واولاده الذين ينفق عليهم . وجمع عائل وهو الفقير . فاستعملها هنا للمفرد غلط .

ابطالهم في نكبتهم، ويدعو المسلمين الى اغاثتهم . ومن محام ديني يعلم ان اللورد كرومر جنف على الاسلام ، وزعم انه لا يصلح للمدينة، فيغضب ، وتثور عصبية ، ويحمل على الدين المسيحي حملة منكرة ، ويطعن فيه طعناً قبيحاً غير مكترف بالرد على مزاعم اللورد، مما دلّ على ضيق صدره في مواقف الجدل . ومن مصلح ، غيور على الدين، يرى ما دخل عليه من امور ليست منه، فافسده، فيذرف «دمعة على الاسلام» الذي خالطه الشرك، وهو دين التوحيد؛ ويدعو زعماء الاصلاح الى تطهيره من الشوائب، ويذكر المسلمين بماضي غزهم، وامجاد ملوكهم وعظماهم . فمن قوله في ذلك :

« نبتني عن الاسلام اين 'مستقره ومكانه واين مسلكه ومضطربه ؟ وفي اي موطن من المواطن حلّ ، ومعه من المعاهد تزكّل ؟

افي الحانات والمواخير التي يغصُّ بها الفضاء ، وتئنُّ منها الارضُ والسماُ والتي ينتهك فيها المسلمون حرّمت دينهم بلا خجل ولا حياء . كأنما هم يشربون الماء الزلّال ؟

ام في حوانيت الباعة حيث الغشُّ الفاضح ، والغبنُ الفاحشُ مُزخرفاً بالاقوال الكاذبة ، والايان الباطلة ؟

ام في مجالس الاحكام حيث للدينار الاحمر السلطانُ الاكبرُ على سلطان العدل وسلطان الذمة ، وسلطان الشرائع ؟ اللهمّ الا ما كان من تلك الالواح المكتوب فيها «العدلُ أساس الملك» او «إذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل» .

ام في المساجد حيث يعتقد المصلّون أنه لو كان بين الصلاة والصلاة مائة عام ، وكانت تلك الاعوام مملوءة بالآثام والجرائم ، والمفاسد والمظالم ، لكفّت تلك الحركات التي يسمنونها صلوات ، ويمسبونها حسنات لغفران السيئات ؟

ام في مجالس المتصوفة حيث الالعب الجبازية^١ والحركات البهلوانية^٢ والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات ؟

١ لفظة تركية مأخوذة عن Gymnase وهو مكان الالعب الرياضية .

٢ البهلوانية : نسبة الى البهلوان وهو الذي يمشي على الحبل، فارسية معربة .

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحاً ، وللإسلام صلاحاً فليبدأوا عملهم بتهديب العقائد الدينية ، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية لا تربية مادية . أي أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة . الخ

الادب

حاول المنفلوطي الابحاث الادبية في جملة اغراضه ، فكتب في ادوار الشعر العربي ، وفي تعريف الشعر ، وفي نقد حافظ وشوقي ، والبكاء على الادب الحديث ، وفي نقد النحاة وجمودهم ، والكتاب وغموض بيانهم . وغير ذلك من الفصول الادبية المختلفة ، فكانت ابحاثه على الاجمال ، قليلة العمق تقتقر الى ثقافة ادبية صحيحة ، ودقة نظر ، وبراعة في التحليل الا انها لا تخلو من قوة وايلام في النقد والتجريح على صدق في الشعور ، واخلاص في العقيدة . واحسن ما كتب في الادب بحثه في تعريف الشعر ، وحملته على النحاة ، وكلامه على البيان وغموض الكتاب . قال في تعريف الشعر : « ما كلُّ موزون شعراً ، ولا كلُّ ناظم شاعراً ، فالوزن ملكةٌ تعلق بالنفس ، من طول ترديد المنظوم والتغني به ، مقطّعاً تقطيعاً يوازن تقاعيله . فهو نعمة موسيقية ، ولحنٌ خاصٌ من ألحان الغناء ؛ يتمثل في قول الملك الضليل : « قفانبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ » . كما يتمثل في قول الخليل : « فَعَوَّلُنْ مَفَاعِلُنْ فَعَوَّلُنْ مَفَاعِلُنْ » ويتراءى في اوتار الحلقِ الناطقِ كما يتراءى في اوتار العود الصامت .

اما الشعر فامرٌ وراء الانعام والاوزان ، وما النظمُ بالاضافة اليه إلا كالخلى في جيد الغانية الحسناء ، او الوشي في ثوب الديباج المعلم . فكما ان الغانية لا يجزئها عطل جيدها ، والديباج لا يُزري به أنه غير معلم ، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه ورؤائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وها انت ترى ألا صلة بينهما غير تلك الصلة الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى ما اعتاده الناس من أنهم ينظمون ما يشعرون به . وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمّت^١ على كثير من الناس

١ عمّت من عمّى : أخفى المعنى .

أمرها . وهي التي أدخلت النّظامين في عداد الشعراء ، وألقت عليهم جميعاً رداءً واحداً لا يُستطاع معه التمييز بينهما الا للقليل من الناقدين .

المرثاء

وكان هذا النوع من اغراض الكاتب في مقالاته ، فرثى بعض الاشخاص من ذوي المكانة الادبية والسياسية كالشيخ علي يوسف وجرجي زيدان ومصطفى كامل . وليس في ذلك كله غناء ، الا رثاءه لولده « الدفين الصغير » ورثاءه لشبابه « الاربعون » . واجمل ما في « الدفين الصغير » وصف ندمه على اعطائه الدواء المرّ وهو يختبئ بين براثن الموت ، مغموم لا يطيق الافصاح :

« سأنام يا بنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك . وأحسب أن آخر ما سيقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها ، وخطوبها وأحداثها ، هو الندم العظيم الذي لا ازال اكابد ألمه على تلك الجرعة المريرة التي كنت أجرعك إياها بيدي وأنت تجود بنفسك ، فيربد وجهك ، وتحتلج اعضاءك وتدمع عيناك . وما لك يدٌ فتستطيع أن تمدّها إليّ لتدفعني عنك ، ولا لسانٌ فتستطيع أن تشكو إليّ مرارة ما تذوق . »

الفصحة

تحتلّ القصة ارحب صدر في آثار المنفلوطي ، فهي ممتزجة باجتماعياته ، منتظمة اقايص في العبرات ، مستقلة في كتب خاصة . ومنها ما هو مترجم ، ومنها ما هو موضوع . وسواء ترجم او وضع لا يأنس الا بالقصص الكثيرة الباكية ، قصص البائسين من العشاق ، والحزونين الذين نكبتهم الارزاء . قصص اولها عذاب وشقاء ، وآخرها يأس وموت او انتحار .

بكى المنفلوطي في اجتماعياته ، ولم ترقأ له دمة في قصصه . وكان البكاء قد اصبح زياً من ازياء الادب الحديث ، ترسم فيه الكتاب والشعراء مذهب الطبيعيين من ادباء الفرنجة . وشغفوا به ، اذ رأوه يتلاءم مع روح الشرق ، في حرمانه الحريّة ، ومكابدته الاذى والضيم ، وفي انحلال اخلاقه ، وانتشار الخلاعة والفساد في امصاره .

فالمفلوطي في بكائه لم يخرج عن سنّة ابناء عصره، الا انه افراط في ذرف دموعه ،
وبالغ في تحميمه وتشاومه، وتورط في اختيار موضوعاته الاجتماعية، وقصصه الغرامية،
فاذا به كيفما جئته، رسول الموت، ونذير الشقاء .

بيد انه على عنايته بالقصة وضعاً وترجمة ، لم تهتبه الطبيعة لان يكون قصاصاً
بارع الفن ، فضعف تأثيره في النفوس ، الا ما كان من قصصه المنقولة . وهي على
جمالها في الاصل ، خسرت بالترجمة غير قليل من فنها وسحرها ، لانها كانت تصل الى
الكاتب على ذمة الناقل ، فيتصرف فيها ويلخصها كما يشاء .

ونقص الفن عند صاحبنا ناتج عن ضعف الثقافة اولا . ثم عن ضعف العناصر
القصصية : كسعة الخيال ، ودقة النظر في مراقبة الاشياء وحسن تصويرها ، وتحليل
العواطف والاهواء ، وبث الحياة والحركة في الاشخاص ، وصدق اللون المحلي ، وبراعة
المفاجآت والانتقالات ، وقوة الجاذبية التي تغمر القارئ في تسلسلها من بدء القصة الى
ختمها .

فثقافة المفلوطي ازهرية محدودة، ان اتسعت فالى قراءة الصحف والمجلات وبعض
الكتب العربية القديمة . وخياله ضيق لا ينطلق في افق علوي فسيح، فلم تجاوز قصته
سرد الخبر، كما وعته الحافظة، على شيء من التفنن في التعابير والتشابه . ولم تجاوز
اعطاء النصائح، والقاء المواعظ المملّة، كما ناجى بها الذهن وارتضاها المنطق .

ولئن وصف بعض الاشياء المادية واحسن وصفها ، وتشبيهها ، ليعجز ان يمتدح
لدقائق الامور ويصورها، وان يتصل بالنفس الانسانية، ويغوص على كنوزها ويستجلي
اسرارها ، ويمزج شواعرها بشواعر قرائه ، ويعطيها حياة من حياتهم وحركة من
حركتهم . ولم يظلمه محمود تيمور حين قال : ان اشخاص قصته اشباح لا ارواح .
وقصصه الموضوع على الاطلاق، ناصلة اللون المحلي لا ينميها مصر من الامصار،
بعاداته، ولا بازيائه، ولا بطبيعة اقليمه .

والمفاجآت باردة في الجملة ، ولاسيا المواقف التي تحتاج الى تمثيل العواطف ،
والبوادر النفسية، فانها مقضوبة معصوبة، كأنما جذبت على الرغم منها جذباً . وانت
تسهر عندها، بانقباض وخيبة وغيظ، شأن الذي يقع على غنيمة مشتهاة، فتقلت من
يده . مثال ذلك موقف المرأة المتهمة امام القاضي الذي خدعها، وسلب عفافها . فقد

كانت واعظة منطقية اكثر مما هي عاطفية ناثرة، ذلك بان الكاتب شق عليه تصوير نفسيته، فجعلها تتكلم بنفسيته :

« جاء يوم الفصل في أمرها، فسيقت الى المحكمة، وفي يدها قاتما، وقد بلغت السابعة من عمرها . فاخذ القاضي ينظر في القضايا، ويحكم فيها بما يشاء حتى اتى دور الفتاة . فما وقفت بين يديه، ووقع بصرها عليه، حتى شذت عن نفسها، وألم بها من الخيرة والدهشة ما كاد يذهب برشدها . ذلك انها عرفت، وعرفت انه ذاك الفتى الذي كان سبب شقاها، وعلة بلائها . فنظرت اليه نظرة شزراء . ثم صرخت في وجهه صرخةً دوى بها المكان دويًا وقالت :

رويدك يا مولانا القاضي، ليس لك ان تكون قاضياً في قضيتي، فكلانا سارق، وكلانا خائن، والخائن لا يقضي على الخائن، والاص لا يصلح ان يكون قاضياً بين اللصوص .

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب، وغضب لهذه الجراة العجيبة . وهم ان يدعوا الشرطي لاجراجها، فحسرت قناعها عن وجهها، فنظر اليها نظرة ألم فيها بكل شي، فشعر بالردة تمتشى في اعضائه وسكن في كرسيه سكون المحتضر في سرير الموت . وعادت الفتاة الى اقام حديثها فقالت :

انا سارقة المال، وانت سارق العرض، والعرض اثن من المال، فانت اكبر مني جنائية، واعظم جرماً .

ان الرجل الذي سرقت ماله يستطيع ان يعزي نفسه عنه باسترداد او الاعتياض منه . اما الفتاة التي سرقت عرضها، فلا عزاء لها، لان العرض اذا ذهب لا يعود . « اهـ . وغير خفي ما لهذه المواعظ الباردة من اثر سيئ في مثل هذه المواقف الحارة . ولم يكن في انتقالاته اكثر توفيقاً منه في مفاجاته، فان كثيراً منها يبدو عليه التطفل والتعمل، لانه لم يمهّد له تمهيداً طبيعياً ينقذه من التكلف .

واما الجاذبية التي يرفعك بها الكاتب البارع الى افق سحري، فلا حظ لها البتة عند المنفلوطي . وانما هو يسير بك سيراً عادياً، في منبسط من الارض، فيسليك مرة ويضجرك اخرى، ولكنه لا يستولي على شواعرك ولا يستهويك .

واذا انت تركته لا يعلق بنفسك من اشخاصه وحوادثهم شي . فقصصه في

مجموعها ، ضئيلة الاثر ، لم يكتب لها النجاح ، ساذجة التأليف ، فيها شبه باخبار العشاق عند العرب : حب ، فيأس ، فشهقة ، فانتفاضة ، وفوفاة . ولولا الذي نقله عن الفرنسية كالضحية ومجدولين ، والفضيلة ، لما بقي له شيء . يذكر .

اسلوب الانثائي

لم يتمكن اسلوب الازهرين من نثر المفلوطي ، فيعتمد على الصنعة اللفظية وما ينبغي لها من تسجيع وتجنيس ، ونكت بديعية . ذلك بان الكاتب لم يتتقف ثقافة ازهرية خالصة ، وانما تلمذ بنفسه لبلغاء الكتاب المطبوعين ، فأثرت فيه اساليبهم ، فانطبع انشاؤه عليها . ولم ينجح الى التكلف المستهجن حتى في رسائله . ثم لا جرم ان القصص التي نقلها عن الفرنسية ، قد احدثت في اسلوبه الواناً جديدة ، وكان لها يد فعالة في توجيه انشائه وتليينه .

بيد انه بقي له شيء . من تراث الازهر ، يحتفظ به في كتابته ، وهو الافراط في استعمال المترادفات ، ومعاقبة الجمل على المعنى الواحد ، والاسهاب المديد الذي تفيض معه الالفاظ كالوابل المنهمر . وأوتي ديباجة مشرقة ، ولغة موسيقية ، فكان في اسهابه وترادفه كمن يتظرف في مزاج لفظه ، ويستطرب بوقع نبراته :

« دارت الايام دورتها ، وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها ، وما يحمل بدنها ، وما تشتمل عليه غرفتها ، من حلى ، وثياب ، وأثاث . . . » هـ .

« فلم يزل يمسحها ، ويروضها حتى هدا روعها ، وعاد اليها رُشدها . وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه . فنظرت اليه نظرة هادئة ، ساكنة ، لو انها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواعي الاحزان ، وافانين الاشجان . » هـ .

وله براعة في اصطناع التشابيه المحسوسة والكنايات والاستعارات والاشارات ، فيعطيك بها صوراً حسنة للاشياء المادية التي يريد نعتها . ومما يجدر ذكره انه كان يجتنب جهده القوالب الموروثة المتداولة ، فما تجد منها في كتابته الا زراً يسيراً . وربما اتخذ تشابيهه وصوره من الفنون العصرية المستحدثة كقوله :

« وكنا مولعين بالتقليد ، ولعكم به ، لا نكاد نعرف لانفسنا صورة خاصة ترتكز عليها اعمالنا في الحياة . بل كانت تمرُّ بنا جميع الصور على اختلاف انواعها

والوانها، فنلتقطها باسرع مما يلتقط «الفلم» صورته . كأن فضاء حياتنا معملٌ
لتجارب الحياة واختباراتها . « ١ هـ .

ومن تشابيهه الجميلة :

« لم تستطع يد الموت ان تمحو كل آثار جماله . بل بقيت منه بعد الموت بقيةٌ
كتملك البقية من الرائحة العطرة التي يستنشقه الانسان في الزهرة الذابلة . « ١ هـ .

ومن تشابيهه مع حسن التعليل :

« فأبغضت الكاذبين بغض الارض للدم » .

ومن اشاراته التمثيلية :

« وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاءً للبرد الذي كان يعيث بها عبث النكباء
بالعود . وليس في يدها ما تتقيه به الا أسعالٌ تترأى مرقها فوق جسمها العاري
كأنها السياط فوق اجسام المستعبدين في عهود الاستبداد . « ١ هـ .

ومن كنيائته :

« فرأيت حوله مجتمعاً حافلاً تصطكُ فيه الاقدام بالاقدام ، وتمترج فيه الانفاس
بالانفاس . « ١ هـ .

وربما ضرب الامثال القصيرة لايضاح فكرته كقوله :

« فانا اسير بينهم سائر رجل بدأ يقطع مرحلة لا بدَّ له ان يفرغ منها في ساعة
معينة . ثم علم أنَّ على عين الطريق التي يسلكها روضةٌ تعنتق اغصانها وتشجر
افنانها . وان على يساره غاباً تَرَّارُ أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفتحُ أفاعيه وصلاله . فضي
قُدُماً لا يلتفت يمنةً مخافة ان يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره . ولا يسرةً
مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعرض
طريقه . « ١ هـ .

وكثيراً ما يستشهد بالشعر ، ابياتٍ كاملة ، او انصاف ابيات . وقد يجعله
فيجعله نثراً كقوله يناجي القمر :

« ها أنا ذا 'يُجِيلُ' الي اني ارى صورته ' في مرآتك . وكأني اراه يبكي من اجلي كما ابكي من اجله ، فازداد شوقاً اليه وحزنأ عليه . فأبقى في مكانك طويلاً، تطل وقتتنا، ويدم اجتماعنا . » اه .

وله تعابير محبوبة عنده لا يفتأ يعود اليها في كل سائحة :

« الفينة بعد الفينة . اخدع نفسي عن نفسي . بين جنبتيها نار تضطرم ، وجنين يضطرب . في ليلة من ليالي الشتاء ، جالكة الجلباب ، غداية الإهاب . »
ومن خصائصه ردّ الجمل على نفسها المشاركة في العمل : « واخدعه عن نفسي ، ويجدعني عن نفسه . لا يلوي على احد، ولا يلوي عليه احد . »

وله استعمالات غير مستحبة : منها ضعيفة نابية : « فان شيئاً من ذلك لم يكن ؟ » . ومنها مصرية عامية : « مقاليك فلاكة . » ومنها اتخذت لغير معناها : « متمدين بمعنى متمدين » . ومنها ما يقتضب بها الكلام اقتضاباً ولاسيا في المواقف العاطفية ، والمواقف التي تحتاج الى تفصيل ، او تحليل نفسي . ويكون اقتضابه على الاخص بقوله : « فألم بكل شي . ففهمت كل شي . » وقد اكثر من هذا الاستعمال في كتابته ، مع قلة توفيقه به ، حتى تبعض : مثال ذلك كلامه على المرأة التي اراد زوجها ان يبلو امانتها ، فاتفق مع احد تلاميذه عليها ، ثم تماوت . وتمارض التلميذ ، فهامت به المرأة ، فزعم لها ان لا سبيل الى شفائه الا بان يطعم دماغ ميت ليومه . فجاءت بفأس لتفلق رأس زوجها ، وتستخرج دماغه . فلما دنت من السرير فتحت عينيه . فاليك كيف يقتضب الكلام عندما يصل الى وصف تأثير هذه المفاجأة في نفس المرأة ، وما كان من امرها في هذا الموقف الرهيب :

١ اي صورة حبيبه . ٢ قال الشاعر :

إلى الطائرِ النسرِ أنظري كلَّ ليلة ، فإنني اليه بالعشيّة ناظِرُ (*)
عسى يَلشقي طرفي وطارفك عنده فَنَشْكُو اليه ما نَجُنُّ الضائرُ

* الطائر النسر او النسر الطائر : كوكب . ٣ درج كتاب مصر المعاصرون على هذا الاستعمال المستهجن . وانسحب على اذياهم بعض صحافيي سورية ولبنان . ووجه الضعف هنا في الابتداء بالنكرة دون مسوغ ، وغرابة تأخير الفعل من غير ضرورة .

«ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده .
ولم تكذب تهوي بها حتى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظر اليها . فسقطت الفأس من
يدها، وسمعت حركة وراءها . فالتفتت فرأت الضيف^١ والخدام واقفين يتضاحكان .
ففهمت كل شيء .»

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يد تلك المرأة أجمل من
هذه الفأس في يدك ! أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي
تكسر دماغه قبل نعيه ! فصارت تنظر اليه نظراً غريباً . ثم شهقت شهقة كانت
فيها نفسها . « اه .»

فما كان اغناه عن « فهمت كل شيء » ، وبرودة استعمالها في هذا المكان .
واسلوبه على الغالب خبري ممتزج بالخطابي لما فيه من المواعظ ، والنجاوى ،
والتعريفات الخطابية البديعية . والتعريف الخطابي سهل المتناول يلجأ اليه الكاتب
خديعة وتوحيماً ليؤثر في النفوس ، ويستغزها اذا فاتته عمق التفكير ، وقوة التحليل ،
ودقة النظر . فمن ذلك قوله في الغد :

« الغد، شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، وربما كان ملكاً رحيماً وربما
كان شيطاناً رجيماً . بل ربما كان سحابة سوداء اذا هبت عليها ريح باردة حلت
اجزاءها وبعثت ذراتها، فاصبحت كأنما هي عدم من الأعدام التي لم يسبقها وجود .
الغد، بحر خضم زاهر يعب عبابه . وتصطبب امواجه . فما يدريك أن كان
يحمل في جوفه الدر والجوهر ، او الموت الاحمر .»

لقد غمض الغد عن العقول، ودق شخصه عن الانظار حتى لو ان انساناً رفع قدمه
ليضعها في خروجه من باب قصره لا يدري أين يضعها على عتبة القصر ام على حافة القبر .
الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه العقول ،
وتستدرجه الانظار، فلا ييوح بسر من اسراره إلا اذا جادت الصخرة بالما . الزلزال . اه .
وانشاؤه على الاجمال ، هادئ الخطوات لين الملامس ، الا في مواقف العصبية
الدينية . مشرق الديباجة واضحا ، فيه رونق وماء ، وحلاوة وانسجام ، ورقة وتظرف .

١ الضيف : هو التلميذ نفسه .

كتب المنفلوطي قصصاً جميلة نقلها عن الفرنسية ، وانشأ في الصحف مقالات تناول بها الحياة الاجتماعية في بؤسها ومرض اخلاقها ، وآثر الفقير والضعيف على الغني والقوي . ونقر على الوتر الاسلامي الحساس في الدعوة الى الاصلاح ، واستعادة المجد المفقود ؛ فكان لاقواله اثر في نفوس الشبان خاصة ، لان حديث الحب والشقاء والموت والانتحار يثير عاطفتهم الملتهبة . وفي نفوس المسلمين عامة لان حديث الاصلاح والمجد القديم ، هو النغم الحلو الذي تستخف نبراته شوارع كل مسلم .

وأعجب الناس بحال انشائه ، وسهولة تعبيره ، فجلسوا اليه يطالعون قصصه ومباحثه ، فكانت له شهرة في حياته لا تنكر . الا انها اخذت تتضاءل بعد موته لاتساع الثقافة الغربية ، ونهضة النقد الادبي . ولولا جمال انشائه ، وقرب عهده ، لما ثبتت له شهرة الى اليوم ، لان انجائه الاجتماعية ، ومنها الاسلامية ، ضعيفة في الجملة ، غير حقيقة بالخلود ، وان احدثت في حينها تأثيراً . وهكذا شأن القصة عنده ، موضوعة كانت او مترجمة . فضعف فناها ، وانتشار الثقافة الغربية كفيلاان بمحوها .

وان كان للمنفلوطي من فضل ، فانه يعود على تلطيفه اذواق الكتاب الذين تلمذوا له في مصر خصوصاً ، وعلى خروج اسلوبه من الجزالة القديمة الى النعومة الحديثة . ومن السجع المصنوع ، الى المرسل المطبوع . ومن القوالب التليدة ، الى التعابير الطريفة . وانه وان لم يبلغ في تفننه واختراعه طبقة الكتاب المجيدين ، لقد ارتفع بحسن انشائه ، الى المئزلة الاولى بين المترسلين .

الخطابة

بلغت الخطابة من الضعف في ازمة الانحطاط مبلغاً زريعاً . وكادت تقتصر على قوالب محفوظة تتلى في الجمع والاعياد . فلما نشأت المدارس الحديثة ، جعلت لها شأناً رفيعاً في مناهجها . ودأبت تحمل الطلاب على المباريات الارجالية ، ليتعودوا ذلاقة اللسان ، وتستوسق لهم ملكة الفصاحة .

وكانت مدارس الرهبان اعجل من غيرها الى تعهد هذا الفن واحيائه ، لاضطرارهم الى الوعظ والارشاد في الكنائس ، فظهر منهم خطباء مصاقع ، دانت لهم اعواد المنابر ، ونهضت بهم الخطبة الدينية نهضة ميمونة .

وسبقت بيروت سائر الامصار الى الخطب الاجتماعية والعلمية ، قامت بها الجمعيات التي تألفت فيها منذ سنة ١٨٤٧ . ولكن هذه الخطب كان اكثرها محاضرات تتلى مكتوبة على الورق .

وكان ازدهار الخطب الاجتماعية والسياسية في مصر بعد ان هبطها فيلسوف الشرق جمال الدين الافغاني^١ . فقد تحلق حوله الطلاب ، فاخذ يث فيهم روح الحرية والاستقلال ، وجمع كلمة الاسلام . وسار على اثره تلميذه الشيخ محمد عبده^٢ فكانت خطبهما ممهدة طريق الثورة العربية ، ومؤذنة بارتفاع صوت خطيبها المقوِّه

١ ولد في أسعد اباد سنة ١٧٣٨ م (١٢٥٤ هـ) وجاء مصر سنة ١٨٧١ ومات في الاستانة سنة ١٨٩٧ م (١٣١٥ هـ) . ٢ ولد في سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٦ هـ) في محلة نصر من اقليم البحيرة بمصر . درس بالازهر ثم اتصل بجمال الدين الافغاني ، وافاد منه علماً كثيراً . وكان الداعية الاكبر للاصلاح الديني والاجتماعي في مصر . ونفي بعد الثورة العربية ، فجاء سورية ولبت ست سنوات ثم غادرها الى باريس ، وانشأ جريدة العروة الوثقى مع استاذ الافغاني . ودرس في تلك الاثناء اللغة الفرنسية . ثم اجازوا له الرجوع الى مصر واسند اليه منصب الافتاء ، فظل فيه حتى مات في سنة ١٩٠٥ م (١٣٢٣ هـ) .

عبدالله نديم^١ . ثم نبغ زعيم الحزب الوطني وخطيبه المنطيق مصطفى كامل^٢ .
فكان للخطبة السياسية حظ كبير في ايامه . وسلمها من بعده الى سعد زغلول^٣ .
فما عرفت العربية في الانبعاث اخطب من سعد ، ولا ابلغ تأثيراً .

ولم تحرم سورية الخطباء السياسيين في جهادها الوطني ، وثورتها في طلب
الاستقلال . وكان لتأليف الاحزاب والاندية والمحافل ، ومجالس الشيوخ والنواب ،
ولتنظيم المحاكم الاهلية ، وحرفة المحاماة يد بيضاء على الخطابة من علمية واجتماعية ،
وسياسية وبرلمانية وقضائية . على انها لم تسلم في الجملة من اللحن ، وفساد مخارج
الحروف .

-
- ١ ولد في الاسكندرية سنة ١٨٤٥ م (١٢٦١ هـ) . وتوفي في القسطنطينية سنة ١٨٩٦ م (١٣١٤ هـ) .
 - ٢ ولد بالقاهرة سنة ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ) . وتوفي سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) .
 - ٣ هو ابن ابراهيم زغلول ولد سنة ١٨٥٦ او ١٨٥٧ م (١٢٧٣ او ١٢٧٤ هـ) في بلدة ابيانة من مديرية الغربية ودرس في الازهر ، ثم اتصل بالافغاني واخذ عنه . وتقلب في مناصب عديدة ، وكان اكبر زعيم وطني في مصر . توفي سنة ١٩٢٧ م (١٣٤٦ هـ) .

الصحافة

ولدت الصحافة العربية على ايدي الاجانب من فرنسيين واميركيين لان هذا الفن بضاعة دخيلة لا عهد للشرق بها قبل امتزاجه بالغرب .

وكانت مصر مهد الصحف الاولى منذ دخلها نابوليون الاول، وتلتها الجزائر بصحيفة^١ المبشر نشرتها الحكومة الفرنسية سنة ١٨٤٧ . ثم بيروت بمجلة^٢ سنوية انشأها المرسلون الاميركيون سنة ١٨٥١ .

على ان هذه الصحف ما خرجت عن كونها رسمية من قبل الحكام او دينية علمية من قبل المبشرين .

واما الصحف السياسية الاهلية ، فقد كان بدؤها في الاستانة بجريدة^٣ مرآة الاحوال لرزق الله حسون^٤ سنة ١٨٥٥ . ثم صارت الصحافة الى ايدي اللبنانيين فاستأثروا بها برهة من الزمن لما هم عليه من الثقافة الحسنة، ونشاط النفس واقدامها ،

١ ذكر الفيكونت فيليب دي طرازي في كتابه تاريخ الصحافة العربية ان الشيخ نجيب الحداد ابن اخت الشيخ ابراهيم اليازجي هو اول من اصطلح على لفظ الصحافة، واشاع استعماله . ٢ اول من استعمل الصحيفة بمعناها الحديث الكونت رشيد الدحداح وكانت تسمى قبلاً الوقائع او غزيرة عربية عن «Gazetta» او جرنال . ٣ المجلة لفظة اصطلاح عليها الشيخ ابراهيم اليازجي للصحف الدورية التي تبحث في العلوم والفنون ، ومعناها في الاصل صحيفة الحكمة . ٤ في تاريخ الصحافة العربية للفيكونت دي طرازي ان احمد فارس الشدياق اول من اطلق لفظ الجريدة على الصحف المنشورة . والجريدة لغة الصحيفة يكتب عليها . ٥ نصراني من طائفة الارمن الكاثوليكية ولد بجلب نحو سنة ١٨٢٥ وتعلم بلبنان العربية والفرنسية والتركية والارمنية، واللاهوت والرياضيات . وسافر الى الاستانة، وانشأ بها جريدته في اثناء حرب القرم ، ومات بلندرة سنة ١٨٨٥ .

فرفعوا منارها في بيروت^١ واوربة^٢ ومصر واميركة^٣ . فكان لهم الفضل
الاكبر في بعثها واحيائها .

ولم تنشط مصر الى هذه الصناعة الا بعد ان ازدهرت في لبنان ، مع انها ولدت
بها دون غيرها . فمر عهد محمد علي ، وتلاه عهد عباس ثم سعيد ، وليس في القطر جريدة
او مجلة الا الوقائع الرسمية . فلما انتهى الحكم الى اسماعيل ، ومضى يبسط
كفه اللادباء ، ويعني بتعزيز الاداب والعلوم ، بدأت تتحرك الاقلام وتنجم الصحف .
فظهرت اليعسوب في القاهرة سنة ١٨٦٥ لمحمد علي باشا الحكيم ، وابراهيم
الدسوقي ، وكانت مجلة طيبة . ثم الزمان لعبدالله ابي السعود سنة ١٨٦٦ اول جريدة
سياسية اهلية . ثم نزهة الافكار لابراهيم الموليحي ومحمد عثمان جلال سنة ١٨٦٩ .

وتسامع الادباء اللبنانيون بعطف اسماعيل على الادب . وشاقهم ما في مصر
من فضاء رحب ، ورزق واسع ، فيممو شطرها يحملون اليها علماً صحيحاً ، ورقياً
ناضجاً ، فانسلخوا في دواوينها ومتاجرها يديرونها ويحسنون تنظيمها ، واقبلوا على

١ كانت اولى الجرائد في بيروت حديقة الاخبار لخليل الخوري (١٨٥٨) ونفير
سورية (١٨٦٠) ومجلة الجنان (١٨٧٠) للعلم بطرس البستاني . والجنة لولده سليم
(١٨٧٠) والبشير للاباء اليسوعيين (١٨٧٠) والجنينة لسليم البستاني (١٨٧١) . وغرات
الفنون اول جريدة اسلامية انشأها جمعية (الفنون سنة ١٨٧٥ ، واعضاؤها من ادباء المسلمين
واعيانهم . ومجلة المقتطف للدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس غر (١٨٧٦) ، والطبيب
للدكتور بوسط الاميري (١٨٧٧) تعاقب في ادارتها وتجيرها جبهة من الكتاب منهم
الشيخ ابراهيم اليازجي . ولسان الحال لخليل سر كيس (١٨٧٧) وديوان الفكاهة لسليم
شجادة وسليم طراد (١٨٨٥) وهي اول مجلة قصصية . والاحوال لخليل البدوي (١٨٩١)
والمشرق للاباء اليسوعيين (١٨٩٩) . ٢ كبرجيس باريس في عاصمة فرنسة للكونت
رشيد الدحداح (١٨٥٨) . والجواثب في الاستانة لاحمد فارس الشدياق (١٨٦٠) ومجلة
مصر لقاهرة في باريس لاديب اسحق (١٨٧٩) والمستقل في غلياري عاصمة سردينيا ليوسف
باخوس (١٨٨٠) والبصير في باريس لخليل غانم (١٨٨١) . ٣ اخذ اللبنانيون في
المهاجرة الى اميركة في اواخر القرن التاسع عشر واولئل العشرين بعد ان ضاق عليهم
الرزق في موطنهم فاثاروا في مهاجرهم تياراً ادبياً وانشأوا صحفاً كثيرة بيّنة الرقي ، منها ما
يظهر يومياً بثاني صفحاته . واقدم جرائدهم كوكب اميركة لتجيب عربيي انشأها في نيويورك
(١٨٩٣) . واول جريدة يومية الهدى لنوم المكرزل انشأها سنة (١٨٩٨) مجلة شهرية
في فيلادلفيا . ثم نقلها الى نيويورك وجعلها نصف اسبوعية ثم جعلها يومية بثاني صفحات كبرار .

الصحافة يضطلعون بعبئها ، ويدربون عليها المصريين . فنهضوا بها ، ودفعوها الى الامام ، منفردين بادارتها اكثر من عشر سنوات ، حتى برع الوطنيون في مصر . فهبوا الى انشاء الصحف ، ولكنهم لم يستغنوا عن اللبنانيين في تجديرها ، فساهم هؤلاء في كل جريدة ظهرت الى ذاك العهد . وكانت الاهرام اولى الجرائد اللبنانية انشأها في الاسكندرية سليم وبشارة تقلا سنة ١٨٧٦ . وانتقلت الى القاهرة سنة ١٨٩٢ . ثم المحروسة في الاسكندرية لاديب اسحق وسليم نقاش سنة ١٨٨٠ .

وكان اسماعيل على ميله الى نشر الاداب يضيق صدره عن احتمال النقد ، فلقبت منه الصحافة عنفاً وشدة ، فالغى نزهة الافكار ، ونفى الشيخ ابا نظارة^١ . وكاد يودي بالاهرام ، لو لم يشد ازرها ممثل فرنسة .

وبولغ في ارهاق الصحافة زمن توفيق عندما ذر قرن الثورة العربية ، فوضع قانون المطبوعات سنة ١٨٨٠ فنال الصحف بشر كبير ، فمنها ما الغى ، ومنها ما حبس لمدة معلومة .

ولبثت الحرية الفكرية موءودة حتى وقع الاحتلال الانكليزي ، فبعثها اللورد كرومر من رسمها ، فاقبل الكتاب على انشاء الصحف وفيهم المصريون . وهاجر جماعة من لبنان الى مصر يلتمسون بها هذه الحرية ، بعد ان حرمهم اياها عبد الحميد . وكان في جملةهم الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس غر ، وشاهين مكاريوس ، فانشأوا المقطم سنة ١٨٨٩ . وصدرت المؤيد في السنة نفسها يديرها الشيخ احمد ماضي والشيخ علي يوسف . واتخذت لها سياسة تعاكس سياسة المقطم ؛ وهي اول جريدة اسلامية مصرية ذات شأن .

وكانت الصحف يومئذ قد ازدادت واختلفت مذاهبها السياسية ، فمنها احتلالية ، كالمقطم والزمان والنيل . ومنها مصرية فرنسية كالاهاام والمؤيد . ومنها مصرية خالصة على شيء من انصاف المحتلين كمرآة الشرق والوطن . ومنها مصرية عثمانية كحقيقة الاخبار والفلاح .

وفي سنة ١٨٩٢ اهل قانون المطبوعات ، فبلغت الصحافة غاية ما ترجوه من

١ هو يعقوب بن رافائيل صنوع من اليهود ولد في القاهرة سنة ١٨٣٩ وانشأ فيها جريدة هزلية سماها « ابو نظارة » وتكنى بها . ومات في باريس سنة ١٩١٢ .

الحرية والانطلاق ، فنهضت نهضة محسوسة ، وتضاعف عددها . ثم ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ لمنشئه مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني ، فبعث في صدور المصريين روح مقاومة المحتلين لاجلائهم عن مصر . فتبدلت سياسة انكسار منذ اليوم ، واعتمدت على خطي الارهاب والمداينة ، بعد الود والصفاء .

وقبض العميد اللورد كشنر على خناق الصحافة ، بعد ان تأذى من تطرف الصحف الوطنية ، ومجاورتها حد الاعتدال ، فاقفل اللواء والعلم ومصر الفتاة وسواها ، وتصاب في السماح بانشاء جرائد جديدة .

ومضت فترة في الحرب الكبرى والصحف مسالمة الاحتلال بعد ان بسطت انكساراً حمائتها على مصر . فلما خمدت نيران الحرب ، هب المصريون وعلى رأسهم سعد زغلول باشا ينادون بالاستقلال والغاء الحماية ، فعادت الصحف الوطنية الى رفع الصوت ، ومناهضة السياسة البريطانية ، فعبّرت اصدق تعبير عن اماني المصريين ورغباتهم على اختلاف احزابهم وسياساتهم .

وقد تقدمت صحف مصر بعد الحرب تقدماً عظيماً ، جارت به صحف اوربة ، في جرماً وترتيبها وتصويرها ، وبرقياتها واخبارها . وصار بعضها ينجم يومياً باثني عشرة صفحة كبيرة او بست عشرة صفحة شأن الاهرام . وارقي جرائدها ومجلاتها ، واكثرها انتشاراً ، اللبنانية منها كالاهازم ، والمقطم ، والمقتطف^١ ، والهلل^٢ .

اما الصحف اللبنانية في بيروت فقد تقهقرت تقهقراً مشووماً في عهد عبد الحميد . ولم ينبض لها وتر الا بعد ان نودي بالدستور العثماني ، سنة ١٩٠٨ ، فعادت الى النهوض والانتشار ، وكثرت حتى لم تقتصر على بيروت بل جاوزتها الى المدن والقصبات في لبنان . وكذلك الصحف السورية والعراقية^٣ ، لم يكن لها شأن قبل الدستور ،

١ نقل المقتطف من بيروت الى القاهرة سنة ١٨٨٥ . ٢ الهلال مجلة ادبية علمية تاريخية انشأها جرجي زيدان في القاهرة سنة ١٨٩٢ .

٣ ظهر في دمشق قبل الدستور ثلاث جرائد وثلاث مجلات : سورية الرسمية انشئت سنة (١٨٦٥) . ودمشق لاحد عزت باشا (عابد) (١٨٧٩) . والشام لمصطفى واصف (١٨٩٦) . ومجلة مرآة الاخلاق اسلم وحناء عنجوري (١٨٨٦) . والشمس لجورج متى وجورج سمعان (١٩٠٠) . والمقتبس لمحمد كرد علي (١٩٠٦) . وظهر في حلب اربع جرائد ومجلة : غدير الفرات الرسمية (١٨٦٧) . ثم الفرات الرسمية (١٨٦٩) .

وهي في الأصل دون الصحف البيروتية رقياً . فتقدمت على اثره تقدماً بيناً ، وانتشرت ، وعمت شتى المدن والامصار بعد ان كانت لا تصدر الا عن كبريات الحواضر . وانقسمت في تحزبها مع العثمانيين فكان منها الاتحادية ، وكان منها الائتلافية .

ولما نشبت الحرب العامة اصاب الصحف في الولايات العثمانية فترة وخول لما نال حرية الفكر من الضغط والارهاق ، ولما اصاب البلاد العربية من ضيق وفاقة ، فلم يبق منها الا عدد يسير جارى السياسة التركية على جورها وفسادها ، فانتفع ورزق الحياة ولم تفق من خمولها الا على نداء داعي السلام ، فهبت من رقدتها ، وتمطت بعد انقباضها ، وقطعت شوطاً حسناً في مضمار النهضة ، ونظمت نقاباتها ، فعظم شأنها ، وصار بعضها يصدر يومياً بثاني صفحات . وعينت بتصوير الاشخاص والحوادث^١ وتفرعت موضوعاتها الى سياسة واخبار وادب ونقد وعلوم وفنون . ومنها ما اختص بفن واحد كالصحف الادبية ، والرياضية ، والتجارية ، والزراعية ، والمهزلية . الا انها ما برحت مقصرة في الجملة عن الصحف المصرية في انتشارها ، وثروتها ، واتقانها ، وصراحة سياستها ، وسرعة اخبارها . بيد ان لبنان كان وما برح اخصب تربة لانتاج الجرائد والمجلات ولا نجاب كتابها^٢

والشهباء لهاشم العطار ، وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٧٧) . والاعتدال لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٧٩) انشأها بدلاً من الشهباء . ومجلة الشذور لعبد المسيح انطاسكي (١٨٩٧) . وظهر في القدس جريدة واحدة : القدس الشريف الرسمية (١٩٠٣) . وكان في بغداد جريدة واحدة ومجلة واحدة وهما الزوراء الرسمية (١٨٩٩) . ومجلة زهيرة بغداد للاباء الكرملين (١٩٠٥) . وفي البصرة جريدة البصرة الرسمية (١٨٩٥) . وفي الموصل جريدة الموصل الرسمية (١٨٨٥) . ومجلة اكليل الورود للاباء (الدومينيكيين) (١٩٠٢) .
١ من الجرائد المصورة التي انتشرت بعد الحرب « البيان » لصاحب هذا الكتاب انشأها سنة ١٩٢٣ اسبوعية بثاني صفحات ، ثم باثنتي عشرة صفحة ، ثم بمشرين . وحجبها سنة ١٩٣٠ . وكانت ابحاثها تشتمل على سياسة وادب ونقد وقصص . قال الفيكونت دي طرازي في كتابه « تاريخ الصحافة العربية » الجزء الرابع : « لكننا اذا اعتبرنا عدد الصحف في كل دولة بنسبة عدد سكانها ومساحة ارضها فيكون لبنان اسبق جميع البلدان في ميدان الصحافة العربية فانه يحوي من السكان ثمانمائة وخمسين الف نسمة طبقاً لاحصاء سنة ١٩٣٢ ومن الصحف اربعائة وستاً وعشرين صحيفة . اي ان لكل الف نسمة صحيفة واحدة في الجمهورية اللبنانية . بينما نرى غيرها من كبريات الدول العربية تصيب فيها الجريدة الواحدة نحواً من ستمائة الف نسمة » اهـ .

مزاياها وتأثيرها

لا يخفى ما للصحافة صاحبة الجلالة من الاثر البالغ في نهضة الشعوب وتقدمها . وقد كان لها يد بيضاء على البلاد العربية إبان يقظتها . فهي التي قاومت الاستبداد والمستبدين ، وآزرت الحرية والاحرار . وبعثت الروح الوطني في صدور الشعوب الشرقية الخاملة المتواكلة . وهي التي ربطت الشرق بالغرب ، واطلعت المشاركة على حضارة الاوربيين وعلومهم ، وفنونهم واختراعاتهم ، وسياساتهم واحوالهم . فاستفاد منها العالم والجاهل ، وشملت بفضلها الخاصة والعامة . فاذا هي نعم الاستاذ والمربي ، والمرشد والمنير .

وكانت الرقيب الساهر على الحكام والمسيطرين ، تنتقد اعمالهم ، وتنبههم على خطئهم ، وتدلهم على طرق الاصلاح والفلاح .

وكانت لغتها السهلة الحلقة الوسطى بين اللغة الفصحى واللغة العامية ، فقربت بينهما بعد تباعد ، فاصبح العامي يستأغاها ، ويراهادانية الى فهمه . والخاصي لا ينكرها ، ولا يضيق بها صدرأ . وهذبت العامية فنفت عنها كثيراً من الالفاظ الدخيلة المردولة ، واصلحت غير قليل من الالفاظ التي افسدها التحريف . وراضت الفصحى ، فألانت اساليب الكتابة ، وذلت شوامسها لمختلف الاجاث ، واوضحت غوامضها ، وزفت اليها الفاظاً ومصطلحات جديدة ، قضت بها الحضارة العصرية ، وما فيها من علوم وفنون . واطرحت الالفاظ الحوشية ، والتعابير البدوية الجافية . فوسعت المعجم اللغوي من حيث ينبغي ان يتسع ، وضيقته من حيث ينبغي ان يضيق .

على ان هذه الفوائد التي انت بها الصحافة قام ازامها من الاضرار ما يعادلها . فقد كثر الاقبال على حرفة الصحف ، ووافقه ترخيص من الحكومة في انشائها ، فطام سبيلها ، وفاض حتى جاوز الحد ، وافضى الى تبرم الناس به ، والى ان يتعاطى الصحافة غير اهلها . فاحترفها المتكسبون المحتالون ، وجعلوها اداة للتعيش بالتهويز ، ونهش الاعراض ، والتحرش ، والهراش . واتخذوا من سياستهم تجارة ومكسباً . يناصرون حكومة على حكومة ، وحزباً على حزب ، وشخصاً على آخر لا لعقيدة صحيحة ، وانما للمكسب والارتزاق .

وفيه من يبدل سياسته كما يبدل قميصه ، جارياً مع المنهل الاعذب . فتراه اليوم يحارب رئيس حكومة ، او يطعن على شركة ، او يقاوم رأياً . ثم تراه في الغداة وقد اختلف لهجته ، وراح يتراجع عن موقفه بخفة وانتظام الى ان يصير في جانب الرئيس الذي يحاربه ، والشركة التي يطعن عليها ، والرأي الذي يقاومه .

وربما ضربوا على وتر الطائفية ، وهيجوا التعصب الديني ، ونادوا بحقوق ملهم ، ولا مأرب لهم الا الزاني ، والاستكثار من القراء .

ومنهم من يطلب الربح والانتفاع بالطرق الماحجة فيحشو صحيفته باخبار الفحش والدعارة وقصص الحب الشائن ، وصور الخلاعة المغرية ، فيستهوي بذلك الفتيان الاغرار ، واهل البطالة والفساد .

ومثل هذه الحالة يدعو الى الاسف ، فحري بالحكومات ونقابات الصحف ان يتداركوا هذه الفوضى المنتشرة ، فان اضرارها جسيمة ، وفي التغاضي عنها اثم عظيم .

ويلام الصحفيون عندنا انهم فرديون في اعمالهم ، يستقل كل واحد منهم بجريدة على قصر يده ، وقلة ماله ، وعود الاحزاب عن مناصرتة . فلا يلبث ان تعضه الحاجة ، فيضطر الى النكوص خاسراً ، او الى اراقة ماء وجهه . فلو اجتمعوا شركات منظمة ، تستند الى رؤوس الاموال ، لتسنى لهم ان يخرجوا جرائد قوية راسخة البنیان ، آمنين الحاجة ، ولكان لهم شأن غير شأنهم اليوم .

ولم تكن جرائد مصر اقوى من جرائد لبنان وسورية والعراق على الاجال ، الا لانها غنية باموالها ، واحزابها ، وتعاون الجماعات على اصدارها .

والصحافيون كثير عددهم ، لا يتأتى لنا ان نحيط باسمائهم ، فانه لم يظهر كاتب في الانبعاث الا اشتغل بالصحافة او ساهم في انشاء الصحف . فنحن نجترى بذكر من كان لهم الفضل المتقدم على نهضة الصحافة ورقيا كالمعلم بطرس البستاني ، اول من انشأ مجلة جامعة ، زاهرة بالبحاث^١ . وابنه سليم اول من اصدر جريدة

^١ ولد المعلم بطرس البستاني في الدبسية من لبنان سنة ١٨١٩ وتعلم في مدرسة عين ورقة العربية والسريانية واللاتينية والاطالية ، والمنطق والتاريخ ، والجغرافية والفلسفة واللاهوت والحق القانوني . ثم هبط بيروت ، واتصل بالبعثة الاميركية وقرأ عليهم الانكليزية واليونانية

يومية^١ . واديب اسحق اول من نهض بالانشاء الصحافي، ورفع مستواه . والشيخ ابراهيم اليازجي، اول من هذب لغة الجرائد، وطهرها من الفساد . ونكتفي بدرس آثار ولي الدين يكن ، لما فيها من عبرة وذكرى لاصحاب هذه الحرفة ؛ ولما في شخصيته العجيبة من المزايا التي يجمل بالصحافي ان يتحلى بها ، الا وهي الجراءة والصراحة ، والنزاهة والاخلاص .

والعبرية وطرفاً صالحاً من العلوم العصرية . وانشأ مجلته الختان سنة ١٨٧٠ ، سياسية علمية ادبية تاريخية ، تظهر مرتين في الشهر . وله غيرها اثار كثيرة سيأتي ذكرها . وتوفي في بيروت سنة ١٨٨٣ .

١ ولد سليم البستاني في عبينه سنة ١٨٤٨ وقرأ العلوم العربية على الشيخ ناصيف اليازجي . واتقن التركية والانكليزية والفرنسية . وعين ترجماناً لقنصلية الولايات المتحدة . وكان الساعد الايمن لانيه في ادارة المدرسة الوطنية، وتأليف دائرة المعارف وتحرير الختان . انشأ اللجنة سنة ١٨٧٠ صحيفة نصف اسبوعية تبحث في السياسة والتجارة، وتتناول الانباء البرقية على حسابها . ثم انشأ اللجنة سنة ١٨٧١ ، اربع مرات في الاسبوع ، فم له بها واللجنة التي ظلت تصدر مرتين في الاسبوع ، اول جريدة يومية . توفي سنة ١٨٨٤ ودفن في بيروت .

ولي الدين يكن

١٨٧٣ - ١٩٢١ م ١٢٩٠ - ١٣٤٠ هـ

نبأه

هو ولي الدين بك ابن حسن سري باشا، ابن ابراهيم باشا يكن^١. كان جده هذا ابن اخت محمد علي باشا صاحب مصر. وامه اميرة شر كسية. فهو اصيل الجدين، طيب العرقين. ولد في الاستانة، فقدم به ابوه الى القاهرة، وهو طفل في الثالثة. وتوفي الاب والطفل لم يجز السادسة؛ فكفله عمه علي حيدر باشا يكن ناظر مال مصر، وادخله مدرسة الانجال التي بناها الخديوي توفيق في عابدين لتعليم اولاده واولاد بعض الامراء والاعيان. فقرأ فيها العربية والتركية، وشيئاً من الانكليزية والعلوم. ثم توفّر على الفرنسية في مدارس اخرى، فاحكمها، والم باليونانية.

واولع بالشعر والصحافة، فنظم وكتب وهو دون العشرين. وعرفت بواكير نفثاته جريدتا «القاهرة الحرة» و«النيل»^٢. ودعي سنة ١٨٠٣ ليكتب للامير في الديوان الاجنبي. ثم ترك الديوان، وانشأ سنة ١٨٩٥ جريدة المقياس، مشاركاً فيها يوسف فتحي.

ورحل ما بين سنة ١٨٩٥ و ١٨٩٦ الى الاستانة، فاقام ثمانية اشهر عند عمه محمد فائق بك يكن من اعضاء مجلس الشورى. وانعم عليه عبد الحميد بالرتبة الثانية، وعاد الى مصر مزوداً برضاه وعطفه. ولم يكن يومئذ في صفوف الاحرار، بل كان يقاومهم، ويدافع عن السلطان. فلما جاء الاستانة، وشاهد مصارع الارمن، ومكاييد رجال الدولة ودسائس الجوانيس ووشاياتهم، قفل وفي نفسه المعضوض، وفي صدره غل على عبد الحميد، ورجاله ودواوينه. فانشأ جريدة الاستقامة سنة ١٨٩٧، وجعل يحمل فيها على اعوان الظلم، وزبانية الشر، ويدعو الى اصلاح الخلل وتطهير الفاسد،

١ يكن: لفظة تركية معناها ابن الاخت. ٢ القاهرة الحرة انشأها عارف المارديني سنة ١٨٨٥. ٣ النيل: انشأها حسن حسني باشا الطويراني سنة ١٨٩١.

فاحفظت كتاباته الباب العالي ، فمنع جريدته من دخول ولاياته ، فضاقت كسبه ، فاضطر الى حجبها . ولكنه لم يهجر الصحافة بل شرع يكتب في 'المشير' والمقطم والقانون الاساسي .

وكان عبد الحميد يجهد في استرضاء الاحرار واسكاتهم ، فيدعوهم اليه ، ويعدهم بالاصلاح القريب ونشر الدستور ، ويخصهم بالخطط العالية . فدعي ولي الدين في جملتهم ، فشحخص الى الاستانة سنة ١٨٩٨ ، فجعل عضواً في مجلس ادارة الجرك ، ثم في مجلس المعارف الاعلى . الا انه كان على خصام متصل مع رجال الدولة لما يرى من فساد اعمالهم ، وكذبهم واحتياهم ، وصلف النافذين منهم . فخفي ناظر المعارف ، ومدير اوراقها ، واهان رئيس كتآب عبد الحميد ، ونعته « بالباشكاتب الكاذب » . وطعن عليه في بعض الصحف الاجنبية . وشتم ابا لحة^٢ حاجب عبد الحميد ، وكتب في الصحف المصرية مندداً بأبي الهدى صفى السلطان ، وانفذ الناس لديه . فاحاطت بمنزله الجواسيس ، وكثرت فيه الاقوال والوشايات ، واتهمه ابو الهدى بالاشتراك في جمعية سرية . وسعت به دار الامارة في مصر ، ففتش منزله ، وصودرت اوراقه ، وفيها ما لا يروق عبد الحميد . فاسودت صحيفته عند السلطان ، بل ازدادت اسوداداً . فبينما هو ذاهب يستدعي طبيباً لامرأته النفساء عرض له شرطي في بعض الطريق ، واراد سوقه كرهاً الى المتصرف ، فضربه ولي الدين ، وما زال يضربه حتى انتهيا الى دار المتصرفية . فلامه المتصرف على عمله ، واسمعه خشن الكلام . فلطمه ولي الدين والقاه على الارض ، فصدرت الارادة السنية بحبسه ، فحبس ، ثم بنفيه فنفي .

وكان منفاً في سيواس من اعمال الاناضول ، فحملته السفينة الى صَمْسُون ، ومنها

-
- ١ انشأها سليم سر كيس اللبناني في الاسكندرية سنة ١٨٩٤ ، وخصها بالطن على الحكومة المستبدة ، ومطالبها بالاصلاح . ثم نقلها الى القاهرة سنة ١٨٩٥ . ثم الى نيويورك سنة ١٨٩٩ بعدما لقي من حكومة مصر حبساً وارهاقاً ، وحكم عليه في بيروت بالموت غيائياً .
 - ٢ جريدة سياسية انشأها صالح جمال في القاهرة سنة ١٨٩٨ . وكانت تظهر بالتركية والعربية ، ويكتب فيها مع ولي الدين الكاتب التركي محمد قدرى .
 - ٣ محمد باشا الجركسي ، ويكنى بأبي لحة .

أقلته عربة تقطع به الاودية والجبال في الوحول والثلوج حتى بلغت سيواس يوم الجمعة في ١٤ شباط سنة ١٩٠٢، فدخلها، واهله لا يعلمون عنه شيئاً. فكتب اليهم فوافوه. وكان من عادة الحكومة الحميدية ان تشغل كبار المنفيين بالمناصب، فعين ولي الدين حال وصوله معاوناً لمدير اوراق الولاية، وجعل راتبه خمس عشرة ليرة عثمانية. واتفق ان ولي امر سيواس رشيد عاكف باشا، من المصلحين الاحرار، فلقني كاتبنا حظوة عنده. وكان يجد من عطف السيواسيين، ومصاحبة الاجانب فرنسيين واميركيين، وقراءة القصص، ونظم الاشعار ما يرفه عنه وحشة المنفى حتى اعلن الدستور سنة ١٩٠٨ فغني عنه فرجع الى الاستانة، ومنها الى مصر.

وعاد يكتب في المقطم والاهرام والمؤيد والرائد المصري^١ والزهور^٢. ونشر كتبه: خواطر نيازي، والصحائف السود، والمعلوم والمجهول. ثم انشأ جريدة الاقدام في الاسكندرية سنة ١٩١٢. ثم عينته حكومة مصر كاتباً في وزارة العدلية، فبقي في منصبه هذا الى اواخر سنة ١٩١٤. فلما ولي العرش السلطان حسين كامل دعاه اليه وجعله كاتباً في ديوانه، فنعم ولي الدين في قربه، وخصه باحسن مداخله. على ان الدهر ما بسم له الا ليعبس في وجهه، وما صفاه الا ليكدّر عيشه فلم يلبث ان استطال عليه الربو يتتابه بين ساعة وساعة، ويقطع انفاسه. وتمكن منه داء الصدر^٣ فأذا به عضواً فعضواً. فترك منصبه في القاهرة سنة ١٩١٩، وجاء حلوان مستشفياً، فتوفي فيها وهو على اشد ما يكون من ألم وفاقة، بعد ان رزى بشاني ولده، غلام في الخامسة عشرة من عمره، وبامه وشقيقته. وكان آخر ما نظمته بيتان وجدا بجانب السرير وهما:

يا جسداً قد ذاب حتى أمحى، إلا قليلاً عالقاً بالشقاء
اعانك الله بصبرٍ على ما ستعاني من قليل البقاء

١ انشأها نقولا شحاده اللبناني في القاهرة سنة ١٨٩٦. ٢ مجلة سياسية ادبية انشأها في القاهرة الشيخ انطون الجُمَيْل، والشيخ امين نقي الدين اللبنانيان سنة ١٩١٠. ٣ روى لنا ابراهيم سليم النجار ان ولي الدين مات مسلولاً. وانجار صحافي لبناني من دير القمر، انشأ في القاهرة جريدة الكلمة الحرة سنة ١٩١٠. وكتب في جرائد عديدة في مصر ولبنان وسورية.

ونقل جثائه الى القاهرة ، ودفن في مقبرة الاسرة اليكنية ، في قراصة الإمام
عمر بن الفارض . و اقيمت له حفلة الاربعين ، فلم يشهد بها الا بعض اصدقائه ، واكثرهم
لبنانيون . وتحلف عنها سواد الادباء المصريين ، فكانهم ينقمون عليه سياسته
الاحتلالية ، وشذوذهم عن تقاليدهم وعاداتهم ، فانتقموا منه بعد مماته ، واهملوه حتى
ان توارى عنهم الادبية لم تذكره في عداد كتّاب النهضة وصحافيينها .

صفاته واخلاقه

كان نحيل الجسم ، عصبي المزاج على قوة ، جريئاً مقداماً ، جلدأً على المصائب ،
أنفأً على غير تكبر ، بل كان يكره المتكبرين ويحتقرهم ، ولا يتنكب عن اذلالهم .
وكان صريحاً من غير تحفظ ، صادقاً لا يعرف الخداع والكذب ، ولا يطيق
مصاحبة المخادعين ، والكاذبين . ولطالما لقي الاذى بسبب صراحته وصدقته .

وكان حسن المودة ، محمود المخالقة ، مرهف العاطفة ، دقيق الحس ، متنبه اللحظ ،
سريع التأثر ، خفيف الروح ، لطيف النكتة ، حلو التهكم .

وكان كريماً لا يبخل بما تملك يده ، راغباً عن المال والرتب والالقاب . وقد
سنحت له فرص كان بوسعها ان يغتنمها وينال مراتب آبائه واعمامه ، الا انه اعرض
عنها وأفاتها في سبيل عقيدته الحرة ، ورأيه في الاصلاح . فحق له ان يقول :

تركت الغنى لا عاجزاً عن طلابه ، وأنزلت نفسي من منازل محتدي

وهذي بحمد الله ، مني براءة فيا أفق سجلها ، ويا أنجم شهدي !

وكان يكره التعصب الديني ، وينابذ اصحابه ، وينفر من التقاليد ، ويتعمد
اطراحها . فقد تزوج امرأة مسيحية يونانية ، فخرق بها تقاليد اسرته الارستقراطية ،
وسمى ابنه جان وابنته فيكتوريا ، فخرق بهما التقاليد الاسلامية . وثار على اساليب
الاقدمين في الشائه ، فخرق تقاليد المحافظين . وكان الى ذلك لا يصوم ولا يقيم
الصلوة في اوقاتها .

وكان عثمانياً صادقاً الا انه لا يجد فرقاً بين عربي وتريكي ، وبين مسيحي ومسلم .

أثره

ترك ولي الدين اثراً في الشعر والنثر . فاما الشعر فلم يُعن بجمعه في حياته ،

فجميعه بعد موته اخوه يوسف حمدي يكن، ونشره سنة ١٩٢٤ ، مقسوماً الى سبعة اقسام : الشعر السياسي ، الرثاء والغزاء ، التهنئة والمديح ، الدهريات ، الهجاء ، الغراميات ، المتنوعات . وقدّم له الشيخ انطون الجميل كلمة في حياة ولي الدين ، وشاعريته ، وحرية .

واما النثر فله خواطر نيازي ، او صحيفة من تاريخ الانقلاب العثماني ، ترجمه عن التركية ، ونشره سنة ١٩٠٩ . مؤلفه محمد نيازي بك الرسنه لي بطل الحرية والانقلاب ، ذكر فيه ما قامت به جمعية الاتحاد والترقي على يده ، من الاعمال لسحق الاستبداد .

وله الصحائف السود ، مجموعة مقالات اجتماعية نشرت في المقطم ، بعضها باسم زهير مستعاراً ، وبعضها باسمه الحقيقي . طبعت سنة ١٩١٠ ، انتقد فيها بعض العادات والخرافات والاخلاق ، وبعض ما يقع في المجتمع من الحوادث الغريبة ، والفظائع المستنكرة . فيها كثير من القصص ، ومنها ما استهله بابيات من الشعر ، وربما بلغت القصائد الطوال .

وله المعلوم والمجهول في جزئين انتهى طبع ثانيهما سنة ١٩١١ . احدهما يبحث في حالة الحكومة العثمانية ، وسياسة الاستانة ومصر ، وقيام الاحرار على عبد الحميد وانسلاك المؤلف في صفوفهم بعد أن كان يعاديه ، وسفره الى الاستانة ، وما مر به في مجلس ادارة الجرك ، ومجلس المعارف الاعلى ، وما جرى له مع رجال الدولة من خصام وملاحظات . يتخلل ذلك تعريف برجال عبد الحميد ، وحزب تركية الفتاة ، والسياسة الانكليزية في مصر . والثاني : يبحث في السبب الذي من اجله حبس ونفي . وفيه وصف سجنه ، ووصف سفره الى منفاه ، وذكر سيواس واهلها وتاريخها وآثارها وما لقي فيها .

وله التجارب : الباث اجتماعية انتقادية في كتاب صغير ، نشره فؤاد مغيب سنة ١٩١٣ . وهو كالصحائف السود مقالات ظهرت في الجرائد قبل ان تجمع ، بعضها مصدر بشعر . وفيها قصائد مستقلة .

وله ، ما خلا ذلك ، مؤلفات ضاعت ولم تعرف ، وفصول وأشعار مبثوثة في الصحف والمجلات .

حيدر

ولي الدين شاعر ، وافر الخيال ، قوي الاحساس ، متقد العاطفة . وله شعر وجداني جميل يستحق ان يدرس . الا اننا اخذنا على انفسنا ان نبحت في آثاره النثرية ، التي تتجلى بها حياته العجيبة ، وميزته الصحافية ، واسلوبه الشخصي ، معتمدين على المعلوم والمجهول ، والصحائف السود ، والتجاريب .

السياسة

شغف ولي الدين بالسياسة منذ صباه يوم علق يكتب في الصحف . وكان مذهبه في بدء امره عثمانياً حكومياً . لا يحجم عن نقد الانكليز مع حبه لهم ، لانهم كانوا يمحون الاحرار اللاجئين الى مصر ، ويعترف بذلك في المعلوم والمجهول :

« واما النيل فقد تغير في اواخر ايامه ، وظهر تغيره للعيان ، وما غيره صاحبه بل غيرته انا . على انه لم ينتقد السياسة البريطانية ذاتها بل استكبر حمايتها للاحرار العثمانيين ، من هبطوا مصر ليستمتعوا بحريتها ، ويحتشدوا بها على حرب الحكومة المستبدة المنقرضة . فكنت انا وصاحب النيل رحمة الله عليه ، نذكر على الاحرار مساعيهم ، ونأبى مشاركتهم فيها . » ١ هـ .

فلما رحل الى الاستانة للمرة الاولى ، وشاهد ما تصنع الحكومة الظالمة ، عاد الى مصر ناقماً عليها ، فانضم الى الاحرار ، ودفع الى المقطم اول مقالة تائرة على الاستبداد عنوانها : « نرجع الى الجواسيس » قال في آخرها :

« هذا قلم أرأى القوس ، صائب الرمية . فلا جريئه حتى لا تبقى من دار الظلم كينة على كينة ، وبياض على سواد . ولا سيرون قوارعه شزباً في كل قائم الأعماق ، شاسع الاطراف الى ان يقول نصير الحمية : لبك ، ونستريح واخواننا كما نحن فيه . » ١ هـ .

١ التأكيد بالذات مولدة ، وانما يؤكد بالنفس والعين . ٢ كتبها في ٢٢ كانون الاول سنة ١٨٩٧ .

واحتضنته الحكومة البريطانية كما احتضنت غيره من الاحرار، فازداد لها حباً، واصبح لا يذكرها الا بكل خير، ولا يذكر عميدها اللورد كرومر الا اشاد بفضله، ونعته احسن النعوت، ودعاه مصلح مصر، واما المصريين المشفق، قال في المعلوم والمجهول :

« ولا أظن ان رجلاً يُشفق على بنيه اشفاق اللورد كرومر على المصريين . فهو ابو حريتهم ومصدر انصافهم، ومورد سعدهم الا انه كان يخدم من لا يحبونه . » ١٨٥٠ .
ويحدثنا في مقدمة الجزء الثاني من كتابه هذا عن تأثير ثنائه على اللورد كرومر، في نفوس المصريين :

« نظر اناس في الجزء الاول من المعلوم والمجهول، فرأوا صورة اللورد كرومر وقد كتبت تحتها « مصلح مصر . » فألقوا بالكتاب جانباً واطبقوا جفونهم ، وولّوا عنه هارين . راعهم شخص ذلك الرجل الجليل على الورق، فاخذتهم سورتهم، ولم تقوَ عيونهم على النظر في وجهه، فكيف بهم لو قتلوا بين يديه ورنّ صوته في آذانهم . وقد زعموا بعد ذلك اني صنّعة الرجل، والرجل لا علم له بكتاتي الى يومنا هذا . وهال بعض الجرائد ما في الكتاب، فامسكت عن الكلام فيه . لم تشأ تقريظه ثقةً منها بان ستستشها الصحف التي تشتم اللورد كرومر، ولم ترد نقده علماً منها بان سأحجها اذا دعت الى التزال، وتراضينا في هذه القضية على السكوت .

« يا حرية ، ظننت بان سيكثر المتنافسون فيك فخفت ان ينفسوا عليّ ، واذا هم يدعونك ولا يعرفونك ، فلن اخاف منذ اليوم رقيماً . انا عرفتك وهمت بك هيأماً فانا صاحبك من قبل ومن بعد . يريدون ان اكتب ما يريدون واريد ان اكتب ما اريد . اتسعت مسافة الخلف بيني وبينهم . الشرق وطني وانا في الشرق غريب ، ولا ضير ، ان اعرض عن مقالي اهل زماني فعدا يتهافت عليه ابناؤهم . » ١٨٥٠ .

وكان لا يتلصكاً عن تنقص زعماء المصريين الذين يثبون في صدور الشعب روح مقاومة الاحتلال، شأنه مع مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني :

« ثم ظهر مصطفى كامل ، وراح ينتصر بالمسيو دلونكل احد اعضاء مجلس الامة الفرنسي، وناظر المستعمرات في فرنسا في اواخر سنة ١٨٩٤ تقريباً . وكان هذا الوزير ووزير الخارجية اذ ذاك، المسيو هانوتو، من اضداد الاستعمار الانكليزي .

ولم تكن فرنسا اقتنعت بنصيبها من البلاد المغربية بدل البلاد المصرية . فرحب
الوزيران بالشاب المصري ، واستخدماه في آرائهما . فكان لهما اشد من البنان طوعاً ،
واكبر من الظل انقياداً . فخلق مصطفى كامل من العدم . « ١ هـ .

فولي الدين يرى ضرورة الاحتلال الانكليزي ولا يتوقع خيراً لمصر الا في
بقائه . ومحسبك ان تقرأ الفصل الذي كتبه في الصحائف السود ، وعنوانه : « المحتلون
يخرجون من مصر . » لتبين كيف يخشى الشر عليها اذا تركها الانكليز ، فانها في
ظنه آيلة الى الفوضى والتقهقر وفساد الاحكام . وما لاريب فيه ان سياسته الاحتلالية
هي التي جعلت سواد المصريين يعرضون عنه ، ويبخسونه حقه بعد مماته .

وجملة القول ان ولي الدين عثماني صادق الوطنية ، يريد لبلاده الحرية والمساواة
والاخاء ، ويكره العبودية والتفضيل والتفريق ، لا فضل عنده لتركبي على عربي ، ولا
لمسلم على نصراني ، وانما هم اخوة متساوون تجمعهم العثمانية في جامعتها الكبرى .
وافضلهم في نظر الحقيقة اخلصهم ولاء وخدمة الموطن .

ومصر ليست للمصريين كما يقول زعماءها الوطنيون وانما هي للعثمانيين . قال في
كلامه على عبدالله نديم : « وانما احدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين . وهو
من قدماء من يقولون : « مصر للمصريين » ونحن نقول : « مصر للعثمانيين » . ١ هـ .
الا انه كان يؤثر لها الاحتلال الانكليزي ، كما ذكرنا ، مع بقاءها ولاية عثمانية .
فقد كان يعلم ضعف حكومة الاستانة ، وقصر يدها عن ضبط ولاياتها القاصية .
فلا يجد خيراً في خروج الانكليز من مصر بعد ان اصلحوا شؤونها ، ونهضوا بها ،
وبسطوا الأمن في ارجائها . بل كان يشفق عليها من الرجوع الى سابق جهلها ونحوها
اذا ترح عنها المحتلون .

وضعف حكومة الاستانة ولاسيما في عهد الحرية ، كان يؤلم صاحبنا فهو يريد لها
القوة والسلطان ، فلم يحجم عن نقدها ، لانها لم تحسن اقامة احكام الدستور ، ولم
تستطع حفظ ولاياتها . فأخذت منها ادرنة ، واخذت منها طرابلس الغرب . ولولا
امل باسم في ظلال الحرية ، يحدوه الى تنظر المستقبل السعيد ، لئلا يأس من الحكومة
الجديدة كما ناله يأس من حكومة عبد الحميد .

هذا هو ولي الدين في سياسته الحرة الجريئة ، على تشعب منازعها ، في صدق

عقيدته، وإخلاصه لما يرتئيه خطأً كان أو صواباً، سواء من الناحية العثمانية أو من الناحية المصرية . تلك السياسة التي لقي من أجلها الاضطهاد والحبس والنفي، والكره والاعراض، في حياته وفي مماته .

الاجتماع

كان ولي الدين مغرماً باصلاح البلاد العثمانية سياسياً واجتماعياً . فكما جاهد سياسة الظلم والارهاق، ونافح عن الحرية والدستور، فكذلك كان شأنه في منازلة التعصب الديني، والخرافات والعادات العالقة بالدين . يحمل على جماعة المتعصبين الذين يستخدمون الدين لمنافعهم، ويستخرون الناس لمآربهم . فيتهكم بهم، ويقسو عليهم، ويبين الاضرار التي ينتجها تعصبهم، وتسلطهم على النفوس الساذجة الجاهلة . ويصور خداعهم للناس، وتظاهروهم بما هم ليس فيه . ولك امثلة على ذلك في « ليلة القدر » و « اكدوبة رمضان » من كتابه الصحائف السود . قال في اكدوبة رمضان :

« في البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدية تسجن المفطر الى ان يأتي اليوم الثالث من عيد الفطر . وكان اكثر المفطرين يدعون الصوم، ويحسنون تقليد الصائمين حتى لقد بلغ امر الكذب ان يضرب المفطر في بيته من يدخن بجانبه سيكارتته . وقد خرجت بها ذات يوم في رمضان وراء امر عرض اريد قضاءه . فلما ركبت الترامواي رأيت جماعة من الاجانب على رؤوسهم القبعات وبافواهم سيكاراتهم . والناس ينظرون اليهم شزراً، ولا يقدر احد منهم ان يخاطب اولئك الاجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكاراتي معي . فنسيت ان اليوم من ايام رمضان . فاخرجت سيكارة جعلتها في في، واقت انتظر ان يدّ اليّ احد الجالسين شيئاً اشعلها به . فشت في عيون الركب، وجعل بعضهم يغمز بعضاً مشيراً اليّ بلحظه فقطنت لموضع خطائي . وقلت ادوايه لكم ايها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكاني بغتة كمن تذكر شيئاً نسيه وقلت : « لعن الله الشيطان، كدت والله ادخن سيكاراتي، وانقض صومي » ونظرت الى رجل جالس على عيني وقلت مؤنباً له : « كذا يا اخي تراني أهم بما يفسد علي صومي، ولا تنبهني

الى ما كاد يفرط مني عن غير عمد . وانت تعلم ان الدين يقضي علينا بالنصح لمن سها، ولا يُعرض الا عن تولى . « فابتسمت الثغور، وسُرِّي عن القوم » .
وقال في ليلة القدر :

« وكان رجل لا يُرزق ذرية فقال : « اللهم املأ بيتي صغاراً ! » فانتبه في الغد على صياح ملاً بيته حتى ان ظنَّ الحيطان تتصايح . فاذا هو بنحو الخمسين صبياً لا يزيد طول واحدٍ على الشبر ، يجاذبون امرأته، ويتواثبون حول سريره . هذا يقول : « اي ا » وذلك يصيح : « امي ا » وكلما حاول مع امرأته الهرب حالوا بينهما وبين الباب . فرأت المرأة ان تأتيمهم بشي . من اللبن في وعاء كبير لتقسمه بينهم . فوثب بعضهم في الوعاء فغرق فيه، فعلا بكاء الآخرين . فلما ضاقت الحيل بالرجل وامراته ، رميا بانفسهما من كوة تطل على الطريق ، وارسلا ساقيهما للريح فرارا . لما كنت صغيراً كنت اجلس الى بعض الشيوخ فيقصون علي هذه النوادر ، وانا اكاد اموت ضحكاً . ولقد قلت ذات يوم لرجل منهم : « تعالى الله عما تقولون . ايكون الحكيم العادل، يعلم ما تخفي الصدور ثم يفهم الدعاء كما يفهمه عبد الحميد ! » فضحك الرجل حتى سال لعابه . « ا ه .

وكان من انصار المرأة، يريد تعليمها، ورفع حجابها، واعطاءها الحرية في اختيار زوجها . لا يرى في الحجاب فرضاً من فروض الدين ، كما يقول اصحاب الرأي القديم، ويرى في عبودية المرأة وخمولها ما يقوض ركن المجتمع، ويهدم صرح السعادة الزوجية . وله في الصحائف السود فصل عنوانه « المرأة » جاء فيه :

« واما التي قتلها الحجاب فقد تزوجها رجل من اهل أدنه شديد الغيرة . دخلت بيته ليلة زُفت اليه، ولم تخرج منه ابداً، حتى اذا مرضت، وثقل عليها المرض، واشتد الالم دعا زوجها طبيباً، واخذ يصف له ما تشكوه . فقال انا لا اداوي على السماع ، ولا بدَّ من رؤية المريضة وفحص موضع العلة . فأبى الزوج الاي ذلك . وما مضت ايام قلائل الا وقد أزروها في اكفانها ، وشيعوها الى منزلها الابدي ، من ضريح الى ضريح . « ا ه .

وكان على نشأته النبيلة اقرب الناس الى الشعب، وابعدهم عن الارستقراطية في انانيتها ، واستثارها، وتكبرها . يجارب اصحاب المناصب والالقب ، والمتكبرين

وحديثي النعمة . ويدّم الجرائد التي ترداف الى ذوي السلطان بالنعوت الضخمة ،
والادعية الفارغة . ويدافع عن العمال والمضعوفين . ويتألم من الجهل المستحكم في
العامة حتى جعلها مطية ذلولاً لاصحاب النعوت والمراتب ، يسوقونها في طريق
منافعهم ويصورون لها الشر خيراً ، والنقمة نعمة ، وطاعة الامر المستبد فرضاً ،
والتعصب الاعمى شريعة . وهي لجهلها تنقاد اليهم ، وتصدق ما يزعمون . قال في
المعلوم والمجهول :

« وجرائدنا التركية لم تدّم كثيراً اذ لم يكن في مصر والبلاد الخارجية أناس
كثيرون يقرأون اللغة التركية ، والذين يقرأونها او يفهمونها من الاتراك الذين
استوطنوا مصر من الازمان السالفة لا يهملهم من السلطان الا كونه سلطاناً . وهم
يعتقدون ان لاحق للأمة في مشاركة الملوك في اعمالهم . وان الرعية عبيد الملوك
أمرؤا بالطاعة لهم ، وان ظلموا ، والشكر ، وان أساءوا . يتحدثون بذلك في
مجامعهم ، وبايديهم السبح وامامهم النارجيلات (الشيشات) يتصونها حتى تستطلع
حبابها . يؤتى لهم بالشاي منقوعاً . وبين ايديهم جماعات من المشايخ منهم المدعون
لعلوم الكيمياء القديمة . ومنهم اولياء الله الناطقون بالغيب (بالسرياني) . ومنهم
المتصوفون من اتباع الرفاعي والكيلاني ومحبي الدين العربي والبكطاشي والمولوي .
ومنهم ائمة الشرع ، ورواة الاحاديث والمفسرون . كل هؤلاء يكفرون الاحرار ،
ويدعون لعبد الحميد ، ويمدون انامل اكلت اطرافها حبات السبح يجرون بها دراهم
أعوانهم عدداً ، بطلاً وجشعاً ولوماً . كانوا يؤثرون حب عبد الحميد على حب العادل
الحميد .

فمن من هؤلاء القداماء الصلحاء الاتقياء يشك في صدق الحاج السيد الشيخ زيد
مثلاً ، وهو لابس عمامة كأنها كيوان^١ . وفي يده عصا كأنها عمود الصبح^٢ . وعليه
جبة خضراء كأنها ملءة الربيع . وفي رجله خفان اصفران كأنهما سفيتتان من
النحاس الاصفر . وفي عنقه سبحة هي اطول من ألفية ابن مالك . ثم يصدق ما
جاء به سليم سركلنس ، وهو رجل مسيحي ما قرأ على شيخ . او يؤمن بما يقول به

١ كيوان : زحل . ٢ عمود الصبح : ضوءه .

غيره من احرار الترك والعرب ، وهم متعلمون في اوربا او البلاد العثمانية على معلمين اتوا بهم من اوربا . والمسلمون من اخواننا المصريين كانوا ولا يزال اكثرهم متمسكين بتلك الاراء القديمة . . . كل هذه المصائب كانت عوائق دون نجاح المجاهدين من الاحرار . « ا ه .

وهكذا فولي الدين لم يكن يفرغ من معالجة الاحوال السياسية ، ومناوأة الظلام والمستبدين ، الا لينصرف الى مكافحة الآفات الاجتماعية من جهل وتعصب وخرافات ، وآراء فاسدة قديمة . لان الحرية السياسية لا يقوم لها قائم الا اذا تحررت عقول الامة من الجهل والتعصب والاستسلام والحوول . ولذلك عزا تأخر نجاح الاحرار الى هذه الآفات .

وكما ربح سخط عبد الحميد واعوانه في حملاته السياسية، فكذلك ربح سخط الطبقة الارستقراطية في انتقاداته الاجتماعية . فتجهمه واعرض عنه النبلاء والشيوخ، وذوو المراتب والالقب . وانسحب على اذياهم العامة في جهلهم وعبودية ارادتهم . فالى الاولين يقول : « يريدون ان اكتب ما يريدون ، واريد ان اكتب ما اريد . » والى الآخرين : « انا اكتب وهم لا يفهمون . » واليههم جميعاً : « ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فغداً يتهافت عليه ابناؤهم . »

التاريخ

لولي الدين صفة اخرى في آثاره غير صفة الكاتب السياسي، والمصلح الاجتماعي، هي صفة المؤرخ الامين الذي ينقل الحوادث بعد ان يعلمها ويدقق فيها ، ويفصل اسبابها، ومسبباتها . فكتابه « المعلوم والمجهول » تاريخ جليل من وجهته العامة والخاصة . فيه صورة جلية عن السياسة الحميدية واعمال الوشاة والجواسيس . ودهاء الرجال النافذين كأبي الهدى وعزة العابد . ومذابح النصارى ، واستبداد الولاة والحكام بهم . وقيام الاحرار يطالبون بالاصلاح، ومطاردة السلطان لهم، والتجأؤهم الى مصر محتمين بالانكليز . وعطف الخديوي عليهم بعد ان جفاه الخليفة والى مصاهرته بايعاز من ابي الهدى . ثم تعيره عليهم بعد ان توسط عزرة العابد في التصافي بين التابع والمتبوع .

ويتخلل ذلك كلام على الصحافة المصرية ، ومنازعتها المختلفة ، وحريتها في عهد اللورد كرومر ، واشتغال ولي الدين بها ، ومقاومته للاحرار في بدء امره ، ثم انسلاركه في صفوفهم . وسفره الى الاستانة ، وتوليته المناصب العالية ، وما ناله من رجال السلطان ووشاته وجواسيسه . وكيف ضرب الشرطي والمتصرف ، وسجن ونفي .

ولا يغفل عن وصف الاماكن التي مر بها في طريقه الى منفاه ، شأن المؤرخ الدقيق ، الى ان يصل الى سيواس فيحدثك عن تاريخها وجغرافيتها وآثارها ، وولاتها ، واشرافها ، ورجال الدين فيها ، وحالة سكانها ومبلغ حضارتهم . ويجدتك عما لقي فيها من الالم والعناء ، وما اصاب من كرم اهلها ، ولطف الاجانب فيها . وغير ذلك مما يتعلق به حيناً ، ويخرج عنه آخر . ويربط جميع هذه الاجزاء ربطاً بديعاً محكم التنسيق ، ويعرضها عرضاً قوياً ، بعيداً عن جفاف التاريخ ، قريباً من روعة القصة . ولا نخطئ الهدف اذا قلنا ان المعلوم والمجهول تاريخ في قالب قصة ، وقصة في شكل مقالات صحافية . ففيه من التاريخ ، استقصاء الحوادث وتعليقها ، والبحث في مقدماتها ونتائجها ، ودقة تحديد السنين والشهور ، واهتمام بذكر احوال الناس واخلاقهم ، وحضارة بلادهم ، وعلومهم وآدابهم ، وغير ذلك مما يعنى به المؤرخ العصري . وفيه من القصة ، طرافة الاخبار ، وجمال العرض والتعبير ، وبراعة الوصف ، ودقة النظر ، وقوة الاحساس ، وصدق اللون المحلي . وفيه من النقد اللاذع ، والتصوير السخري ، والتحزب السياسي ، والاندفاع العاطفي ، ما يخرج به عن صدد التاريخ والقصة ، ويدنيه من المشاغبات الصحافية .

وعلى الجملة فالمعلوم والمجهول مجموعة نفيسة ، تضم سياسة عبد الحميد واعوانه ، في اواخر القرن التاسع عشر ، وتنطوي على صفحة مجيدة من حياة ولي الدين .

الاسلوب الانشائي

لم يكن ولي الدين من اصحاب الترسل الانيق ، صياغة اللفظ ، وصاغة الكلام . وانما كان كاتباً حلو الأداء ، لطيف التهكم ، اليم النقد ، بين الصراحة ، عجيب الجرأة ، صادق العقيدة ، ناطق بالحجة ، بارع التصوير ، رائع التشبيه . وهو الى ذلك ، قوي الشخصية ، فريد الاسلوب ، بريء من التقليد .

وطبيعي ان ينفرد بأسلوب طريف، ذاك الذي نبذ التقاليد في السياسة والاجتماع
وثار على كل رأي فاسد قديم، وتألّت نفسه من الناس، وتألّت لآلام الناس . فتبدو
غرابته في تفكيره وتعبيره، وفي وصفه وتصويره . ويأتي انشاؤه مثلاً لتلك الشخصية
الشاذة المستقلة، وصورة لنفسه المتألّمة، في إبانها وحنانها .

يكتب ولي الدين فتتوالب جملة متقطعة لا تكاد تتصل ، كأنها قطع من
انفاسه ، وتتدافع الفاظه هاجئة كأنها امواج صدره تطفو عليها ظلال النبل والشقاء
والتهكم، فتصبغها بصبغة نفسه . ويسمو انشاؤه مرة ولاسيا في تهديداته، وانتقالاته،
واوصافه ، وينحدر اخرى، ولاسيا في احاديثه واخباره ، لا يستقر من الاضطراب
كأن فيه شبهاً من حياته . وهو على حالتي القوة والضعف يحتفظ بشخصيته وجدته
وحلاوته . فما يتبين فيه الضعف قوله :

« وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر ديسمبر الكائن في سنة ١٩٠١ جاء
امرأتي المخاض . وما قاربت الشمس الا وضعت بنتاً سميتها فيكتوريا . » ا هـ .
ومثال القوة حين يهد بين يدي الموضوع :

« انما يعرف الصديق الوفي عند اشتداد الكرب، وتوالي الحوادث . اما ادعاء
الود والعيش في خفضه ، والحال في استقرار فذلك يتساوى فيه صادق وكاذب .
وفي كرام الاعادي من يشفق على عدوه، اذا فُلت مرّته ، ومال ركنه . والله ايام
الشدايد ، تُعلم من حيث تستبكي، وتهب الموعظة من حيث توجع . » ا هـ .
ثم حين ينتقل من الخبر الى الانشاء :

« بين نوحات النائحات، وبكاء الثالكات ، سكوت يأتي به الاعياء ، وتقطع
الانفاس . ذلك من الفواصل التي ينوب فيها القلب عن العين ، فتسكت الظواهر،
وتبكي السرائر . » ا هـ .

ثم حين يصف :

« فخرجنا من توقاد على عادتنا مبكرين ، والطير في وكناتها ، فجعلنا نتسمّم
الهضاب ، لا يتخلل صعودنا انبساط ولا انحدار . حتى رفع لنا شامخ ذو هضبات ،

ا فُلت مرّته : اي ضعفت قوته .

متصل الذرى بالسحاب ، تعالته تلال من الثلج كالقطن المندف . أشم^١ ، صعب المرتقى يقصر دونه الجهد ، وتنحل^٢ في ترقية العزائم . تتظالع^٣ فوقه الجياد والعربات كأنها تسبح في سحاب جامد . « ١ هـ .

واذا وصف ، صور واجاد التصوير والتلوين :

« في ليلة من ليالي الشتاء ، سكنت تحتها الاشياء ، وتحركت الضمائر ، سوداء الجلباب ، بيضاء الصقيع ، طرقتوا باب المظلوم . « ١ هـ .

واجمل ما في صورته تشابهه الغريبة التي تدل على دقة نظر ، وتنبه للاشياء ، وبراعة في تحوير الالفاظ المساعدة . يتخذها اما للسخر والتشويه ، واما للافصاح عما في نفسه من تأثر والم ، فيشارك فيها الخيال والشعور :

« تبادلنا سلامين كمن يحشو التراب على رأسه . « ١ هـ .

« وصاحبنا الكتاب داخل علينا يقود رجلاً كالجمل ، على رأسه عمامة^٤ كالهودج . « ١ هـ .

« وما راعني الاجنود من البق ، تدب الي من كل ناحية . بق^٥ غنذي انواع الدماء حتى اتسع وانبسط ، وعادت كل واحدة منه كطابع البريد ، تتبختر على الوسادة تبخر الفقيه في الجنازة . « ١ هـ .

« زارني قومسيير المركز فقال : « سلام ! » قلت : « سلام ! » فافتقر ثغره عن تبسامة^٦ كأنها تبسامة الحدث لميت جديد . « ١ هـ .

« وأتتها قصائد الصوفية مطولة باردة ، مظلمة كليا لي الشتاء . «

وله الاشارات اللطيفة الموجزة :

« فتلطف في التسليم ، وجلس الى جانبي مرحباً ومسلماً . فلما فرغنا من مطارحة الاكاذيب^٧ . « ١ هـ .

« ثم مضى شهران ، وفي اول الثالث زفت المجهولة الى المجهول . «

وانشاؤه على الاجمال موجز ، عصبي النبرات ، ولاسيا في المواقف العاطفية ، ويمتاز اوصافه بما فيها من الخيال الشعري الجميل .

١ كذا في الاصل والمراد ابتسامة . ٢ الشخص الذي يسلم عليه لا يعرفه . وانما اراد هنا اظهار المجاملات الشرقية (الفارغة) عند التسليم .

كان ولي الدين شهاباً من شهب الحرية في ليالي الاستبداد، تألق نوره على غفلة من الدهر، فانبسط، وما كاد حتى تحطفته الاحداث، فتجلد لها بحجم كالسيف في مضائه ونحوه. وما زال يدفعها، وتلقاه حتى اذابت آخر ذرة من شعاعه، فغار مشرقها في المغرب تاركة وراءها أثراً رائعاً كذلك الاثر الذي تغادره الشمس بعد الغروب.

كان صحافياً في زمن العبودية، زمن كثر فيه المداهنون والمتملقون، فلم يعرف المداينة والتملق. بل صارح الظلم بالعداء، وجاهر بما لا يروق اصحابه، ودافع عن عقيدته الحرة انبل دفاع، فكان عنوان الجرأة والصدق، يقول كلمته لا يخشى فيها عقاباً، ولا يرجو بها ثواباً.

وكان مصلحاً في زمن التوت اخلاق مجتمعه، وطغت عليه الخرافات، فلم يحجم عن مكافحتها، غير مبالٍ ما يلقي دونها من ازورار وايداء.

وكان مجدداً في عهد غلب عليه التقليد، فثار على سنن المحافظين، يقول ويكتب كما يريد لا كما يريدون. مستقل الرأي بين الشخصية لا يُصدر الا عن عقيدة واخلاص.

وحسبه ان يكون للنهضة صحايفها الجري، وسياسيها الصادق، ومصلحها الحر، وكتبتها المجدد. ولئن اعرض عنه ابناء قومه في مصر حياً وميتاً، فإن في البلاد العربية لقوماً يذكرون ولي الدين.

القصص

مضى لنا كلام على نشأة القصة عند العرب ، ومنزلتها الادبية ، وكيف انه لم تأتنا عنهم قصص راقية الفن ، وانما جاءنا حكايات ، ومقامات ، واحاديث^١ . ثم كان عصر الانحطاط ، فانشدت القصة انحداراً مشؤوماً ، وآلت لغتها الى العامية ، او ما يشبه العامية . واصبحت عبارة عن تعداد حوادث خارقة يشترك فيها الانس والجن ، ولا تصور في اكثر وجوهاها الحياة الطبيعية التي يحياها الانسان .

على انه ما انتشرت الثقافة الغربية في القرن الفائت ، واطلع الكتاب على القصص الاعجمية حتى اكبوا على نقلها . وكان اللبنانيون اسبق من غيرهم الى محاولة هذا الفن لتقدم ثقافتهم . فترجموا قصصاً عديدة عن الفرنسية والانكليزية وسواهما من لغات الغرب . واشهر مترجميهم سليم البستاني ، ونجيب طراد^٢ ، ونقولا رزق الله^٣ ، وطانيوس عبده^٤ ، ونقولا الحداد^٥ .

وانشأوا المجالات القصصية ، كمجلة « الراوي »^٦ لطانيوس عبده . ومجلة « الروايات الجديدة » لنقولا رزق الله^٧ . ولم يقتصروا على النقل بل حاولوا الوضع . وكانت سوق القصص التاريخية ، المتعددة الحوادث راجحة يومذاك في اوربة ، فنسجوا على منوالها يستمدون موضوعاتهم من تاريخ الشرق . فألف سليم البستاني طائفة منها نشرها في « الجنان » مثل « زنوبيا » و « بدور » وجاء بعده جرجي زيدان^٨ فواصل الهلال بسلسلة طويلة بناها على تاريخ العرب والاسلام : « كعدراء قريش » .

١ ادباء العرب الجزء الثاني ص ٤٣١ . ٢ ولد في بيروت سنة ١٨٥٩ وتوفي بها سنة ١٩١١ . ٣ ولد في بيروت سنة ١٨٦٩ . ورحل الى القاهرة وانشأ فيها مجلة الروايات الجديدة . وتوفي بها سنة ١٩١٥ . ٤ شاعر كاتب عاش في مصر يشتغل بالصحافة وينشئ مجلة الراوي القصصية . ثم عاد بعد الحرب الى بيروت ، وظل يحترف الصحافة حتى توفي سنة ١٩٢٦ . ٥ كاتب اديب رحل الى مصر ولا يزال فيها . ٦ انشأها في بيروت سنة ١٩٠٩ . ٧ انشأها في القاهرة سنة ١٩١٠ . ٨ ولد جرجي زيدان في بيروت سنة ١٨٦١ . درس في الكلية الاميركية وسافر الى مصر ، واشتغل بالصحافة . وصادر مجلة الهلال . ووضع تأليف جملة في التاريخ ، والقصص ، واللغة والعلوم . توفي في مصر سنة ١٩١٤ .

و « غادة كربلاء » . و « فتاة غسان » . و « العباسة اخت الرشيد » . و « المملوك الشارد » . الا ان هذه القصص اجمالاً غلبت فيها الصبغة التاريخية على الاستنباط والفن . وحاولوا ايضاً وضع القصص العصرية التي تصور حياة المجتمع ، ونواحي اخلاقه ، وما يحدث عنها من فضائل و رذائل . فوضع سليم البستاني : « بنت العصر » و « اسماء » ، و « الهيام في جنان الشام » . وكذلك فعل نقولا الخداد ، في « آدم الجديد » و « حواء الجديدة » و « اسرار مصر » و « الصديق المجهول » . وهذا النوع غلبت عليه المواعظ ، والدروس الخلقية ، والاستنتاجات المنطقية ، والاراء الفلسفية .

ثم عرض المصريون لهذا الفن فكتبوا فيه . وشاع بعد الحرب الكونية شيوعاً عاماً فشمّل مصر ولبنان وسورية والعراق والمهاجرين . وانشئت له المجلات الخاصة ، تعنى بالترجمة والوضع . غير ان الكتاب آثروا في تأليفهم ، القصة القصيرة ، يحاولون بها غالباً تصوير حياتهم ، او حياة الاقليم الذي يعيشون فيه . وتظهر هذه العناية خصوصاً عند كتّاب لبنان ومصر . اما القصص الطويلة فلم يخرجوا منها الا تزرأ يسيراً لا يكاد يذكر ، فلذلك ترجى نهضة الاقصوصة قبل نهضة القصة .

الثقيل

لم يترك العرب في الدولة العباسية علماً من العلوم اليونانية الا نقلوه واطلعوا عليه ، واشتغلوا به . ما خلا الادب فانهم استغنوا بما لديهم ، فلم تصل اليهم ملاحم اليونان ولا قصصهم التمثيلية . ولو قدر لها الوصول لما كان الحكم الاسلامي يومذاك ، وهو فردي مصطبغ بالدين ، يعمل لاهياء التمثيل شأن الكنيسة المسيحية في القرون المتوسطة . لان التمثيل عندهم تروير اعطاء الرجال .

ويدل تاريخ هذا الفن على أنه ينتشر غالباً في الحكومة الديموقراطية ، لما فيه من تصوير ونقد للاخلاق والاعمال . واذا ظهر في حكومة الفرد اقتصر على البلاط و ارادة صاحب البلاط . وهيئات ظهوره ، وانتشاره ان لم يكن له حافز من صاحب النهي والامر .

فلما تقدمت الثقافة العربية في منتصف القرن الحالي، والتمعت النهضة في لبنان، تصدى اللبنانيون لهذا الفن، واتحفوا به الادب العربي . وكان اول من عني به منهم مارون النقاش^١ فمثل رواية « البخيل » سنة ١٨٤٨ . فكانت فاتحة المسرح العربي ، وحضرها قناصل الدول، وكتبت عنها بعض الصحف الاوربية .
وغما حب هذا الفن في صدور اللبنانيين فاقبلوا عليه ينهضونه ، وحفلت به مدارسهم^٢ . وحملوه الى مصر .

وكان اسماعيل قد بنى الاوبرة سنة ١٨٦٩ ، واستقدم اليها فرقة فرنسية تمثل فيها . فلم تشهد مصر التمثيل العربي الا بعد ان هبطها سليم النقاش^٣ واديب اسحق ومعهما فرقة لبنانية، فمثلت في الاسكندرية سنة ١٨٧٦ .

وكان في جملة الفرقة رجل يقال له يوسف الحياط، فاستقل بها ، وشخص الى القاهرة، ومثل في الاوبرة رواية « المظلوم » . وكان اسماعيل حاضراً، فظنها تعريضاً به . فتقدم باخراج الحياط وفرقة من مصر . ولكنها ما خرجت الا لتضطلع بالعب . بعدها فرقة سورية من دمشق على رأسها ابو خليل احمد القباني^٤ . فكان لها اثر حسن في احياء التمثيل العربي بوادي النيل . ثم توالى الفرق اللبنانية والسورية، على مصر ، الى ان انشأ اسكندر فرح فرقة في نحو سنة ١٩٠٤ ، وضم اليها المغني الشيخ سلامة حجازي، فاقبل عليها الناس دون غيرها، لحسن غناء الشيخ، وجمال صوته .
على ان الفن التمثيلي لم يتقدم الا في عهد عباس الثاني ، بعد ان بعث احد

١ ولد في صيدا سنة ١٨١٧ ، وتعلم في بيروت ، فاحسن العربية والتركية والفرنسية والاطالية . وبرع في الموسيقى . وكان تاجراً يرحل الى اوبرة . فشاهد التمثيل في ايطالية . فعاد الى بيروت وانشأ رواية البخيل، محتذياً فيها حذو موليار، والف فرقة تمثيلية ومثلها في بيته . ثم انشأ داراً للتمثيل . وتابع تأليف الروايات . ومن قصصه المشهورة ابو الحسن المغفل . مات في طرطوس سنة ١٨٥٥ . ٢ كانت الكلية اليسوعية اسبق المدارس الى هذا الفن . بدأت بتمثيل الروايات العربية منذ سنة ١٨٨٢ . راجع الاداب العربية في القرن التاسع عشر للاب شيخو . ج ٢ . ص ٧٠ . ٣ هو ابن اخي مارون النقاش ، اخذ فن التمثيل عن عمه . ٤ القباني اول من احيا التمثيل في سورية ، فقد انشأ في دمشق مسرحاً، والف فرقة، وبدأ يمثل رواياته من سنة ١٢٨٢ هـ . (١٨٦٥ م) راجع خطط الشام لكردي علي ج ٢ . ص ١٢٣ .

اللبنانيين جورج ابيض الى فرنسة ليتعلم اصول التمثيل . فعاد الى القاهرة ، والف فرقة حسنة تعهدها بالثقيف ، فكانت نهضة هذا الفن على يده . وخطا المسرح المصري خطوة محمودة ، وتقدم جميع المسارح العربية ، ولا يزال .

وكانت المرأة المسالمة لا تشترك في التمثيل رعاية للتقليد . الا انها ما لبثت ان سايرت الزمن في تطوره ، فاصبح من المسلمات ، ولاسيا المصريات ، ممثلات بارعات . وبينما المسرح المصري يخطو الى الامام بقدم ثابتة تدفعه الحكومة ، وتمشي به الفرق العديدة ، وعلى رأسها رجال درسوا اصول الفن في اوروبا ، كفرقة محمد تيمور ، وفرقة يوسف وهبي ، كان المسرح اللبناني ، والمسرح السوري ، يرجعان القهقري لتضائل الفرق التمثيلية فيهما وتقاعد الحكومات عن مناصرتها . ولولا الفرق المصرية التي تفد الى لبنان وسورية لما شهدت ملاعبهما تمثيلاً راقياً ، مع ان لهما فضل المتقدم في احياء هذا الفن .

والكتاب اللبنانيون هم الذين اغنوا المسرح العربي ، بما ترجموا ووضعوا من الروايات في صدر النهضة كما رون النقاش ، وسليم البستاني ، وسليم النقاش ، وأديب اسحق ، ونجيب الحداد ، ونجيب حبيقة وسواهم . وانه ، وان لم تبلغ رواياتهم على الجملة ، درجة الفن الراقي في الادب والتمثيل ، لقد كانت غذاء صالحاً لحياة المسرح العربي ، في اول نشأته .

ومما يؤسف له ان التأليف المسرحي لا يزال الى يومنا هذا ضعيف الفن ، ضئيل الاثر ، سواء فيه الموضوع والمنقول ، والمقتبس ، فما تقع على رواية راقية الا في الندرى . ولعل مصر ، ومسرحها ارقى المسارح العربية ، لا تتقاعس عن اصلاح هذا الخلل بتنشيط الكتاب الى رفع الادب والفن في القصص التمثيلي .

علوم اللغة

كان المشتغلون باللغة معظمهم لبنانيون لمضاء عزيمتهم ، وحاجة مدارسهم الى الكتب الحديثة التي توافق اذواق الطلاب وروح عصرهم . فقام فيهم من يشرح ويحشي بحث المطالب للسيد جرمانوس فرحات ، لحسن تبويبه ، وسهولة الاخذ عنه ، وملاءمته للبيئة الاجتماعية . فكان من شرابه المعلم بطرس البستاني ، والشيخ عبد الله البستاني ، والخوري نعمة الله باخوس^١ ، والشيخ سعيد الشرتوني^٢ . ووضع الشيخ ناصيف اليازجي كتبه المشهورة كارجوزته وشرحها في النحو : «نار القرى في شرح جوف الفرا» وارجوزته وشرحها في الصرف : «الجمانة في شرح الخزانة» . وله «مجمع البحرين» ستون مقامة في اللغة وقواعدها ونكاتها . و«عقد الجمان في المعاني والبيان» . و«اللامعة في شرح الجامعة» . وارجوزة مشروحة في العروض . و«قطب الصناعة في اصول المنطق» . فاغنى المدارس ، وافادها اجل فائدة . وجاء بعده رشيد الشرتوني^٣ وسعيد الشرتوني ، وجبر ضومط^٤ وسواهم . فالفوا كتباً كثيرة في الصرف والنحو والبيان ، متسلسلة وغير متسلسلة . وسبق اللبنانيون الى تأليف المعاجم الحديثة ، والبحث في اصول اللغة وفلسفتها . فوضع المعلم بطرس البستاني معجمه «محيط المحيط» في مجلدين كبيرين ، رتبه على اعتبار الحرف الاول من الثلاثي المجرد ، وجمع فيه طائفة حسنة من المصطلحات العلمية والفنية ، والالفاظ العامية المفسرة . وجعل له مختصراً في مجلدين سماه قطر المحيط . وحذا حذوه الشيخ سعيد الشرتوني في معجمه «اقرب الموارد» ثلاثة مجلدات كبيرة ، ثالثهما ذيل استدرك فيه ما فات في الاولين .

١ كان استاذاً في مدرسة الحكمة ، توفي سنة ١٩٢٩ م ، وكان قد اسن وشاخ .
 ٢ كان استاذاً في الكلية اليسوعية بيروت ، توفي سنة ١٩١٢ عن ٦٣ سنة . ٣ رشيد الشرتوني توفي سنة ١٩٠٦ . علم في الكلية اليسوعية ، وكتب في البشير . من آثاره المبادئ العربية في الصرف والنحو . سلسلة مطردة الصعود بحسب الصفوف . ٤ توفي جبر ضومط سنة ١٩٣٠ . من آثاره فك (التقليد في الصرف . والخواطر العراب في النحو والاعراب . والخواطر الحسان في المعاني والبيان .

وَأَلَّفَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ فَارَسُ الشَّدِياقُ^١ كِتَابَهُ «الْجَاسُوسُ عَلَى الْقَامُوسِ» انْتَقَدَ فِيهِ الْقَامُوسُ الْحَيْطُ لِلْفَيْرُوزِ أَبَادِي . وَالشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ الْيَازْجِي «نَجْمَةُ الرَّائِدِ فِي الْمُرَادِفِ وَالْمُتَوَارِدِ» . وَالشَّيْخُ عَبْدِ اللَّهِ الْبُسْتَانِي مَعْجَمَهُ «الْبُسْتَانُ» فِي مَجْلَدَيْنِ كَبِيرَيْنِ ، وَجَعَلَ لَهُ مُحْتَصِراً فِي مَجْلَدٍ وَاحِدٍ سَمَاهُ «فَاكْهَةُ الْبُسْتَانِ» . وَوَضَعْتَ مَعَاجِمَ مَدْرَسِيَّةٍ صَغِيرَةٍ «كَالْمَنْجَدِ» لِلْأَبِ لُؤَيْسٍ مَعْلُوفٍ الْيَسُوعِي ، وَ«الْمُعْتَمِدِ» لْجُرْجِيِّ عَطِيَّةٍ .

وَوَضَعَ أَحْمَدُ فَارَسُ الشَّدِياقُ كِتَابَ : «سِرُّ اللَّيَالِ فِي الْقَلْبِ وَالْإِبْدَالِ» بِحَثِّ تَحْلِيلِي فِي اللُّغَةِ ذَكَرَ فِيهِ الْأَفْعَالَ وَالْأَسْمَاءَ الَّتِي كَثُرَ تَدَاوُلُهَا . وَرَتَّبَهَا بِحَسَبِ التَّلَفُّظِ بِهَا ، لِيُوضَحَ تَنَاسُبُهَا وَتَجَانُّسُهَا . وَصَنَفَ جُرْجِي زَيْدَانُ كِتَابَ «الْفَلَسَفَةُ اللَّغَوِيَّةُ» فِي أَصْلِ اللُّغَةِ وَنَشْئِهَا .

أَمَّا سَائِرُ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَكَانَتْ تَعْتَمِدُ فِي الْغَايِبِ عَلَى الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ الْمَطُولَةِ ، وَرَبَّمَا عَنِ بَعْضِهِمْ بِتَحْشِيَّتِهَا وَشَرْحِهَا كَالشَّيْخِ مُحَمَّدِ الدَّسُوقِيِّ الْمَصْرِيِّ^٢ . وَلَهُ «حَاشِيَةُ الدَّسُوقِيِّ عَلَى مَغْنِيِّ اللَّيْبِ»^٣ فِي النُّحُو . وَ«حَاشِيَةُ الدَّسُوقِيِّ عَلَى التَّفْتَازَانِيِّ» فِي الْمَعَانِي وَالْيَيَانِ . أَلَا أَنَّ الْكُتُبَ الْعَصْرِيَّةَ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ شَمَلَتْ مَعْظَمَ الْأَمْصَارِ وَلَا سِيَّامَا بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ . وَتَوَفَّرَ عَلَى تَصْنِيفِهَا الْأَدَبَاءُ الْمُسْلِمُونَ ، فِي مِصْرَ وَسُورِيَّةَ وَالْعِرَاقِ ، أَسَوةً بِالْأَدَبَاءِ الْمَسِيحِيِّينَ .

١ أَحْمَدُ فَارَسُ الشَّدِياقُ ، عَالِمُ لُغَوِيٍّ كَبِيرٌ ، وَكَاتِبٌ مُتَفَنٌّ مَبْتَكِرٌ وَلَدَ فِي عَشَقُوتَ مِنْ لُبْنَانَ سَنَةِ ١٨٠٦ م . وَكَانَ مَسِيحِيًّا مَارُونِيًّا اسْمُهُ فَارَسُ تَعَلَّمَ فِي مَدْرَسَةِ عَيْنِ وَرَقَةِ . ثُمَّ اتَّصَلَ بِالْمَرْسَلِينَ الْأَمِيرِيِّينَ وَاتَّحَلَ الْمَذْهَبَ الْبَرُوتَسْتَانِي . ثُمَّ اتَّصَلَ بِأَحْمَدَ بَاشَا بَلَايَ تُونُسَ وَاتَّحَلَ الْإِسْلَامَ ، وَتَسَمَّى «بِأَحْمَدِ» . وَطُوفَ فِي الْخَاءِ أَوْرُبَةَ وَلَا سِيَّامَا فَرَنْسَةَ وَأَنْكَلَتْرَةَ . ثُمَّ شَخَّصَ إِلَى الْأَسْتَانَةِ ، وَأَنْشَأَ جَرِيدَتَهُ الْجَوَائِبَ . وَلَهُ مَوْلاَفَاتٌ جَلِيلَةٌ مِنْهَا لُغَوِيَّةٌ ، وَمِنْهَا رَحَلَاتٌ وَصَفٌ بِهَا أَسْفَارُهُ وَأَحْوَالُ الْبُلْدَانِ ، كَالْوِاسِطَةِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ مَالِطَةِ . وَكَشَفَ الْمَخْبِئَةَ عَنْ فَنُونِ أَوْرَبَا . وَالسَّاقَ عَلَى السَّاقِ فِيمَا هُوَ الْفَارِيَاقُ . وَالْفَارِيَاقُ لَفْظَةٌ لُحْتَمَتْهَا مِنْ فَارَسِ الشَّدِياقِ . وَهَذَا الْكِتَابُ فِيهِ لُغَةٌ وَأَسْفَارٌ ، وَذَكَرَ أَحْوَالَ الْمُؤَلِّفِ ، وَانْتِقَادَ لِلْقَيْسِيَّينَ . وَفِيهِ مَجُونٌ كَثِيرٌ . وَكَانَتْ وَفَاةُ الشَّدِياقِ فِي الْأَسْتَانَةِ سَنَةِ ١٨٨٧ م . وَنَقَلَ رَفَاتُهُ إِلَى لُبْنَانَ وَدُفِنَ بِالْحَاذِمِيَّةِ قَرِبَ بِيْرُوتَ . ٢ تُوُفِيَ سَنَةِ ١٢٣٠ هـ . (١٨١٥ م) . ٣ مَغْنِيُّ اللَّيْبِ عَنْ كُتُبِ الْأَعْرَابِ لِابْنِ هِشَامٍ .

العلوم الشرعية

تبدلت العلوم الشرعية في النهضة تبدلاً محسوساً، ودخل عليها انظمة جديدة اقتضتها المدنية العصرية . وكان بدء هذا التطور منذ سنة ١٨٥٦ حين شرعت حكومة بني عثمان في إنشاء المحاكم النظامية ، فسنت لها القوانين الحديثة على مثال القوانين الاوربية . الا انها استئثت القانون المدني ، فاستخرجت احكامه من الشرع في كتاب « المجلة » مراعية فيه روح العصر .

وعمت هذه الانظمة جميع الولايات العثمانية الامصر فان قضاءها استقل من عهد اسماعيل ، ووضعت له القوانين الخاصة ، مأخوذة في الغالب من القوانين الفرنسية . وكذلك لبنان تبدلت فيه النظم العثمانية بعد الحرب ، ووضعت له قوانين جديدة استخرجت من ارقى الانظمة الاوربية .

وكان من اثر انشاء المحاكم النظامية ظهور فن المحاماة ، وانشاء مدارس الحقوق ، وانتشار المجالات القضائية . ونبع جماعة من رجال القانون نذكر منهم اشهر من اتصلت بنا آثارهم : كقصري باشا^١ ، وامين الشميل^٢ وعمر لطفي^٣ ، وفتحي زغول^٤ في مصر . والشيخ يوسف الاسير^٥ ، وسليم باز^٦ ومخائيل عيد البستاني^٧ في لبنان . ومحمود حمزة الحسيني^٨ في سورية .

١ مصري تقلب في مناصب الحكومة، توفي سنة ١٣٠٣ هـ . (١٨٨٥ م) . من آثاره ترجمة قانون الجنابات عن الفرنسية ، وكتاب الاحكام الشرعية في الاحوال الشخصية . وقانون العدل والانصاف على مشكلات الاوقاف . ٢ لبناني جاء مصر واصدر فيها مجلة الحقوق سنة ١٨٨٦ . وهي اول مجلة قضائية . توفي سنة ١٨٩٧ . من آثاره الدرة الجليسة في المباحث القضائية . و ترجمة نظام الحكومة الانكليزية . ٣ مصري شغل مناصب الحكومة، ووكالة مدرسة الحقوق . توفي سنة ١٩١٢ . ترك آثاراً في العربية والفرنسية . فن آثاره العربية : الامتيازات الاجنبية . والوجيز في شرح القانون الجنائي . ٤ ولد بمصر سنة ١٨٦٣ م . وترقى في مناصب الحكومة الى وكالة نظارة العدلية . وتوفي سنة ١٩١٤ م . اشهر آثاره : شرح القانون المدني . وكتاب المحاماة . ٥ ولد في صيداء سنة ١٢٣٠ هـ . (١٨١٥ م) . ودرس في الازهر ، وعلم في مدرسة الحكمة ببيروت . وتقلب في مناصب الشرع والافتاء . من آثاره كتاب الفرائض . ٦ لبناني من دير القمر ولد في بيروت

العلوم الدخيلة

نشأت الحركة العلمية في مصر قبل غيرها من الاقطار العربية ، واتسعت دائرتها في زمن قصير . ويعود الفضل في ذلك الى مساعي محمد علي ، وايفاده البعثات الى اوروبا ، وانشائه المدارس العديدة ، بينها مدرسة اللسن والترجمة . ثم ازدادت هذه الحركة اتساعاً في زمن اسماعيل ، فلم تقتصر على الترجمة ، بل شملت التأليف . فصار الذين تثقفوا في اوروبا او مصر يكتفون احياناً بالاقتباس اذا حاولوا الكتابة في علم من العلوم . فظهر في العربية كتب كثيرة بين مترجم وموضوع ، تبحث في شتى العلوم والفنون ، كالطب والطبيعي والرياضيات ، والتاريخ والجغرافية ، والقوانين القضائية ، والفنون العسكرية ، والاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع .

واشتهر من الذين ترجموا وألفوا في هذه العلوم جماعة ، منهم رفاعة بك الطهطاوي^١ واحمد حسن الرشيدي^٢ ، ومحمود باشا الفلكي^٣ وسواهم .

سنة ١٨٥٩ . وتلقى علومه في مدرستي غزير وعين ورقة . تولى كثيراً من المناصب الرفيعة في العدلية كالادعاء العام في لبنان ، وعضوية مجلس الشوري في الستانة . آثاره كثيرة اشهرها شرح المجلة ، وشرح قانون المحاكمات الحقوقية ، وشرح قانون المحاكمات الجزائية ، وترجمة قانون الجزاء عن التركية وشرحه . توفي في الحدث ، ودفن بدير القمر سنة ١٩٢٠ م .
٧ هو خال صاحب هذا الكتاب ، ولد في دير القمر من لبنان سنة ١٨٦٨ م . وتعلم في مدرسة الحكمة . ورغب في الفقه فانصرف الى دراسته حتى نبغ فيه . تولى المناصب العالية في القضاء اللبناني كمستشارية محكمة التمييز ، ورئاسة محكمة الجناح الاستئنافية ، والادعاء العام الاستئنافية ، ورئاسة استئناف محكمة الحقوق . اشهر آثاره مرجع الطلاب في الفقه ، وترجمة قانون رسم التبعة عن التركية . توفي ودفن بدير القمر سنة ١٩٣٤ . ٨ فقيه من علماء دمشق ، تولى في سورية (لبنابات الشرعية) ، ومنصب الافتاء . آثاره كثيرة اشهرها (فتاوى المحمودية او الحمزاوية في مجلدين . توفي سنة ١٣٠٥ هـ . (١٨٨٧ م) .

١ منسوب الى طهطا في مصر . ولد سنة ١٨٠١ م . وكان من رجال البعثة الاولى التي اوفدها محمد علي الى فرنسة ، فتعلم الفرنسية ، ومارس الترجمة حتى برع فيها . وله كتب كثيرة مترجمة ومؤلفة تبحث في شتى العلوم . توفي سنة ١٨٧٣ م . ٢ هو من رجال البعثة الاولى في عهد محمد علي ، طبيب مؤلف ومترجم كتباً عديدة . توفي سنة ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) . ٣ درس في اوروبا العلوم الرياضية زمن اسماعيل ، وترك فيها كثيراً من الآثار . توفي سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٣ هـ) .

ولبثت مصر منفردة في الاشتغال بالعلوم حتى نهض رجال البعثات الاميركية في لبنان ، وانشأوا مدارسهم ، وجعلوا العربية لغة العلوم فنقلوا اليها كتباً كثيرة في الطب والطبيعات والرياضيات . الا انهم عدلوا عنها بعد حين الى الانكليزية ، فسكنت تلك الحركة المباركة . واعظم من خدم العربية منهم بمؤلفاته العديدة الدكتور فانديك ' ثم الدكتور بوسط ' .

الكتب الجامعة

لم يعرف صدر الانبعث من الكتب الجامعة الا دائرة المعارف^٢ للبستاني ، اول موسوعة عربية ، اضطلع بعينها الافراد ، مع ان هذا العمل الجبار لا يقوم به الا الجماعات . والدائرة تشتمل على كل فن ومطلب من تاريخ وآداب وعلوم . مرتبة على اوائل الحروف . اصدر منها المعلم بطرس البستاني ستة اجزاء ، عاونه فيها ابنه سليم . وكان قد اعد بعض السابغ فادر كته الوفاة ، فآتمه سليم واتبعه بالثامن . ثم توفي سليم ، فواصل العمل اخواه ونسيبهما سليمان ، فاخرجوا التاسع والعاشر والحادي عشر . وهذا ينتهي بكلمة « عثمانية » ثم انقطع العمل .

وتعني اليوم مصر بنشر دائرة المعارف الاسلامية ، منقولة عن الانكليزية ، مكتوبة الجاشا باقلام كبار المستشرقين . وربما علق بعض ادياء المسلمين على هذه الابحاث .

١ الدكتور كرنيليوس فانديك ، هولاندي الاصل اميركي النشأة ، ولد سنة ١٨١٨ ، وجاء بيروت سنة ١٨٤٠ ، فتعرف بالمعلم بطرس البستاني ، فاضطحبا وسكنا معاً . وتعلم العربي واقننه . ثم انشأ مدرسته في قرية عبيه . وألّف الكتب العلمية بالعربية ، لتدريس الجبر والهندسة والطبيعات والجغرافية . ولما انشئت الكلية في بيروت ، جعل استاذاً للكيمياء والفلك ، فاخذ يؤلف فيها ، ويعلم تلاميذه ، فترك اثراً جليلاً تشهد بعلمه وفضله . توفي سنة ١٨٩٥ م . ٢ قدم لبنان سنة ١٨٦٣ ، واتقن العربية ، ثم عين استاذاً في الكلية الطبية . فألف كتباً كثيرة في الطب والتاريخ الطبيعي ، وسواها . توفي سنة ١٩٠٩ م . ٣ دائرة المعارف : لفظة اختارها المعلم بطرس ترجمة لمعنى « انسيكلوبيديا » . ٤ موسوعة : لفظة اختارها الشيخ ابراهيم اليازجي لدائرة المعارف .

التاريخ والرحلات

كان التاريخ في بدء النهضة ساذجاً خالياً من الفن شأن التواريخ العربية القديمة . وكانت لغته اقرب الى العامة منها الى الفصحى ، ولنا امثلة على ذلك تاريخ الجبرتي^١ . وتاريخ نابوليون وتاريخ الجزائر لنقولا الترك . وتاريخ الامير حيدر^٢ . واخبار الايمان في تاريخ لبنان لطنوس الشدياق^٣ . وترجم كثير من التواريخ في عهد محمد علي ، نقلها رجال البعثات العلمية بعد رجوعهم من اوربة ، كالتططاوي واصحابه . وكان من فوائد اتصال الشرق وسائر الدول العربية بالغرب ، واستقلال مصر ، ان تتابعت اسفار الكتّاب الى البلاد الاوربية والمصرية وغيرها ، فاصطبغ التاريخ بالوان الرواية العيانية ، فكتبت عدة رحلات منها رحلات شهاب الدين الالوسي^٤ وابراهيم النجار^٥ ، ومحمد بيرم التونسي^٦ ، وفرانسيس المارش^٧ ، واحمد فارس الشدياق .

١ هو عبد الرحمن الجبرتي المصري ، عاصر حملة نابوليون ، وشرطاً كبيراً من ولاية محمد علي ، ودون في تاريخه اهم الحوادث التي مرت به . واسمه عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، اربعة مجلدات . توفي الجبرتي سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) . ٢ الامير حيدر احمد الشهابي ، وتاريخه هذا يتدأ بظهور الاسلام ، وينتهي بمحاربة عبدالله باشا والامير بشير الكبير لدرويش باشا . وكانت وفاته سنة ١٨٣٥ م . ٣ ولد طنوس الشدياق في الحدث قرب بيروت ، ودرس في عين ورقة ، وعين قاضياً على نصارى لبنان . توفي سنة ١٨٣٥ هـ . وتاريخه هذا يبحث في جغرافية لبنان وانساب اعيانه ، واخبار ولاته . ٤ هو محمود شهاب الدين الالوسي ، ولد في بغداد سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) . وجها توفي سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٤ م) . رحل الى الاستانة وسواها ، وكتب اخبار اسفاره في عدة مصنفات ، منها « رحلة الشمول » في الذهاب الى اسلامبول . ٥ ولد بدير القمر سنة ١٨٢٢ . ودرس الطب في قصر العيني . ثم رحل الى الاستانة ، وتعالى بها الطب مدة ، ثم عين رئيس اطباء العساكر العثمانية في بيروت . ثم رحل الى اوربة ثم عاد الى بيروت وانشأ بها المطبعة الشرقية ، ونشر رحلته ، وتاريخ آل عثمان في كتاب سماه المصباح الساري . توفي سنة ١٨٦٤ م . ٦ ولد بتونس سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) . وتوفي بمصر سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) . تولى نظارتي المطابع والاوقاف في تونس ، والقضاء في المحكمة الابتدائية بمصر . من اثاره صفوة الاخبار بمستودع الامصار ، فيه تاريخ تونس ، واخبار رحلاته الى اوربة . ٧ ولد بجلب سنة ١٨٣٦ ، ودرس الطب ، ثم رحل الى باريس ليم علمه ، وعاد منها وقد ضعف بصره . من آثاره رحلة الى بسايس وصف بها سفره . وكان ينظم الشعر ويطلب به اغراضاً جديدة . توفي سنة ١٨٧٣ .

وتقدم فن التاريخ في اواخر القرن التاسع عشر ، بتقدم الثقافة الغربية ، وتأثير المستشرقين ، فعرف طائفة من المؤرخين المحققين ، كالمطران يوسف الدبس^١ وجميل المدور^٢ ، وجرجي زيدان^٣ . واطرد تقدمه في القرن العشرين ؛ الا زمن الحرب الكونية فانه لم يصنف شي . يستحق الذكر غير تاريخ لبنان وضعه جماعة من ذوي الاختصاص ، دعاهم الى وضعه المتصرف اسماعيل حقي بك ، فجاء احسن ما كتب في هذا الباب .

ثم استأنف هذا الفن سيره بعد الحرب ، فظهرت فيه مؤلفات حسنة كتاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب دي طرازي . وخطط الشام لمحمد كرد علي ، وملوك العرب لامين الريحاني ، ويدخل هذا في باب الرحلات . وحياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل .

الادب والادباء

كان من اثر الثقافة الغربية في المشاركة ان نشط الكتاب الى الدراسات الادبية في اواخر القرن الماضي ، يجتذون على مثال نقاد الغرب ، ويطبعون في تحقيقاتهم على غرار المستشرقين . فظهرت مقدمة الياذة لسليمان البستاني سنة ١٩٠٤ م وفيها دروس تحليلية ، ومقابلات ، واستنتاجات ، فكانت فاتحة النقد الحديث . وستكلم عليها في غير هذا المكان . وتلاها تاريخ الادب العربية في القرن التاسع عشر للاب

١ هو رئيس اساقفة بيروت الماروني ، ومؤسس مدرسة الحكمة . من آثاره تاريخ سورية في ثمانية اجزاء ، وتاريخ الموارنة . توفي سنة ١٩٠٧ . ٢ اديب لبناني نشأ في بيروت ، واستوطن مصر وتوفي سنة ١٩٠٧ . اشهر آثاره حضارة الاسلام في دار السلام ، تاريخ طريف الاسلوب في الادب العربي ، كتبه بلسان رحالة فارسي قدم بغداد في عهد الرشيد فوصف احوال الدولة العباسية متناولاً السياسة والادب والاجتماع . ٣ اشهر آثاره التاريخية : تاريخ التمدن الاسلامي ، خمسة اجزاء ، وتاريخ مصر الحديث جزءان ، وتاريخ مشاهير الشرق جزءان ، وتاريخ العرب قبل الاسلام .

لويس شيخو^١ وتاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان^٢ . الا انها قصرا البدرس والتحليل على الميزات العامة في كل عصر . ولم يعرض لدرس آثار الشاعر او الكاتب ؛ فجاء عملهما من هذه الناحية ناقصاً .

واصاب الادب فتور في الحرب الكونية ، كما اصاب غيره من الفنون . ثم استأنف نشاطه بعدها ، وانتج نواحي جديدة . منها دراسة خاصة لكل كاتب او شاعر ، كجبران لمخائيل نعيمة ، وابن الرومي لعباس محمود العقاد ، وحديث الاربعاء لطه حسين ، والروائع لفؤاد افرام البستاني . ومنها دراسة شاملة لادب عصر بكامله ، كالادب الجاهلي لطه حسين ، والنثر العربي في القرن الرابع للهجرة لزي مبارك . ومنها دراسة تامة لتاريخ الادب في عصوره ، كتاريخنا هذا ، فانه اول كتاب من نوعه ، اسهب في نقد اثار الادباء وفي تحليل ميزات العصور الادبية والتاريخية . فافضت هذه الدراسات الى نهوض النقد الادبي ، وارتفاع شأنه . فتبدلت اوجه النظر في الشعر والشعراء ، والتصنيف والمصنفين . ومضى زمن كان يقال فيه لكل قصيدة عصماء ، ولكل كاتب نحرير . فهبط ادباء حالقتهم الشهرة الكاذبة ردحاً ، ولم يثبت الا اصحاب الادب المتين .

بيد ان النقد لم يسلم من النقائص ، فهو في الغالب اسير العاطفة ولاسيا مع الاحياء ، تلطفه المراعاة اذا اعترضته الصداقة ، ويعنف به التحامل اذا قاده الجفاء . ولو اقتصرت صناعته على الادباء دون غيرهم لكان الامر لان الاديب الصحيح مهما ساورته العاطفة لا تفسد عليه ذوقه ، ولا تحده عن ادبه . ولكن هناك طائفة من المتأدبين ، صادفوا من الصحف ظمأ الى المباحث الادبية لرواج سوقها واقبال المدارس في لبنان وسورية ومصر على تدريس الادب العربي . فانبروا ، قبل ان ينضج ادبهم ،

١ الاب لويس شيخو اليسوعي ، ولد بماردين سنة ١٨٥٩ . وتوفي ببيروت سنة ١٩٢٧ . كان قيم المكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف ، ومدير مجلة المشرق . نشر وألف كتباً كثيرة ، منها مدرسية ، ومنها تاريخية ، ومنها ادبية ، ومنها دينية ، ومنها جدلية . نشر كتابه الاداب العربية في القرن التاسع عشر سنة ١٩١٠ م . واتبعه سنة ١٩٣٦ بآخر عنوانه الاداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين . ٢ ظهر الجزء الاول من تاريخ اداب اللغة العربية لزيدان سنة ١٩١١ م . واتبعه اربعة اجزاء نشر الرابع منها سنة ١٩١٦ ، وهي السنة التي توفي بها .

وتستوسق لهم ملكة النقد ، يوزون الكتاب والشعراء ، ويحكمون في اقوالهم ،
احكاماً يخالطه السرف والعت ، بل اصبح كل كاتب ، وحامل قلم يرى من قام
ثقافته ، ان يجعل من نفسه ناقداً ، يبدي رأيه في الادب ، وان لم يكن صاحب نقد
يعول على آرائه . فمنهم من يذهب به القورور الى ان يتكلم على الادباء الاقدمين
وهو لا يعرف عنهم الا ما التقطه التقاطاً من الافواه . او ان يدل على الشعر باحكامه ،
وهو غريب عنه لا ينظمه ، ولا يرويه ، ولا يحسن تلاوته وتذوق موسيقاه .

ومنهم من لا يفهم من النقد غير تطبيق القواعد المدرسية ، كانها منزلة من
السماء ، فيجعل نفسه دونها آلة متحركة لا ارادة لها ، او ان يغير على اقوال الآخرين ،
فيتوسع فيها ، وينتحلها غير متأثم .

ومنهم راغب في الشهرة لا يجدها الا في مهاجمة اديب مشهور في الاحياء ، لينذكر
اسمه بجانب اسمه . او شعوي وقاح يتقص الادب العربي ، لا يجد فيه فضيلة تحمد ،
ويقدس الادب الغربي ، فيرى ادنى شاعر عجمي ارفع من شعراء العرب كلهم . وهو
لو درس ادب العرب درساً صحيحاً ، لبدل من آرائه . ولكنه جهله فعاده . والالسان
عدو لا يجمل .

ومنهم من لا يطيب له النقد الا اذا اصاب من يلتقده في عرضه ، وفمه في
اخلاقه ، وهذا نقد متهافت مذموم لا يسلم صاحبه من ارتداد الشر اليه .

فهذه النقائص في النقد اشاعت الفوضى في الادب الحديث ، وجعلته محمواً شديد
النيران ، حاراً لا يهتدي الى الطريق السوي ، شأن كل ادب جديد لا تستقر له حال
الا بعد ان تكتمل ثقافة اصحابه ، وتوفر لهم التربية الادبية الصحيحة . وهو ، لا بد ،
واصل الى هذه الغاية ، لا طراد تقدم الثقافة ، ونشاط الحياة الادبية . فهذه الحركة
المتسعة عمدة السوابق ، على ما فيها من فوضى وغليان ، لاتها سائرة سيرا حثيثاً الى
الامام ، لا تصدها الموائق ، وانما هي تتبع سنة النشوء والارتقاء .

سليم البستاني

١٨٥٦ — ١٩٢٥ م و ١٢٧٣ — ١٣٤٤ هـ

مبا

هو سليمان بن خطّاب بن سلّوم بن نادر البستاني ، وامه مريم بنت اخوري جرجس البستاني . ولد في إبكشتين ، قرية في الشوف من لبنان . فلما بلغ السابعة دخل المدرسة الوطنية في بيروت لصاحبها المعلم بطرس البستاني ، ولزمها ثماني سنوات حتى تفضل من العربية والانكليزية والفرنسية . وحقق الطبيعيات والرياضيات والتاريخ والجغرافية . وفاز بالشهادة النهائية . فاحترف التعليم ، وكتب في الجئة والجنان والجنينة ، غير منقطع عن المطالعة والتبحر في العلوم والاداب ، والتزيد من اللغات . فطارت له شهرة ، وهو في حدود العشرين ، فدعي الى البصرة لانشاء مدرسة فيها . فشنخض اليها وتولى امر المدرسة سنة ، ثم اتخذ بغداد له مقراً ، وجعل عضواً في المحكمة التجارية ، ومديراً لبواخر عمان والبصرة .

واقام في العراق ثماني سنوات ؛ رحل في خلاها الى بادية العرب ، وطوف بالمواضع التي تغني بها الشعر القديم ، واطلع على احوال البدو وعاداتهم . ووصف رحلته هذه في كتاب لم يطبع بعد .

ثم آب الى بيروت ، وسافر الى الاستانة ، ثم الى مصر ؛ ثم طرقت الهند واطراف العجم ، ثم قفل الى بغداد سنة ١٨٨٨ م فأصهر فيها الى انطون البغدادي ، ثري من الكلدان ، ومكث زهاء سنتين . ثم قصد الى الاستانة واقام بها سبع سنوات كان يتنقل في اثنائها بين الشرق والغرب . فحيناً بسورية ولبنان ، وحيناً باوربة واميركة . وعاد الى مصر سنة ١٨٩٦ ، وساهم في تصنيف الجزئين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف . ثم نشر الياذة هوميروس سنة ١٩٠٤ .

ولما نودي بالدستور سنة ١٩٠٨ رجع الى وطنه ، فاخترته بيروت مبعوثاً عنها

في المجلس العثماني ، وانتخبه المجلس رئيساً ثانياً له سنة ١٩١٠ . وانتدبته حكومة السلطان الى اوربة غير مرة في مهمات رسمية . فقابل الملوك والرؤساء ، وعظماء الدول ، وفض المشاكل السياسية الخطيرة . فجعله الخليفة محمد رشاد عضواً في مجلس الاعيان ، ثم عهد اليه في وزارة التجارة والزراعة سنة ١٩١٣ . فلما استمرت الحرب العالمية ، حاول ان يرد الحكومة عن خوض غمارها ، اشفاقاً على مصير الدولة ، فعاكسه الحزب العسكري ، فاستقال من الوزارة ، وسافر الى سويسرة سنة ١٩١٤ ، واقام بها خمس سنوات ، يخدم مصالح دولته . ثم جاء مصر واتخذها مقاماً حتى سنة ١٩٢٤ ، فاجبر الى نيويورك مستشفياً من ماء في عينيه فاحتفى به المهاجرون ، وعقدوا له حفلات لتكريم . بيد ان الطب لم ينجع فيه ، ففقد بصره ، ثم سبط عليه يد المنون ، فاخمدت ذلك النور المتألق في غرة حزيران سنة ١٩٢٥ . وحمل جثمانه الى الوطن في ٨ تموز . فكان له في نيويورك وداع فخم ، مشى به المهاجرون والاميركيون ، في مقدمتهم رجال الحكومة . واستقبلته بيروت في ٦ آب فكان له مأتم وطني ، لم تبق جمعية خيرية على اختلاف الاديان والنحل الاساهمت فيه . ومشى به رجال الحكومة ومجلس النواب ، ودار الانتداب . وعقدت حفلة التأيين مساء اليوم نفسه ، في مدرسة الاحد الاميركية . وفي الغداة نقل الجثمان الى ابكشتين مسقط رأسه ودفن بها .

صفاته و اخلاقه

عرف سليمان بشدة العزم ، ومضاء الهمة ، وحب الاسفار . وعرف بسعة الصدر ، وحسن المعاشرة على هيئة ورزانة . وعرف باخلاصه الخدمة للدولة العثمانية ، والولاء للامة العربية ، والعصبية للوطن اللبناني . فلطالما عهدت اليه حكومة السلطان في الامور الخطيرة ، فلاقت النجاح على يده . ولو وافقته على اتباع خطة الاعتزال في الحرب الكهري لما انهار عرش بني عثمان . ولطالما ساعد العرب ، ودافع عن حقوقهم في المجلسين والوزارة . ولم ينس لبنانيته في جميع اطوار حياته . فقد كان لبنان قبلته ، ومصطافه ، ومرجع حنينه . وحاولت الحكومة العثمانية حمله على ان يسعى لاقناع اللبنانيين بتوك حامية الدول الاجنبية ، والاكتفاء ببني عثمان ، على ان يكون هو حاكم الجبل ، فرد طلبها وابتى ان يساوم على وطنه .

وعرف باباء النفس ، والزهد في المال والالتقاب . فان المشاكل المالية التي فضها لم تقوَ على اغرائه فيجمع منها ثروة كما جمع سواه . وكان منصبه في الوزارة يخوله حق التمتع بالانقلاب الضخمة ، ولكنه كان يرفضها كلما عرضت عليه .

وعرف بقوة الحفظ والاستظهار ، حدث عن نفسه انه استطاع في صغره وهو في المدرسة نشيداً كاملاً ، ونصف نشيد من ملحمة ملتن في الفردوس العابر ، وقصائد ريسير من منظومة سيدة البحيرة لوتر سكوت . وحفظ الفقيه ابن مالك كلها وانشد منها مائتي بيت تباعاً في حفلة امتحان ^(١) . وقوة حافظته ساعدته على درس طائفة من اللغات .

علومه

حق سليمان ان يحمل لقب العالم كما حق له ان يحمل لقب الاديب ، فقد كان راسخ العلم بالتاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسي ، بارعاً في الطبيعى والرياضيات . وكان متسع الافاق في ادبه ، لا يقصره على العربية وحدها بل يجمع اليه معها آداب الشعوب العجمية لطول باعه في معرفة اللغات .

وقلما وجد مثله عالم باللغات ، يعرف منها ما يعرف ، ويتقن منها ما يتقن . فقد كان يحسن العربية والسريانية ، واليونانية ، والفارسية ، واللاتينية ، والانكليزية ، والفرنسية والاطيالية ، والتركية . وكان يلم بالعبرية ، والالمانية ، والروسية ، والهندية . وكثيراً ما خطب في المجلس العثماني بعدة لغات ليفهم اقواله النواب على اختلاف عناصرهم وبلادهم .

أثره

كادت حياة البستاني تتوزعها السياسة والاسفار ، فقليلاً ما كان يستقر ويفرغ للتأليف . وصرف همه الى الاعمال العظيمة التي تتطلب العناء الشديد والوقت الطويل كدائرة المعارف والايادة ، فحات دون فيض انتاجه ، فجاء ترراً بالاضافة الى توقد خاطره ، وتبحره في العلوم ، وتنقعه بمختلف الآداب . على انه ترك من الآثار الخالدة ،

ما ينطق بفضل وسعة مداركه . فله في الشعر نظم اليازية^(١) وقصائد وقطعات مختلفة أشهرها الداء والشفاء وهما قصيدة وموشحة نشرتاً معاً، قالهما في سويسرة ، ونظم الأولى في أثناء مرضه سنة ١٩١٨ فوصف آلامه وصفاً دقيقاً ، وحن الى وطنه لبنان . ونظم الثانية في شفاؤه سنة ١٩١٩ فوصف طبيعة سويسرة ، ونافسها بطبيعة لبنان ، وفيها حنين شديد الى الوطن .

وله في النثر مما طبع ، مقدمة اليازية ، وسنتكلم عليها . والجزآن العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف ، عاونه فيها نجيب ونسيب ولدا المعلم بطرس البستاني . وله

(١) ابتدأ البستاني بنظم اليازية في اواخر سنة ١٨٨٧ ، وكان يومئذ في القاهرة ، فصنع شيئاً منها ، مستنداً الى الترجمات الفرنسية والانكليزية والاطالية . ثم آثر ان ينقلها عن اصلها اليوناني ، فدرس اليونانية على راهب يسوعي حتى احكمها ، فراجع ما كان ترجمه ، ونقح ما فيه من الخلل . وكانت اليازية ترافقه في اسفاره الكثيرة ، فيستغل بها على رؤوس الجبال ، ومتون البواخر ، وقطارات سكك الحديد ، فجاءت وليدة اقطار العالم الاربعة وكثيراً ما كانت الاسفار والمشاغل تضطره الى اهمالها فيطويعها برهة ، ثم يعود اليها ، حتى انتهى من نظمها سنة ١٨٩٥ وهو يصطاف في فنار باغجه من ضواحي الاسكندرية . ثم اهتم بوضع الشرح لها ، فكان عمله شاقاً راجع من اجله كثيراً من الكتب العربية والعجمية في الشعر والادب والتاريخ . ويتضمن هذا الشرح نحو الف بيت لما تقي شاعر عربي بين جاهلي ومخضرم ، واسلامي ومولّد ، قالوا في مثل معاني اليازية او حوادثها . ويشتمل على طائفة حسنة من اساطير العرب ، وعاداتهم ، واخلاقهم وادابهم في بداوتهم وحضارتهم . وكان انتهاءه منه سنة ١٩٠٢ وطبعت اليازية وشرحها في القاهرة في ربيع سنة ١٩٠٣ ، فحمل الكتاب الى لبنان فصاف وكتب معاجمه اللغوية والتاريخية . ولما عاد الى مصر اخذ في انشاء المقدمة . ونشرت اليازية بنظومها وشرحها ومقدمتها ومعاجمها وفهارسها سنة ١٩٠٦ .

واليازية تشتمل في الترجمة على نحو احد عشر الف بيت ، وهي في الاصل اليوناني بين الستة عشر ، والسبعة عشر الف بيت . لان البحور العربية ولا سيما الكثيرة الاجزاء تستوعب ابياتها من المعاني ما لا تستوعبه الايات اليونانية . ومعلوم ان الاضطلاع بنظم القصائد الطويلة امثال اليازية لا يستقيم لصاحبه الا اذا تحرر من عبودية الوزن الواحد ، والقافية الواحدة . وهكذا صنع البستاني فانه جعل الاناشيد على طرق شتى ، فمنها ما قطعه فصائدات مختلفة . ومنها ما نظمه قصيدة واحدة دون ان يراعي القافية الواحدة . ووسع لنفسه في اتخاذ الموشحات والاراجيز والمخمسات ، وفي استنباط ضروب جديدة كالثلثي والرباعي والمثنوي ، وما اشبه . وحاول ما امكنه ان يراعي لكل ضرب مقاماً ، ولكل موضوع مجزاً . وشعر اليازية في الجملة رصين محكم النظم ، وربما ارتفع في مواطن الى اسمى درجات الجبال .

انجاث جليلة في الاجزاء الاخرى . وكتاب عبدة وذكري يبحث في الاحوال السياسية قبل الدستور العثماني وبعده . وطريقة الاختزال العربي دوّن مقتطفاً منها في الجزء التاسع من دائرة المعارف بعنوان «ستينوغرافيا» ، ثم نشرها على حدة . ومقالات في الصحف العربية والفرنجية .

وله من غير المطبوع ، تاريخ العرب . ورحلاته . وذكريات .

ميرته

لا نحاول ان نخلل في هذا البحث ، ميزة البستاني من نواحي الشعر والعلوم والسياسة ، بل نحن مقتضرون على ناحيته التاريخية الادبية في مقدمة اليايزة ، وما كان له من أثر بليغ في صناعة النقد الحديث . ولهذا آثرنا ان نبني الكلام على ميزة المقدمة ومثلتها ، لا على ميزة صاحبها ومثلته .

اغراض المقدمة

تقع المقدمة في مائتي صفحة كبيرة مضبوطة الى اشعار اليايزة ، قسمها المؤلف خمسة اقسام او اربعة فصول وخاتمة . فالاول في اسم هوميروس وقبه ، ثم في نسبه ومولده وحياته وموته ومثلته . والثاني في اليايزة وموضوعها ونظمها وتنقلها ، وفي حفاظ الشعر عند الامم عموماً وعند العرب خصوصاً . ثم في جمعها وكتابتها ، والقول في سلامتها من التحريف . ثم في المذهب الوئفي والرد عليه . ثم في سبب حياتها وخلودها . ثم في اغفال العرب نقلها الى لغتهم . والثالث في نقلها الى العربية ، وحكاية ناقلها ، والاوزان والضروب التي نظمت عليها . والرابع في اليايزة والشعر العربي ، وهو اكبر الاقسام ، تكلم فيه المؤلف على الشعر القديم واصله وسبب طموسه وعكاظ وتأثيرها ، والقرآن وفضله . ثم قابل لغة قريش بلغة اليايزة ، وكيف عاشت الاولى وماتت الثانية . وبحث في اطوار الشعر العربي ، او طبقات الشعراء في مختلف العصور ، فحلل ميزة كل طبقة منهم منذ الجاهلية الى عهد المحدثين ، واورد مختاراً من شعرهم . ثم المع الى مغامر الشعر العربي ، ومناهج المولدين في ابواب الشعر وفنونه . وذكر علوم الادب التي تلازم الشعر كالعروض والبديع والبيان . وانتهى الى

الكلام في شعر المحدثين او المتأخرين ؛ فبين جودهم وتقليد هم ، واسباب الضعف والانحطاط في شعرهم . ثم بحث في الملاحم وضروب الشعر عند الفرنجة ، وقابل ملاحم الاعاجم بملاحم العرب من الشعر الجاهلي ، وجهرة اشعار العرب . ثم نظر في جاهلية العرب وجاهلية اليونان ، ثم في ملاحم المولدين ، ثم في الحقيقة والمجاز ، وما يتصل بالمعاني الشعرية من التشبيه والكناية والاستعارة ، والبديهيات ، وما يعدو عايتها من النقل والسرقة وتوارد الخاطر . وما يطرأ من التغير ، وما يستحسن منها وما يستمجن بفعل الحضارة .

والقسم الخامس او الخاتمة ، في اللغة العربية ، واللغة اليونانية ، واتساع لغة العرب وثروتها ، وكثرة مترادفاتهما ، وتعدد المعاني للفظ الواحد ، وفائدة ذلك وضرره . واسباب ضعفها في تأدية المعاني المستحدثة ، كالتعابير العلمية ، والصناعية والسياسية . ثم في ما هو الداء والدواء ، والنهضة الحديثة ، ومستقبل اللغة والشعر .

وهذه الاقسام تشتمل في شتى اغراضها على طرق النقد الحديث ، وما يتخلله من تحليل وتعليل وفلسفة واستنتاج . وتشهد بسعة مدارك البستاني ، وتبسطه في آداب العرب واليونان . ومجسبك ان تعود الى رده على المذهب الوفلي^(١) ، ثم الى كلامه في اغفال العرب نقل الالفاة ، ثم الى بحثه في جاهلية العرب وجاهلية اليونان ، لتبين بعد غوره ، ودقة نظره ، وحسن تعليله ، وبراعة استنتاجه .

والمذهب الوفلي يريد ان يجعل الالفاة قصائد متفرقة لطائفة من الشعراء . فعرض البستاني لتفنيده محاولا ان يثبت وحدة الناظم ووحدة المنظومة ، فيدحض مزاعم المؤلف واصحابه . فاعتمد على طريقة تحليلية بارعة ، اوصلته الى الغاية التي يسمو اليها . فتحرى اولاً نعوت اشخاص الالفاة واوصافهم فاتضح له انها واحدة في جميع الاناشيد ، بحيث لا يمكن هذا الاتفاق الا لناظم واحد . ثم نظر في الاماكن الجغرافية التي ورد ذكرها في الملحمة ، فرأى ان الناظم لا يناقض نفسه بكلمة مما وصف به هذه الاماكن . ثم تتبع اجزاء الالفاة ، ودقق في ارتباطها وتناسكها ، فتبين له :

(١) وُلّف عالم الماني (١٧٥٢ - ١٨٣٤) ذهب الى انكار هومبروس زاعماً انه شخص وهمي خلقته بخيلة الشعراء ، وان الالفاة وسائر شعره قصائد متفرقة لمرءاء كثيرين ضاعت اسماؤهم .

« ان ناظم النشيد الاول انما هو ناظم النشيد الاخير . فكأنما هي مرقة يصعد بك صاحبها درجة بعد اخرى حتى تستقر في آخرها ، وانت متبين كل ما وراءك ^(١) . ثم بحث في فلسفتها وآدابها فاستنتج انها من روح شاعر واحد في اخلاسه وآداب نفسه ، فاثبت بذلك كله وحدتها ووحدة الشاعر .

وكذلك في كلامه على اغفال العرب نقل اليايزة ، فانه لم يقنع بتدوين الخبر المجرد شأن المؤرخ الساذج بل عمد الى تعليله وبيان اسبابه . فاذا هي الدين ، واغلاق فهم اليونانية على العرب ، وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي .

ثم تلك النظرة الشاملة التي جمع بها جاهلية العرب وجاهلية اليونان ، فقابل فيها المواقف التي قيل فيها الشعر الجاهلي بالمواقف التي قال فيها هوميروس اليايزة ، وعارض احوال الشعب العربي باحوال الشعب اليوناني ، وبين كيف يتشابهان في اللباس ، وطرق المعاش ، والسذاجة الفطرية وغير ذلك .

ثم تكلم على الملاحم ، وخلق الشعر العربي من قصيدة طويلة كاليايزة فقال ان العرب :

« لم يتخفوا في شعرهم الى ما وراء الطبيعة ، وكانوا مع عبادة الاصنام يميلون الى التوحيد ، وكان التسليم الاحكام العلوية من سننهم قبل الاسلام ، فلم يؤغلو في التخيلات الشعرية الى النظر في احوال الآلهة وما يترتب على ذلك من تفرع البحث الواحد الى ابحاث متعددة على ما هو شأن الأمم الآرية واذا نظرت الى حالة اليونان بما كانت عليه ، مع تلك الخشونة ، من الانتظام والدربة ، رأيت انهم كانوا ايام حروب طروادة اقرب شبيهاً بالعرب في ايام خلفاء الراشدين . ثم كانوا ايام هوميروس اي في زمن نظم اليايزة قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه الا النزر اليسير . فلم يسع ابناء الجاهلية ان يتجاوزوا بنظمهم احوال فطرتهم ، وطرق معاشهم ، فكانوا ينتقلون بالشعر من باب الى آخر انتقلهم من حي الى حي ، يجيدون في كل ما يقولون ولكنهم لا يُطيلون المقام فلا يُشيدون المنازل الفسيحة الاركان . » اهـ

اسلوبها الاتشائي

كتب البستاني مقدمته ، بأسلوب علمي ، يتلادم مع النقد الادبي ، والفقه التاريخي .
اسلوب انشاؤه رصين عار لا وشي فيه ولا صور خيالية . واذا عرض شي . من ذلك ،
فانه لا بعد من ان يأتي متكلفاً ، وانما هو يجري مع الطبع المباح في سياق تركيب
الجل . او هو من ذلك النوع الملم يهبط به الوحي المجرد فيجعل منه سجعاً او جناساً
او صورة دون ان يكون للكاتب يد متعمدة امر تنزيه .

اسلوب يسير هادئاً مترقلاً لا صوت له ولا قعقة الا رققة خفية كجرس الماء في
الجدول المستقيم المبد . اسلوب حافل بفلسفة النقد والتاريخ ، وبالادلة العقلية
والتعليلات المنطقية ، الا انه واضح كل اوضح منسجم كل الانسجام ، خال من
الغموض والالتباس ، وتداخل الجل التي تفصل ما قبلها من المعاني عما بعدها . فيه
مرونة عجيبة تجعل الالفاظ لينة الجانب تقبل ادق الابحاث واعمقها ، واعتقها بالعقل
والمنطق ، دون ان يبدو منها تصلب واشتزاز . ولما اتفقت هذه الخصائص لاصحاب
العلوم لان الطلاوة والسهولة والوضوح لا تحاف الاساليب العقلية في اللجنة . الا ان
البستاني كان يجمع الى صفته العلمية صفة ادبية فجاء اسلوبه على ما فيه من بحث
دقيق ، وعمق مدلول ، رائع الانشاء ، مختار الالفاظ ، رائق الديباجة كأنها مرآة صافية
تم بخلاء عما ينعكس عليها من صور ورسوم .

ولانشائه بلاغة في تأدية المواد دون تطويل ولا ايجاز ، كأن الالفاظ فصلت
على مقادير المعاني لا زيادة فيها ولا نقصان . وان وجد مترادفات او جل متعاقبة
على المعنى الواحد ، فقليلة نزره تكاد لا تلمح . وليست من قبيل الحشو والتطويل
وانما هي لزيادة التبليغ والتقرير . ودونك هذه القطعة على سبيل المثال ، اقتطفناها
من بحثه في جاهلية العرب وجاهلية اليونان قال :

« إن أقدم ما اتصل بنا من الشعر الجاهلي مَقُولٌ مَغْضَنُهُ في مثل المواقف
التي قال فيها هوميروس إلياذته فهناك شياطين وجنيات تائقن الشعراء فصيح الكلام
تلقين القيان لهوميروس . وفي مثل ذلك يقول الأعشى :

دَعَوْتُ حَبْلِي مُسْتَعْلَاً ، وَدَعَوْتُ لَهُ جُهَنَامَ ، جَدَعَا لِلْهَجْنِ الْمُنْدَمِ .

وَجُهَنَامُ تَابِعَةُ عَمْرِو بْنِ قُطَيْبٍ . وَاسْكُلُ مِنْ فَحُولِ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ جُنَيْةٌ أَوْ شَيْطَانٌ يَلْقَنُهُ الشُّعْرُ . وَهَذَا كَملوكٍ كَبَارٍ عَلَى قَبَائِلِ صُغَارٍ تَتَكَاثِفُ وَتَتَحَالَفُ دُفْعاً لِعَارٍ . وَاخْذَأْ لثَارَ . فَتَشُورُ حَرْبَ الْبَسُوسِ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبُ ، وَتَتَلَحَّمُ عَبَسَ وَفَزَارَةَ عَلَى اثَرِ سَبَابِ دَاحِسٍ وَالْعَبْرَاءِ . وَيَكَادُونَ يَفْتُونُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً كَمَا كَادَ يَفْنَى الطَّرَوَادُ وَالْيُونَانُ وَحُلَافَاؤُهُمْ . وَهَذَا كَ أَيَّامِ التَّصَاوُلِ وَتَتَجَاوَلُ فِيهَا قَبَائِلُ مِنْهُمْ ، فَيَشْتَهَرُ أَمْرُهَا وَيَذْبَعُ ذِكْرُهَا كَيَوْمِ السَّكَّابِ وَيَوْمِ الْجَفَّارِ وَيَوْمِ النَّسَارِ . وَيَتَغْنَى الشُّعْرَاءُ بِمُجْدِيئِهَا تَغْنِي هُوَ مِيرُوسُ يَوْمِ الْقَنَاظَةِ ، وَيَوْمِ الْإَيْتُولِ وَالسُّكُورِيَّةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَفُوقُ الْحَصَرَ . وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْأَشْخَاصِ دَهَشْتَ لِمَا يَبْدُو لَكَ مِنَ الشَّبَهَةِ فِي الْأَحْوَالِ وَالْأَقْوَالِ . مِنْ بَطْلٍ كَمُعْتَدَةٍ تَرْتَجِفُ أَصْوَتُهُ الْقَبَائِلَ الرَّجَافُهَا أَصْوَتُ أَخِيلَ ، يُغَازِظُ مِثْلَهُ فَيُعْتَدِلُ الْقِتَالَ فَيَتَكَلَّمُ الْعَدُوَّ بِقَوْمِهِ حَتَّى يَهْبَ مِنْ عَزَائِهِ فَيَفْعَلُ فَعَلَ أَخِيلَ فِي عَوْدَتِهِ . وَمِنْ خَطِيبٍ كَنَسْطُورٍ يَقِفُ وَاعْظَا مَوْقِفَ قَسِّ بْنِ سَاعِدَةَ فَيُرْشِدُ وَيُرْغَبُ وَيَرْهَبُ . وَمِنْ أَخَوَةٍ وَأَخَوَاتٍ وَزَوَاجٍ وَزَوَاجَاتٍ وَبَنِينَ وَبَنَاتٍ وَأَبَاءَ وَأُمَّهَاتٍ يَقُولُونَ وَيَفْعَلُونَ فِي جَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِ نَظِيرَ قَوْلِهِمْ وَفَعْلِهِمْ فِي جَاهِلِيَّةِ الْيُونَانِ مِمَّا سَتَرَاهُ بِالْمُقَابَلَةِ فِي تَعَالِيقِ الشَّرْحِ . وَلَوْ اتَّسَعَ لَمَّا الْقَامَ لَمَّا عَدَمْنَا سَبِيلاً إِلَى إِبْرَازِ نَظَائِرِ لِكُلِّ مَنْ رَجَالَ الْإِيَّادَةِ وَنَسَائِهَا . وَإِذَا حَوَاتِ نَظَرَكَ إِلَى الْبَاسِ وَالْوَيْشِ وَطَرَقَ الْمَاشِ رَأَيْتَ ، مَعَ سَبْقِ الْيُونَانِ فِي حَلَابَةِ الْحَفَارَةِ ، مِثْلَ كُلِّ بَاغِرَةٍ فِي حَالَةِ الْمَعِيشَةِ الْفُطْرِيَّةِ وَالسَّادِجَةِ الْخَلْقِيَّةِ وَالْحَرِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ : سَرَاةً كَأَكْسِيلٍ يَتَمَقَّبُونَ إِلَى قُرَى الْأَضْيَافِ كَحَاتِمِ الطَّائِي . وَيَبْنُونَ بِيوتَهُمْ عَلَى مَضْرَبِ السَّبِيلِ فِي قَارِعَةِ الطَّرِيقِ . وَأَمْرًا كَأَخِيلَ وَفَطْلُفُلٍ يَأْمُرُونَ وَيَنْهَوْنَ وَلَدِيهِمُ الْحُشْمَ وَالْجَوَارِي ، وَمَعَ هَذَا فِهِمْ بِيَدِهِمْ يَتُولُونَ تَوْزِيعَ الزَّادِ عَلَى الْأَضْيَافِ ، وَيَنْحَرُونَ الذَّبِيحَةَ بِمَدَاهِمَ عَلَى نَحْوِ مَا نَحَرَ الْأَمِيرُ الْكِنْدِيُّ نَاقَتَهُ لِلْعَذْرَاءِ . وَابْنَاءُ مَلُوكٍ كَوَلَدِ بَرِيَامٍ لَا تَعْمِيهِمْ مَعَ غَنَاهُمْ رَعَايَةُ الْمَوَاشِي وَتَرْبِيَةُ الْأَنْعَامِ كَمَا قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ لِمَاهَانَ الْأَرَمِيِّ : « وَأَمَّا مَاذَ كَرْتِ مِنْ فَقْرِنَا وَرَعَيْنَا الْإِبِلَ وَالشَّاءَ ، فَمَا مَنَا مِنْ لَمْ يَرَعْ ، وَكَثُرْنَا رِعَاةً وَمَنْ رَعَى مَنَا كَانَ لَهُ الْفَضْلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَرَعْ »^(١) . وَسَبَايَا تَسْرَى وَتَبَاعَ . وَأَسْرَى تَقْتُلُ وَتَقْتَدِي وَتَسْرَحُ بِأَحْسَانٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا نَهَايَةَ لَهُ . وَسَتَرَى مِنْهُ جَانِبًا غَيْرَ يَسِيرٍ مُفَصَّلًا بِالْمُقَابَلَةِ فِي مَوَاضِعِهِ . اهـ

منزلتها

كان لظهور مقدمة الإلياذة اثر قوي في الادب العربي، فانها نقلت اليه اصول النقد الحديث بما فيها من الدرس والتحليل، وتحري الاسباب، ومقابلة الاداب، والاستنتاج. وكان النقد لا يعدو حدود المعاني واثلافها مع الالفاظ، وواجه البيان والبديع، والمغالط اللغوية وتواطؤ الشعراء على الكلام، وسرقاتهم وطبقاتهم. وهذا نقد ناقص لا يقنع به الادب العصري والثقافة الجديدة. فجاءت المقدمة متممة لهذا النقص، فسدت ثمة فوها. في الادب، وادت الى الشعراء والكتاب خدمة جلى في ما تشتمل عليه من اساليب النقد الصحيح، كما في كلامها على هوميروس، وتوصلها بالتحري والمعارضة والتحليل، الى اثبات شخصيته وصحة اسمه، وان الإلياذة لشاعر واحد لا جماعة من الشعراء. او في تحليلها اطوار الشعر العربي، فانه على ايجازه كان نواة صالحة لما نشأ بعده من التحليلات والابحاث. او في مقابلتها الادب العربية باداب اليونان، وبحثها في ضروب الشعر عند العرب والاعاجم، مما اعتمد عليه الادباء من بعد في كلامهم على الادب اليوناني، واغفال العباسيين نقله، وخلو الشعر العربي من الملاحم الطويلة، وغنى اللغة العربية بتراذفاتهم، وفقرها في الاعراب عن المعاني الخنيرية المستحدثة. وامتازت ابحاثها بالزاهة والاخلاص المجرد للعلم، فكانت عنوان النقد العادل لا تقيم العاطفة، ولا يغمره التعصب. فتلقت المقامات الادبية بالنظر العالي، واقبل عليها الكتاب ينهلون من فيض معينها ويتذوقون ما فيها من ادب طريف، على ما بهم من ظلم الى كل شيء جديد. ولم تقتصر مكانتها على الامصار العربية، بل جاوزتها الى اليونان، فعرف الجميع العلمي في ائينة قدرها، فاشار بترجمتها، وضمها الى الإياذة هوميروس. وحسبها منزلة ان تكون في الادب العربي فاتحة النقد الحديث.

الفهرست

صفحة	137-	صفحة
٢٥١ الكتاب المحدثون (عصر الانبعاث)		١ العرب في الاندلس
٢٥٥ الشيخ ابراهيم اليازجي		٢ لمحة تاريخية
٢٦٥ المنفلوطي		٢٧ الشعراء الاندلسيون
٢٨١ الخطابة		٧١ الموسوعات الاندلسية
٢٨٣ الصحافة		٩٣ الكتاب الاندلسيون
٢٩١ ولي الدين يكن		١١٣ عصر الاخطاط
٣٠٧ القصص		١١٤ لمحة تاريخية
٣٠٨ التمشيل		١١٨ الشعراء المحدثون (عصر الاخطاط)
٣١١ علوم اللغة		١٢٢ الكتاب المحدثون (عصر الاخطاط)
٣١٣ العلوم الشرعية		١٢٩ عصر الانبعاث
٣١٤ العلوم الدخيلة		١٣٠ لمحة تاريخية
٣١٥ الكتب الجامعة		١٥٣ الشعراء المحدثون (عصر الانبعاث)
٣١٦ التاريخ والرحلات		١٧٣ شوقي
٣١٧ الادب والادباء		
٣٢٠ سليمان البستاني		

البيسنانى، بطرس (المعلم)

ادباء العرب... حياتهم آثارهم نقد آثارهم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01069342

